أسرار البلاغة

تأليف

الإمام عبد القاهر الجرجاني

علق حواشيه
صاحب الفضيلة ، الأستاذ الكبير
أحمد مصطفى المراغي بك
أستاذ الشريعة الإسلامية واللغة العربية
بكلية دار العلوم (سابقا)

يطلب من المكتبة التجارية الكبرى بشارع محمد على بمصر
لصاحبها : مصطفى محمد

[الطبعة الأولى]
مطبعة الاستقامة بالقاهرة
١٣٦٧ - ١٩٤٨

al-Jurjānī, ʿAbd al-Qāhir

أسرار البلاغة

Asrār al-balāghah

تأليف

الإمام عبد القاهر الجرجاني

علق حواشيه

صاحب الفضيلة، الأستاذ الكبير

احمد مصطفى المراغي بك

أستاذ الشريعة الإسلامية واللغة العربية

بكلية دار العلوم (سابقا)

يطلب من المكتبة التجارية الكبرى بشارع محمد علي بمصر

لصاحبها: مصطفى محمد

[الطبعة الأولى]

مطبعة الاستقامة بالقاهرة

١٣٦٧ – ١٩٤٨

مراجع الكتاب

البيان والتبيين للجاحظ
الأمالى لأبى على القالى
الكامل للمبرد
رغبة الآمل شرح الكامل للمرصفى
الأغانى لأبى الفرج الأصبهانى
العقد الفريد لابن عبدربه
زهر الآداب للحصرى
الجواهر والملح للحصرى
يتيمة الدهر للثعالبي
القصر المبنى للباخرزى
الأمثال للميدانى
الصناعتين لأبى هلال العسكرى
سر الفصاحة لابن سنان الخفاجى
لسان العرب لابن منظور الأفريقى
القاموس المحيط للفيروزبادى
ديوان ابن المعتز
ديوان البحترى
ديوان أبى تمام
ديوان المتنبي
ديوان الحماسة لأبى تمام
كتاب سيبويه
شرح المغنى لابن هشام
المفتاح للسكاكى
شروح التلخيص
تعليقات الأستاذ الإمام على الكتاب

التعريف بعبد القاهر الجرجانى

هو أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجانى الإمام النحوى المتكلم على مذهب الأشعرى الفقيه الشافعى واضع أسس البلاغة والمشيد لأركانها ، وفاتح مغلق أبوابها ، وكاشف خبيئها ، وموضح مشكلاتها ، وعلى نهجه سار المؤلفون من بعده . ونهلوا من معينه ، واغترفوا من بحره ، وأتموا البنيان الذى وضع أسسه ، وقد استطاع ذلك بما آتاه الله من قريحة وقادة وعقل فياض وقلم سيال وفكر غواص على دقائق المعانى ، التى خفيت على غيره الأحقاب الطوال ، ومن ثم قال صاحب الطراز يحيى بن حمزة العلوى المتوفى سنة ٧٤٩ : إن عبد القاهر أول من أسس قواعد هذا العلم وأوضح براهينه ، ورتب أفانينه ، وفتح أزهاره من أكمامها ، وفتق أزراره بعد استبهامها بكتابيه دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة ، ولم أقف على شىء منهما مع شغفى بحبهما . وشدة إعجابى بهما ، إلا مانقله العلماء فى تعاليقهم منهما اه

(تواليفه) له فى علوم البلاغة كتابا أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز ، وفى علم النحو شرح الإيضاح لأبى الحسن بن أحمد الفارسى وسماه (المغنى) فى ثلاثين مجلداً ، واختصره بشرح سماه (المقتصد) فى ثلاثة مجلدات ، وإعجازا القرآن الكبير والصغير ، وكتاب الجمل ، والعوامل المائة ، وكتاب المفتاح ، وكتاب العمدة ، وهما فى التصريف ، وكتاب العروض ، والتلخيص وشرحه ، وتفسير الفاتحة فى مجلد

(شعره) دل التاريخ القديم والحديث على أنه قلما يؤتى أحد حظا وافراً فى النظيم والنثير معاً ، فنحن نرى فى عصرنا شوقيا الشاعر ليس كشوقى الكاتب ، وحافظا الكاتب لايدانى حافظا الشاعر ، والأمر بعينه فى نثر الجاحظ

وشعره ، وشعر عبد القاهر وكتابته ، فشعرهما إذا قيس بنثرهما كان ذا فى الثريا وذاك فى الثرى ، انظر إلى ما رواه الرواة لعبد القاهر من الشعر تحكم بصدق قضيتنا ، فمن ذلك قوله :

لا تأمن النفثة من شاعر ... مادام حيا سالما ناطقا
فإن من يمدحكم كاذباً ... يحسن أن يهجوكم صادقاً

وقوله :

كبِّر على العلم يا خليلى ... ومل إلى الجهل ميل هائم
وعش حماراً تعش سعيداً ... فالسعد فى طالع البهائم

(وفاته) المشهور أنه توفى سنة إحدى وسبعين وأربعمائة ، وقيل سنة أربع وسبعين .

نقلنا هذا من كتابنا (تاريخ علوم البلاغة والتعريف برجالها) الذى لم يطبع بعد .

أحمد مصطفى المراغى

مقدمة صاحب التعليقات

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمده جلت آلاؤه، ونصلى ونسلم على محمد وآله

وبعد: فقد أتاحت لى الفرص المواتية أن أدارس مع طلاب تخصص البلاغة بالأزهر الشريف كتاب أسرار البلاغة لعبدالقاهر الجرجانى، ذلكم المفرد العلم فى علوم البلاغة، ألفه فى فجر النهضة التأليفية فيها، حتى عده بعضهم أوّل واضعيها، وأوّل من تعهد غراسها، وألف كتباً مستقلة فيها، وقد جاء من بعده فوجدوا غرساً يانعا، فقطفوا ثماره وحذوا حذوه فى طرق البحث التى سلكها واقتبسوا المثل والشواهد التى ذكرها، ولا سيما أستاذهم أبو يعقوب يوسف السكاكى فى القسم الثالث من كتابه مفتاح العلوم، فقد نهج نهجه بعد أن صاغ كتابه الصوغ الذى رآه أقرب إلى الفهم فى عصره

بَيد أنى حين درست الكتاب وجدت غموضاً فى بعض مسائله، وإجمالا فى القول حين يحسن البسط والإطناب، إلى ترك الكثير من شواهده من نثير ونظيم دون أن يعزوها إلى قائليها اعتماداً منه على شهرتها فى عصره وحفظ الناس لها، فظن أن هذه الشهرة ستبقى فى العصور المقبلة، وأن الناس سيكونون على قسط وافر من حفظ الأدب والشعر كما هم فى عصره. ولكن أيهات أيهات، فقد أحسن الظن وأبعد المرمى.

وإن الناظر فى تعليقنا ليرى مقدار مابذلنا من الجهد فى إصلاح الكتاب لتوالى المسخ بمقدار ما توالى عليه من النسخ حتى أفسد المعنى فى كثير من المواضع وقد طبع الكتاب عدة طبعات، وقد كان فى هذا ما يصلح هذا النقص، ولكن العناية لم تتجه إلى ذلك لأن القائمين بهذا لم يكونوا من أهل الذكر فى هذه الفنون تخفى عليهم ذلك

من جراء هـذا شمرنا عن ساعد الجد ، ودأبنا على إتمام هـذا النقص ، ليكون الكتاب دانى القطوف لقارئيه ، فيجعلوه عمدتهم فى البحث ، ويهتدوا بمشكاة أنواره

وإنى لأرجو أن أكون قد وفقت فيما أردت ويريد القارئون ، وعلى الله التكلان ، ومنه الهداية لأقوم طريق ؟

أحمد مصطفى المراغى

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، وصلواته على سيدنا محمد النبي وآله أجمعين

اعلم أن الكلام هو الذى يعطى العلوم منازلها ، ويبين مراتبها ، ويكشف عن صورها ، ويجنى صنوف ثمرها ، ويدل على سرائرها ، ويبرز مكنون ضمائرها ، وبه أبان الله تعالى الإنسان من سائر الحيوان ، ونبه فيه على عظم الامتنان[١] ، فقال عز من قائل (الرحمن علم القرآن * خلق الإنسان علمه البيان) فلولاه لم تكن لتتعدى فوائد العلم عالمه ، ولا صح من العاقل أن يفتق عن أزاهير العقل كمائمه ، ولتعطلت قوى الخواطر والأفكار من معانيها ، واستوت القضية فى موجودها وفانيها ، نعم ولوقع[٢] الحى الحساس فى مرتبة الجماد ، ولكان الإدراك كالذى ينافيه من الأضداد ، ولبقيت القلوب مقفلة على ودائعها ، والمعانى مسجونة فى مواضعها ، ولصارت القرائح عن تصرفها معقولة ، والأذهان عن سلطانها معزولة ، ولما عرف كفر من إيمان ، وإساءة من إحسان ، ولما ظهر فرق بين مدح وتزيين ، وذم وتهجين ثم إن الوصف الخاص به ، والمعنى المثبت لنسبه ، أنه يريك المعلومات بأوصافها التى وجدها العلم عليها ، ويقرر كيفياتها[٣] التى تناولها[٤]

---

(١) امتن فلانا بلغ ممنونه وهو أقصى ماعنده ، وعلى فلان عدد له مافعله معه من الصنائع .

(٢) هو من قولهم وقع فى الشرك إذا حصل فيه .

(٣) الكيفية حال الشىء وصفته ، وهى من ألفاظ المتكلمين قالوها قياسا وليست بمسموعة

(٤) بحذف إحدى التاءين وأصلها تتناولها

المعرفة إذا سمت إليها

وإذا كان هـذا الوصف مقوِّمَ ذاته ، وأخصَّ صفاته ، كان أشرف أنواعه ما كان فيه أجلى وأظهر ، وبه أولى وأجدر ، ومن ههنا يبين للمحصل ويتقرر فى نفس المتأمل ، كيف ينبغى أن يحكم فى تفاضل الأقوال إذا أراد أن يقسم بينها حظوظها من الاستحسان ، ويعدل القسمة بصائب القسطاس والميزان ، ومن البين الجلى أن التباين فى هـذه الفضيلة ، والتباعد عنها إلى ماينافيها من الرذيلة ، ليس بمجرد اللفظ [١] كيف والألفاظ لاتفيد حتى تؤلف ضرباً خاصا من التأليف ، ويعمد بها إلى وجه دون وجه من التركيب والترتيب [٢] ، فلو أنك عمدت إلى بيت شعر أو فصل نثر فعددت كلماته عداً كيف جاء واتفق ، وأبطلت نضده [٣] ونظامه الذى عليه بنى ، وفيه أفرغ المعنى وأجرى ، وغيرت ترتيبه الذى بخصوصيته أفاد كما أفاد ، وبنسقه المخصوص أبان المراد ، نحو أن تقول فى (قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل) « منزل قفا ذكرى من نبك حبيب » أخرجته من كمال البيان إلى محال الهذيان ، نعم وأسقطت نسبته من صاحبه ، وقطعت الرحم بينه وبين منشئه بل أحلت أن يكون له إضافة إلى قائل ، ونسب يختص بمتكلم ، وفى ثبوت هذا الأصل ماتعلم به أن المعنى الذى له كانت هذه الكلم ، بيت شعر أوفصل خطاب ، هو ترتيبها على طريقة معلومة ، وحصولها على صورة من التأليف مخصوصة ، وهذا الحكم — أعنى الاختصاص فى الترتيب — يقع فى الألفاظ

(١) فى نسخة الألفاظ

(٢) أفاض فى شرح هذا فى دلائل الإعجاز فى مواضع عدّة

(٣) نضد المتاع من باب ضرب ضم بعضه إلى بعض متسقا مركوما ، وقد استعمله هنا مجازاً

مرتبا على المعانى المرتبة فى النفس ، المنتظمة فيها على قضية العقل ، ولن يتصور فى الألفاظ وجوب تقديم وتأخير ، وتخصيص فى ترتيب وتنزيل ، وعلى ذلك وضعت المراتب والمنازل فى الجمل المركبة ، وأقسام الكلام المدونة فقيل من حق هذا أن يسبق ذلك ، ومن حكم ماهاهنا أن يقع هنالك، كما قيل فى المبتدأ والخبر والمفعول والفاعل ، حتى حظر فى جنس من الكلم بعينه أن يقع إلا سابقاً ، وفى آخر أن يوجد إلا مبنيا على غيره وبه لاحقاً ، كقولنا إن الاستفهام له صدر الكلام ، وإن الصفة لا تتقدم على الموصوف إلا أن تزال عن الوصفية — إلى غيرها من الأحكام ، فإذا رأيت البصير بجواهر الكلام يستحسن شعراً ، أو يستجيد نثراً ، ثم يجعل الثناء عليه من حيث اللفظ فيقول : حلو رشيق . وحسن أنيق ، وعذب سائغ ، وخلوب رائع ، فاعلم أنه ليس ينبئك عن أحوال ترجع إلى أجراس الحروف[١] وإلى ظاهر الوضع اللغوى ، بل إلى أمر يقع من المرء فى فؤاده ، وفضل يقتدحه العقل من زناده .

وأما رجوع الاستحسان إلى اللفظ من غير شرك من المعنى فيه ، وكونه من أسبابه ودواعيه ، فلا يكاد يعدو نمطا واحداً ، وهو أن تكون اللفظة مما يتعارفه الناس فى استعمالهم ، ويتداولونه فى زمانهم ، ولا يكون وحشيا غريباً ، أو عاميا سخيفاً : سخفه[٢] بإزالته عن موضوع اللغة ، وإخراجه عما فرضته من الحكم والصفة ؛ كقول العامة « أشغلت »[٣] و« انفسد »[٤] وإنما

(١) واحدها جرس بفتح الجيم وكسرها وهو الصوت أو الخفى منه
(٢) بالضم كالسخافة
(٣) أشغله لغة جيدة أو قليلة أو رديئة
(٤) فسده وأفسده ضد أصلحه ولا يقال انفسد

شرطت هذا الشرط[١] فإنه ربما استسخف اللفظ بأمر يرجع إلى المعنى دون مجرد اللفظ كما يحكى من قول عبيدالله[٢] بن زياد لما دهش « افتحوا لى سيفى »[٣] وذلك أن الفتح خلاف الإغلاق فحقه أن يتناول شيئاً هو فى حكم المغلق والمسدود وليس السيف بمسدود ؛ وأقصى أحواله أن يكون كونه فى الغمد بمنزلة كون الثوب فى العكم[٤] والدرهم فى الكيس والمتاع فى الصندوق. والفتح فى هذا الجنس يتعدى أبداً إلى الوعاء المسدود على الشيء الحاوى له

(١) وهو أن يكون السخف آتيا من جهة إزالته عن وضع اللغة

(٢) كان والى البصرة وخراسان ، وكانت أمه مرجانة من أهل الأسوار وهى قرية من قرى أصبهان تزوجها أبوه من شيرويه الأسوارى ولهذا كانت فيه لكنة ، بعثه مرة أبوه إلى معاوية فقال له إن ابنك كما وصفت ولكن قوم من لسانه ، ولاه معاوية خراسان أولا بعد وفاة أبيه ٥٣ سنة وعمره ٢٥ سنة وقال : « استمسك الفسفاس (السيف الكهام) إن لم يقطع » ، ثم قال له « اتق الله ولا تؤثر على تقوى الله شيئا فإن فى تقواه عوضا ، وق عرضك من أن تدنسه ، وإذا أعطيت عهداً فف به ، ولا تبيعن كثيراً بقليل ، ولا تخرجن منك أمراً حتى تبرمه ، فإذا خرج فلا يردن عليك ... إلى آخر ما قال فى وصية طويلة - وعبيد الله هذا هو الذى شدد فى قتل الحسين وأرسل إليه جيشا حاصره حتى قتله ، وقد انتقم منه المختار بن أبى عبيد حين خرج طالبا بدم الحسين وهزم جيشه وقتله سنة ٦٧ ولأبى الأسود الدؤلى مدائح فى عبيد الله منها حين كساه جبة خز .

كسانى ولم أستكسه فحمدته ... أخ لك يعطيك الجميل وناصر
وإن أحق الناس إن كنت مادحا ... بمدحك من أعطاك والعرض وافر

(٣) رواية البيان والتبيين - قال مرة لجنده : افتحوا سيوفكم يريد سلوا سيوفكم فقال يزيد بن مفرغ الحميرى يهجوه

ويوم فتحت سيفك من بعيد ... أضعت وكل أمرك للضياع

وكلمة سويد بن منجوف فقال له اجلس على است الأرض ، فقال سويد ما كنت أحسب أن للأرض استا

(٤) بالكسر وهو الغرارة والجوالق

لا إلى مافيه فلا يقال : افتح الثوب ، وإنما يقال افتح العكم وأخرج الثوب وافتح الكيس

وههنا أقسام(١) قد يتوهم فى بدء الفكرة . وقبل إتمام العبرة أن الحسن والقبح فيها لا يتعدى اللفظ والجرس ، إلى ما يناجى فيه العقل والنفس ، ولها(٢) إذا حقق النظر مرجع إلى ذلك ، ومنصرف(٣) فيما هنالك ، منها التجنيس والحشو(٤)

فصل فى التجنيس

أما التجنيس فإنك لا تستحسن تجانس اللفظتين إلا إذا كان موقع معنييهما من العقل موقعاً حميداً ، ولم يكن مرمى الجامع بينهما مرمى بعيداً ، أتراك استضعفت تجنيس أبى تمام فى قوله(٥)

ذهبت بمذهبه السماحة فالتوت ... فيه الظنون أَمَذهب أم مُذهَبُ

---

(١) هذا اعتراض على ما فهم من كلامه أولا من أن الاستحسان والاستهجان إنما يكون للفظ حيث هو لفظ فى الغريب والعامى المزال عن وضع اللغة

(٢) هذا جواب الاعتراض وهو جواب بالمنع وأن الاستحسان إنما هو للفظ باعتبار المعنى

(٣) الظاهر منصرف لتعديه بفى

(٤) يريد بالحشو هنا الاعتراض لا ما سماه المتأخرون بالحشو لأن هذا مذموم أبداً ، أما ذاك فمنه الحسن ومنه القبيح

(٥) من قصيدة يمدح بها الحسن بن وهب ويصف غلاما أهداه إليه ومطلعها

لمكاسر الحسن بن وهب أطيب ... وأمر فى حنك الحسود وأعذب

المكاسر الأصول جمع مكسر ، ومذهب ومذهب كلاهما يقرأ بفتح الهاء والأولى بفتح الميم والثانية بضمها من أذهبه موهه بالذهب

واستحسنت تجنيس القائل « حتى نجا من خوفه وما نجا »[١] وقول المحدَث[٢]

ناظراه فيما جـنى ناظراه   أو دعانى أمت بما أو دعانى

— لأمر[٣] يرجع إلى اللفظ ؟ أم لأنك رأيت الفائدة ضعفت عن الأول وقويت فى الثانى ؟ ورأيتك لم يزدك بمذهب ومذهب على أن أسمعك حروفا مكررة ، تروم لها فائدة فلاتجدها إلا مجهولة منكرة ، ورأيت الآخر قد أعاد عليك اللفظة كأنه يخدعك عن الفائدة وقد أعطاها ، ويوهمك كأنه لم يزدك وقد أحسن الزيادة ووفاها ، فبهذه السريرة صار التجنيس — وخصوصاً المستوفى[٤] منه المتفق فى الصورة — من حلى الشعر ومذكوراً فى أقسام البديع .

فقد تبين لك أن ما يعطى التجنيسُ من الفضيلة أمر لم يتم إلا بنصرة المعنى إذ لو كان باللفظ وحده لما كان فيه مستحسن ، ولما وجد فيه إلا

---

(١) نجا : الأولى بمعنى أحدث ، والثانية بمعنى خلص ، قال الجاحظ فى الحيوان ومن الإيجاز قول الراجز ، وقد وصف سهمه حين رمى عيرا كيف صرعه (حتى نجا من جوفه ومانجا) وعلى هذه الرواية فضمير نجا الأولى للسهم والثانية للحمار ، وعلى رواية المصنف فكلا الضميرين للحمار . وأصل النجاء الانفصال من الشىء ، ومنه نجا فلان من فلان ، ومن الكناية نجا فلان ينجو إذا أحدث من ريح أوغائط

(٢) نسبه فى زهر الآداب إلى أبى الفتح البستى ونسبه فى اليتيمة إلى شمسويه البصرى ونسبه بعضهم إلى شداد بن ابراهيم الملقب بالطاهر المتوفى فى حدود الأربعمائة وهو شاعر مدح المهلب وزير معز الدولة وعضد الدولة ، وأيا كان هو فهما فى غلام يبيع الفرانى وقبله :

قلت للقلب مادهاك أجبنى   قال لى بائع الفرانى فرانى

والفرانى جمع الفرنى ، وهو خبز غليظ مستدير مضموم الجوانب إلى الوسط يروى سمنا ولبنا وسكراً ، ورواية العمدة لابن رشيق للبيت :

عارضاه فيما جنى عارضـاه   أودعانى أمت بما أودعانى

(٣) متعلق بقوله استضعفت واستحسنت

(٤) يريد بالمستوفى التام سواء أكان مماثلا أم ماسماه المتأخرون المستوفى

معيب مستهجن ، ولذلك ذم الاستكثار منه والولوع به . وذلك أن المعانى لاتدين فى كل موضع لما يجذبها التجنيس إليه ، إذ الألفاظ خَدَمُ المعانى والمصرّفة فى حكمها ، وكانت المعانى هى المالكة سياستها ، المستحقة طاعتها ، فمن نصر اللفظ على المعنى كان كمن أزال الشىء عن جهته ، وأحاله عن طبيعته ، وذلك مظنة الاستكراه ، وفيه فتح أبواب العيب والتعرض للشين ، ولهذه الحالة كان كلام المتقدمين الذين تركوا فضل العناية بالسجع ، ولزموا سجية الطبع ، أمكن فى العقول ، وأبعد من القلق ، وأوضح للمراد ، وأفضل عند ذوى التحصيل ، وأسلم من التفاوت وأكشف عن الأغراض ، وأنصر للجهة التى تنحو نحو العقل ، وأبعد من التعمل [١] الذى هو ضرب من الخِداع بالتزويق ، والرضى بأن تقع النقيصة فى نفس الصورة وذات الخِلْقة إذا أكثر فيها من الوشم والنقش ، وأثقل صاحبها بالحلى والوشى ، قياس الحلى على السيف الدَّدان [٢] والتوسع فى الدعوى بغير برهان ، كما قال [٣]

إذا لم تشاهد غير حسن شياتها [٤] وأعضائها فالحسن عنك مغيَّب

وقد تجد فى كلام المتأخرين الآن كلاماً حمل صاحبه فرط شغفه بأمور ترجع إلى ماله اسم فى البديع إلى أن ينسى أنه يتكلم ليفهم ، ويقول ليبين ، ويخيل إليه أنه إذا جمع بين أقسام البديع فى بيت فلا ضير أن يقع ما عناه

---

(١) المتباعد والاختلاف الظاهر التعمل أى التكلف .

(٢) بالفتح وهو الكليل الذى لايقطع فهو كالكهام لفظا ومعنى

(٣) أى المتنبي من قصيدة يمدح كافوراً أولها :

أغالب فيك الشوق والشوق أغلب وأعجب من ذا الهجر والوصل أعجب

(٤) وقبله فى وصف الخيل :

وما الخيل إلا كالصديق قليلة وإن كثرت فى عين من لايجرب

والشيات واحدها شية كعدة ، وهى كل لون يخالف معظم لونه الأصلى

فى عمياء ، وأن يوقع السامع من طلبه فى خبط عشواء ، وربما طمس بكثرة ما يتكلفه على المعنى وأفسده ، كمن ثقل العروس بأصناف الحلى حتى ينالها من ذلك مكروه فى نفسها . فإن أردت أن تعرف مثالا فيما ذكرت لك من أن العارفين بجواهر الكلام لا يعرجون على هذا الفن إلا بعد الثقة بسلامة المعنى وصحته ، وإلا حيث يأمنون جناية منه عليه ، وانتقاصاً له وتعويقاً دونه ، فانظر إلى خطب الجاحظ فى أوائل كتبه ، هذا ـ والخطب من شأنها أن يعتمد فيها الأوزان والأسجاع فإنها تروى وتتناقل تناقل الأشعار ، ومحلها محل النسيب والتشبيب[1] من الشعر الذى هو كأنه لايراد منه إلا الاحتفال فى الصنعة ، والدلالة على مقدار شوط[2] القريحة والإخبار عن فضل القوة والاقتدار على التفنن فى الصنعة . قال فى أول كتاب الحيوان :

« جنبك الله الشبهة ، وعصمك من الحيرة ، وجعل بينك وبين المعرفة سبباً ، وبين الصدق نسباً ، وحبب إليك التثبت ، وزين فى عينك الإنصاف وأذاقك حلاوة التقوى ، وأشعر قلبك عز الحق ، وأودع صدرك برد اليقين وطرد عنك ذل اليأس وعرفك ما فى الباطل من الزلة[3] ، وما فى الجهل من القلة »

فقد ترك أولا أن يوفق بين الشبهة والحيرة فى الإعراب ، ولم ير أن يقرن الخلاف إلى الإنصاف ، ويشفع الحق بالصدق ولم يعن بأن يطلب لليأس قرينة تصل جناحه ، وشيئاً يكون رديفا له ، لأنه رأى التوفيق بين المعانى أحق ، والموازنة فيها أحسن ، ورأى العناية بها حتى تكون أخوة

---

(١) النسيب والتشبيب وصف محاسن المرأة من قولهم نسب بالمرأة من بابى ضرب ونصر إذا ذكر محاسنها

(٢) هو الجرى مرة واحدة إلى غاية

(٣) الصواب الذلة بالذال لا بالزاى

من أب وأم ، ويذرها على ذلك تتفق بالوداد ؛ على حسب اتفاقها بالميلاد أولى من أن يدعها لنصرة السجع ، وطلب الوزن ، أولاد علة عسى ألا يوجد بينها وفاق إلا فى الظواهر ، فأمّا أن يتعدّى ذلك إلى الضمائر ، ويخلص إلى العقائد والسرائر ، ففى الأقل النادر .

وعلى الجملة فإنك لا تجد تجنيسا مقبولاً ، ولا سجعا حسنا ، حتى يكون المعنى هو الذى طلبه واستدعاه وساق [١] نحوه وحتى تجده لا تبتغى به بدلا ولا تجد عنه حولا ، ومن ههنا كان أحلى تجنيس تسمعه وأعلاه ، وأحقه بالحسن وأولاه . ماوقع من غير قصد من المتكلم إلى اجتلابه ، وتأهب لطلبه ، أو ماهو لحسن ملاءمته ـ وإن كان مطلوبا ـ بهذه المنزلة وفى هذه الصورة . وذلك كما يمثلون به أبداً من قول الشافعى رحمه الله تعالى ، وقد سئل عن النبيذ فقال [٢] : أجمع أهل الحرمين على تحريمه ، ومما تجده كذلك قول البحترى [٣]

يعشَى عن المجد الغبيُّ ولن ترى   فى سؤدُد أرَباً لغـــير أريب

وقوله [٤]

---

(١) يظهر أن الأصل وساقك نحوه

(٢) فى الصناعتين قال جل أمره عن المسألة أجمع الخ

(٣) من قصيدة يمدح بها ابن نوبخت أبا الفضل إسحاق بن اسماعيل ومطلعها :

كم بالكثيب من اعتراض كثيب   وقوام غصن فى الثياب رطيب

وقبله فلربما لبيت داعيـة الصبا   وعصيت من عذل ومن تأنيب

وعشا يعشو : ساء بصره بالليل والنهار

(٤) من قصيدة يمدح هيثم بن هرون بن المعمر ومطلعها

أمنك تأوب الطيف الطروب   حبيب جاء يهوى من حبيب

وقبله متى أحرزت نصر بنى عبيد   إلى إخلاص ود بنى حبيب

ومنها البيت الجارى مجرى المثل : ـــ

إذا ما الجرح رم على فساد   تبين فيـــه تفريط الطبيب

فقد أصبحت أغلب تغلبيا[١] على أيدى العشيرة والقلوب

ومما هو شبيه به قوله[٢]

وهوًى هوى بدموعه فتبادرت نسقا يطأن تجلداً مغلوبا

وقوله [٣]

مازلت تقرع باب بابل[٤] بالقنا وتزوره فى غارة شعواء

وقوله [٥]

ذهب الأعالى حيث تذهب مقلة فيـــه بناظرها حديد الأسفل

---

(١) الصواب تغلبى كما هى رواية الديوان وزهر الآداب

(٢) من قصيدة يمدح بها محمد بن يوسف الثغرى ومطلعها وهو قبله

حاشاك من ذكرى ثنته كئيبا وصبابة ملأت حشاه ندوبا

ونسق الدر نظمه والنسق الخرز المنظم وكذا المدر

(٣) من قصيدة يمدح بها محمد بن يوسف أيضاً وهو الذى هزم بابك الخرمى حين خرج على المعتصم ومطلعها :

زعم الغراب منبئ الأنباء أن الأحبة آذنوا بتناء

فاثلج ببرد الدمع صدراً واغراً وجوانحا مسحورة الرمضاء

وبعده حتى أخذت بنصل سيفك عنوة منه الذى أعيا على الأمراء

أخليت منه البـــذ وهى قراره ونصبته علما بســامراء

(٤) صوابه بابك

(٥) من قصيدة يمدح بها محمد بن على بن عيسى القمى الكاتب ويشكره على إهدائه له جواداً ومطلعها :

أهلا بذلكم الخيـــال المقبل فعل الذى تهواه أو لم يفعل

وقبله فى وصف الجواد

وأغر فى الزمن البهيم محجل قد رحت منه على أغر محجل

كالهيكل المبنى إلا أنه فى الحسن جاء كصورة فى هيكل

وافى الضلوع يشد عقد حزامه يوم اللقاء على معم مخول

ومثال ماجاء من السجع هذا المجيء وجرى هذا المجرى فى لين مقادته ، وحل هذا المحل من القبول قول القائل[١] : اللهم هب لى حمداً ، وهب لى مجداً ، فلا مجد إلا بفَعال[٢] ولا فَعال إلا بمال . وقول ابن العميد[٣] . فإن الإبقاء على خدم السلطان ، عِدل الإبقاء على ماله ، والإشفاق على حاشيته وحشمه ، عدل الإشفاق على ديناره ودرهمه .

ولست تجد هذا الضرب يكثر فى شيء ويستمر كثرته واستمراره فى كلام القدماء كقول خالد[٤] : ما الإنسان لولا اللسان إلا صورة ممثلة ، ***

(١) هو قيس بن سعد بن عبادة الخزرجى الأنصارى وكان سعد من الأجواد ، وقد كان مناديه يقول على أطمه من أراد خبزاً ولحما فليأت أطم سعد وخلفه قيس ابنه وكان يفعل كفعله ، فإذا أكل الناس رفع يديه إلى السماء ، وقال اللهم إنى لا أصلح على القليل ولا يصلح القليل لى ، اللهم هب لى حمداً ومجداً ، لأنه لا حمد إلا بفعال ، ولا مجد إلا بمال كذا فى البيان والتبيين ، ويكنى قيس أبا عبدالملك وهو صحابى جليل شجاع باسل تولى مصر لعلىّ بن أبى طالب فاحتال معاوية عليه حتى ظن به على الظنون وعزله وتوفى فى آخر عهد معاوية سنة ٦٠ هـ

(٢) والفعال بالفتح الكرم ويؤيده ما بعده . (٣) هو أبو الفضل محمد بن الحسين الملقب بالجاحظ الآخر وبالأستاذ وبالرئيس والمضروب به المثل فى البلاغة حتى قيل بدئت الكتابة بعبد الحميد وختمت بابن العميد توفى سنة ٣٦٠ هجرية

(٤) هو خالد بن صفوان بن عبدالله بن الأهتم كان خطيبا مبينا ولسنا بليغا وبخيلا مطلاقا وكان يقول ما من ليلة أحب إلىّ من ليلة قدطلقت فيها نسائى فأرجع والستور قد قلعت ، ومتاع البيت قدنقل فتبعث إلى ابنتى بسليلة فيها طعامى وتبعث إلى الأخرى بفراش أنام عليه . أوفده يوسف بن عمر إلى هشام بن عبد الملك فخطبه خطبة طويلة وعظه بها فبكى حتى اخضلت لحيته وعاش حتى عهد أبى العباس السفاح وكان من سماره وأهل المنزلة عنده ، ففخر عليه ناس من بلحرث بن كعب وأكثروا فى القول فقال أبو العباس لم لاتتكلم يا خالد ، فقال أخوال أمير المؤمنين وعصبته ، قال فأنتم أعمام أمير المؤمنين وعصبته ، قال خالد وما عسى أن أقول لقوم كانوا بين ناسج برد ودابغ =

وبهيمة مهملة . وقول الفضل [١] بن عيسى الرّقاشى : سل الأرض فقل من شق أنهارك ، وغرس أشجارك ، وجنى ثمارك ، فإن لم تجبك حواراً أجابتك اعتباراً .

وإن أنت تتبعته من الأثر وكلام النبى صلى الله عليه وسلم ، تثق كل الثقة بوجودك له على الصفة التى قدمت ، وذلك كقول النبى عليه السلام « الظلم ظلمات يوم القيامة » وقوله صلوات الله عليه « لا تزال أمتى بخير ما لم تر الفئ مغنما ، والصدقة مغرما » وقوله « يا أيها الناس أفشوا السلام ، وأطعموا الطعام ، وصلوا الأرحام ، وصلوا بالليل والناس نيام ، تدخلوا الجنة بسلام » فأنت لا تجد فى جميع ما ذكرت لفظا اجتلب من أجل السجع ، وترك له ما هو أحق بالمعنى منه وأبرّ به ، وأهدى إلى مذهبه ، ولذلك أنكر الأعرابى حين

= جلد وسائس قرد وراكب عرد (الحمار) دل عليهم هدهد ، وغرقتهم فأرة وملكتهم امرأة ، قال الجاحظ بعد أن ساق هذا فلئن كان خالد قد فكر وتدبر هذا الكلام إنه للراوية الحافظ والمؤلف المجيد ، ولئن كان هذا شيئا حضره حين حُرك وبسط ، فماله نظير فى الدنيا ، فتأمل هذا الكلام فإنك ستجده مليحا مقبولا وعظيم القدر جليلا ، ولو خطب اليمانى بلسان سحبان وائل حولا كريتا ثم صك بهذه الفقرة ما قامت له قائمة ، وقال الجاحظ فى موضع آخر : ومن البلغاء اللحانين خالد بن عبد الله القسرى وخالد ابن صفوان الأهتمى المتوفى سنة ١٣٣ هجرية

(١) هو الفضل بن عبد الصمد مولى رقاش شاعر ناثر شجاع قصاص نبق الكلام ، اختص بالبرامكة ، واستظل برفدهم ورثاهم بعد نكبتهم وعرض نفسه لجسيم المخاطر وكان بينه وبين أبى نواس منافرات ومناقضات ، وقد قيل له : لم تؤثر المسجوع على المنثور وتلزم نفسك القوافى وإقامة الوزن . قال : لأن الحفظ إليه أسرع ، والآذان لسماعه أنشط ، وهو أحق بالتقييد وبقلة التلفت ، وما تكلمت به العرب من جيد المنثور أكثر مما تكلمت به من جيد الموزون ، فلم يحفظ من المنثور عشره ، ولا ضاع من الموزون عشره

شكا إلى عامل ألما(١) بقوله « حلأت ركابى(٢) وشققت ثيابى ، وضربت صحابى . فقال له العامل ! ويسجع(٣) أيضا ، إنكار(٤) العامل السجع ، حتى قال : فكيف أقول ؟ وذاك أنه لم يعلم أصلح لما أراد من هذه الألفاظ ، ولم يره بالسجع مخلا بمعنى ، أو محدثا فى الكلام استكراها ، أو خارجا إلى تكلف ، واستعمال لما ليس بمعتاد فى غرضه . وقال الجاحظ : لأنه لو قال حلأت إبلى أو جمالى أو نوقى أو بعرانى أو صرمتى(٥) لكان لم يعبر عن خفى معناه ، وإنما حلئت ركابه فكيف يدع الركاب إلى غير الركاب ؟ وكذلك قوله : وشققت ثيابى وضربت صحابى .

فقد تبين من هذه الجملة أن المعنى المقتضى اختصاص هذا النحو بالقبول هو أن المتكلم لم يقد المعنى نحو التجنيس والسجع ؛ بل قاده المعنى إليهما ، وعبر به الفرق(٦) عليهما حتى إنه لو رام تركهما إلى خلافهما بما لا تجنيس فيه ولاسجع لدخل من عقوق المعنى وإدخال الوحشة عليه فى شبيه بما ينسب إليه المتكلف للتجنيس المستكره ، والسجع النافر .

ولن تجد أيمن طائراً ، وأحسن أولا وآخراً ، وأهدى إلى الإحسان ، وأجلب للاستحسان ، من أن ترسل المعانى على سجيتها وتدعها تطلب لأنفسها

---

(١) صوابه عامل الماء

(٢) العبارة فى البيان هكذا حلبت ركابى ، وحرقت ثيابى ، وضربت صحابى ومنعت إبلى من الماء والكلأ

(٣) فى البيان : أو سجع أيضا

(٤) مفعول أنكر

(٥) بالكسر مابين العشرين إلى الثلاثين

(٦) الفرق بالتحريك الخوف

الألفاظ . فإنها إذا تركت وما تريد لم تكتس إلا ما يليق بها ، ولم تلبس من المعارض إلا ما يزينها [١] فأما أن تضع فى نفسك أنه لابد من أن تجنس أو تسجع بلفظين مخصوصين فهو الذى أنت منه بعُرْض [٢] الاستكراه ؛ وعلى خطر من الخطأ والوقوع فى الذم ، فإن ساعدك الجدُّ كما ساعد فى قوله « أودعانى أمت بما أودعانى » وكما ساعد أبا تمام فى نحو قوله [٣]

وأنجدتم من بعد إتهام داركم فيا دمع أنجدنى على ساكنى نجد

وقوله [٤]

هنَّ الحمام فإن كسرت عيافة [٥] من حائهن فإنهن حِمام

---

(١) المعارض واحدها: معرض كمنبر: ثوب تجلى فيه العروس ليلة العرس

(٢) يقال نظر إليه عن عرض بالسكون وعن عرض بالفتح أى من جانب

(٣) من قصيدة يمدح بها موسى بن ابراهيم الرافقى ويعتذر إليه ومطلعها :

شهدت لقد أقوت مغانيكم بعدى ومحت كما محت وشائع من برد

أقوت : خلت والمغانى جمع مغنى وهو المنزل والوشائع الغزل الملفوف والبرد الثوب ، وأنجدتم ارتفعتم والإتهام الانخفاض

(٤) من قصيدة يمدح بها المأمون ومطلعها :

دمن ألم بها فقال سلام كم حل عقدة صبره الإلمام

وقبله فى وصف الحمامة :

أتحدرت عبرات عينك أن دعت ورقاء حين تضعضع الإظلام

لاتشجين لها فإن بكاءها ضحك وإن بكاءك استغرام

قال فى الصناعتين : فمن ذا الذى يجهل أن الحمام إذا كسرت حاؤها صارت حماما وهذا رأى من ادعى برودة هذا المعنى ، وعندى أن معناه أنك إذا أردت الزجر والعيافة أداك الحمام إلى الحمام ، كما أن صوتها الذى يظن أنه بكاء إنما هو طرب ويؤديك إلى البكاء الحقيقى ؛ إلا أن هذا معنى كالمعمى والتعمية حيث يراد المعنى عى اه ومن هذا تعلم أن الجد لم يساعده كما قال المصنف

(٥) عفت الطير زجرتها ، وهو أن تعتبر بأسمائها ومساقطها وأصواتها فتتسعد أو تتشاءم

فذاك ؛ وإلا أطلقت ألسنة العيب ، وأفضى بك طلب الإحسان من حيث لم يحسن الطلب ، إلى أفحش الإساءة وأكبر الذنب ، ووقعت فيما ترى ، من ينصرك لايرى أحسن من ألا يرويه لك ، ويود لوقدر على نفيه عنك ، وذلك كما تجده لأبي تمام إذ أسلم نفسه للتكلف ، ويرى أنه إن مر على اسم موضع يحتاج إلى ذكره ، أو يتصل بقصة يذكرها فى شعره ، من دون أن يشتق منه تجنيساً ، أو يعمل فيه بديعاً ، فقد باء بإثم ، وأخل بفرض حتم ، من نحو قوله:[١]

سـيف الأنام الذى سمته هيبته — لـما تخـرّم أهل الأرض مُختَرِما
إن الخليفة لما صال كنت له — خليفة الموت فيمن جار أو ظلما
قرّت بقُرّان عين الدين واشترت[٢] — بالأشترَين عيون الشرك فاصطُلما

وكقول بعض المتأخرين[٣]

البس جلابيب القنـا — عة إنهـا أوقى رداء
ينجيك من داء الحريـ — ـص معاً ومن أوقار داء[٤]

---

(١) من قصيدة يمدح إسحاق بن إبراهيم المصعبي قائد المتوكل ومطلعها :
أصغى إلى البين مغتراً فلا جرما — إن النوى أسارت فى عقله لمما
ورواية الديوان وهى الصواب
سيف الإمام الذى سمته هيبته — لما تخرم أهل الشرك مخترما
(٢) الشتر : انقلاب الجفن من أعلى وأسفل واسترخاؤه ، وقران بالضم وتشديد الراء ، والأشتران موضعان ، قال فى الموازنة فانشتار عيون الشرك فى غاية الفثاثة والقباحة ، وأيضا فانشتار العين ليس بموجب للاصطلام وهو القطع من أصله
(٣) هو عمر بن على المطوعى من أدباء القرن الرابع
(٤) والأوقار جمع وقر بالفتح وهو الحمل الثقيل

وكقول أبى الفتح البُستى[١]

جفوا فما فى طينهم للذى　　يعصره من بلة بلّه[٢]

وقوله : أخ لى لفظه در　　وكل فعاله بر

تلقانى فحيانى　　بوجه بَشْره بِشْر[٣]

لم يساعدهما حسن التوفيق كما ساعد فى نحو قوله :

وكل غنى يتيه به غنى　　فمرتجع بموت أو زوال

وهب جدى طوى لى الأرض طراً　　أليس الموت يزوى ما زوى لى[٤]

ونحوه : منزلتى تحفظ من ذلتى　　وباحتى تكرم ديباجتى[٥]

واعلم أن النكتة التى ذكرتها فى التجنيس وجعلتها العلة فى استيجابه

---

(١) بست بلدة بسجستان وهو على بن محمد البستى الكاتب الشاعر صاحب التجنيس البديع المتوفى سنة ٤٠٠ والقطعة هى —

لله نيسابور من حله　　ما مثلها دار ولا حله

للخير والمير بها كثرة　　للشر والضير بها قله

فيها كرام سادة جلة　　سادوا على السادة والجله

ما عيبها إلا بعمالها　　فالبخل والمنع لهم مله

جفوا فما طينهم للذى　　يعصره من بلة بله

فهذه أولى خطابى لهم　　وبعدها ماتهتك الكله

(٢) البلة بالكسر الندوة والخير والرزق ووقوع اللسان على مخارج الحروف يقال ما أحسن بلة لسانه إذا كان طلقا فصيحا وبلّه الثانية يريد بها بالله أى والله

(٣) البشر بالتحريك جمع بشرة وهى ظاهر الجلد وسكون الشين للضرورة

(٤) زوى الأولى بمعنى فرق والثانية بمعنى جمع

(٥) وقبله : دعني فلن أخلق ديباجتى　　ولست أبدى للورى حاجتى

علىّ أن ألزم بيتى وأن　　أرضى بما يحضر من باجتى

وقوله باحتى صوابه باجتى وهى تخفيف الباجة وهى ألوان الطعام والديباجة الوجه

الفضيلة وهى حسن الإفادة، مع أن الصورة صورة التكرير والإعادة، وإن كانت لا تظهر الظهور التام الذى لا يمكن دفعه إلا فى المستوفى[١] المتفق الصورة منه كقوله[٢]

مامات من كرم الزمان فإنه   يحيا لدى يحيى بن عبدالله

أو المرفو[٣] الجارى هذا المجرى كقوله « أو دعانى أمت بما أودعانى » فقد[٤] يتصور فى غير ذلك من أقسامه أيضا.

فما يظهر ذلك فيه ما كان نحو[٥] قول أبى تمام[٦]

يمدون من أيد عواص عواصم   تصول بأسياف قواض قواضب[٧]

---

(١) المستوفى : ما كان اللفظان فيه من نوعين كاسم وفعل

(٢) أى أبى تمام يمدح أبا الغريب يحيى بن عبد الله وقد كتبها إليه مع أخيه سهم ليصله ومطلعها : —

إحدى بنى بكر بن عبد مناه   بين الكثيب الفرد فالأمواه

وقبله : مهد لألطاف الثناء إلى فتى   كالبدر لاصلف ولا تياه

لأبى الغريب غرائباً من مدحه   فى غير تعقيد ولا استكراه

وبعده : كالسيف ليس بزمّل شهدارة   يوما ولا بغضبة جياه

الزمل الجبان والشهدارة الغليظ والغضبة كثير الغضب، والجياه الذى يلقى الناس بما تكره

(٣) هو ماكان مركبا من كلمة وبعض كلمة

(٤) جواب وإن كانت أى النكتة

(٥) يسمى هذا بالجناس المطرف وهو نوع من الجناس الناقص

(٦) يمدح أبادلف القاسم بن عيسى العجلى قائد المأمون والمعتصم ومطلعها :

على مثلها من أربع وملاعب   أذيلت مصونات الدموع السواكب

وقبله : جحافل لايتركن ذاجبرية   سليما ولا يحربن من لم يحارب

(٧) العواصى جمع عاصية من عصاه يعصوه ضربه بالعصا، وعواصم من عصمه إذا حفظه وقواض حاكمات بالقتل وقواضب قاطعات

وقول البحترى[١]

لئن صــدفت عنا فرُبَّتَ أنفسٍ صوادٍ إلى تلك الوجوه الصوادف

وذلك أنك تتوهم قبل أن يرد عليك آخر الكلمة كالميم من عواصم والباء من قواضب أنها هى التى مضت وقد أرادت أن تجيئك ثانية ، وتعود إليك مؤكدة ، حتى إذا تمكن فى نفسك تمامها ؛ ووعى سمعك آخرها ، انصرفت عن ظنك الأول ، وزلت عن الذى سبق من التخيل ، وفى ذلك ماذكرت لك من طلوع الفائدة بعد أن يخالطك اليأس منها ، وحصول الربح بعد أن تغالط فيه حتى ترى أنه رأس المال.

فأما مايقع التجانس فيه على العكس من هذا[٢] وذلك أن تختلف الكلمات من أولها كقول البحترى[٣]

بسيوف إيماضها أوجال للأعادى ووقعها آجال[٤]

وكذا قول المتأخر[٥]

وكم سبقت منه إلىَّ عوارف ثنائى من تلك العوارف وارف[٦]
وكم غرر من بره ولطائف لشكرى[٧] على تلك اللطائف طائف

---

(١) يمدح إسحاق بن يعقوب من قصيدة مطلعها :

إلى أى سر فى الهوى لم أخالف وأى غرام عنده لم أصادف

وقبله : إذا مالقيناهن والشيب شفعنا تغابين أو كلنا بالسوالف

(٢) ويسمى هذا بالجناس المضارع

(٣) لم أجده فى الديوان

(٤) الأوجال جمع وجل وهو الخوف

(٥) هو أبو حفص عمر بن المطوعى

(٦) العوارف جمع عارفة وهى المعروف والعطية ، والوارف الممتد الطويل

(٧) فى معاهد التنصيص : فشكرى

وذاك أن زيادة عوارف على وارف بحرف اختلاف من مبدإ الكلمة في الجملة فإنه[١] لا يبعد كل البعد عن اعتراض طرف من هذا التخيل فيه وإن كان لا يقوى تلك القوة كأنك ترى أن اللفظة أعيدت عليك مبدلا من بعض حروفها غيره أو محذوفا منها . ويبقى في تتبع هذا الموضع كلام[٢] حقه غير هذا الفصل وذلك حيث يوضع .

فالذي يجب عليه الاعتماد في هذا الفن أن التوهم على ضربين ضرب يستحكم حتى يبلغ أن يصير اعتقاداً ، وضرب لا يبلغ ذلك المبلغ ولكنه شيء يجري في الخاطر ، وأنت تعرف ذلك وتتصور وزنه إذا نظرت إلى الفرق بين الشيئين يشتبهان الشبه التام ، والشيئين يشبه أحدهما بالآخر على ضرب من التقريب فاعرفه .

* * *

وأما الحشو[٣] فإنما كره وذم ، وأنكر ورد ، لأنه خلا من الفائدة ، ولم يَحْلَ[٤] منه بعائدة ولو أفاد لم يكن حشواً ، ولم يُدعَ لغواً ، وقد تراه مع إطلاق هذا الاسم عليه واقعاً من القبول أحسن موقع ، ومدركا من الرضى أجزل حظ ، ذاك لإفادته إياك على مجيئه مجيء ما لا يعول في الإفادة عليه ، ولا طائل للسامع لديه ، فيكون مثله مثل الحسنة تأتيك من حيث لم ترقبها والنافلة أتتك ولم تحتسبها ، وربما رزق الطفيلي ظَرْفاً يحظى به حتى يحل محل الأضياف الذين وقع الاحتشاد[٥] لهم ، والأحباب الذين وثق بالأنس منهم وبهم :

---

(١) جواب فأما (٢) لعله يريد : متى يحسن استعمال البديع ومتى لا يحسن

(٣) يريد بالحشو هنا الاعتراض (٤) حلي منه بخير وحلا أصاب خيراً

(٥) احتشد لنا في الضيافة إذا اجتهد وبلغ ما في وسعه

فصل فى التطبيق والاستعارة

وأما التطبيق والاستعارة وسائر أقسام البديع فلا شبهة أن الحسن والقبح لايعترض الكلام بهما إلا من جهة المعانى خاصة من غير أن يكون للألفاظ فى ذلك نصيب ، أو يكون لها فى التحسين أو خلاف التحسين تصعيد وتصويب .[1]

أما الاستعارة فهى ضرب من التشبيه ، ونمط من التمثيل ، والتشبيه قياس ، والقياس يجرى فيما تعيه القلوب ، وتدركه العقول ، وتستفتى فيه الأفهام والأذهان ، لا الأسماع والآذان .

وأما التطبيق فأمره أبين ، وكونه معنويا أجلى وأظهر ، فهو مقابلة الشىء بضده ، والتضاد بين الألفاظ المركبة محال ، وليس لأحكام المقابلة ثمَّ مجال

نخذ[2] إليك الآن بيت الفرزدق الذى يضرب به المثل فى تعسف اللفظ

وما مثله فى الناس إلا مملكا أبو أمه حى أبوه يقاربه

فانظر أتتصور أن يكون ذلك للفظه من حيث إنك أنكرت شيئاً من حروفه ، أوصادفت وحشيا غريباً ، أو سوقيا[3] ضعيفا ؟ أم ليس إلا لأنه لم يرتب الألفاظ فى الذكر ، على موجب ترتيب المعانى فى الفكر ؟ فكد وكدر ، ومنع السامع أن يفهم الغرض إلا بأن يقدم ويؤخر ، ثم أسرف فى إبطال النظام ، وإبعاد المرام ، وصار كمن رمى بأجزاء تتألف منها صورة ،

---

(١) صوب تصويبا انحدر ضد صعد ، يقال صعد فيه النظر وصوبه ، أى نظر إلى أعلاه وأسفله يتأمله (٢) هذا مرتبط بقوله قبل ومن البين الجلى فهو رجوع إلى أول الكلام أو أنه تنظير لما فهم مما سبق من أن البديع راجع إلى المعانى فكذلك بلاغة النظم راجعة إليها أيضاً

(٣) السوق واحد السوقيين ، وهم أهل السوق ، والسوقة الرعية للواحد والجمع والمذكر والمؤنث

ولكن بعد أن يراجع فيها باباً من الهندسة ، لفرط ما عادى بين أشكالها ، وشدة ما خالف بين أوضاعها .

وإذا وجدت ذلك أمراً بيناً لا يعارضك فيه شك ، ولا يملكك معه امتراء ، فانظر إلى الأشعار التي أثنوا عليها من جهة الألفاظ ، ووصفوها بالسلاسة ، ونسبوها إلى الدماثة [1] ، وقالوا كأنها الماء جريانا ، والهواء لطفا ، والرياض حسناً ، وكأنها الرحيق مزاجها التسنيم [2] ، وكأنها الديباج الخسرواني [3] في مرامى الأبصار ، ووشى اليمن منشوراً على أذرع التجار [4] ، كقوله : [5]

ولما قضينا من مِنى كل حاجة ومسح بالأركان من هو ماسح
وشدت على [6] دهم المهارى رحالنا ولم ينظر الغادى الذى هو رائح
أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا وسالت بأعناق المطى الأباطح

ثم راجع فكرتك ، واشحذ بصيرتك ، وأحسن التأمل ، ودع عنك التجوز في الرأى ، ثم انظر هل تجد لاستحسانهم [7] وحمدهم وثنائهم ومدحهم

(١) الدماثة السهولة

(٢) التسنيم ماء في الجنة يجرى فوق الغرف

(٣) نوع من الثياب ، منسوب إلى خسرواية : قرية بواسط

(٤) تاجر يجمع على تجار ، على وزن فعال ، وتجار بزنة فعال بالكسر والتخفيف

(٥) أى كثير عزة ، ونسبها صاحب الوساطة إلى يزيد بن الطثرية

(٦) الدهم جمع أدهم ، وهو من الخيل والإبل الشديد الورقة حتى يذهب البياض والمهارى جمع مهرى ، منسوب إلى مهرة بن حيدان ، وقيل إلى بلد ، وراح خلاف غدا أى جاء في الغداة وذهب في الرواح أى العشى ، ويستعمل لمطلق الذهاب كما هنا ، والأباطح جمع أبطح ، وهو مسيل واسع فيه دقاق حصى

(٧) نقد هذه الأبيات صاحب الصناعتين فقال : ليس تحت هذه الألفاظ كبير معنى وهى رائقة معجبة وإنما هى ، ولما قضينا الحج ومسحنا الأركان ، وشدت

منصرَفا إلا إلى استعارة وقعت موقعها ، وأصابت غرضها ، أوحسن ترتيب تـكامل معه البيان حتى وصل المعنى إلى القلب ، مع وصول اللفظ إلى السمع ، واستقر فى الفهم مع وقوع العبارة فى الأذن ، وإلا إلى سلامة الـكلام من الحشو غير المفيد ، والفضل الذى هو كالزيادة فى التحديد ، وشىء[1] داخل المعانى المقصودة مداخلة الطفيلى الذى يستثقل مكانه والأجنبى الذى يكره حضوره ، وسلامته من التقصير الذى يفتقر معه السامع إلى تطلب زيادة بقيت فى نفس المتـكلم فلم يدل عليها بلفظها الخاص بها ، واعتمد دليل حال غير مفصح ، أو نيابة مذكور ليس لتلك النيابة بمستصلح ، وذلك أن أول مايتلقاك من محاسن هذا الشعر أنه قال « ولما قضينا من منى كل حاجة » فعبر عن قضاء المناسك بأجمعها ، والخروج من فروضها وسننها ، من طريق أمكنه أن يقصر معه اللفظ وهو طريقة العموم . ثم نبه بقوله :

« ومسح بالأركان من هو ماسح » على طواف الوداع الذى هو آخر الأمر ، ودليل المسير الذى هو مقصوده من الشعر ، ثم قال :

= رحالنا على مهازيل الإبل ، ولم ينتظر بعضنا بعضا ، جعلنا نتحدث وتسير بنا الإبل فى بطون الأودية ، ومن قبله فعل ذلك ابن قتيبة فى كتاب الشعر والشعراء إذ قال : وضرب من الشعر حسن لفظه وحلا ، فإذا أنت فتشته لم تجدهناك طائلا كقول القائل (وذكر الأبيات) ثم قال فهذه الألفاظ أحسن شىء مطالع ومخارج ومقاطع ، فإذا نظرت إلى ماتحتها وجدته — ولما قضينا أيام منى ، واستلمنا الأركان ، وعالينا إبلنا الانضاء ، ومضى الناس لاينظر من غدا أو راح ، ابتدأنا فى الحديث وسارت المطى فى الأبطح — وهـذا الصنف فى الشعر كثير — وقد أطال ابن جنى فى الرد عليهما فى كتابه الخصائص بقريب مما قاله المصنف ، وبعد هذه الأبيات :

نقعنا قلوباً بالأحاديث واشتفت بذاك صـدور منضجات قرائح
ولم نخش ريب الدهر فى كل حالة ولا راعنا منه سنيح وبارح

(١) معطوف على الحشو غير المفيد

« أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا » فوصل بذكر مسح الأركان ، ماوليه من زم[١] الركاب وركوب الركبان ، ثم دل بلفظة الأطراف على الصفة التى يختص بها الرفاق فى السفر من التصرف فى فنون القول وشجون الحديث ، أو ما هو عادة المتطرفين من الإشارة والتلويح والرمز والإيماء ، وأنبأ بذلك عن طيب النفوس ، وقوة النشاط ، وفضل الاغتباط ، كما توجبه ألفة الأصحاب ، وأنسة[٢] الأحباب ، وكما يليق بحال من وفق لقضاء العبادة الشريفة ورجا حسن الإياب ، وتنسم روائح الأحبة والأوطان ، واستماع التهانى والتحايا من الخلان والإخوان ، ثم زان ذلك كله باستعارة لطيفة طبق[٣] فيها مفصل التشبيه ، وأفاد كثيراً من الفوائد بلطف الوحى والتنبيه ، فصرح أولا بما أومأ إليه فى الأخذ بأطراف الأحاديث من أنهم تنازعوا أحاديثهم على ظهور الرواحل ، وفى حال التوجه إلى المنازل ، وأخبر بعد بسرعة السير ، ووطأة[٤] الظهر ، إذ جعل سلاسة سيرها بهم كالماء تسيل به الأباطح ، وكان فى ذلك مايؤكد ماقبله ؛ لأن الظهور إذا كانت وطيئة وكان سيرها السير السهل السريع ، زاد ذلك فى نشاط الركبان ، ومع ازدياد النشاط يزداد الحديث طيباً . ثم قال « بأعناق المطى » ولم يقل بالمطى ، لأن السرعة والبطء يظهران غالباً فى أعناقها ، ويبين أمرهما من هواديها[٥] وصدورها وسائر

(١) زم الإبل وضع فيها الزمام ، أى الخطام والركاب الإبل واحدتها راحلة والجمع ركب وركابات وركائب

(٢) أنس بهوإليه أنسا وأنسة من أبواب نصر وضرب وعلم ألفه وسكن قلبه به والأنس بالضم والأنسة ضد الوحشة

(٣) طبق السيف المفصل أصابه وهو مثل

(٤) الوطاءة السهولة واللين

(٥) جمع هاد وهو العنق

أجزائها تستند إليها فى الحركة ، وتتبعها فى الثقل والخفة . ويعبر عن المرح والنشاط إذا كانا فى أنفسها بأفاعيل لها خاصة فى العنق والرأس . ويدل عليهما بشمائل[١] مخصوصة فى المقاديم[٢] .

فقل الآن هل بقيت عليك حسنة تحيل فيها على لفظة من ألفاظها ، حتى إن فضل الحسنة يبقى لتلك اللفظة ولو ذكرت على الانفراد وأزيلت عن موقعها من نظم الشاعر ونسجه وتأليفه وترصيفه ، وحتى تكون فى ذلك كالجوهرة التى هى – وإن ازدادت حسنا بمصاحبة أخواتها ، واكتست رونقاً بمضامة أترابها – فإنها إذا جليت للعين فردة ، وتركت فى الخيط فذة ، لم تعدم الفضيلة الذاتية ، والبهجة التى فى ذاتها مطوية ، والشذرة من الذهب تراها بصحبة الجواهر لها فى القلادة ، واكتنافها لها فى عنق الغادة ، وصلتها بريق حمرتها ، والتهاب جوهرها ، بأنوار تلك الدرر التى تجاورها ، ولألاء اللآلىء التى تناظرها ، تزداد جمالا فى العين ، ولطف موقع من حقيقة الزين ، ثم هى إن حرمت صحبة تلك العقائل وفرق الدهر الخئون بينها وبين هاتيك النفائس . لم تعر من بهجتها الأصلية ، ولم تذهب عنها فضيلة الذهبية ، كلا ليس هذا بقياس الشعر الموصوف بحسن اللفظ ، وإن كان لايبعد أن يتخيله من لاينعم النظر ، ولايتم التدبر ، بل حق هذا المثل أن يوضع فى نصرة بعض المعانى الحكمية والتشبيهية بعضاً وازدياد الحسن منها بأن يجامع

(١) جمع شمال بالكسر وهى الطبع وضد اليمين مؤنثة ، يقال ليس من شمالى أن أعمل بشمالى أى ليس من طبعى العمل باليد اليسرى

(٢) جمع مقدم العين بضم الميم وسكون القاف وكسر الدال وبتحريك القاف وتشديد الدال مفتوحة وهو مايلى الأنف ومن الوجه ما استقبلت منه

(٣) القطعة من الذهب مخلوطة بالتراب

شكل منها شكلا وأن يصل الذكر بين متدانيات فى ولادة العقول إياها .
ومتجاورات فى تنزيل الإفهام لها

واعلم أن هذه الفصول التى قدمتها وإن كانت قضايا لايكاد يخالف فيها من به طِرْق[1] فإنه قد يذكر الأمر المتفق عليه ، ليبنى عليه المختلف فيه ، هذا ورب وفاق من موافق قد بقيت عليه زيادات أغفل النظر فيها ، وضروب من التلخيص والتهذيب لم يبحث عن أوائلها وثوانيها . وطريقة فى العبارة عن المغزى فى تلك الموافقة لم يمهدها ، ودقيقة فى الكشف عن الحجة على مخالف — لو عرض من المتكلفين — لم يجدها ، حتى تراه يطلق فى عُرْض كلامه مابرز منه وفاقا فى معرِض خلاف ، ويعطيك إنكاراً وقدهم باعتراف ، ورب صديق والاك قلبه وعاداك فعله ، فتركك مكدوداً لاتشتفى من دائك بعلاج ، وتبقى منه فى سوء مزاج[2]

المقصد

واعلم أن غرضى فى هذا الكلام الذى ابتدأته ، والأساس الذى وضعته أن أتوصل إلى بيان أمر المعانى كيف تتفق وتختلف ومن أين تجتمع وتفترق ، وأفصل أجناسها وأنواعها ، وأتتبع خاصها ومشاعها ، وأبين أحوالها فى كرم منصبها[3] من العقل ، وتمكنها فى نصابه ، وقرب رحمها منه ، أو بعدها حين

---

(١) بالكسر القوة فى العقل

(٢) ما أسس عليه البدن من الطبائع

(٣) الأصل والمرجع والحسب والمقام ويستعار للشرف ومنه منصب الولايات السلطانية وفى شفاء الغليل المنصب فى كلام المولدين ما يتولاه الرجل من العمل كأنه محل لنصبه قال ابن الوردي : « نصب المنصب أوهى جلدى »

تنسب عنه وكونها كالحليف الجارى مجرى النسب ، أو الزنيم [١] الملصق بالقوم لا يقبلونه ، ولا يمتعضون له ولا يذبون دونه . وإن من الكلام ما هو كما هو شريف فى جوهره كالذهب الإبريز [٢] الذى تختلف عليه الصور وتتعاقب عليه الصياغات وجل المعول فى شرفه على ذاته ، وإن كان التصوير قد يزيد فى قيمته ويرفع فى قدره . ومنه ما هو كالمصنوعات العجيبة من مواد غير شريفة ، فلها — ما دامت الصورة محفوظة عليها لم تنتقض ، وأثر الصنعة باقيا معها لم يبطل — قيمة تغلو ، ومنزلة تعلو ، وللرغبة إليها انصباب ، وللنفوس بها إعجاب ، حتى إذا خانت الأيام فيها أصحابها ، وضامت الحادثات أربابها ، وفجعتهم فيها بما يسلب حسنها المكتسب بالصنعة ، وجمالها المستفاد من طريق العرض فلم يبق إلا المادة العارية من التصوير ، والطينة الخالية من التشكيل ، سقطت قيمتها ، وانحطت رتبتها ، وعادت الرغبات التى كانت فيها زهداً ، وأوسعتها عيون كانت تطمح إليها إعراضاً دونها وصدا ، وصارت كمن أحظاه الجد [٣] بغير فضل كان يرجع إليه فى نفسه ، وقدمه البخت [٤] من غير معنى يقضى بتقدمه ، ثم أفاق فيه الدهر عن رقدته ، وتنبه لغلطته ، فأعاده إلى دقة [٥] أصله ، وقلة فضله ، وهذا غرض لا ينال على وجهه ، وطلبة لا تدرك

(١) الزنيم : الملحق بالقوم ليس منهم فكأنه فيهم زنمة ، والدعى ، واللئيم ، والزنمة ما يقطع من أذن البعير والشاة فيترك معلقا

(٢) الخالص

(٣) فى التاج : أحظيت فلانا على فلان فضلته عليه ، والجد بالفتح الحظ

(٤) البخت فارسى معرب

(٥) خسة

كما ينبغى ، إلا بعد مقـدمات تقدم ، وأصول تمهد ، وأشياء هى كالأدوات فيه حقها أن تجمع ، وضروب من القول هى كالمسافات دونه يجب أن يسار فيها بالفـكر وتقطع .

وأول ذلك وأولاه ، وأحقه بأن يستوفيه النظر ويتقصاه ، القول على التشبيه والتمثيل والاستعارة . فإن هذه أصول كثيرة كأن جل محاسن الـكلام إن لم نقل كلها متفرعة عنها وراجعة إليها ، وكأنهـا أقطاب تدور عليها المعانى فى متصرفاتها ، وأقطار تحيط بها من جهاتهـا . ولامثل[١] قولهم « الفـكرة فَخُّ[٢] العمل » وقوله[٣] « وعُرِّىَ أفراس الصِّبا ورواحله » وقوله[٤] « السفر ميزان القوم » ، وقول الأعرابى[٥] « كانوا إذا اصطفوا سفرت

(١) هذا كقولهم فى المثل : ماء ولا كصدّاء وفنى ولا كمالك ، وقول أبى الطيب المتنبى :

وكل شجاعة فى المرء تغنى ... ولا مثل الشجاعة فى الحكيم

(٢) إذ أن الفـكر يضبط العمل ويجعله فى حيز خاص لايفلت منه كما يضبط الفخ العصفور فلا يفلت .

(٣) من كلام زهير بن أبى سلمى أحـــد الثلاثة المقدمين : امرؤ القيس وزهير والنابغة ، مات قبل البعثة بسنة . وأوله « صحا القلب عن سلمى وأقصر باطله » . وهو أول القصيدة وبعده :

وأقصرت عمـا تعلمين وسددت ... على سوى قصد السبيل معادله

إلى أن يقول :

فقلنا له أبصر وسـدد طريقه ... وماهو فيه عن وصاتى شاغله

وقلت تعلم أن للصيد غرة ... وإلا تضيعها فإنـــك قاتله

(٤) أى على بن أبى طالب كما فى الصناعتين .

(٥) فى زهر الآداب ، وصف أعرابى قومه فقال : كانوا إذا اصطفوا تحت القتام سفرت بينهم السهام ، وإذا تصافحوا بالسيوف فغر فاه الحمام ، فكم من يوم عارم قد أحسنوا أدبه ، وحرب عبوس قد ضاحكتها أسنتهم ، وخطب شـــئز قد ذللوا مناكبه ، ويوم عمـاس قدكشفوا ظلمته بالصبر حتى يتجافى ، إنمـا كانوا كالبحر الذى

بينهم السهام ، وإذا تصافحوا بالسيوف قفز الحِمام ، والتمثيل كقوله[١] « فإنك كالليل الذى هو مدركى »[٢] ويؤتى بأمثلة (إذا حقق[٣] النظر فى الأشياء) يجمعها الاسم الأعم ، وينفرد كل منها بخاصة من لم يقف عليها كان قصير الهمة فى طلب الحقائق ، ضعيف المُنة[٤] فى البحث عن الدقائق ، قليل التوْق إلى معرفة اللطائف . يرضى بالجَمْل[٥] والظواهر ، ويرى ألا يطيل سفر الخاطر ، ولعمرى إن ذلك أروح للنفس ، وأقل للشغل ، إلا أن من طلب الراحة مايعقب تعباً ، ومن اختيار ما تقل معه الكلفة ، مايفضى إلى أشد الكلفة وذلك أن الأمور التى تلتقى عند الجملة وتتباين لدى التفصيل ، وتجتمع فى وحدة ثم يذهب بها التشعب ويقسمها قبيلا بعد قبيل ؛ إذا لم تعرف حقيقة الحال فى تلاقيها حيث التقت وافتراقها حيث افترقت ، كان قياس من يحكم فيها إذا توسط الأمر[٦] قياس من أراد الحكم بين رجلين فى شرفهما وكرم أصلهما ، وذهاب عرقهما فى الفضل ، ليعلم أيهما أقعد فى السؤدد وأحق بالفخر ، وأرسخ فى أرومة[٧] المجد ؟ وهو لايعرف من نسبتهما أكثر من ولادة الأب الأعلى

لاينكش غماره ولاينهنه تياره - والعارم الشديد والشئز الموضع الكثير الحجارة ولا ينكش غماره : أى لاينزف ماؤه .

(١) أى النابغة الذبيانى فى إحدى اعتذارياته للنعمان بن المنذر وتمامه : « وإن خلت أن المنتأى عنك واسع »

(٢) معطوف على قوله القول على التشبيه والتمثيل قبله ويظهر أن أصل التركيب وأن يؤتى لأنه لايعطف الفعل على المصدر

(٣) إذا حقق النظر فى الأشياء جملة معترضة ظرفية .

(٤) بالضم: القوة

(٥) بالفتح: الجمع .

(٦) وسط القوم وتوسطهم : جلس وسطهم .

(٧) بفتح الهمزة وضمها الأصل .

والجد الأكبر، لجواز أن يكون واحد منهما قرشيا أو تميميا، فيكون فى العجز عن أن يبرم قضية فى معناهما؛ ويُبين فضلا أو نقصاً فى منتماهما، فى حكم من لا يعلم أكثر من أن كل واحد منهما آدمىّ ذكر، أو خلق مصور.

واعلم أن الذى يوجبه ظاهر الأمر، وما يسبق إليه الفكر، أن نبدأ بجملة من القول فى الحقيقة والمجاز، ونتبع ذلك القول فى التشبيه والتمثيل؛ ثم ننَسق ذكر الاستعارة عليهما، ونأتى بها فى أثرهما، وذلك أن المجاز أعم من الاستعارة، والواجب فى قضايا المراتب أن نبدأ بالعام قبل الخاص والتشبيه كالأصل فى الاستعارة وهى شبيهة بالفرع له أو صورة مقتضبة من صوره. إلا أن ههنا أموراً[١] اقتضت أن تقع البداية بالاستعارة وبيان صدر منها، والتنبيه على طريق الانقسام فيها، حتى إذا عرف بعض ما يكشف عن حالها، ويقف على سعة مجالها، عُطف عنان الشرح إلى الفصلين الآخرين فوفِّى حقوقهما، وبُين فروقهما، ثم ننصرف إلى استقصاء القول فى الاستعارة

تعريف الاستعارة

اعلم أن الاستعارة[٢] فى الجملة أن يكون لفظ الأصل فى الوضع اللغوى معروفا[٣]، تدل الشواهد على أنه اختص[٤] به[٥] حين وضع ثم يستعمله

---

(١) لعل مراده بذلك أن تقسيم الاستعارة الآتى باعتبار الإفادة وعدمها تقسيم للتشبيه ضمنا وأن بعضها خاص باللغة العربية وهى غير المفيد وبعضها لايخصها بل يوجد فى كل لغة وهو النقل الذى مبناه التمثيل والتشبيه.

(٢) يريد بالاستعارة هنا: مايشمل المجاز المرسل.

(٣) أى بمعنى بعينه.

(٤) أى اللفظ.

(٥) أى بذلك المعنى.

الشاعر أو غير الشاعر فى غير ذلك الأصل وينقله إليه نقلا غير لازم[١] فيكون هناك كالعارية

تقسيم الاستعارة

إلى مفيدة وغير مفيدة

ثم إنها تنقسم أولا قسمين ، أحدهما : أن لايكون لنقله فائدة ، والثانى : أن يكون له فائدة . وأنا أبدأ بذكر غير المفيد فإنه قصير الباع ، قليل الاتساع ، ثم أتكلم على المفيد الذى هو المقصود . وموضع هذا الذى لا يفيد نقله حيث يكون اختصاص الاسم بما وضع له من طريق أريد به التوسع فى أوضاع اللغة والتنوق[٢] فى مراعاة دقائق فى الفروق فى المعانى المدلول عليها كوضعهم للعضو الواحد أسامى كثيرة بحسب اختلاف أجناس الحيوان ، نحو وضع الشفة للإنسان والمشفر للبعير والجحفلة للفرس وما شاكل ذلك من فروق ربما وجدت فى غير لغة العرب وربما لم توجد ، فإذا استعمل الشاعر شيئاً منها فى غير الجنس الذى وضع له ، فقد استعاره منه ونقله عن أصله وجاز[٣] به موضعه ، كقول العجاج[٤] « وفاحماً ومَرْسِناً مُسَرَّجا » يعنى أنفا برق كالسراج . والمرسن فى الأصل للحيوان لأنه الموضع الذى يقع عليه الرسن . وقال الآخر[٥] يصف إبلا :

---

(١) فلو نقله نقلا لازما صار حقيقة عرفية .

(٢) تنوق فى مطعمه وملبسه وأموره تنوقا وتنيقا : جود وبالغ فيه .

(٣) والعلاقة الإطلاق والتقييد .

(٤) فى معاهد التنصيص أنه لرؤبة بن العجاج من أرجوزة طويلة أولها :

ماهاج أشجانا وشجوا قدشجا　　من طلل كالأتحمى أنهجا

(٥) قال فى اللسان أنشده ابن برى لراجز يصف إبلا وقال غيره إنه لأبى النجم العجلى وهو الفضل بن قدامة بن عبيد الله العجلى من رجاز العصر الأموى .

تسمع للماء كصوت المِسْحَل بين وريدها وبين الجَحْفَل[١]

وقال آخر[٢] : * والحشو من حفَّانها[٣] كالحنظل * فأجرى الحفان على صغار الإبل وهو موضوع لصغار النعام . وقال آخر[٤] :

فبتنا جلوساً لدى مهرنا نَنزّع من شفتيه الصفارا[٥]

فاستعمل الشفة فى الفرس وهى موضوعة للإنسان . فهذا ونحوه لايفيدك شيئاً لو لزمت الأصلى[٦] لم يحصل لك ، فلا فرق من جهة المعنى بين قوله : من شفتيه ، وقوله : من جحفلتيه ، لو قاله . إنما يعطيك كلا الاسمين العضو المعلوم فحسب . بل الاستعارة ههنا بأن تنقصك[٧] جزءا من الفائدة أشبه . وذلك أن الاسم فى هذا النحو[٨] إذا نفيت عن نفسك دخول الاشتراك عليه بالاستعارة دل ذكره على العضو وما هو منه . فإذا قلت الشفة دلت على الإنسان أعنى تدل على أنك قصدت هذا العضو من الإنسان دون غيره . فإذا توهمت جرى الاستعارة فى الاسم زالت عنه هذه الدلالة بانقلاب اختصاصه إلى الاشتراك . فإذا قلت الشفة ، فى موضع قد جرى فيه ذكر

---

(١) المسحل كمنبر : حمار الوحش له حشرجة ، ومن المجاز خطيب مسحل ولسان مسحل ، ورواية اللسان بين وريديها وبين الجحفل - وهى الأنسب .

(٢) نسبه بعضهم إلى أبى النجم وجعله من الأرجوزة السالفة .

(٣) واحدته حفانة للذكر والأنثى جميعاوشبهها بالحنظل لبريقهاونضارتهالمارويت

(٤) هو الأعشى وقيل إنه الكميت الأسدى الشاعر الأموى .

(٥) ننزع بالتضعيف ، والصفار بالضم : القراد ، وبالضم والكسر : مابقى فى أصول أسنان الدابة من تبن ونحوه ؛ وهو المراد هنا .

(٦) المناسب الأصل إلا إذا جعل صفة لموصوف محذوف أى اللفظ الأصلى وجملة «لزمت» فى محل نصب صفة شيئا .

(٧) وهو وضوح الدلالة وعدم الوقوع فى اللبس والإبهام .

(٨) وهو ماوقع فيه التنوق فى لغة العرب .

الإنسان والفرس، دخل على السامع بعض الشبهة لتجويزه أن تكون استعرت الاسم للفرس. ولو فرضنا أن تعدم هذه الاستعارة من أصلها وتحظر لما كان لهذه الشبه[1] طريق على المخاطب، فاعرفه

•••

وأما المفيد فقد بان لك باستعارته فائدة ومعنى من المعانى وغرض من الأغراض لولا مكان تلك الاستعارة لم يحصل لك، وجملة تلك الفائدة وذلك الغرض التشبيه[2] إلا أن طرقه تختلف حتى تفوت النهاية، ومذاهبه تتشعب حتى لاغاية[3]، ولايمكن الانفصال منه إلا بفصول جمة وقسمة بعد قسمة. وأنا أرى أن أقتصر الآن على إشارة تعرف صورة على الجملة بقدر ماتراه وقد قابل خلافه الذى هو غير المفيد فيتم تصورك للغرض والمراد، فإن الأشياء تزداد بياناً بالأضداد، ومثاله قولنا[4]: رأيت أسداً - وأنت تعنى رجلا شجاعاً، وبحراً - تريد رجلا جواداً، وبدراً وشمساً - تريد إنسانا مضئ الوجه متهللا، وسللت سيفاً على العدو - تريد رجلا ماضياً فى نصرتك أو رأياً نافذاً، وما شاكل ذلك. فقد استعرت اسم الأسد للرجل ومعلوم أنك أفدت بهذه الاستعارة مالولاها لم يحصل لك وهو المبالغة فى وصف المقصود بالشجاعة وإيقاعك منه فى نفس السامع صورة الأسد فى بطشه وإقدامه وبأسه وشدته، وسائر المعانى المركوزة فى طبيعته، مما يعود إلى الجرأة، وهكذا

---

(١) الصواب الشبهة.

(٢) المراد بالتشبيه المشابهة.

(٣) لا: هنا للجنس وخبرها محذوف تقديره «موجودة» ويصح أن تعرب «حتى» حرف غاية وجر و«لا» اسم بمعنى «غير» ظهر إعرابها على مابعدها.

(٤) الأنسب «قولك» بدليل مابعده.

أفدت باستعارة البحر سعته فى الجود وفيض الكف ، وبالشمس والبدر مالهما من الجمال والبهاء والحسن المالئ للعيون والباهر للنواظر .

وإذ قد عرفت المثال فى كون الاستعارة مفيدة على الجملة وتبين لك مخالفة هذا الضرب للضرب الأوّل الذى هو غير المفيد فإنى أذكر بقية قول مما يتعلق به أعنى بغير المفيد ثم أعطف على أقسام المفيد وأنواعه ومايتصل به ويدخل فى جملة [1] من فنون القول بتوفيق الله عز وجل وأسأله عز اسمه المعونة ، وأبرأ إليه من الحول والقوّة ، وأرغب إليه فى أن يجعل كل ماينصرف فيه منصرفا إلى مايتصل برضاه ، ومصروفا عما يؤدى إلى سخطه .

اعلم أنه إذا ثبت أن اختصاص المرسن بغير الآدمى لا يفيد أكثر مما يفيده الأنف فى الآدمى وهو فصل هذا العضو من غيره ، ولم يكن باستعارته للآدمى مفيداً مالا يفيد بالأنف ، لم يتصور [2] أن يكون استعارة من جهة المعنى . وإذا كان مدار أمره على اللفظ لم يتصوّر أن يكون فى غير لغة العرب ، بلى إن وجد فى لغة الفرس مراعاة نحو هذه الفروق ثم نقلوا الشىء من الجنس المخصوص به إلى جنس آخر كانوا قد سلكوا فى لغتهم مسلك العرب فى لغتها ، وليس كذلك المفيد فإن الكثير منه تراه فى عداد مايشترك فيه أجيال الناس ويجرى به العرف فى جميع اللغات فقولك رأيت أسداً — تريد وصف رجل بالشجاعة وتشبيهه بالأسد على المبالغة — أمر يستوى فيه العربى والعجمى ، وتجده فى كل جيل ، وتسمعه من كل قبيل ، كما أن قولنا زيد كالأسد على التصريح بالتشبيه كذلك ، فلايمكن أن يُدعى أننا إذا استعملنا هذا النحو من الاستعارة فقد عمدنا إلى طريقة فى المعقولات لايعرفها غير العرب أولم تتفق لمن سواهم ، لأن ذلك بمنزلة

---

(١) الصواب فى جملته .

(٢) جواب إذا ثبت .

أن تقول : إن تركيب الكلام من الإسمين أو من الاسم والفعل يختص بلغة العرب ، وأن الحقائق التى تذكر فى أقسام الخبر ونحوه مما لا نعقله إلا من لغة العرب ، وذلك مما لا يخفى فساده .

فإذا ذكر المجاز وأريد أن يعد هذا النحو من الاستعارة فيه ، فالوجه أن يضاف إلى العقلاء جملة ، ولا تستعمل لفظة توهم أنه من عرف هذه اللغة وطرقها الخاصة بها ، كما تقول مثلا فيما يختص باللغة العربية من الأحكام نحو الإعراب بالحركات والصرف ومنع الصرف ووضع المصدر مثلا موضع اسم الفاعل نحو رجل صوم وضيف ، وجمع الاسم على ضروب نحو جمع السلامة والتكسير وجمع الجمع ، وإعطاء الاسم الواحد فى التكسير عدة أمثلة نحو فرخ وأفرخ وفراخ وفروخ ، وكالفرق بين المذكر والمؤنث فى الخطاب وجملة الضمائر وما شاكل ذلك .

ولإغفال هذا الموضع ، والتجوز فى العبارة عنه ، دخل الغلط على من جعل الشىء من هذا الباب سرقة وأخذاً حتى نعى عليه ، وبين أنه من المعانى العامية والأمور المشتركة التى لا فضل فيها للعربى على العجمى ، ولا اختصاص له بجيل دون جيل على ما ترى القول فيه - إن شاء الله تعالى - فى موضعه وهو تعالى ولىّ المنّ بالتوفيق له بفضله وجوده .

ولو أن مترجما ترجم قوله « وإلا النعام وحفّانه[1] » ففسر الحفان باللفظ المشترك الذى هو كالأولاد والصغار لأنه لا يجد فى اللغة التى بها يترجم لفظا خاصا لكان مصيبا ومؤديا للكلام كما هو . ولو أنه ترجم قولنا[2] رأيت أسداً يريد رجلا شجاعا ، فذكر ما معناه معنى قولك « شجاعا شديداً » ، وترك أن يذكر

---

(١) شطر بيت لأمية بن أبي عائذ الهذلى من شعراء الدولة الأموية وتمامه : وطغيا مع اللهق الناشط ، الطغى بضم الطاء وفتحها وسكون الغين : الصغير من بقر الوحش واللهق بفتح الهاء وكسرها الشديد البياض من الثيران كذا فى اللسان .

(٢) الصواب قوله .

الاسم الخاص فى تلك اللغة بالأسد على هذه الصورة لم يكن مترجما للكلام، بل كان مستأنفاً من عند نفسه كلاما. وهذا باب من الاعتبار يحتاج إليه، لحقه أن يحفظ، وعسى أن يجىء له زيادة بسط فيما يستقبل.

فاعلم أنك قد تجد الشىء يخلط[1] بالضرب الأول الذى هو استعارة من طريق اللفظ ويعد فى قبيله وهو - إذا حققت - ناظر إلى الضرب الآخر فهو مستعار من جهة المعنى وجار فى سبيله، فمن ذلك قولهم « إنه لغليظ الجحافل وغليظ المشافر » وذلك أنه كلام يصدر عنهم فى مواضع الذم فصار بمنزلة أن يقال: كأن شفته فى الغلظ مشفر البعير وجحفلة الفرس وعلى ذلك قول الفرزدق[2]

فلو كنت ضبيا عرفت قرابتى ... ولكن زنجيا غليظ المشافر

فهذا يتضمن معنى قولك « ولكن زنجيا كأنه جمل لا يعرفنى ولا يهتدى لشرفى » وهكذا ينبغى أن يكون القول فى قولهم « أنشب فيه مخالبه » لأن المعنى على أن يجعل له فى التعلق بالشىء والاستيلاء عليه حالة كحالة الأسد مع فريسته والبازى

---

(١) يريد بذلك الرد على صاحب الصناعتين حيث عد الأمثلة الآتية من غير المفيد.

(٢) قال فى الأغانى: إن خالد بن عبد الله القسرى أمر بحبس الفرزدق فأنفذ أمره أيوب بن عيسى الضبى فقال:

فلو كنت قيسيا إذا ما حبستنى ... ولكن زنجيا غلاظا مشافره
متت له بالرحم بينى وبينه ... فألفيته منى بعيـــدا أواصره
وقلت امرؤ من آل ضبة فاعتزى ... لغيرهم لون استه ومحاجره
فسوف يرى النوبى ما اجترحت له ... يداه إذا ما الشعر عنت نوافره

ورواية سيبويه فى الكتاب كرواية المصنف، وضبة بن أد بن طابخة والفرزدق من تميم بن مر بن أد بن طابخة وبنو ضبة أخوال الفرزدق، ورواية الإيضاح ولكن زنجى بتقدير ولكنك زنجى وقال فى الخزانة إن صواب الإنشاد غليظا مشافره لا كما رواه النحويون غليظ المشافر تراجع الخزانة. فى صفحة ٣٧٩ ج ٤

مع صيده ، وكذا قول الحطيئة[١] .

قَرَوْا جارك العيمان لما جفوته ... وقلّص عن برد الشراب مشافره

حقه إذا حققت أن يكون فى القبيل المعنوى ، وذلك أنه وإن كان عنى نفسه بالجار ؛ فقد يجوز أن يقصد إلى وصف نفسه بنوع من سوء الحال ويعطيها صفة من صفات النقص ليزيد بذلك فى التهكم بالزبرِقان ويؤكد ماقصده من رميه بإضاعة الضيف واطّراحه وإسلامه للضر والبؤس ، وليس ببعيد من هذه الطريقة من ابتدأ شعراً[٢] فى ذم نفسه ولم يرض عن نفسه ، ولم يرض فى وصف وجهه بالتقبيح والتشويه ، إلا بالتصريح الصريح دون الإشارة والتنبيه .

وأما قول مُزَرِّد[٣] :

(١) يذم الزبرقان بن بدر ويمدح ابن عمه بغيضا من آل شماس ومطلع القصيدة :

عفا مسحلان من سليمى فحامره ... تمشى به ظلمانه وجآذره

وبعد البيت :

سناما ومحضا أنبت اللحم فاكتست ... عظام امرئ ما كان يشبع طائره

هم لاحمونى بعد فقر وفاقة ... كما لاحم العظم الكسير جبائره

والعيمان المحتاج إلى اللبن أشد الحاجة لشدة عطشه ؛ وقلص يستعمل لازما ومتعديا والزبرقان بكسر الزاى والراء : القمر ؛ لقب به الحصين بن بدر الصحابى لجماله :

(٢) يشير إلى قوله :

أبت شفتاى اليوم إلا تكلما ... بسوء فما أدرى لمن أنا قائله

أرى لى وجها قبح الله خلقه ... فقبح من وجه وقبح حامله

بل أعجب منه ذمه لأبيه حيث يقول :

لحاك الله ثم لحاك حقا ... أبا ولحاك من عم وخال

فنعم الشيخ أنت لدى المخازى ... وبئس الشيخ أنت لدى المعالى

جمعت اللؤم لاحياك ربى ... بأنواع السفاهة والضلال

(٣) هو يزيد بن ضرار أخو الشماخ معقل بن ضرار وأخو جزء وكلهم شعراء مخضرمون قالها من قصيدة يتمدح فيها بالجود والكرم ، ونسبه فى اللسان إلى جبيهاء =

فما رقد الولدان حتى رأيته ... على البكر يمريه[1] بساق وحافر

فقد قالوا : إنه أراد أن يقول بساق وقدم؛ فلما لم تطاوعه القافية وضع الحافر موضع القدم ، وهو وإن كان قد قال بعد هذا البيت مايدل على قصده أن يحسن القول فى الضيف وتباعده من أن يكون قصد الزراية عليه أو يحول[2] حول الهزء به والاحتقار له وذلك قوله :

فقلت له : أهلا وسهلا ومرحبا ... بهذا المحيّا من محىٍّ وزائر

فليس بالبعيد[3] أن يكون فيه شوب مما مضى وأن يكون الذى أفضى به إلى ذكر الحافر قصده أن يصفه بسوء الحال فى مسيره وتقاذف نواحى الأرض به ، وأن يبالغ فى ذكره بشدة الحرص على تحريك بكره ، واستفراغ مجهوده فى نفسه ، ويؤنس بذلك أن تنظر إلى قوله قبل :

وأشعثَ مسترخى العلابىّ طوحت ... به الأرض من باد عريض وحاضر[4]

فأبصر نارى وهى شقراء أوقدت ... بعلياء نشز للعيون النواظر[5]

وبعده (فما رقد الولدان) فإذا جعله أشعث مسترخى العلابى فقد قربت المسافة بينه وبين أن يجعل قدمه حافراً ، ليعطيه من الصلابة وشدة الوقع على جنب البكر حظا وافراً ، وهكذا قول الآخر[6] :

= الأسدى يزيد بن عبيد الأشجعى الغطفانى شاعر حجازى بدوى أموى يصف ضيفا طارقا أسرع إليه . (١) يستخرج ماعنده من الجرى . (٢) الصواب يحوم .

(٣) يريد بذلك الرد على صاحب الموازنة إذ قال إن الاستعارة هنا فى غاية القبح .

(٤) العلابى واحدها علباء وهى عصبة فى صفحة العنق وهما علباوان بينهما منبت العرف

(٥) والمنشز المكان المرتفع .

(٦) هو عقفان بن قيس بن عاصم وقيل الأخطل وبعده .

سواء عليكم شؤمها وهجانها ... وإن كان فيها واضح اللون يبرق .

والشؤم السود من الإبل والهجان البيض ، ومن ذلك تعلم أن ضمير أمنعها يعود إلى =

سأمنعها أو سوف أجعل أمرها إلى ملك أظلافه لم تشقق

هو فى حد التشبيه والاستعارة لأن المعنى[١] على أن الأظلاف لمن تزيا بالملك عن مشابهة[٢] كأنه قال: أجعل أمرها إلى ملك لا إلى عبد جاف[٣]، متشقق الأظلاف، ويدل على ذلك أن أبا بكر[٤] بن دريد قال فى أول الباب الذى وضعه للاستعارة « يقولون للرجل إذا عابوه جاءنا حافياً متشقق الأظلاف » ثم أنشد البيت . فإذا كان من شروط هذه الاستعارة أن يؤتى بها فى موضع العيب والنقص فلاشك فى أنها معنوية وكذا قوله[٥] :

وذات هِدْمٍ عار نواشرها تُصمت بالماء تَوْلباً جدعا[٦]

الإبل وقوله لم تشقق لايريد بها إثبات أظلاف غير مشققة بل نفى الأظلاف على الإطلاق بنفى اللازم المساوى وهو التشقيق تعريضا بغيره .

(١) هذا هو المعنى التعريضى لا المعنى الصريح للبيت .

(٢) أى تشبه بالملوك من غير استحقاق وليس أهلا لذلك .

(٣) صوابه حاف بدليل مابعده .

(٤) هو الإمام أبو بكر الأزدى اللغوى الشافعى صاحب التآليف الكثيرة التى منها الجمهرة والأمالى وأدب الكاتب وغريب القرآن وكان من أحفظ أهل زمانه وأكثرهم اطلاعا وروى عنه السيرافى والمرزبانى وأبو الفرج الأصبهانى وله شعر جيد وتوفى سنة ٣٢١ هـ .

(٥) هو أوس بن حجر بن عتاب كان فحل مضر حتى نشأ النابغة وزهير فأخملاه وهو من قصيدة يرثى بها فضالة بن كلدة أحد بنى أسد بن خزيمة ومطلعها :

أيتها النفس أجملى جزعا إن الذى تحذرين قد وقعا

وقبل البيت :

ليبكك الشرب والمدامة والـ ـفتيان طرّا وطامع طمعا

(٦) والهدم بالكسر: الثوب البالى أو المرقع والنواشر واحدها ناشرة وهى عصب فى الذراع من داخل وخارج وتصمت تسكت ولدها بالصمتة بالضم وهى مايسكت به والجدع السيء الغذاء .

فأجرى التولب على ولد المرأة وهو لولد الحمار فى الأصل وذلك لأنه يصف حال ضر وبؤس ويذكر امرأة بائسة فقيرة والعادة فى مثل ذلك الصفة بأوصاف البهائم ليكون أبلغ فى سوء الحالة وشدة الاختلال، ومثله سواء قول الآخر:

وذكرت أهـلى بالعـــرا ق وحاجة الشعث التوالب[١]

كأنه قال: الشعث التى لو رأيتها حسبتها توالب لما بهما من الغبرة وبذاذة الهيئة[٢] والجدع فى البيت بالدال غير معجمة. حكى شيخنا[٣] رحمه الله قال: أنشد المفضل « تصمت بالماء تولباً جــذعاً » بالذال المعجمة فأنكره الأصمعى[٤] وقال إنما هو « تصمت بالماء تولباً جدعا »، وهو السيء الغذاء قال: فجعل المفضل يصيح فقال الأصمعى[٥]: لو نفخت فى الشبّور[٦] مانفعك؛ تكلم

(١) التوالب جمع تولب بزنة فوعل لا تفعل.

(٢) رثاثتها.

(٣) هو أبو الحسين محمد بن الحسين الفارسى ابن أخت الشيخ أبى على الفارسى وعنه أخذ علم العربية الشيخ عبد القاهر بجرجان وتوفى سنة ٤٢١ هـ.

(٤) وكان قد جمع بينهما سليمان بن على الهاشمى بالبصرة فقال لهما: من تختاران أن أجعله حكما بينكما فاتفقا على غلام من بنى أسد حافظ للشعر وأحضر فعرضا عليه مااختلفا فيه فصدق الأصمعى وصوب قوله، فقال له المفضل: وما الجدع؟ قال: السيء الغذاء؛ والمفضل هو أبو العباس المفضل بن محمد بن يعلى بن عامر الضبى كان مؤدب المهدى وله عمل كتاب المفضليات وهى عشرون ومائة قصيدة وتوفى سنة ١٨٩ هـ.

(٥) هو عبد الملك بن قريب بن على بن أصمع الباهلى ويكنى أبا سعيد وهو أحد أئمة اللغة والغريب والأخبار والملح توفى سنة ٢١٦ هـ. عن ثمان وثمانين سنة

(٦) الشبور بزنة تنور البوق معرب شفور وهى كلمة عبرانية الأصل وفى حديث الأذان أنه ذكر له الشبور وجمعه شبابير وشبورات، وشبر وشبير ومشبر هم أولاد هرون عليه السلام ومعناها حسن وحسين ومحسن وبهم سمى على أولاده الثلاثة وقد مات محسن وهو صغير.

بكلام الحُكْل وأصب[١] .

وأما قول الأعرابي : كيف الطَّلا وأمه ؟[٢] فمن جنس المفيد أيضاً لأنه أشار إلى شيء من تشبيه ولد المولود الظبي . ألا تراه قال ذاك بعد أن انصرف عن السخط إلى الرضى وبعد أن سكن عنه فَورة[٣] الجوع الذى دعاه إلى أن قال « ما أصنع به ؟ آكله أم أشربه ؟ » حتى قالت المرأة « غرثان فاربكوا له »[٤]

وأما قوله[٥]

---

(١) الحكل بالضم ثم السكون مالا يسمع له صوت كالذر ونحوه يقولون تكلم كلام الحكل أى كلاما لا يفهم ومنه سمى سليمان عليه السلام نبى الحكل قال العثمانى محمد بن ذؤيب فى مديح عبد الملك بن صالح : -

ويفهم قول الحكل لو أن ذرة   تساود أخرى لم يفته سوادها

وقال رؤبة بن العجاج : لو أننى أوتيت علم الحكل : علم سليمان كلام النمل ، وساودته ساررته لأنك تدنى سوادك من سواده .

(٢) الطلا بفتح الطاء والطلو ولد الظبي ساعة يولد والصغير من كل شيء والجمع أطلاء وطلاء وطلى وطليان بضم الطاء وكسرها

(٣) فورة الحر شدته وفورة الغضب حدته

(٤) قاله ابن لسان الحمرة بضم الحاء وتشديد الميم ورقاء بن الأشعر كان أنسب العرب وأعظمهم بصرا ، وقيل هو عبد الله بن حصين وكان خطيبا بليغا نسابة وأصله أنه دخل على أهله وهو جائع عطشان فبشروه بمولود وأتوه به فقال ماأدرى آكله أم أشربه ؟ فقالت امرأته (غرثان فاربكوا له) فلما طعم وشرب قال وكيف الطلا وأمه ؟ فصار يضرب مثلا لمن ذهب همه وتفرغ لغيره

(٥) هو عبدة بن الطبيب يزيد بن عمرو من بنى سعد بن ربيعة التميمى من المخضرمين وكان فى جيش النعمان بن مقرن فى حرب الفرس بالمدائن سنة ١٣ هجرية وكان للفرس فيل يفرق المسلمين فقتله المثنى بن حارثة فانهزم الفرس قال ابن قتيبة وهو القائل فى الصعلكة : -

لما نزلنا ضربنا ظل أخبية   وفار للقوم باللحم المراجيل

ورد وأشقر مايؤنيه طابخه   ماغير الغلى منه فهو مأكول =

إذ أصبح الديك يدعو بعض أسرته عند الصباح وهم قوم معازيل[١]

فاستعارة القوم ههنا وإن كانت فى الظاهر لا تفيد أكثر من معنى الجمع ؛ فإنها مفيدة من حيث أراد أن يعطيها شبهاً بما[٢] يعقل . على أن هذا - إذا حققنا - فى غير ما نحن فيه وبصدده فى هذا الفصل ، وذلك أنه لم يجتلب الاسم المخصوص بالآدميين حتى قدم تنزيلها منزلتهم فقال « هم » ، فأتى بضمير من يعقل . وإذا كان الأمر كذلك كان القوم جاريا مجرى الحقيقة . ونظيره أنك تقول : اين الأسود الضاربة ؟ وأنت تعنى قوماً من الشجعان فيلزم فى الصفة حكم ما لا يعقل فتقول « الضاربة » ، ولا تقول « الضارون » البتة ، لأنك وضعت كلامك على أنك كأنك تحدث عن الأسود فى الحقيقة وعلى هذه الطريقة ينبغى أن يجرى بيت المتنبى[٣]

= ثمت قمنا إلى جرد مسومة أعرافهن لأيدينا مناديل
وقد غدوت وقرن الشمس منفتق ودونه من سواد الليل تجليل
إذ أصبح الديك يدعو بعض أسرته عند الصباح وهم قوم معازيل
إلى التجار فأعدانى بلذته رخو الإزار كصدر السيف مشمول

ومطلع القصيدة :-

هل حبل خولة بعد الهجر موصول أم أنت عنها بعيد الدار مشغول
حلت خويلة فى دار مجاورة أهل المدائن فيها الديك والفيل
يقارعون رءوس العجم ضاحية منهم فوارس لا عزل ولا ميل

وعن ابن الأعرابى أن عبد الملك قال لبعض جلسائه . أى المناديل أشرف . فقال قائل مناديل مصر فانها غرقىء البيض وقال آخرون مناديل اليمن كأنها نور الربيع فقال عبدالملك مناديل أخى بنى سعد حيث يقول لما نزلنا . . الخ

(١) فى اللسان المعازيل جمع معزال هنا وهو من لا سلاح معه ، والمعزال أيضا الراعى المنفرد وهو ليس بذم إذ هو دليل الشجاعة وكذلك هو الراعى الذى يستبد برأيه فيرعى أنف الكلأ ، وأيضا الذى ينزل ناحية عن المسافرين وهو ذم .

(٢) المناسب بمن يعقل

(٣) يمدح أبا الفضل بن العميد من قصيدة مطلعها :- =

زحل - على أن الكواكب قومه - لو كان منك لكان أكرم معشراً

وإن لم يكن معنا اسم آخر سابق يثبت حكم[١] مايعقل للكواكب كالضمير فى قوله «هم قوم» وذلك[٢] أن ما يفصح به الحال من قصده أن يدعى للكواكب هذه المنزلة يجرى[٣] مجرى التصريح بذلك، ألا ترى أنه لا يتضح وجه المدح فيه إلا بدعوى أحوال الآدميين ومعارفهم للكواكب لأنه يفاضل بينه وبينها فى الأوصاف العقلية بدلالة قوله «لكان أكرم معشراً» ولن يتحصل ثبوت وصف شريف معقول لها ولا الكرم على الوجه الذى يتعارف فى الناس حتى تجعل كأنها تعقل وتميز، ولو كانت[٤] المفاضلة فى النور والبهاء وعلو المحل وما شاكل ذلك لكان لا يلزم حينئذ ماذكرت[٥]. وحق القول فى هذا القبيل - أعنى مايدعى فيه لما لا يعقل العقل - فصل يفرد به ولعله يجىء فى موضعه بمشيئة الله وتوفيقه.

القول فى الاستعارة المفيدة

اعلم أن الاستعارة فى الحقيقة هى هذا الضرب دون الأول وهى أمد ميداناً،

= باد هواك صبرت أم لم تصبرا وبكاك إن لم يجر دمعك أو جرى

كم غر صبرك وابتسامك صاحباً لما رآه وفى الحشى ما لا يرى

وقبله أنا من جميع الناس أطيب منزلا وأسر راحلة وأربح متجرا

ولما كانت الكواكب محدقة بزحل وكان الإحداق مما يوصف به ذوو العقل أوقع عليهم اسم القوم والمعنى أن زحلا شيخ النجوم لو كان من عشيرتك لكان أكرم معشرا لأن قومك أشرف من النجوم كذا فى العكبرى

(١) المناسب حكم من يعقل كما تقدم

(٢) أى بيان ماينبغى أن يكون

(٣) خبر إن

(٤) بيان للزوم ادعاء العقل

(٥) هو ادعاء العقل للكواكب

وأشد افتناناً[1] وأكثر جرياناً ، وأعجب حسناً وإحساناً ، وأوسع سعة وأبعد غوراً ، وأذهب نجداً فى الصناعة وغوراً ، من أن تجمع شعبها[2] وشعوبها[3] وتحصر فنونها وضروبها ، نعم وأسحر سحراً ، وأملأ بكل مايملأ صدراً ويمتع عقلا ، ويؤنس نفساً ، ويوفر أنساً ، وأهدى إلى أن تهدى إليك عذارى قد تُخير لها الجمال ، وعُنىَ بها الكمال ، وأن تخرج لك من بحرها جواهر إن باهتها الجواهر مدت فى الشرف والفضيلة باعاً لا يقصر ، وأبدت من الأوصاف الجليلة محاسن لاتنكر ، وردت تلك بصفرة الخجل[4] ، ووكلتها إلى نسبتها من الحجر ، وأن تثير من معدنها تبراً لم تر مثله ، ثم تصوغ فيها صياغات تعطل الحُلىَّ وتريك الَحلى الحقيق ، وأن تأتيك على الجملة بعقائل[5] يأنس إليها الدين والدنيا ، وشرائف لها من الشرف الرتبة العليا ، وهى أجل من أن تأتى الصفة على حقيقة حالها ، وتستوفى جملة جمالها .

ومن الفضيلة الجامعة فيها أنها تبرز هذا البيان أبداً فى صورة مستجدة[6] تزيد قدره نبلا ، وتوجب له بعد الفضل فضلا ، وإنك لتجد اللفظة الواحدة قد اكتسبت فيها فوائد ، حتى تراها مكررة فى مواضع ، ولها فى كل واحد من تلك المواضع شأن مفرد ، وشرف منفرد ، وفضيلة مرموقة ، وخلابة[7]

---

(١) افتن فى كلامه أخذ فى فنون وضروب من القول
(٢) جمع شعبة الفرقة والطائفة من الشىء
(٣) جمع شعب بالفتح وهو القبيلة
(٤) كأن فيه إشارة إلى قول المتنبى

إن السحاب لتستحى إذا نظرت ... إلى نداك فقاسته بما فيها

(٥) جمع عقيلة وهى الكريمة من النساء : ومن كل شىء أكرمه .
(٦) فى هذا إشارة إلى قول علىّ كرم الله وجهه القرآن جديد لاتبلى جدته
(٧) الخلابة بالكسر الخديعة .

مومومقة[١] ، ومن خصائصها التى تذكر بها ، وهى عنوان مناقبها ، أنها تعطيك الكثير من المعانى باليسير من اللفظ ، حتى تخرج من الصدفة الواحدة عدة من الدرر ، وتجنىَ من الغصن الواحد أنواعا من الثمر ، وإذا تأملت أقسام الصنعة التى بها يكون الكلام فى حد البلاغة ، ومعها يستحق وصف البراعة ، وجدتها تفتقر إلى أن تعيرها حلاها ، وتقصر عن تنازعها مداها ، وصادفتها نجوماً هى بدرها ، وروضاً هى زهرها ، وعرائس مالم تعرها حليها فهى عواطل ، وكواعب مالم تحسنها فليس لها فى الحسن حظ كامل ، فإنك لترى بها الجماد[٢] حيا ناطقاً ، والأعجم[٣] فصيحاً ، والأجسام الخرس[٤] مبينة ، والمعانى[٥] الخفية ، بادية جلية ، وإذا نظرت فى أمر المقاييس[٦] وجدتها ولا ناصر لها أعز منها ، ولا رونق لها مالم تزنها ، وتجد التشبيهات على الجملة غير معجبة مالم تكنها ، إن شئت أرتك المعانى اللطيفة التى هى من خبايا العقل كأنها قدجسمت[٧] حتى رأتها العيون ، وإن شئت لطفت الأوصاف الجثمانية[٨] حتى تعود روحانية

---

(١) ومقه كورثه ومقا ، ومقة : إذا أحبه

(٢) كقول أبى نواس :

فاستنطق العود قدطال السكوت به … لن ينطق اللهو حتى ينطق العود

(٣) كقول صفى الدين الحلى فى وصف الحديقة :

وأطاق الطير فيها سجع منطقه … مابين مختلف منه ومتفق

(٤) كقولهم أخبرتنى أسارير وجهه بما فى نفسه .

(٥) كقوله عليه السلام حين رأى عليا وفاطمة فى بيت واحدوأقفل عليهماالباب « جدع الحلال أنف الغيرة »

(٦) أى التشبيهات كما يفهم مما سلف .

(٧) كقوله تعالى (لتخرج الناس من الظلمات إلى النور) .

(٨) كقول أبى نواس فى وصف الخمر

وقد خفيت من لطفها فكأنها … بقايا يقين كاد يذهبه الشك

لا تنالها إلا الظنون ، وهذه إشارات وتلويحات فى بدائعها، وإنما ينجلى الغرض منها ويبين إذا تكلم على التفاصيل ، وأفرد كل فن بالتمثيل ، وسترى ذلك إن شاء الله ، وإليه الرغبة فى أن نوفق للبلوغ إليه ، والتوفر عليه .

وإذ قد عرفتك أن لها هذا المجال الفسيح ، والشأو البعيد ، فإنى أضع لك فصلا بعد فصل ، واجتهد بقدر الطاقة فى الكشف والبحث .

فصل

(فى تقسيم الاستعارة إلى تحقيقية وتخييلية)

وهذا فصل قسمتها فيه قسمة عامية . ومعنى العامية أنك لا تجد فى هذه الاستعارة قسمة إلا أخص من هذه القسمة وأنها قسمة الاستعارة من حيث المعقول المتعارف فى طبقات الناس وأصناف اللغات وما تجد وتسمع أبداً نظيره من عوامهم ، كما تسمع من خواصهم .

اعلم أن كل لفظة دخلتها الاستعارة المفيدة فإنها لا تخلو من أن تكون اسماً أو فعلا ، فإذا كانت اسما فإنه يقع مستعاراً على قسمين :

(أحدهما) أن تنقله عن مسماه الأصلى إلى شىء آخر ثابت معلوم فتجريه عليه وتجعله متناولا له تناول الصفة مثلا للموصوف . وذلك قولك رأيت أسداً - وأنت تعنى رجلا شجاعا - ورنَت لنا ظبية[1] وأنت تعنى امرأة ، وأبديت نوراً وأنت تعنى هدى وبيانا وحجة ، وما شاكل ذلك . فالاسم فى هذا كله كما تراه متناولا[2] شيئا معلوما يمكن أن ينص عليه فيقال أنه عُنى بالاسم وكنى به عنه ، ونقل عن مسماه الأصلى لجعل اسما له على سبيل الاستعارة والمبالغة فى التشبيه .

(ثانيهما) أن يؤخذ الاسم عن حقيقته ويوضع موضعا لا يبين فيه شىء يشار

---

(١) نظرت .

(٢) الصواب : متناول إذ هو خبر عن قوله فالإسم .

إليه فيقال هذا هو المراد بالاسم والذى استعير له وجعل خليفة لاسمه الأصلى ونائبا منابه . ومثاله قول لبيد[1]

وغداةِ ريح قد كشفتُ وقِرّة إذ أصبحت بيد الشمال زمامها

وذلك أنه جعل للشمال يداً ، ومعلوم أنه ليس هناك مشار إليه، يمكن أن تجرى اليد عليه ، كإجراء الأسد والسيف على الرجل فى قولك : انبرى لى أسد يزأر ، وسللت سيفا على العدو لا يفل - والظباء : على النساء فى قوله «من[2] الظباء الغيد» والنور : على الهدى والبيان فى قولك «أبديت نوراً ساطعا» وكإجراء اليد نفسها على من يعز مكانه كقولك «أتنازعنى فى يد بها أبطش ، وعين بها أبصر» يريد إنسانا له حكم اليد وفعلها، وغناؤها ودفعها ، وخاصة العين وفائدتها ، وعزة موقعها، ولطف موضعها ، لأن معك فى هذا كله ذاتا ينص عليها ، وترى مكانها فى النفس ، إذا لم تجد ذكرها فى اللفظ ، وليس لك شىء من ذلك فى بيت لبيد ، بل ليس أكثر من أن تخيل إلى نفسك أن الشمال فى تصريف الغداة على حكم

---

(١) هو لبيد بن ربيعة العامرى الصحابى من المعمرين مات فى خلافة معاوية وهو ابن سبع وخمسين ومائة وهو القائل :

ولقد سئمت من الحياة وطولها وسؤال هذا الناس كيف لبيد

والبيت من معلقته المشهورة التى مطلعها :

عفت الديار محلها فمقامها بمنى تأبد غولها فرجامها

وبعده بصبوح صافية وجذب كرينة بموتر تأتاله إبهامها

والقرة والقر : البرد والمعنى كم من غداة تهب فيها ريح الشمال الباردة كففت عاديتها بنحر الجذور وشرب الخمور واللهو والطرب .

(٢) هو جزء من شطر بيت من مطلع قصيدة للبحترى يمدح بها المعتز بالله وهو :

من عذيرى من الظباء الغيد ومجيرى من ظلمهن العتيد

إن سحر العيون ضلل لبى وحمانى الرقاد ورد الخدود

طبيعتها كالمدبر المصرف لما زمامه بيده، ومقادته فى كفه. وذلك كله[١] لا يتعدى التخيل والوهم، والتقدير فى النفس، من غير أن يكون هناك شىء يحس وذات تتحصل. ولا سبيل لك إلى أن تقول كنى باليد عن كذا وأراد باليد هذا الشىء أو جعل الشىء الفلانى يداً، كما تقول كنى بالأسد عن زيد وعنى به زيداً وجعل زيداً أسداً. وإنما غايتك التى لا مطلع[٢] وراءها أن تقول أراد أن يثبت للشمال فى الغداة تصرفا كتصرف الإنسان فى الشىء يقلبه، فاستعار لها اليد حتى يبالغ فى تحقيق التشبيه، وحكم الزمام فى استعارته للغداة حكم اليد فى استعارتها للشمال، إذ ليس هناك مشار إليه يكون الزمام كناية عنه، ولكنه وفّى المبالغة شرطها من الطرفين لجعل على[٣] الغداة زماماً ليكون أتم فى إثباتها مصرّفة، كما جعل للشمال يداً ليكون أبلغ فى تصييرها مصرّفة.

ويفصل بين القسمين أنك إذا رجعت فى القسم الأول إلى التشبيه الذى هو المغزى من كل استعارة تفيد، وجدته يأتيك عفواً كقولك فى « رأيت أسداً » رأيت رجلا كالأسد ورأيت مثل الأسد أو شبيها بالأسد. وإن رمته فى القسم الثانى وجدته لا يواتيك تلك المواتاة، إذ لا وجه لأن يقول[٤] « إذ أصبح شىء مثل اليد للشمال » أو « حصل شبيه باليد للشمال » وإنما يتراءى لك التشبيه بعد أن تخرق إليه ستراً، وتُعمل تأمّلا وفكراً. وبعد أن تغير الطريقة وتخرج عن الحذو الأوّل كقولك إذ أصبحت الشمال ولها فى

---

(١) أى ما بيناه من إثبات اليد مصرفة.

(٢) يظهر أن الأصل لا مطمع وراءها، أو لا متطلع وإن بقيت على حالها فتقرأ لامطلع اسم مفعول من اطلع بالتضعيف وهو المأتى يقال مالهذا الأمر مطلع أى مأتى، وقد يراد بها موضع الاطلاع من إشراف إلى انحدار ومنه قول عمر: لوأن لى مافى الأرض جميعا لافتديت به من هول المطلع، أى مايشرف عليه من أمر الآخرة.

(٣) صوابه للغداة. (٤) صوابه تقول.

قوة تأثيرها فى الغداة شَبَهُ المالك تصريف الشىء بيده، وإجراءه على موافقته، وجذبه نحو الجهة التى تقتضيها طبيعته، وتنحوها إرادته. فأنت كما ترى تجد الشبه المنتزع ههنا إذا رجعت إلى الحقيقة ووضعت الاسم المستعار فى موضعه الأصلى لا يلقاك من المستعار نفسه بل بما يضاف إليه. ألا ترى أنك لم ترد أن تجعل الشمال كاليد ومشبهة باليد، كما جعلت الرجل كالأسد ومشبهاً بالأسد، ولكنك أردت أن تجعل الشمال كذى اليد من الأحياء، فأنت تجعل فى هذا الضرب المستعار له وهو نحو الشمال ذا شىء وغرضك أن تثبت له حكم من يكون له ذلك الشىء فى فعل أو غيره لا نفس ذلك الشىء فاعرفه.

وهكذا قول زهير[١] «وعرى[٢] أفراس الصبا ورواحله» لا تستطيع أن تثبت ذواتا[٣] أوشبه الذوات تتناولها الأفراس والرواحل فى البيت على حد تناول الأسد الرجلَ الموصوف بالشجاعة، والبدرِ الموصوفَ بالحسن أو البهاء، والسحابِ المذكورَ بالسخاء والسماحة، والنورِ العلمَ والهدى والبيانَ: وليس إلا أنك أردت أن الصبا قد ترك وأهمل، وفقد نزاع النفس إليه وبطل، فصار كالأمر ينصرف عنه فتعطل آلاته وتطرح أدواته، وكالجهة من جهات المسير نحو الحج أو الغزو أو التجارة يقضى منها الوطر فتحط عن الخيل التى كانت

---

(١) هو زهير بن أبى سلمى بن رباح المزنى أحد الشعراء الثلاثة المقدمين: امرئ القيس وزهير والنابغة، وكان لا يمدح أحدا إلا بما فيه.

(٢) والشطر الأول « صحا القلب عن سلمى وأقصر باطله » وهو أول القصيدة وبعده:

وأقصرت عما تعلمين وسددت ... علىّ سوى قصد السبيل معادله
فقلنا له أبصر وسدد طريقة ... وما هو فيه عن وصاتى شاغله
وقلت تعلم أن للصيد غرة ... وإلا تضيعها فإنك قاتله

(٣) صوابه: ذوات

تركب إليها لبودها وتلق عن الإبل التى كانت تحمل لها قتردها [1] وقد يجىء وإن كان كالتكلف [2] أن تقول إن الأفراس عبارة عن دواعى النفوس وشهواتها، وقواها فى لذاتها، أو الأسباب التى تفتل فى حبل الصبا، وتنصر جانب الهوى، وتلهب أريحية النشاط، وتحرك مرح الشباب، كما قال [3] « ونعم مطية الجهل الشباب » وقال : [4]

---

(١) القتد محركة والقتد كحمل : خشب الرحل، وقيل جميع أدواته وجمعه أقتاد وقتود وأقتد .

(٢) وجهه أن البواعث النفسية تسبق العزم على العمل، والأفراس والرواحل تكون بعد العزم والتصميم عليه، فأولاهما متقدمة وتلك متأخرة، إلى أن البواعث ربما لاتقتضى منك العزم والعمل على شىء ولا توصلك إليه - بخلاف الأفراس فإنها بعد العزم موصلة حتما - إلى أن البواعث لااختيار للإنسان فى إعدادها بخلاف الأفراس فإنها تعد باختياره

(٣) أى النابغة الذبيانى يهجو عامر بن الطفيل، ومن حديث ذلك أنه قدم على قومه بعد وقعة حسى وقال : ماقلتم لعامر وماقال لكم فأنشدوه، فقال : أفحشتم على الرجل وهو شريف ولكنى أقول : —

فإن يك عامر قد قال جهلا ... فإن مطيــة الجهل الشباب
فكن كأبيك أو كأبى براء ... تصادفك الحكومة والصواب
فلا يذهب بلبك طائشات ... من الخيلاء ليس لهن باب
فإنك سوف تحـلم أو تباهى ... إذا ما شبت أو شاب الغراب
فإن تكن الفوارس يوم حسى ... أصابوا من لقائك ما أصابوا
فما إن كان من سبب بعيد ... ولكن أدركوك وهم غضاب

فلما بلغ عامرا ماقال النابغة شق عليه، وقال : ماهجانى أحد حتى هجانى النابغة : جعلنى القوم رئيسا وجعلنى النابغة سفيها جاهلا وتهكم بى، وأبو براء هو عامر بن مالك ملاعب الأسنة عم عامر بن الطفيل، ومن هنا تعلم أن رواية المصنف ليست كالتى فى الديوان .

(٤) صدر بيت من مطلع قصيدة لأبى نواس وتتمته : =

« كان الشباب مطية الجهل » وليس من حقك أن تتكلف هذا فى كل موضع فإنه ربما خرج بك إلى مايضر المعنى وينبو عنه طبع الشعر . وقد يتعاطاه من يخالطه شىء من طباع التعمق فتجد مايفسد أكثر مما يصلح ، ولو أنك تطلبت للمطية فى بيت الفرزدق(١)

= ومحسن الضحكات والهزل وبعده :-

كان الجمال إذا ارتديت به ومشيت أخطر صيت النعل
كان البليغ إذا نطقت به وأصاخت الآذان للمحل
كان المشفع فى مآربه عند الفتاة ومدرك التبل
فالآن صرت إلى مقاربة وحططت عن ظهر الصبا رحلى

قال ابن منظور فى أخبار أبى نواس : إن أبانواس سرق بيته هذا من النابغة فى جملة ماسرق كقوله « وداونى بالتى كانت هى الداء » أخذه من قول الأعشى : وأخرى تداويت منها بها . والذى أخذ منه أحسن مما قال : وكقوله :

لما تبدى الصبح من حجابه كطلعة الأشمط من جلبابه

أخذه من قول أبى النجم . كطلعة الأشمط من كسائه .

(١) هو همام بن غالب بن صعصعة التميمى ولقب بالفرزدق لجهومة وجهه (والفرزدق القطعة من العجين) وكان خبيث الهجاء تهابه الشعراء توفى سنة ١١٠ هجرية ومطلعها :

ألا هزئت منى هنيـدة أن رأت أسيرا يدانى خطوه حلق الحجل
ولو علمت أن الوثاق أشده إلى النار قالت لى مقالة ذى عقل
ثلاثين عاما ماأرى من عماية إذا برقت إلاشددت لها رحلى
أتتـنى أحاديث البعيث ودونه زرود فشامات الشقيق إلى الرمل
فقلت أظن ابن الخبيثة أننى شغلت عن الرامى الكنانة بالنبل
فإن يك قيـدى كان نذرا نذرته فمالى عن أحساب قومى من شغل

وكان سبب مقاله هذا لهذه القصيدة أن جريرا هجا البعيث فجاء نساء بنى مجاشع وأحفظنه حتى حنث فى يمينه وكان قد نذر ألا يقول الشعر حتى يحفظ القرآن ، وهنيدة : امرأة الزبرقان وعمة الفرزدق :

لعمرى لئن قيدت نفسى لطالما سعيت وأوضعت المطية فى الجهل

مثلَ هذا التأول تباعدت عن الصواب ، وعدلت عما يسبق إلى القلب ، وذلك[1] أن المعنى على قولك · لطالما سعيت فى الباطل وقديما كنت فى الإسراع إلى الجهل بصورة من يوضع المطية فى سفره . وهذا الموضع يتجلى تمام التجلى إذا تكلم على[2] الفرق بين التشبيه والتمثيل وسيأتيك ذلك إن شاء الله تعالى . وكذا قولهم : هو مُرخى[3] العنان ومُلق الزمام . لا وجه لأن تتوقع إلا أن تجرى العنان عليه ويتناوله المعنى على انتزاع الشبه من الفرس فى حال مايرخى عنانه ، وأن ينظر إلى الصورة التى توجد من حاله تلك فى العقل ، ثم يجاء بها فيعار[4] لها الرجل ، ويتصور بمقتضاها فى النفس ويتمثل . ولو قلت : إن العنان ههنا بمعنى النهى وأن المراد أن النهى قد أبعد عنه ونحو ذلك ، دخلت فى ظاهر من التكلف وأتعبت نفسك فى غير جدوى ، وعادت زيادتك نقصاناً ، وطلبك الإحسان إساءة .

واعلم أن إغفال هذا الأصل الذى عرفتك من أن الاستعارة لا تكون على هذا الوجه الثانى[5] كما تكون على الأول[6] مما يدعو إلى مثل هذا التعمق وأنه نفسه قد يصير سبباً إلى أن يقع قوم فى التشبيه[7] ؛ وذلك أنهم إذا وضعوا فى أنفسهم أن كل اسم يستعار فلابد أن يكون هناك شىء يمكن الإشارة إليه يتناوله[8] فى حال المجاز كما يتناول مسماه فى حال الحقيقة ، ثم نظروا فى مخرج

---

(١) أى بيان أن المراد الاستعارة التمثيلية لا الاستعارة فى المفرد

(٢) الصواب فى الفرق .

(٣) مرخى بصيغة المفعول من أرخى العنان وكذا مابعده

(٤) صوابه فتعار للرجل

(٥) هى التخييلية

(٦) التحقيقية

(٧) يريد التجسيم أى جعل الله جسما

(٨) صوابه ويتناوله

قوله تعالى (ولتصنع على عيني ، واصنع الفلك بأعيننا [١]) فلم يجدوا للفظة العين مايتناوله على حدّ تناول النور مثلا للهدى والبيان ، ارتبكوا فى الشك وحاموا حول الظاهر ، وحملوا أنفسهم على لزومه حتى يفضى بهم إلى الضلال البعيد وارتكاب مايقدح فى التوحيد ، ونعوذ بالله من الخذلان .

﴿وطريقة أخرى﴾ فى بيان الفرق بين القسمين ، وهو أن الشبه فى القسم الأول الذى هو نحو : رأيت أسداً - تريد رجلا شجاعاً - وصفٌ موجود فى الشىء الذى له [٢] استعرت . واليد ليست توصف بالشبه ، ولكنه صفة تكسبها اليد صاحبها ، وتحصل له بها ، وهى التصرف على وجه مخصوص . وكذا قولك « أفراس الصبا » ليس الشبه الذى آستعرت له الأفراس موجوداً فى الأفراس بل هو شبه يحصل لما يضاف إليه الأفراس حيث يراد الحقيقة نحو قولنا « عُرِّىَ أفراس الغزو » . وأجمعت [٣] خيل الجهاد » وذلك مايوجبه الفعل الواقع على الأفراس نحو أن وقوع الفعل الذى هو عُرِىَ على أفراس الغزو يوجب الإمساك عن الغزو والترك له - وعلى هذا القياس .

وإذا تقرر أمر الاسم فى كون آستعارته على هذين القسمين فمن حقنا أن ننظر فى الفعل هل يحتمل هذا الانقسام ؟ والذى يجب العمل عليه أن الفعل لايتصور فيه أن يتناول ذات شىء كما يتصور فى الاسم ولكن شأن

---

(١) قال فى الكشاف : أى اصنعها محفوظا بأعيننا وحقيقته متلبسا بأعيننا كأن لله معه أعينا تكلؤه أن يزيغ فى صنعته عن الصواب وألا يحول بينه وبين عمله أحد من أعدائه اه أى فهو مجاز مرسل مبنى على كناية

(٢) اللام فى « له » لام التقوية والمعنى : الشىء الذى استعرته

(٣) صوابه : وأجمت ، من قولهم أجم الفرس ترك ولم يركب ومثله استجم ومنه «إنى لأستجم قلبي بشىء من اللهو حتى أقوى على الحق » أى إنى لأجعل قلبي يتفكه بشىء من اللهو ليستجمع قوته

الفعل أن يثبت المعنى الذى اشتق منه للشيء فى الزمان الذى تدل صيغته عليه، فإذا قلت ضرب زيد ـ أثبت الضرب لزيد فى زمان ماض وإذا كان كذلك فإذا استعير [١] الفعل لما ليس له فى الأصل فإنه يثبت باستعارته له وصفاً هو شبيه بالمعنى الذى ذلك الفعل مشتق منه.

بيان ذلك أن تقول: نطقت الحال بكذا، وأخبرتنى أسارير [٢] وجهه بما فى ضميره، وكلمتنى عيناه بما يحوى قلبه؛ فتجد فى الحال وصفاً هو شبيه بالنطق من الإنسان، وذلك أن الحال تدل على الأمر ويكون فيها أمارات يعرف بها الشيء كما أن النطق كذلك. وكذلك العين فيها وصف شبيه بالكلام وهو دلالتها بالعلامات التى تظهر فيها وفى نظرها وخواص أوصاف يتحدد بها ما فى القلوب من الإنكار والقبول، ألا ترى إلى حديث الجمحى؟ [٣]

حكى عن بعضهم قال: قال أتيت الجمحى أستشيره فى امرأة أردت التزوج بها، فقال: أقصيرة هى أم غير قصيرة؟ قال: فلم أفهم ذلك، فقال لى: كأنك لم تفهم ماقلت. إنى لأعرف فى عين الرجل إذا عرف، وأعرف فيها إذا أنكر، وأعرف إذا لم يعرف ولم ينكر. أما إذا عرف فإنها تخاوص [٤]، وإذا لم يعرف ولم ينكر فإنها تسجو [٥]، وإذا أنكر فإنها تجحظ [٦] أردت بقولى قصيرة أى هى قصيرة

---

(١) أى نسب إلى ماليس له

(٢) الأسارير: محاسن الوجه والخدان والوجنتان

(٣) هو أبو عبدالله محمد بن سلام الجمحى مولى قدامة بن مظعون أحد الأخباريين والرواة، وصاحب كتاب طبقات الشعراء الإسلاميين توفى سنة ٢٢١ هـ: روى عنه الإمام أحمد وثعلب

(٤) أصله تتخاوص من قولهم تخاوص فلان إذا غض من بصره قليلا مع تحديق كمن يقوّم سهما

(٥) تسكن

(٦) من جحظت العين إذا عظمت مقلتها ونتأت.

النسب تعرف بأبيها أوجدها . قال الشيخ أبو الحسن [١] وهذا من قول النسابة [٢] البكرى لرؤبة [٣] بن العجاج لما أتاه فقال له : من أنت ؟ قال : رؤبة بن العجاج . فقال : قُصِرْتَ وعُرِفت [٤] . قال : وعلى هذا المعنى قول رؤبة : [٥]

قد رفع العجاج ذكرى فادعنى   باسم إذا الأنساب طالت يكفنى

وأمر العين أظهر من أن تحتاج فيه إلى دليل ، ولكن إذا جرى الشيء فى الكلام هو [٦] دعوى فى الجملة كان الآنس للقارئ أن يقترن به ما هو شاهد فيه فلم يُرَ شيء

---

(١) هو القاضى أبو الحسن على بن العزيز الجرجانى صاحب كتاب الوساطة بين المتنبى وخصومه وكان فقيها أديبا توفى سنة ٣٦٦ هـ

(٢) كان نصرانيا : روى عنه رؤبة قوله إن للعلم آفة وهجنة ونكدا ؛ كذا فى الفهرس لابن النديم

(٣) هو رؤبة بن العجاج من بنى زيد بن مناة من رجاز الإسلام وفصحائهم والمتقدمين فيهم ومن مخضرمى الدولتين وكان يسكن البصرة ، ومدح بنى أمية وبنى العباس ومات فى أيام المنصور ، وكانوا يعتدون بشعره ويجعلونه إماما توفى سنة ١٤٥ هـ

(٤) قصر وعرف بالبناء للمجهول ، وبالبناء للفاعل فى الأول يقال فلان قصير النسب إذا كان أبوه معروفا يغنى ذكره عن الانتماء إلى الجد الأبعد قال الشاعر : ـ

أحب من النسوان كل طويلة   لها نسب فى العالمين قصير

وقال أبو تمام : ـ

أنتم بنو النسب القصير وطولكم   باد على الكبراء والأشراف

وقال المتنبى : ـ

يا أيها الملك الفانى بتسمية   فى الشرق والغرب عن وصف وتلقيب

(٥) أى مفتخرا .

ورواية اللسان لبيت رؤبة : ـ

قد رفع العجاج ذكرى فادعنى   باسمى إذا الأنساب طالت يكفنى

(٦) الصواب أن يقال وهو دعوى لأن الجملة حالية مبدوءة بالضمير فيجب فيها الواو .

أحسن من إيصال دعوى ببرهان .

وإذا كان أمر الفعل فى الاستعارة على هذه الجملة رجع بنا التحقيق إلى أن وصف الفعل بأنه مستعار حكم يرجع إلى مصدره الذى اشتق منه . فإذا قلنا فى قولهم « نطقت الحال » إن نطق مستعار فالمعنى أن النطق مستعار ، وإذا كانت الاستعارة تنصرف إلى المصدر كان الكلام فيه على مامضى .

ومما تجب مراعاته أن الفعل يكون استعارة مرة من جهة فاعله الذى رفع به ومثاله مامضى ، ويكون أخرى استعارة من جهة مفعوله وذلك نحو قول ابن المعتز[1] :

جمع الحق لنا فى إمام　　قتل البخل وأحيا السماحا

فقتل وأحيا : إنما صارا مستعارين بأن عديا إلى البخل والسماح ، ولو قال قتل الأعداء وأحيا[2] لم يكن « قتل » استعارة بوجه ولم يكن « أحيا » استعارة على هذا الوجه وكذا قوله :

وأقرى الهمومَ الطارقات حزامة[3]

---

(١) يمدح أباه المعتز لما تولى الخلافة ومطلعها :ـ

عرف الدار فحيا وناحا　　بعد ما كان صحا واستراحا
ظل يلحاه العذول ويأبى　　فى عنان العذل إلا جماحا
علمونى كيف أسلو وإلا　　فخذوا من مقلتى الملاحا

وبعده

إن عفا لم يلغ لله حقا　　أو سطا لم يخش منه جناحا
ألف الهيجاء طفلا وكهلا　　يحسب السيف عليه وشاحا

(٢) وفى الإيضاح وأحيا الأحياء

(٣) أى نعيم بن الحارث بن يزيد السعدى وقيل هذلول بن كعب العنبرى وكلاهما جاهلى وتمام البيت ، إذا كثرت للطارقات الوساوس ، وقبله .

تقول وصكت صدرها بيمينها　　أبعلى هذا بالرحى المتقاعس
فقلت لها لاتعجبى وتبينى　　بلائى إذا التفت على الفوارس
ألست أرد القرن يركب ردعه　　وفيه سنان ذو غرارين يابس

هو استعارة من جهة المفعولين جميعا فأما من جهة الفاعل فهو محتمل للحقيقة وذلك أن تقول : أقرى الأضياف النازلين اللحم العبيط[١] ومثله قوله[٢] : «قرى الهم إذ ضاف الزَّماع»[٣] وقد يكون الذى يعطيه حكم الاستعارة أحد المفعولين دون الآخر كقوله : [٤]

= إذا هاب أقوام تجسمت هول ما   يهاب حمياه الألد المداعس
لعمر أبيك الخير إنى لخادم   لضيفى وإنى إن ركبت لفارس

ومن حديث ذلك أن هــذا السعدى وكان مملكا نزل به أضياف فقام إلى الرحى فطحن لهم فمرت به زوجته فى نسوة فقالت لهن : أهذا بعلى ؟ فأعلم بذلك فقال هذه المقالة كذا فى الكامل ، وأقرى : مسند للمتكلم من قرى الضيف ، والحزامة الحزم وفى الأساس قالوا ربما كان من الحزامة (بالفتح) أن تجعل أنفك فى الحزامة (بالكسر).

(١) الطرى.

(٢) هو القتال الكلابى عبد الله بن المضرحى ابن عامر من ربيعة شاعر أموى جنى جناية فى قومه فأخرجوه فقال هذه الأبيات التى أولها :-

إذا هم همًّا لم ير الليــل غمة   عليه ولم تصعب عليه المراكب
قرى الهم إذ ضاف الزماع فأصبحت   منازله تعتسّ فيها الثعالب
جليــد كريم خيمه وطباعه   على خير ما تبنى عليه الضرائب
إذا جاع لم يفرح بأكلة ساعة   ولم يبتئس من فقدها وهو ساغب
يرى أن بعد العسر يسرا ولا يرى   إذا كان يسر أنه الدهر لازب

(٣) المضاء والمراد أنه إذا نزل به الهم أقراه شجاعة ومضاء وعزيمة صادقة.

(٤) هو القطامى من قصيدة يمدح بها أبا الهذيل زفر بن الحرث الكلابى وكان قد أنقذه من أسره وحمله وكساه ، وكان سيد قيس فى زمانه وهو تابعى من أهل الجزيرة شهد وقعة صفين مع معاوية ، ومطلعها :

ما اعتاد حب سليمى غير معتاد   ولا تقضى بواقى دينها الصادى
بيضاء محطوطة المتنين بهكنة   ريا الروادف لم تمغل بأولاد

ومنها :

وفى الخدور غمامات برقن لنا   حتى تصيدننا من كل مصطاد
يقتلننا بحديث ليس يعلمــه   من يتقين ولا مكنونه بادى
فهن ينبذن من قول يصبن به   مواقع الماء من ذى الغلة الصادى

نقريهم لهذميات نقدُ بها ما كان خاط عليهم كل زرّاد

فصـــل

اعلم أن الاستعارة كما علمت تعتمد التشبيه أبداً وقد قلت إن طرقه تختلف ووعدتك الكلام فيه، وهذا الفصل يعطى بعض القول فى ذلك بإذن الله تعالى وأنا أريد أن أدرجها من الضعف إلى القوة وأبدأ فى تنزيلها[1] ثم بما يزيد فى الارتفاع لأن التقسيم إذا ارتفع[2] فى خارج من الأصل[3] فالواجب أن يبدأ بما كان أقل خروجا منه وأدنى مدى فى مفارقته. وإذا كان الأمر كذلك فالذى يستحق بحكم هذه الجملة أن يكون أولا من ضروب الاستعارة أن يرى[4] معنى الكلمة المستعارة موجوداً فى المستعار له من حيث عموم جلسه على الحقيقة، إلا أن لذلك الجنس خصائص ومراتب فى الفضيلة والنقص، والقوة والضعف، فأنت تستعير لفظ الأفضل لما هو دونه ومثاله استعارة الطيران[5] لغير ذى الجناح إذا أردت السرعة، وانقضاض الكواكب[6] للفرس إذا أسرع فى حركته من

= وقيل البيت :

لم نر قوما هم شر لإخوتهم منا عشية يجرى بالدم الوادى

واللهذم كجعفر : القاطع من الأسنة وتلهذمه ولهذمه : قطعه، وأصل الخياطة ضم خرق القميص استعارها لضم حلق الدرع، واللفظ الدال عليها حقيقة هو السرد.

(١) يظهر أن الأصل بأنزلها

(٢) المناسب (وقع)

(٣) أى الحقيقة

(٤) صوابه ما يرى فيه.

(٥) كما سيأتى فى قوله :

وطرت بمنصلى فى يعملات دوامى الأيدى يخبطن السريحا

(٦) كقول ابن الرومى :

خذها تبوعا لمن ولى مسوّمة كأنها كوكب فى إثر عفريت

علو ، والسباحة له[1] إذا عدا عدواً كان حاله فيه شبيها بحالة السابح فى الماء . ومعلوم أن الطيران والانقضاض والسباحة والعدو كلها جنس واحد من حيث الحركة على الإطلاق إلا أنهم نظروا إلى خصائص الأجسام فى حركتها فأفردوا حركة كل نوع منها باسم . ثم إنهم إذا وجدوا فى الشىء فى بعض الأحوال شبها من حركة غير جنسه استعاروا له العبارة من ذلك الجنس فقالوا فى غير ذى الجناح طار كقوله[2] :

* وطرت بمُنْصُلى فى يَعْمَلات *

وكما جاء فى الخبر « كلما سمع هَيْعَةً طار إليها »[3] وكما قال[4]

---

(١) كقول المتنبى فى وصف الفرس : * سبوح لها منها عليها شواهد *
وقول أبى نواس :

فانصاع كالكوكب فى انحداره لفت المسير موهنا بناره

وقول خلف الأحمر :

كالكوكب الدرى منصلتا عدا يفوت الطرف أسرعه

(٢) هو مضرس بن ربعى الأسدى شاعر جاهلى وتمامه :

* دوامى الأيدى يخبطن السريحا *

وقبله وفتيان شويت لهم شواء سريع الشىّ كنت به نجيحا
وبعده وقلت لصاحبى لاتحبسنا بنزع أصوله واجتز شيحا

يريد أنه قام مسرعا إلى نوق ، فعقرهن ودميت أيديهن تخبطن السيور المشدودة على أرجلهن ، واليعملة : النجيبة من الإبل المطبوعة على العمل كذا فى اللسان مادة جزز فليراجع ، والمنصل بزنة قنفذ : السيف ، وتفتح الصاد . وبه فسر الحديث ، وفعله : هاع يهيع ؛ إذا جبن . ولفظ الحديث خير الناس رجل ممسك بعنان فرسه فى سبيل الله كلما سمع هيعة طار إليها .

(٣) الهيعة : صوت الصارخ للفزع أو الصوت الذى تفزع منه وتخافه من عدو

(٤) القائلة امرأة من بلحرث بن كعب ترثى قتيلا :

وقبله فارساً ما غادروه ملحما غـير زميل ولا نكس وكل
وبعده غير أن البأس منه شيمة وصروف الدهر تجرى للأجل

لو يشـــا طار به ذو ميعة لاحق الآطال نهد ذو خُصل[١]

ومن ذلك أن « فاض » موضوع لحركة الماء على وجه مخصوص وذلك أن يفارق مكانه دفعة فينبسط ثم إنه استعير للفجر كقوله[٢]

• كالفجر فاض على نجوم الغيهب •

لأن للفجر انبساطا وحالة شبيهة بانبساط الماء وحركته فى فيضه .

فأما استعارة « فاض » بمعنى الجود فنوع آخر غير ماهو المقصود ههنا لأن القصد الآن إلى المستعار الذى توجد حقيقة معناه من حيث الجنس فى المستعار له ، وكذلك قول أبى تمام:[٣]

وقد نثرتهم روعة ثم أحدقوا به مثلما ألفت عقداً منظماً

(١) الميعة أول جرى الفرس وأنشطه والآطال جمع إطل بكسر فسكون ، وبكسرتين وهى الخاصرة والنهد الفرس العظيم .

(٢) هو البحترى يمدح مالك بن طوق التغلبي من قصيدة مطلعها

رحلوا فأية عبرة لم تسكب أسفا وأى عزيمة لم تغلب

ومنها ولقد أبيت على الكواكب راكبا أعجازها بعزيمة كالكوكب

والليل فى لون الغراب كأنه هو فى حلوكته وإن لم ينعب

إلى أن قال يصف بنى تغلب :

قوم إذا قيل النجاء فمالهم غير الحفائظ والردى من مهرب

يمشون تحت ظبي السيوف إلى الردى مشى العطاش إلى برود المشرب

يتراكمون على الأسنة فى الوغى كالفجر فاض على نجوم الغيهب

(٣) يمدح أبا سعيد محمد بن يوسف الثغرى ومن قصيدة مطلعها :

عسى وطن يدنو بهم ولعلما وإن تغلب الأيام فيهم فربما

وقبله ولما التقى البشران أنقع بشرنا لبشرهم حوضا من الموت مفعما

وساعده تحت البيات فوارس تخالهم فى فحمة الليل أنجما

وقول المتنبي[1]

نثرتَهم فوق الأحيدب نثرة　　كما نُثرت فوق العروس الدراهم

استعارة لأن النثر فى الأصل للأجسام الصغار كالدراهم والدنانير والجواهر والحبوب ونحوها؛ لأن لها هيئة مخصوصة فى التفرق لا تأتى فى الأجسام الكبار، ولأن القصد بالنثر أن تجتمع أشياء فى كف أو وعاء ثم يقع فعل تتفرق معه دفعة واحدة، والأجسام الكبار لا يكون فيها ذلك لكنه لما اتفق فى الحرب تساقطُ المنهزمين على غير ترتيب ونظام كما يكون فى الشىء المنثور عبر عنه بالنثر، ونسب ذلك إلى الممدوح إذ كان هو سبب ذلك الانتثار. فالتفرق الذى هو حقيقة النثر من حيث جنس المعنى وعمومه موجود فى المستعار له بلا شبهة. ويبينه أن النظم فى الأصل لجمع الجواهر وما كان مثلها فى السلوك ثم لما حصل فى الشخصين من الرجال أن يجمعهما الحاذق المبدع فى الطعن فى رمح واحد ذلك الضرب من الجمع عبر عنه بالنظم كقولهم «انتظمهما برمحه»، وكقوله[2]

* قالوا أينظم فارسين بطعنة *

---

(١) يخاطب سيف الدولة من قصيدته التى مطلعها:

على قدر أهل العزم تأتى العزائم　　وتأتى على قدر الكرام المكارم

وقبله　ومن طلب الفتح الجليل فإنما　　مفاتيحه البيض الخفاف الصوارم

(٢) أى بكر بن النطاح يمدح قاسم بن عيسى المكنى بأبى دلف العجلى قائد المعتصم ومن حديث ذلك أن أكرادا قطعوا الطريق فى عمله فلقى جماعة منهم وقد أردف فارس منهم رفيقا له فطعنهما وقتلهما معا إذ نفذت الطعنة من الأول إلى رديفه فتحدث الناس بأنه نظم فارسين بطعنة، فلما قدم دخل عليه بكر فأنشده:

وإذا بدا لك قاسم يوم الوغى　　يختال خلت أمامه قنديلا

وإذا تعرض للعمود ولِيه　　خلت العمود بكفه منديلا

قالوا وينظم فارسين بطعنة　　يوم اللقاء ولا يراه جليلا

لا تعجبوا فلو ان طول قناته　　ميل إذاً نظم الفوارس ميلا =

وكان ذلك استعارة لأن اللفظة وقعت فى الأصل لما يجمع فى السلوك من الحبوب والأجسام الصغار إذ كانت تلك الهيئة فى الجمع تخصها فى الغالب ، وكان حصولها فى أشخاص الرجال من النادر الذى لا يكاد يقع وإلا فلو فرضنا أن يكثر وجوده فى الأشخاص الكبيرة لكان لفظ النظم أصلا وحقيقة فيها كما يكون حقيقة فى نحو الحبوب

وهذا النحو[1] لشدة الشبه فيه يكاد يلحق بالحقيقة ومن هذا الحد قوله[2]

وفى يدك السيف الذى امتنعت به صفاة الهدى من أن ترق فتخرقا

وذلك أن أصل الخرق أن يكون فى الثوب وهو فى الصفاة استعارة لأنه لما قال « ترق » قربت حالها من حال الثوب وعلى ذلك فإنا نعلم أن الشق والصدع حقيقة فى الصفاة ونعلم أن الخرق يجامعها فى الجنس لأن الكل تفريق وقطع ، ولو لم يكن الخرق والشق واحداً لما قلت : شققت الثوب ، والشق عيب فى

= فأمر له بعشرة آلاف درهم فقال :

له راحة لو أن معشار جودها على البر كان البر أندى من البحر
له همم لا منتهى لكبارها وهمته الصغرى أجل من الدهر

واحتذاه أبو تمام فقال يمدح عمر بن نوح السكسكى الكندى :

ثبت المقام يرى القبيلة واحدا ويرى فيحسبه القبيل قبيلا
لو أن طول قناته يوم الوغى ميل إذاً نظم الفوارس ميلا

(١) أى ما اتفقا فيه حسا واختلفا نوعا كاستعارة الطيران للجرى والنثر للتفرق

(٢) هو البحترى يمدح محمد بن يوسف الثغرى ومطلعها :

لأوشك شعب الحى أن يتفرقا فيدمى الجوى أو يرجع الحب أولقا

وبعده وما أظلم الإسلام إلا تألقت نواحيه فى لألائها فتألقا

إذا أمراء الناس عفوا تقية عففت ولم تقصد لشىء سوى التقى

والصفاة الحجر الصلد لا ينبت شيئا والأولق الجنون وشبهه .

الثوب « وتشقق الثوب » قولَ من لا يستعير ولكن لو قلت « خرق الحشمة » لم يكن من الحقيقة فى شىء وكان خارجاً من هذا الفن الذى نحن فيه لأنه ليس هناك شق . ولو جاء شق الحشمة أو صدع مثلا كان كذلك أعنى لا يكون له أصل فى الحقيقة ولا شبه بها .

ومن هذا الضرب قوله تعالى (ومزقناهم كل ممزق) يعد استعارة من حيث إن التمزيق للثوب فى أصل اللغة إلا أنه على ذلك راجع إلى الحقيقة [١] من حيث إنه تفريق على كل حال وليس يحسن [٢] غيره إلا أنهم خصوا ما كان مثل الثوب بالتمزيق كما خصوه بالخرق ، وإلا فأنت تعلم أن تمزيق الثوب تفريق بعضه من بعض . ومثله إن القطع إذا أطلق فهو لإزالة الاتصال من الأجسام التى تلتزق أجزاؤها وإذا جاء فى تفريق الجماعة وإبعاد بعضهم من بعض كقوله تعالى : (وقطعناهم فى الأرض أمما) كان شبه الاستعارة [٣] وإن كان المعنى فى الموضعين على إزالة الاجتماع ونفيه فإن قلت « قطع عليه كلامه » أو قلت « تقطع الوقت » بكذا كان نوعا آخر .

ومن الاستعارة القريبة من الحقيقة قولهم « أثرى فلان من المجد وأفلس من المروءة » [٤] وكقوله [٥]

---

(١) أى إلى حقيقة واحدة فيهما .

(٢) صوابه بجنس .

(٣) أى كان استعارة قريبة من الحقيقة .

(٤) الأصل أن يقال أثرى فلان أى صار عنده ثرى أى تراب ندى فهو خصب ينبت ، وأترب : أى صار عنده تراب أى غير ندى لاينبت ، فاستعمال الأول فى الغنى والثانى فى الفقر استعمال فى اللازم ، وكذا أفلس أى صار ذا فلوس وهى أقل مايعرف من النقود فاستعمل فى الفقر بطريق اللزوم .

(٥) أى المتنبي يمدح رجلا يسمى أبا الفضل من ذوى الثراء ومطلعها .

إن كان أغناها السلو فإننى أمسيت من كبدى ومنها معدما

وذلك أن حقيقة الإثراء من الشىء كثرته عندك ووصف الرجل بأنه كثير المجد أوقليل المروءة كوصفه بأنه كثير العلم أو قليل المعرفة فى كونه حقيقة[١] وكذلك إذا قلت أثرى من الشوق أو الوجد أو الحزن كما قال[٢]

وفى الركاب حريب من الغرام ومثرى

فهو كقولك كثر شوقه وحزنه وغرامه . وإذا كان كذلك فهو فى أنه نقل إلى شىء جنسه جنس الذى هو حقيقة فيه بمنزلة «طار»[٣] أو «طر» أمرأ منه . وكذا معنى أعدم من المال أنه خلا منه وأن المال يزول عنه ، فإذا أخبر أن كبده قد ذهبت عنه فهو فى حقيقة من ذهب ماله وعدمه ، والعدْم[٤] فى المال وفى غير المال بمنزلة واحدة لا تتغير له فائدة[٥] ، والمعدم[٦] موضوع لمن

= كنى أرانى ويك لومك ألوما هم أقام على فؤادى أنجما

وقبله ياوجه داهية التى لولاك ما أكل الضنى جسمى ورض الأعظما

وبعده غصن على نقوى فلاة نابت شمس النهار تقل ليلا مظلما

وداهية اسم محبوبته .

(١) أى استعارة قريبة من الحقيقة

(٢) هو البحترى يمدح محمد بن بدر ومطلعها :

شدما أغمرت ظلوم بهجرى بعد وجدى بها وغلة صدرى

والرواية للبيت الذى هنا .

قد وقفنا على الديار وفى الركـ ـب حريب من الغرام ومثرى

والحريب المحروب أى المسلوب المال يقال حرمه ماله أى سلبه إياه وتركه بلا شىء

(٣) يعنى أن استعمال الإثراء فى الوجد كاستعمال «طار» فى العدو .

(٤) العدم بالضم وبضمتين وبالتحريك فقدان الشىء وغلب على فقدان المال

(٥) إذ أن المؤدى والغاية واحدة .

(٦) هذا هو أصل اللغة قبل غلبة الاستعمال فيما جنسه جنس المال .

عدم مايحتاج إليه، فالكبد مما يحتاج إليه، وكذلك المحبوبة، فإنما[1] تقع هذه العبارة فى نفسك موقع الغريب من حيث إن العرف[2] جرى فى الإعدام[3] بأن يطلق على من عدم ماجنسه جنس المال. ويؤنسك بما قلت أنك لو قلت: عدم كبده - لم يكن مجازاً، ولم تجد بينه وبين: خلا من كبده وزالت عنه كبده، كبير فرق. ألا تراك تقول الفرس عادم للطحال[4] تريد ليس له طحال، وهذا كلام لا استعارة فيه، كما أنك لو قلت: الطحال معدوم فى الفرس - كان كذلك.

ومن اللائق بهذا الباب البين أمره ما أنشده أبو العباس فى الكامل من قول الشاعر[5]

لم تلق قوماً هُمُ شر لإخوتهم … منا عشية يجرى بالدم الوادى

نَقريهمُ لهذَميات نقدُّ بها … ما كان خاط عليهم كل زرّاد

قال لأن الخياطة تضم خرق القميص والزراد[6] يضم حلق[7] الدرع أفلا تراه بين أن جنسهما واحد وأن كلا منهما ضمٌّ ووصل، وإنما يقع الفرق من حيث إن الخياطة ضم أطراف الخرق بخيط يسلك فيها على الوجه المعلوم والزَّرْدُ ضم حلق الدرع بمداخلة توجد بينهما إلا أن الشكاك[8] الذى

---

(١) الصواب وإنما .

(٢) أى عرف الاستعمال بعد وضع اللغة .

(٣) هو مصدر أعدم اللازم بمعنى افتقر .

(٤) ومن ثم لاتتعبه سرعة السير إذ الطحال هو الذى يتأثر بالتعب .

(٥) هو القطامى من القصيدة التى تقدمت .

(٦) صوابه والزرد .

(٧) الحلقة بفتح الحاء وكسرها وسكون اللام جمعها حلق وحلق بفتح الحاء وكسرها وحلقات .

(٨) الشكاك ككتاب : البيوت أو الخيام المصطفة ويراد به هنا ما تنظم فيه أشياء متعددة فى نظام واحد .

يُلزم أحد طرفى الحلقة الآخر بدخوله فى ثقبتيهما فى صورة الخيط الذى يذهب فى منافذ الإبرة[١] واستقصاء القول فى هذا الضرب والبحث عن أسراره لايمكن إلا بعد أن تقرر الضروب المخالفة له من الاستعارة فأقتصر منه على القدر المذكور وأعود إلى القسمة.

﴿وضرب ثان﴾ يشبه هذا الضرب الذى مضى وإن لم يكن إياه وذلك أن يكون الشبه مأخوذاً من صفة هى موجودة فى كل واحد من المستعار له والمستعار منه على الحقيقة وذلك قولك « رأيت شمساً » تريد إنسانا يتهلل وجهه كالشمس فهذا له شبه باستعارة « طار » لغير ذى الجناح وذلك أن الشبه مراعى فى التلألؤ وهو كما يعلم موجود فى نفس الإنسان المتهلل ، لأن رونق الوجه الحسن فى حس البصر مجانس لضوء الأجسام النيرة. وكذلك إذا قلت « رأيت أسداً » تريد رجلا فالوصف الجامع بينهما هو الشجاعة وهى على حقيقتها موجودة فى الإنسان وإنما يقع الفرق بينه وبين السبع الذى استعرت اسمه له فيها من جهة القوة والضعف والزيادة والنقصان ، وربما ادعى لبعض الكماة والبُهَم[٤] مساواة الأسد فى حقيقة الشجاعة التى عمود صورتها انتفاء المخافة عن القلب حتى لا تخامره ، وتفرق خواطره ، وتحلل عزيمته فى الإقدام على الذى يباطشه ويريد قهره. وربما كف الشجاع عن الإقدام على العدو لا لخوف يملك قلبه ويسلبه قواه ولكن كما يكف المنهى عن الفعل لا تخونه فى تعاطيه قوة. وذلك أن العاقل من حيث الشرع منهى عن أن يهلك

(٢) إذ الحلقات غير مفرغة فالذى يجمع بين طرفى كل حلقة هو انشكاك يذهب من الحلقات يجمع طرفى كل واحدة.

(٣) الكماة جمع كمى على غير قياس وهو لابس السلاح والفعل تكمي وأكمي، والبهم بضم ففتح جمع بهمة وهو من يستبهم على أقرانه مأتاه.

نفسه ، ألا [١] ترى أن البطل الكمى إذا عدم سلاحا يقاتل به فلم ينهض إلى العدو كان فاقداً شجاعته وبأسه ومتبرئاً من النجدة التى يعرف بها .

ثم إن الفرق بين هذا الضرب وبين الأول أن الاشتراك ههنا فى صفة توجد فى جنسين مختلفين مثل أن جنس الإنسان غير جنس الشمس وكذلك جنسه غير جنس الأسد ، وليس كذلك الطيران وجرى الفرس فإنهما جنس واحد بلاشبه [٢] ، وكلاهما مرور وقطع للمسافة وإنما يقع الاختلاف بالسرعة . وحقيقة السرعة قلة تخلل السكون للحركات وذلك لايوجب اختلافا فى الجنس

(فإن قلت) : فاذن لافرق بين استعارة «طار» للفرس وبين استعارة الشفة للفرس فهلا عددت هذا فى القسم اللفظى غير المفيد ؟ ثم أنك إن اعتذرت بأن فى «طار» خصوص وصف ليس فى «عدا» و «جرى» فكذلك فى الشفة خصوص وصف ليس فى الجحفلة .

(فالجواب) إنى لم أعده فى ذلك القسم لأجل أن خصوص الوصف الكائن فى «طار» يراعى فى استعارته للفرس ، ألا تراك لاتقوله فى كل حال بل فى حال مخصوصة ؟ وكذا السباحة لأنك لاتستعيرها للفرس فى كل أحوال جريه ، نعم وتأبى أن تعطيها كل فرس ، فالقطوف [٣] البليد لايوصف بأنه سابح . وأما استعارة اسم لعضو نحو الشفة والأنف فلم يراع فيه خصوص الوصف ، ألا ترى أن العجاج لم يرد بقوله «ومرسنا مسرجا» أن يشبه أنف المرأة بأنف نوع من الحيوان لأن هذا العضو من غير الإنسان لايوصف

---

(١) الصواب حذف (لا) كما يدل عليه السياق .

(٢) صوابه شبهة .

(٣) هو سيء السير بطيئه .

بالحسن كما يكون ذلك فى العين والجيد[1] . وهكذا استعارة الفرسن للشاة فى قول عائشة رضى الله عنها : « ولو فِرْسِن شاه »[2] وهو للبعير فى الأصل ليس لأن يشبه هذا العضو من الشاة به من البعير . كيف ولا شبه هناك وليس إذن فى مجىء الفرسن بدل الظلف أمر أكثر من العضو نفسه .

° ° °

﴿وضرب ثالث﴾ وهو الصميم الخالص من الاستعارة . وحده أن يكون الشبه مأخوذاً من الصور العقلية وذلك كاستعارة النور للبيان والحجة الكاشفة عن الحق المزيلة للشك النافية للريب كما جاء فى التنزيل من نحو قوله عز وجل (واتبعوا النور الذى أنزل معه) وكاستعارة الصراط للدين فى قوله تعالى : (اهدنا الصراط المستقيم * وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم) فأنت لا تشك فى أنه ليس بين النور والحجة ما بين طيران الطائر وجرى الفرس من الاشتراك فى عموم الجنس ، لأن النور صفة من صفات الأجسام محسوسة والحجة كلام ، وكذا ليس بينهما ما بين الرجل والأسد من الاشتراك فى طبيعة معلومة تكون فى الحيوان كالشجاعة ، فليس الشبه الحاصل من النور فى البيان والحجة ونحوهما إلا أن القلب إذا وردت عليه الحجة صار فى حالة شبيهة بحال البصر إذا صادف النور ووجهت طلائعه نحوه ، وجال فى معارفه[3] وانتشر ، وانبث فى المسافة

---

(١) أى كما فى قول المجنون .

فعيناك عيناها وجيدك جيدها   على أن عظم الساق منك دقيق

(٢) الفرسن بكسر الفاء والسين خف البعير وقد استعير للشاة ولفظ الحديث كما فى البخارى عن أبى هريرة يا نساء المسلمات لا تحقرن جارة لجارتها ولو فرسن شاة وفى رواية عن عائشة « يا نساء المؤمنين تهادوا ولو فرسن شاة »

(٣) المعارف جمع معرف بكسر الراء وفتحها وهى الوجه بما يشتمل عليه وسمى بذلك لأن معرفة الأجسام وتمييزها به يقال امرأة حسنة المعارف أى حسنة الوجه وما يظهر منها ويقال حيا الله المعارف أى الوجوه .

التى يسافر طرف الإنسان فيها . وهذا كما تعلم شبه لست تحصل منه على جلس ، ولا على طبيعة وغريزة ، ولا على هيئة وصورة تدخل فى الخلقة ، وإنما هو صورة عقلية .

واعلم أن هذا الضرب هو المنزلة التى تبلغ عندها الاستعارة غاية شرفها ، ويتسع لها كيف شاءت المجال فى تفننها وتصرفها ، وههنا تخلص لطيفة روحانية ، فلا يبصرها إلا ذوو الأذهان الصافية ، والعقول النافذة ، والطباع السليمة ، والنفوس المستعدة لأن تعى الحكمة ، وتعرف فصل الخطاب . ولها ههنا أساليب كثيرة ؛ ومسالك دقيقة مختلفة . والقول الذى يجرى مجرى القانون والقسمة يغمُض فيها إلا أن مايجب أن تعلم فى معنى التقسيم لها أنها على أصول :

(أحدها) أن يؤخذها الشبه من الأشياء المشاهدة والمدركة بالحواس على الجملة[1] للمعانى المعقولة (وثانيها) أن يؤخذ الشبه من الأشياء المحسوسة لمثلها إلا أن الشبه مع ذلك عقلى (وثالثها) أن يؤخذ الشبه من المعقول للمعقول

فمثال مايجرى على الأصل الأول ماذكرت لك من استعارة النور للبيان والحجة ، فهذا شبه أخذ من محسوس لمعقول . ألا ترى أن النور مشاهد محسوس بالبصر والبيان والحجة مما يؤديه إليك العقل من غير واسطة من العين أوغيرها من الحواس ، وذلك[2] أن الشبه ينصرف إلى المفهوم من الحروف

---

(١) ذكر هذا لإدخال التشبيه الخيالى الذى يؤلف من أمور محسوسة وإن كان معدوم الوجود كما فى قول أبى الغنائم الحمصى فى تشبيه الأصابع والوشم الذى عليها بسمك من البلور فى قوله

خود كأن بنانها فى خضرة النقش المزرد
سمك من البلور فى شبك تكون من زبرجد

(٢) هذا دفع لما يقال : إن الحجة كلام والكلام أصوات فالاستعارة من محسوس لمحسوس .

والأصوات، ومدلول الألفاظ هو الذى ينور القلب لا الألفاظ. هذا والنور يستعار للعلم نفسه أيضاً والايمان ، وكذلك حكم الظلمة إذا استعيرت للشبهة والجهل والكفر، لأنه لاشبهة فى أن الشبهة والشكوك من المعقول . ووجه التشبيه[١] أن القلب يحصل بالشبهة والجهل فى صفة البصر إذا قيده دجى الليل فلم يجد منصرفا[٢] وإن استعيرت للضلالة والكفر فلأن صاحبهما كمن يسعى فى الظلمة فيذهب فى غير الطريق وربما دفع إلى هلك وتردى فى أهوية[٥]

ومن ذلك استعارة القسطاط للعدل ونحو ذلك من المعانى المعقولة التى تعطى غيرها صفة الاستقامة والسداد كما استعاره الجاحظ فى فصل يذكر فيه علم الكلام فقال: « وهو المعيار على كل صناعة ، والزمام على كل عبارة ، والقسطاط الذى به يستبان نقصان كل شىء ورجحانه ، والراووق[٤] الذى به يعرف صفاء كل شىء وكدره ، وهكذا إذا قيل فى النحو إنه ميزان الكلام ومعياره فهو أخذ شبه من شىء هو جسم يحس ويشاهد لمعنى يعلم ويعقل ولا يدخل فى الحاسة وذلك أظهر وأبين من أن يحتاج فيه إلى فضل بيان. وأما تفننه وسعته وتصرفه من مرضى ومسخوط ومقبول ومرذول فحق الكلام فيه بعد أن يقع الفراغ من تقرير الأصول.

ومثال الأصل الثانى وهو أخذ الشبه من المحسوس للمحسوس ثم الشبه عقلى قول النبى صلى الله عليه وسلم « إياكم وخضراء الدمن »[٥] الشبه مأخوذ

---

(١) الصواب الشبه .

(٢) أى إن الشبهة والجهل يمنع العقل من إدراك الحقائق كالبصر إذا اشتدت على صاحبه ظلمة الليل فلم يدر من أين يذهب .

(٣) الهلك بالضم اسم مصدر والأهوية بضم الهمزة وتشديد الياء الوهدة العميقة

(٤) هو المصفاة والباطية وناجود الشراب الذى يروق به الكأس .

(٥) وتمام الحديث وقيل وماذاك قال المرأة الحسناء فى المنبت السوء ، شبه المرأة =

للمرأة من النبات كما لايخفى وكلاهما جسم إلا أنه لم يقصد بالتشبيه لون النبات وخضرته ولا طعمه ولا رائحته ولا شكله وصورته ولا ماشاكل ذلك ، ولا مايسمى طبعاً كالحرارة والبرودة المنسوبتين فى العادة إلى العقاقير وغيرها مما يسخن بدن الحيوان ويبرد بحصوله فيه ولاشىء من هذا الباب بل القصد شبه عقلى بين المرأة الحسناء فى المنبت السوء وبين تلك النابتة على الدمنة وهو حسن الظاهر فى رأى العين مع فساد الباطن وطيب الفرع مع خبث الأصل كما أنهم إذا قالوا[1]

هو عسل إذا ما ياسرته وإن عاسرته فهو صاب

كما قال :

عسل الأخلاق ما ياسرته فإذا عاشرت ذقت السلعا[2]

فالتشبيه عقلى ، إذ ليس الغرض الحلاوة والمرارة اللتين تصفهما لك المذاقة ويحسهما الفم واللسان ، وإنما المعنى أنك تجد منه فى حالة الرضى والموافقة مايملؤك سروراً وبهجة حسب مايجد ذائق العسل من لذة الحلاوة ؛ ويهجم عليك فى حالة السخط والإباء مايشدد كراهتك ويكسبك كرباً ويجعلك فى حال من يذوق المر الشديد المرارة ، وهذا أظهر من أن يخفى .

ومن هذا الأصل استعارة الشمس للرجل تصفه بالنباهة والرفعة والشرف

= على هذه الحال بما ينبت فى الدمن من الكلأ يكون له غضارة وهو وبىء المرعى منتن الأصل ، والدمنة الموضع الذى فيه السرقين (الزبل) .

(١) ليس هذا بشعر إلا إذا أصلح هكذا .

فإذا ياسرته فهو شهد وإذا عاسرته فهو صاب

أو هو إن ياسرته عسل وإذا ما عاسرته صاب

أو هو كالشهد إذا ياسرته وإذا عاسرته فهو صاب

(٢) ياسره لاينه وساهله وضده عاسره ، والسلع بالتحريك شجر مر من فصيلة الصبر

والشهرة وما شاكل ذلك ، من الأوصاف العقلية المحضة ، التى لا تلابسها إلا بغريزة العقل ، ولا تعقلها إلا بنظر القلب .

ويظهر من ههنا[١] أصل آخر وهو أن اللفظة الواحدة تستعار على طريقين مختلفين ، ويذهب بها فى القياس والتشبيه مذهبين : أحدهما يفضى إلى ماتناله العيون ، والآخر يومىء إلى ما تمثله الظنون ، ومثال ذلك قولك : «نجوم الهدى » تعنى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضى الله عنهم ، فانه استعارة توجب شبهاً عقليا لأن المعنى أن الخلق بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم اهتدوا بهم فى الدين كما يهتدى السارون بالنجوم . وهذا الشبه باق لهم إلى يوم القيامة ، فبالرجوع إلى علومهم وآثارهم وفعالهم وهديهم تنال النجاة من الضلالة ، ومن لم يطلب الهدى من جهتهم فقد حرم الهدى ووقع فى الضلال ، كما أن من لم ينظر إلى النجوم فى ظلام الليل ، ولم يتلق دلالتها على المسالك التى تفضى إلى العمارة ومعادن السلامة وخالفها وقع فى غير الطريق ، وصار بتركه الاهتداء بها إلى الضلال البعيد ، والهلك المبيد ، فالقياس على النجوم فى هذا ليس على حد تشبيه المصابيح بالنجوم أو النيران فى الأماكن المتفرقة[٢] ، لأن الشبه هناك من حيث الحس والمشاهدة لأن القصد إلى نفس الضوء واللمعان ، والشبهُ ههنا من حيث العقل ، لأن القصد إلى مقتضى ضوء النجوم وحكمه وعائدته ثم مافيها من الدلالة على المنهاج ، والامن من الزيغ عنه والاعوجاج ، والوصول بهذه الجملة منها إلى دار القرار ومحل الكرامة ، نسأل الله تعالى أن يرزقنا ذلك ، ويديم توفيقنا للزوم ذلك الاهتداء ، والتصرف فى

(١) أى من تشبيه الرجل بالشمس باعتبار البريق واللمعان تارة وباعتبار النباهة والرفعة أخرى

(٢) الظاهر : المرتفعة

هـذا الضياء ، إنه عز وجل ولىّ ذلك والقادر عليه .

ومما لا يكون الشبه فيه الا عقليا قولنا فى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم «ملح الأنام» وهو مأخوذ من قوله عليه السلام : «مثل أصحابى كمثل الملح فى الطعام لا يصلح الطعام إلا بالملح» قالوا : فكان الحسن[1] رحمة الله عليه يقول : قد ذهب ملحنا فكيف نصنع ؟ فأنت تعلم أن لا وجه ههنا للتشبيه إلا من طريق الصورة العقلية ، وهو أن الناس يصلحون بهم كما يصلح الطعام بالملح ، والشبه بين صلاح العامة بالخاصة ، وبين صلاح الطعام بالملح لا يتصور أن يكون محسوساً . وينطوى هذا التشبيه على وجوب موالاة الصحابة رضى الله عنهم ، وأن تمزج محبتهم بالقلوب والأرواح ، كما يمزج الملح بالطعام ، فباتحاده به ومداخلته لأجزائه يطيب طعمه ، وتذهب عنه وخامته ، ويصير نافعاً مغذياً . كذلك بمحبة الصحابة رضى الله عنهم تصلح الاعتقادات ، وتنتفى عنها الأوصاف المذمومة ، وتطيب وتغذو القلوب ، وتنمى حياتها . وتحفظ صحتها وسلامتها ، وتقيها الزيغ والضلال والشك والشبهة والحيرة .

وأما حكمه فى حال القلب[2] من حيث العقل فحكم الفساد الذى يعرض لمزاج البدن من أكل الطعام الذى لم يصلح بالملح ، ولم تنتف عنه المضار التى من شأن الملح أن يزيلها . وعلى ذلك جاء فى صفتهم أن حبهم إيمان ، وبغضهم نفاق . هذا ولا معنى لصلاح الرجل بالرجل إلا صلاح نيته واعتقاده ، ومحال أن تصلح

(١) هو أبو سعيد الحسن بن أبى الحسن يسار البصرى من سادات التابعين وكبرائهم جمع إلى العلم الورع والزهد والتقوى وفيه يقول أبو عمرو بن العلاء ما رأيت أفصح منه ومن الحجاج . وكان أبوه مولى زيد بن ثابت وأمه خيرة مولاة أم سلمة زوج النبي عليه السلام وتوفى سنة ١١٠ هجرية بالبصرة .

(٢) أى العكس وهو عدم محبتهم .

نيتك واعتقادك بصاحبك وأنت لا تراه معدن الخير ومعانه[١] وموضع الرشد ومكانه ، ومن علمته كذلك مازجتك محبته لا محالة ، وسيط[٢] وده بلحمك ودمك وهل تحصل من المحبة إلا على الطاعة والموافقة فى الإرادة والاعتقاد وقياسه قياس الممازجة بين الأجسام ، ألا تراك تقول فلان قريب من قلبي تريد الوفاق والمحبة ، وعلى هذه الطريقة جرى تمثيلهم النحو بالملح فى قولهم : « النحو فى الكلام ، كالملح فى الطعام » إذ المعنى إن الكلام لا يستقيم ولا تحصل منافعه التى هى الدلالات على المقاصد إلا بمراعاة أحكام النحو فيه من الإعراب والترتيب الخاص كما لا يجدى الطعام ولا تحصل المنفعة المطلوبة منه وهى التغذية ، مالم يصلح بالملح .

فأمّا مايتخيلونه من أن معنى ذلك - إن القليل من النحو يغنى ، وإن الكثير منه يفسد الكلام ، كما يفسد الملح الطعام إذا كثر فيه ، فتحريف وقول بما لا يتحصل على البحث . وذلك أنه لا تتصور الزيادة والنقصان فى جريان أحكام النحو فى الكلام . ألا ترى أنه إذا كان من حكمه فى قولنا « كان زيد ذاهباً » أن يرفع الاسم وينصب الخبر ، لم يخل هذا الحكم من أن يوجد أو لا يوجد ، فإن وجد فقد حصل النحو فى الكلام وعدل مزاجه به ونفى عنه الفساد ، وأن

(١) مباءة ومنزل وموضع بطريق حاج الشام قال أبو العلاء المعرى :

معان من أحبتنا معـــان تجيب الصاهلات به القيان

يريد إن هؤلاء الذين ينزلون بذلك الموضع ملوك عندهم أداة الحرب وأسباب الرفاهية

(٢) سيط : خلط وينسب إلى على كرم الله وجهه :-

محمد النبى أخى وصهرى وحمزة سيد الشهداء عمى
وجعفر الذى أمسى وأضحى يطير مع الملائكة ابن أمى
وبنت محمد سكنى وعرسى مسوط لحمها بدمى ولحمى
سبقتكم إلى الإسلام طراً صغيراً مابلغت أوان حلمى
فمن منكم له سهمى وقربى ومن منكم له سهم كسهمى

يكون كالطعام الذى لا يغذو البَدن[1] وإن لم يوجد فيه فهو فاسد كائن بمنزله طعام لم يصلح بالملح فسامعه لا ينتفع به بل يستضر ، لوقوعه فى عمياء وهجوم الوحشة عليه كما يوجبه الكلام الفاسد العارى من الفائدة . وليس بين هاتين المنزلتين واسطة يكون استعمال النحو فيها مذموماً ، وهكذا القول فى كل كلام . وذلك أن إصلاح الكلام الأول بإجرائه على حكم النحو لا يغنى عنه فى الكلام الثانى والثالث حتى يتوهم أن حصول النحو فى جملة واحدة من قصيدة أو رسالة يصلح سائر الجمل ، وحتى يكون إفراد كل جملة بحكمها منه تكريراً له وتكثيراً لأجزائه ، فيكون مثله مثل زيادة أجزاء الملح على قدر الكفاية .

وكذلك لا يتصور فى قولنا « كان زيد منطلقاً » أن يتكرر هذا الحكم ويتكثر على هذا الكلام فيصير النحو كذلك موصوفا بأن له كثيراً هو مذموم ، وأن المحمود منه القليل ، وإنما وزانه فى الكلام وزان وقوف لسان الميزان حتى يلجىء عن مساواة ما فى إحدى الكفتين الأخرى . فكما لا يتصور فى تلك الصفة زيادة ونقصان حتى يكون كثيرها مذموما وقليلها محموداً ، كذلك الحكم فى الصفة التى تحصل للكلام بإجرائه على حكم النحو ووزنه بميزانه . فقول أبى بكر الخوارزمى[2] : « والبغض[3] عندى كثرة الأعراب » كلام

---

(١) المصدر المؤول معطوف على الفساد أى ونفى عنه كونه كالطعام الخ .

(٢) هو محمد بن العباس الكاتب الشاعر الأديب اللغوى النسابة الرحالة المتوفى سنة ٣٨٣ ﻫ

(٣) من أرجوزته التى منها :

الملك عندى متعة الشباب	والعذل عندى فرقة الأحباب
والفقر عندى عدم الشراب	والشيب عندى كذب الخضاب
والروض عندى ملح الأعراب	والبغض عندى كثرة الإعراب
والقبح عندى عدم الآداب	والعرس عندى ليلة الكتاب
والسيف عندى قلم الكتاب	والنجح عندى سرعة الإياب

لانحصل منه على طائل ؛ لأن الإعراب لايقع فيه قلة وكثرة إن اعتبرنا الكلام الواحد والجملة الواحدة وإن اعتبرنا الجمل الكثيرة وجعلنا إعراب هذه الجملة مضموماً إلى إعراب تلك فهى الكثرة التى لابد منها ، ولا صلاح مع تركها ، والخليق بالبغض من ذمها[1] وإن كان أراد نحو قول الفرزدق[2]

وما مثله فى الناس إلا مملكا   أبو أمه حىّ أبوه يقاربه

وما كان من الكلام معقداً موضوعا على التأويلات المتكلفة فليس ذلك بكثرة وزيادة فى الإعراب بل هو بأن يكون نقصاً له ونقضاً أولى ؛ لأن الإعراب هو أن يعرب المتكلم عما فى نفسه ويبينه ويوضح الغرض ويكشف اللبس ، والواضع كلامه على المجازفة فى التقديم والتأخير زائل عن الإعراب ، زائغ عن الصواب ، متعرض للتلبيس والتعمية ، فكيف يكون ذلك كثرة فى الإعراب ؟ إنما هو كثرة عناء على من رام أن يرده إلى الإعراب ، لا لكثرة الإعراب ، وهذا هو كالاعتراض على طريق شجون[3] الحديث ، ويحتاج إليه فى أصل كبير وهو أن من حق العاقل ألا يتعدى بالتشبيه الجهة المقصودة ولاسيما فى العقليات ، وارجع إلى النسق .

« ومثال الأصل الثالث » وهو أخذ الشبه من المعقول للمعقول . وأول ذلك

---

(١) جملة من مبتدأ وخبر .

(٢) يمدح إبراهيم بن هشام المخزومى خال هشام بن عبد الملك وكان واليا على المدينة

(٣) يشير إلى المثل المشهور (الحديث ذو شجون) أى ذو فنون متشعبة تأخذ منه فى طرف فلا تلبث حتى تأخذ فى آخر ويعرض لك منه مالم تكن تقصده وهو جمع شجن وقد جمع بعضهم هذا المثل وأمثالا أخرى فى قوله :

تذكر نجدا والحديث شجون   فجن اشتياقا والجنون فنون

يشير إليه وإلى قوله : ذكرتنى الطعن وكنت ناسيا ، والجنون فنون

وأعمه تشبيه الوجود من الشيء مرة بالعدم ، والعدم مرة بالوجود[١] ، أما الأول فعلى معنى أنه لما قل[٢] فى المعانى التى بها يظهر للشيء قَدْر ، ويصير له ذكر ، صار وجوده كلا وجود[٣] وأما الثانى فعلى معنى أن الفانى كان موجوداً ثم فقد وعدم ، إلا أنه لما خلف آثاراً جميلة تحيي ذكره ، وتديم فى الناس اسمه ، صار لذلك كأنه لم يعدم . وأما ماعداهما من الأوصاف فيجيء فيها طريقان (أحدهما)[٤] هذا وذلك فى كل موضع كان موضوع التشبيه فيه على ترك الاعتداد بالصفة وإن كانت موجودة لخلوها مما هو ثمرتها والمقصود منها ، والذى إذا خلت منه لم تستحق الشرف والفضل .

تفسير هذا أنك وصفت الجاهل بأنه ميت وجعلت الجهل[٥] كأنه موت على معنى أن فائدة الحياة والمقصود منها هو العلم والإحساس فتى عدمهما الحى فكأنه قد خرج عن حكم الحى ، ولذلك جعل النوم موتا[٦] إذ كان النائم لايشعر بما بحضرته كما لا يشعر الميت .

والدرجة الأولى فى هذا أن يقال : فلان لايعقل وهو بهيمة وحمار وما أشبه ذلك مما يحطه عن معانى المعرفة الشريفة ، ثم أن يقال : فلان لايعلم ولا يفقه ولايحس فينفى عنه العلم والإحساس جملة لضعف أمره فيه ، وغلبة الجهل عليه ،

---

(١) المناسب فى العبارة بالعدم مرة والعدم بالوجود مرة

(٢) فاعل قل يعود إلى الموجود المستنبط من الوجود .

(٣) وإلى نحو هذا أشار بعضهم بقوله :

خلقوا وماخلقوا لمكرمة فكأنهم خلقوا وماخلقوا

(٤) والثانى هو ماسيأتى فى قوله والطريق الثانى فى شبه المعقول الخ

(٥) صحة العبارة أنك إذا وصفت الجاهل بأنه ميت جعلت الجهل الخ

(٦) كما جاء فى الحديث الذى أمرنا بالدعاء به عند الانتباه من النوم : الحمد لله الذى أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور .

ثم تجعل[1] التعريض تصريحاً فيقال : هو ميت خارج من الحياة وهو جماد، توكيداً وتناهياً فى إبعاده عن العلم والمعرفة وتشدداً فى الحكم بأن لامطمع فى انحسار غيابة[2] الجهل عنه وإفاقته مما به من سكرة الغىّ والغفلة، وأن يؤثر فيه الوعظ والتنبيه .

ثم لما كان هذا مستقرى[3] فى العادة أعنى جعل الجاهل ميتاً خرج[4] منه أن يكون المستحق لصفة الحياة هو العالم المتيقظ لوجه الرشد، ثم لما لم يكن علم أشرف وأعلى من العلم بوحدانية الله تعالى وبما نزله على النبي صلى الله عليه وسلم جعل من حصل له[5] العلم بعد أن لم يكن كأنه إنما وجد الحياة وصارت صفة له مع وجود نور الإيمان فى قلبه وجعل حالته السابقة التى خلا فيها من الإيمان كحالة الموت التى تعدم معه الحياة وذلك قوله تعالى (أو من كان ميتاً فأحييناه) وأشباه ذلك .

ومن هذا الباب قولهم « فلان حى القلب » يريدون أنه ثاقب الفهم، جيد النظر مستعد لتمييز الحق من الباطل فيما يرد عليه، بعيد من الغفلة التى هى كالموت، ويذهبون به فى وجه آخر وهو أنه حرك[6] نافذ فى الأمور غير بطىء النهوض، وذلك أن هذه الأوصاف من أمارات الصحة واعتدال المزاج وتوقد نار الحياة، وهذا يصلح فى الإنسان والبهائم لأنه تعريض بالقدرة والقوة . والمذهب الأول إشارة إلى العلم والعقل وكلتا الصفتين أعنى القدرة والعلم مما يشرف به الحى

(١) الأنسب « يجعل » بالبناء للمفعول ليوافق ماقبله ومابعده .
(٢) هى ما أظل الإنسان من فوق رأسه كالسحابة والغبرة .
(٣) الصواب « مستقرا » فى العادة من استقر أى ثبت .
(٤) أى لزم منه بطريق العكس .
(٥) يظهر أن الأصل «هذا العلم»
(٦) هو صفة مشبهة بمعنى خفيف ذكى من حرُك بالضم يحرك حركة وحركا

ومما يضاده[١] الموت وينافيه . ولما كان الأمر كذلك صار إطلاق الحياة مرة عبارة عن العلم وأخرى عن القدرة ، وإطلاق الموت إشارة إلى عدم القدرة وضعفها تارة ، وإلى عدم العلم وضعفه أخرى .

والقول الجامع فى هذا أن تنزيل الوجود منزلة العدم إذا أريد المبالغة فى حط الشىء والوضع منه وخروجه عن أن يعتد به كقولهم هو والعدم سواء ـ معروف متمكن فى العادات وربما دعاهم الإيغال وحب السرف إلى أن يطلبوا بعد العدم منزلة هى أدون[٢] منه حتى يقعوا فى ضرب من التهوّس[٣] كقول أبى تمام : [٤]

ه وأنت أنزر من لا شىء فى العدد ه

وقول ابن نباتة : [٥]

مازلت أعطف أيامى فتمنحنى　　نيلا أدق من المعدوم فى العدم

---

(١) الصواب «يضاد»

(٢) فعله دان يدون: إذا خس ، والدون الخسيس ، والشريف ضدّه

(٣) الصواب «الهوس» ، وهو ضرب من الجنون وفعله هوس كفرح لأن التهوس مصدر المطاوع .

(٤) يهجو محمد بن يزيد الشيبانى ، أو عبدالصمدبن المعذّل ومطلعها :

أفىّ تنظم قول الزور والفند　　وأنت أنزر من لا شىء فى العدد

أسرجت قلبك من بغضى على حرق　　أضرّ من حرقات الهجر للجسد

أنحفت جسمك حتى لو هممت بأن　　ألهو بصفعك يوما لم تجدك يدى

والفند بالتحريك الخطأ فى القول والرأى ، والكذب ، والخرف لهرم أو مرض

وقال أيضا فى هجو محمد بن إبراهيم الرافقى :

هب من له شىء يريد حجابه　　مابال لاشىء عليه حجاب

(٥) من قصيدة قالها فى صباه مطلعها :

تضاءل الدهر حتى ضاع فى هممى　　واستفحل الجد حتى صار من شيمى

فلو يكون سواد الشعر فى ذممى　　ما كان للشيب سلطان على اللمم

فالعيش من نعمى والموت من نقمى　　وحكمة الفلك الدوّار من حكمى =

ويتفرع[1] على هذا إثبات الفضيلة للمذكور بإثبات اسم (الشيء) له ويكون ذلك على وجهين :

(أحدهما) أن يزيد[2] المدح وإثبات المزية والفضل على غاية المبالغة حتى لايحصل عليه مزيداً[3] فإذا أردت ذلك جعلت الإثبات كأنه مقصور عليه لايشارك فيه وذلك قولك « هذا هو الشيء وما عداه[4] فليس بشيء » أى إن ماعداه إذا قيس إليه صغُر وحقُر حتى لايدخل فى اعتداد وحتى يكون وجدانه كفقدانه ، فقدنزلت الوجود فيمن عدا المذكور منزلة العدم . وإما أن[5] يكون التفضيل على توسط ويكون القصد الإخبار بأنه غير ناقص على الجملة

= والحزم والعزم فى الأقوام من خلق كما الفصاحة فى الأقوال من كلمى
لو يعلم الناس قدرى فى زمانهم صلوا لوجهى واشتاقوا ثرى قدمى
وبعد البيت :
حتى تخوف صرف الدهر بادرتى فرد كفى وأوما أن يسد فمى

وابن نباتة كنية لثلاثة ، أولهم هذا ، وهو أبو نصر عبدالعزيز بن عمر الملقب بالسعدى ينتهى نسبه إلى زيد بن مناة من تميم مدح سيف الدولة وغيره من الملوك والرؤساء توفى سنة ٤٠٥ هجرية ، وثانيهم ابن نباته المصرى وهو جمال الدين محمد بن محمد الخطيب الشاعر الرقيق المتوفى سنة ٧٦٨ هجرية ، وثالثهم أبو يحيي عبد الرحيم بن محمد بن اسماعيل صاحب الخطب التى لم يعمل مثلها ، كان خطيب حلب ، اجتمع بأبى الطيب فى خدمة سيف الدولة وتوفى سنة ٢٧٤

(١) أى يتولد من إعطاء اسم المعدوم للموجود بطريق الصراحة إعطاؤه له بطريق اللزوم فى كل تركيب يقصر فيه اسم الجنس على واحد من أفراده فيلزم نفى اسم الجنس عما عدا ذلك الفرد كما شرحه فى كلمة «الشيء» وكلمة «الرجل» فيما سيأتى .

(٢) الصواب «تريد» بدليل مابعده .

(٣) صوابه «مزيد» بالرفع إلا إذا قرئ «تحصل» بالتاء

(٤) هذا تصريح بما فهم من القصر ولامانع من ذلك إلا إذا كانت الأداة ما وإلا

(٥) هذا هو الوجه الثانى .

ولا ملغى منزل منزلة المعدوم وذلك قولك « هذا شىء » أى داخل فى الاعتداد. وفى هذه الطريقة أيضاً تفاوت فإنك تقول مرة « هذا إما لاشىء » تريد[١] أن تقول إن الآخر ليس بشىء ولا اعتداد به أصلا. وتقول أخرى «هذا شىء» تريد شىء له قدر وخطر، وتجرى لك هذه الوجوه فى أسماء الأجناس كلها تقول: هذا هو الرجل أى إن من عداه ليس من الرجولية فى شىء. وهذا هو الشعر فحسب: تبالغ فى التفضيل وتجعل حقيقة الجنس مقصورة على المذكور، وتقول « هذا رجل » تريد إنه كامل فى الرجال، لا أن من عداه ليس برجل على الكمال، وقد تقول[٢] « هذا إما لا رجل » تريد يستحق أن يعد فى الرجال، ويكون قصدك أن تشير إلى أن هناك واحداً آخر لايدخل فى الاعتداد أصلا ولا يستحق اسم الرجل.

وإذا كان هذا هو الطريق المهيع[٣] فى الوضع[٤] من الشىء وترك الاعتداد به والتفضيل[٥] له والمبالغة فى الاعتداد به، فكل صفتين تضادتا ثم أريد نقص الفاضلة منهما عبر عن نقصها باسم ضدها فجعلت الحياة العارية من فضيلة العلم والقدرة موتاً، والبصرُ والسمعُ إذا لم ينتفع صاحبهما بما يسمع ويبصر فلم يفهم

---

(١) فى العبارة تصحيف شنيع وصوابه :ماشىء إلا هذا لاتريد ... الخ
(٢) فيها تصحيف أيضا وتصحح كسابقتها «مارجل إلا هذا» تريد أنه يستحق أن يعد فى الرجال ولايكون قصدك .. الخ
(٣) من هاع يهيع هياعا : إذا اتسع وانتشر وطريق مهيع : واضح وجمعه : مهايع أنشد ابن برى : —

إن الصنيعة لا تكون صنيعة حتى يصاب بها طريق مهيع

وقد شذ عن القياس فصحح، وكان الحكم أن يعل لأنه مفعل مما اعتلت عينه.
(٤) الحط من قدره
(٥) صوابه: أو التفضيل له ... الخ.

معنى المسموع ولم يعتبر بالمبصر أو لم يعرف حقيقته - عمًى وصمما ، وقيل للرجل «هو أعمى أصم» - يراد أنه لا يستفيد شيئاً مما يسمع ويبصر فكأنه لم يسمع ولم يبصر . وسواء عبرت عن نقص الصفة بوجود ضدها أو وصفها[1] بمجرّد العدم ، وذلك أن فى إثبات أحد الضدين وصفا للشىء ونفيا[2] للضد الآخر لاستحالة أن يوجدا معاً فيه فيكون الشخص حيا ميتا معا ، أصم سميعا فى حالة واحدة . فقولك فى الجاهل : هو ميت بمنزلة قولك : ليس بحىّ ، وأن الوجود فى حياته بمنزلة العدم . هذا هو ظاهر المذهب[3] فى الأمر والحكم إذا أطلق القول .

فأما[4] إذا قيد كقوله : «أصم عما ساءه سميع» فتثبت له الصفتان معاً على الجملة . إلا أن مرجع ذلك إلى أن يقال إنه كان يفقد السمع فى حال ويعود إليه فى حال أو إنه فى حق هذا الجنس فاقد الإدراك مسلوبه وفيما عداه كائن على حكم السميع فلم يثبت له الصمم على الجملة إلا للحكم بأن وجود سمعه كالعدم ، إلا أن ذلك فى شىء دون شىء وعلى التقييد دون الإطلاق .

فقد تبين إذن أن أصل هذا الباب تنزيل الموجود منزلة المعدوم لكونه بحيث لا يعتد به وخلوه من الفضيلة .

° ° °

---

(١) صوابها وسواء فى ذلك أعبرت عن نقص الصفة بوجود ضدها أو وصفتها الخ

(٢) الصواب «نفيا» بلا واو لأنه اسم أن ، وأتى بهذا لدفع ما يتوهم من أن إثبات الضد ليس من باب عدم الصفة ، وهو أصل البحث ، فأجاب بأنه من باب نفى الصفة ضمنا أو لزوما فهو مما نحن فيه

(٣) أى هو الكثير فى استعمالهم

(٤) أى بهذه الجملة لدفع ما يتوهم من قوله فيما سبق لاستحالة أن يوجدا معا ، فأجاب بأن هذا باختلاف الحالين .

(والطريق الثانى)[١] فى شبه[٢] المعقول من المعقول ألا يكون على تنزيل الوجود منزلة العدم ولكن[٣] على اعتبار صفة معقولة[٤] يتصور وجودها مع ضد ما استعرت اسمه. فمن ذلك أن يراد وصف الأمر بالشدة والصعوبة والبلوغ فى كونه مكروها إلى الغاية القصوى فيقال «لقى الموت» يريدون لقى الأمر الشديد الصعب الذى هو فى كراهة النفس له كالموت. ومعلوم أن كون الشىء شديداً صعباً مكروها صفة معلومة[٥] لا تنافى الحياة ولا يمنع وجودها معه كما يمنع[٦] وجود الموت مع الحياة[٧]. ألا ترى أن كراهة الموت موجودة فى الإنسان قبل حصوله؟ كيف وأكره ما يكون الموت إذا صفت مشارع الحياة، وخصبت مسارح اللذات، فكلما كانت الحياة أمكن وأنم: كانت الكراهة للموت أقوى وأشد، ولم تخفّ كراهته على العارفين إلا لرغبتهم فى الحياة الدائمة الصافية من الشوائب بعد أن تزول عنهم هذه الحياة الفانية ويدركهم الموت فيها، فتصوُّرهم لذة الأمن منه، قلل كراهتهم له، كما أن ثقة العالم بما يعقبه الدواء من الصحة يهوّن عليه مرارته. فقد عبرت ههنا عن شدة[٨] الأمر

(١) والطريق الأول ماسبق فى صفحة ٨٢ فى قوله طريقان أحدهما

(٢) المناسب أن تكون العبارة هكذا «فى أخذ شبه من المعقول للمعقول»

(٣) تصوير للطريق الثانى وفيه فارق بين الطريقين.

(٤) الصفة المعقولة كشدة الأمر والكراهة ويتصور وجودها مع الحياة، وهو ضد ما استعرت لها اسمه وهو الموت.

(٥) صوابها «معقولة»

(٦) صواب العبارة «ولا يمتنع وجودها معها كما يمتنع»

(٧) أى كما يمتنع وجود وجه الشبه فى ضد المستعار عند استعارة الموت للحياة التى لافائدة فيها، لأن عدم الفائدة لا يكون مع ثبوت الحياة، وبهذا يفترق الطريق الأول عن الطريق الثانى.

(٨) من إضافة الموصوف إلى الصفة أى الأمر الشديد

بالموت واستعرته له من أجلها . والشدة وحصولها الكراهة موجودة فى كل واحد من المستعار له والمستعار منه ، فليس[1] التشبيه إذن من طريق الحكم على الوجود بالعدم وتنزيل ماهو موجود كأنه قد خلع صفة الوجود ، وذلك أن هذا الحكم إنما جرى فى تشبيه الجهل بالموت ، وجعل الجاهل ميتا من حيث كان للجهل ضدٌ ينافى الموت ويضاده وهو العلم ، فلما أردت أن تبالغ فى نفى العلم الذى يجب مع نفيه الجهل ، جعلت الجهل موتاً لتؤيس من حصول العلم للمذكور ، وليس لك هذا فى وصف الأمر الشديد المكروه بأنه موت ، ألا ترى أن قوله[2]

لاتحسبن الموت موت البلى وإنما الموت سؤال الرجال

لا يفيد أن للسؤال ضداً ينافى الموت أو يضاده على الحقيقة وأن هذا القائل قصد بجعل السؤال موتا نفى ذلك الضد وأن يؤيس من وجوده وحصوله ، بل

(١) بيان للفرق بين الطريقين .

(٢) أى مطرف بن عبدالله بن الشخير البصرى تابعى ثقة عالم فاضل . روى عن أبى هريرة توفى سنة ٩٥ هـ ، ومن حديثه أنه قال لابن أخيه : يا ابن أخى إذا كانت لك حاجة إلىّ فاكتب بها فى رقعة ؛ فإنى أصون وجهك عن ذل السؤال ، ثم قال :

يأيها المتعب بذل الجمال وطالب الحاجات من ذوى النوال
لاتحسبن الموت موت البلى وإنما الموت سؤال الرجال
كلاهما موت ولكن ذا أشد من ذاك لذل السؤال

وفى نسخة : أشد من ذاك على كل حال

قال الجاحظ فى الحيوان : قد سمعت أبا عمرو أى الشيبانى ، وقد بلغ من استجادته لهذين البيتين ونحن فى المسجد يوم الجمعة أن كلف رجلا حتى أحضر دواة وقرطاسا حتى كتبهما له ، وأنا أزعم أن صاحب هذين البيتين لايقول شعرا أبدا ولولا أن أدخل فى بعض القيل لزعمت أن ابنه لايقول شعرا أيضا ــ ونقدهما فى البيان والتبين بما يقرب من هذا ، ثم قال : ولولا أن أكون عيابا وللعلماء خاصة لصورت لك بعض ما سمعت من أبى عبيدة ، ومن هو أبعد فى وهمك من أبى عبيدة .

أراد أن فى السؤال كراهة ومرارة مثل مافى الموت . وأن نفس الحر تنفر منه كما تنفر نفوس الحيوان جملة من الموت وتطلب الحياة ما أمكن الخلاص منه

فإن قلت : المعنى فيه إن السؤال يكسب الذل وينفى العز ، والذليل كالميت لفقد القدرة والتصرف ، فصار كتسميتهم خمول الذكر موتاً ، والذكر بعد الموت حياة ، كما قال أمير المؤمنين (١) علىّ رضى الله عنه « مات خُزّان المال والعلماء باقون مابقى الدهر ، أعيانهم مفقودة ، وأمثالهم فى القلوب موجودة »

(قلت) إنى آنس أنهم لم يقصدوا هذا المعنى فى السؤال ، وإنما أرادوا الكراهة ، ولذلك قال بعد البيت الذى كتبته :

كلاهما موت ولكن ذا أشدّ من ذاك لذل السؤال

هذا . وليس كل مايعبر عنه بالموت لأنه يكره ويصعب ولا يستسلم له العاقل إلا بعد أن تعوزه الحيل فإنه يحمل هذا المحمل وينقاد لهذا التأويل ، أترى المتنبي فى قوله :

وقد مت أمس بها (٢) موتة ولا يشتهى الموت من ذاقه

---

(١) لكميل بن زياد النخعى من موعظة طويلة فى نهج البلاغة ومنها : يا كميل هلك خزان الأموال وهم أحياء والعلماء باقون ما بقى الدهر أعيانهم مفقودة وأمثالهم فى القلوب موجودة .

(٢) من أبيات قالها وقد عرض عليه بدر بن عمار الصحبة للشراب غدا ، فقال ارتجالا

وجدت المدامة غلابة تهيج للقلب أشواقه
تسىء من المرء تأديبه ولكن تحسن أخلاقه
وأنفس ما للفتى لبه وذو اللب يكره إنفاقه

وبعدها البيت الذى هنا ، ومن هذا تعلم أن الضمير فى (بها) يعود إلى المدامة ؛ وإساءتها للمرء غلبتها إياه فتخرجه من قيود الحشمة فى اللفظ والحركات ، وتحسينها لأخلاقه أنها تغلب منه الخوف والبخل فيشجع ويسخو .

أراد شيئاً غير أنه لقي شدة. وأما العبارة عن خمول الذكر بالموت، فإنه وإن كان يدخل في تنزيل الوجود منزلة العدم من حيث يقال إن الخامل لما لم يذكر ولم يبن منه ما يتحدث به صار كالميت الذي لا يكون منه قول بل ولا فعل يدل على وجوده، فليس دخوله فيه ذلك الدخول، وذلك أن الجهل ينافي العلم ويضاده كما لا يخفى، والعلم إذا وجد فقد وجدت الحياة حتماً واجباً، وليس كذلك خمول الذكر والذكرُ، لأنه ليس إذا وجد الذكر فقد وجدت الحياة لأنك تحدّث عن الميت بأفعاله التي كانت منه في حال الحياة فيتصور الذكر ولا حياة على الحقيقة، ولا يتصور العلم ولا حياة على الحقيقة، وهكذا القول في الطرف الآخر وهو تسمية من لا يعلم ميتاً، وذلك أن الموت ها هنا عبارة عن عدم العلم وانتفائه، وعدم العلم على الإطلاق حتى لا يوجد منه شيء أصلا وحتى لا يصح وجوده يقتضي وجود الموت على الحقيقة. ولا يمكن أن يقال إن خمول الذكر يوجب الموت على الحقيقة. فأنت إذن في هذا تنزل الوجود منزلة العدم على وجه لا ينصرف إلى الحقيقة ولا يصير إليها وإنما يمثل ويخيل.

وأما في الضرب الأول وهو جعل من لا يعلم ميتاً ومن يعلم هو الحي فإنك تلاحظ الحقيقة وتشير إليها وتحطب في حبلها[1] فاعرفه[2]

---

(١) أي تنصرها وتميل إليها، وحطب من باب ضرب.

(٢) خلاصة هذا أن تشبيه المعقول بالمعقول جاء على ضربين:

ا ــ تنزيل الصفة الموجودة منزلة عدمها وبالعكس وذلك على وجهين:

١ ـ حقيقة: وضابطه أن يكون للصفة المستعار لها ضدّ يتنافى مع المستعار، ويكون القصد حينئذ من الاستعارة التيئيس من حصول ذلك الضد كاستعارة الموت للجهل.

٢ ـ على ضرب من التخييل: وضابطه ألا يكون هناك تناف بين المستعار وضدّ ما استعرت له كاستعارة الموت لخمول الذكر.

وأما قولهم فى الغنىّ إذا كان بخيلا لا ينتفع بماله « إن غناه فقر » فهو فى[1] الضرب الأول أعنى تنزيل الوجود منزلة العدم لتعرى الوجود مما هو المقصود منه . وذلك أن المال لا يراد لذاته ، وإنما يراد للانتفاع به فى الوجوه التى تعدها العقلاء انتفاعا ، فإذا حرم مالكه هذه الجدوى وهذه الفائدة ، فملكه له وعدم الملك سواء . (والغنى[2] إذا صرف إلى المال فلا معنى له سوى ملك الإنسان الشىء الكثير منه ، ألا تراه يذكر مع الثروة فيقال غنى مثر مكثر) فإذا تبين بالعلة التى مضت أنه لا يستفيد بملكه هذا المال معنى ، وأن لا طائل له فيه ، فقد ثبت أن غناه والفقر سواء ، لأن الفقر ألا يملك المال الكثير .

وأما قول اللؤماء : إن انتفاعه فى اعتقاده أنه متى شاء انتفع به ، وما يجد فى نفسه من عزة الاستظهار[3] ، وأنه يهاب ويكرم من أجله ؛ فمن أضاليل المنى[4] : وقد يهان ويذل بسببه حتى تنزع الروح دونه .

ثم إن هذا الكلام وضعه العقلاء الذين عرفوا ما الانتفاع ؟ وهذا المخالف لا ينكر أن الانتفاع لو عدم كان ملكه الآن لمال وعدم ملكه سواء ، وإنما جاء يتطلب عذراً ، ويرخى دون لؤمه ستراً ، ونظير هذا أنك ترى الظالم المجترئ على الأفعال القبيحة يدعى لنفسه الفضيلة بأنه مديد الباع ، طويل اليد ، وأنه قادر

= ب — ألا يكون على تنزيل الوجود منزلة العدم بل على اعتبار صفة معقولة يتصور وجودها مع ضد ما استعرت اسمه وذلك كاستعارة الموت للأمر الشديد وذل السؤال ويصح أن تكون استعارة الموت لذل السؤال من الضرب الأول على بعد .

(١) صوابه من

(٢) من قوله «والغنى» إلى قوله «مكثر» جملة معترضة لبيان معنى الغنى فى العرف إذا أضيف إلى المال ليقابل به المعنى الآتى للغنى فى قولهم «القناعة غنى»

(٣) الاستعانة

(٤) جمع أضلولة والمنى والمنية بالضم والكسر : البغية وما يتمنى ، وجمع الأمنية : أمان وأمانى .

على أن يلجئ غيره إلى التطامن[١] له، ثم لا يزيده احتجاجه إلا خزياً وذلا عند الله وعند الناس. وترى المصدق[٢] له فى دعواه أذم له وأهجى من المكذب لأن الذى صدقه أيس من أن ينزع إلى الإنسانية بحال، والذى كذب رجا أن ينزع عند التنبيه والكشف عن القبيح.

وأما قولهم فى القناعة إنها الغنى كقوله:[٣]

« إن القنوع[٤] الغنى لا كثرة المال »

يريد القناعة[٥]، وكما قال الآخر:

إن القناعة فاعلق غنى ... والحرص يورث أهله الفقرا

وجعلهم الكثير المال[٦] إذا كان شرها حريصاً على الازدياد فقيراً.

---

(١) تطامن له: خضع وذل

(٢) أى فى الظاهر.

(٣) لإسحاق بن إبراهيم الموصلى فى أبيات هى

إلى متى أنا فى حل وترحال ... من طول سعى وإدبار وإقبال

ونازح الدار لا أنفك مغتربا ... عن الأحبة لا يدرون ما حالى

بمشرق الأرض طورا ثم مغربها ... لا يخطر الموت من حرص على بالى

ولو قنعت أتانى الرزق فى دعة ... إن القنوع الغنى لا كثرة المال

وله أيضا: هى المقادير تجرى فى أعنتها ... فاصبر فليس لها صبر على حال

يوما تريش خسيس الحال ترفعه ... إلى السماء ويوما تخفض العالى

وقنع من باب فرح قناعة وقنعا وقنعانا: رضى، وفيه لغة حكاها ابن السكيت: قنع من باب خضع قنوعا وعليها البيت.

(٤) هو بالضم السؤال فقنع يقنع كسأل يسأل وزنا ومعنى والقناعة ضد القنوع فهى الرضا بما قسم الله. ومن دعائهم: نسأل الله القناعة ونعوذ به من القنوع. قال فى الأساس: العز فى القناعة والذل فى القنوع أي السؤال.

(٥) دفع بذلك توهم أن المراد بالقنوع فى البيت السؤال كما هو الكثير فى الاستعمال

(٦) هذا مقابل لقوله فيما سلف: والغنى إذا كان بخيلا ... الخ. والمراد أن الغنى البخيل فقير مجازا والحريص الشره مع كثرة المال فقير حقيقة.

فما يرجع إلى الحقيقة المحضة، وإن كان فى ظاهر الكلام كالتشبيه والتمثيل. وذلك أن حقيقة الغنى هو انتفاء الحاجة والحاجة أن تريد الشىء ولا تجده، والكثيرُ المال إذا كان الحرص عليه غالباً، والشره له أبداً صاحباً. وكان[١] حاله كحال من به كَلَب الجوع يأكل ولا يشبع، أو من به البغر[٢] يشرب ولا يروى، فكما أن إصابته من الطعام والشراب القدر الذى يشبع ويروى - إذا كان المزاج معتدلا والصحة صحيحة - لا تنفى عنه صفة الجائع والظمآن لوجود الشهوة ودوام مطالبة النفس وبقاء لهيب الظمأ وجهد العطش - كذلك الكثير المال لا تحصل له صفة الغنى ولا تزول عنه صفة الفقر، مع بقاء حرصه الذى يديم له القرَم[٣] والشهوة والحاجة والطلب والضجر حين يفقد الزيادة التى يريدها، وحين يفوته الربح من تجاراته، وسائر متصرفاته، حتى لا يكاد يفصل بين حاله، وقد فاته ماطلب، وبينها وقد أُخذ بعض ماله وغُصب، ومن أين تحصل حقيقة الغنى لذى المال الكثير، وقد تراه من بخله وشحه كالمقيد دون ماملكه والمغلول اليد يموت صبراً[٤] ويعانى بؤسا ولا تمتد يده إلى مايزعم أنه يملكه فينفقه فى لذة نفس أو فيما يكسب حمداً اليوم وأجراً غداً. ذاك لأنه عدم كرما يبسط أنامله، وجوداً ينصر آمله، وعقلا ينصره[٥]، وهمة تمكنه مما لديه، وتسلطه عليه، كما قال البحترى[٦]

---

(١) الصواب حذف الواو.
(٢) البغر - بالتحريك - عطش يصيب الإبل فتشرب ولا تروى وفعله كفرح ومنع
(٣) شدة شهوة أكل اللحم ويستعمل مجازا فى الشىء الشديد للشىء.
(٤) الموت صبرا: أن يحبس الشخص ويرمى حتى يموت، وفى اللسان: وصبر الإنسان على القتل نصبه عليه يقال قتله صبرا وقد نهى أن تصبر الروح.
(٥) صوابه «يبصره» بالتضعيف.
(٦) يمدح أبا العباس أحمد بن محمد بن ثوابة وكان كاتبا فى ديوان الخليفة =

وواجد مال أعوزته سجيـــة تسلطه يوما على ذلك الوُجد[1]

فقولهم إذن «إن القناعة هى الغنى لا كثرة المـال» إخبار عن حقيقة نفذت بها قضايا العقول وصححتها الخبرة والعبرة، ولكن رُب قضية من العقل نافذة قد صارت كأنها من الأمور المتجوز فيها أو دون ذلك فى الصحة لغلبة الجهل والسفه على الطباع، وذهاب من يعمل بالعقل ويذعن له، ويطرح الهوى، ويصبو إلى الجميل، ويأنف من القبيح، لذهاب الحياء وبطلانه، وخروج الناس من سلطانه، ويأس العاقل من أن يصادف عندهم - إن نبّه أو ذَكر - سمعا يعى، وعقلا يراعى، لجرىُ الغنى على كثرة المـال والفقر على قلته مما يزيله العرف عن حقيقته فى اللغة. ولمـا كان الظاهر من حال الكثير المـال أنه لا يعجز عن

= برياسة سليمان بن وهب، ومن حديث ذلك أن البحترى هجا بعض العمال وشرك معهم ابن ثوابة فبعث إليه بألف درهم وثياب ودابة بسرجها ولجامها فرد البحترى الهدية وقال قد أسلفتكم إساءة لا يجوز معها قبول رفدكم فكتب إليه ابن ثوابة أما الإساءة فمغفورة وأما المعذرة فمشكورة والحسنات يذهبن السيئات وما يأسو جراحك مثل يدك وقد رددت إليك ما رددته على، فإن تلافيت ما فرط منك أثبنا وشكرنا وإن لم تفعل احتملنا وصبرنا فقبل البحترى ما بعث به وكتب إليه والله كلامك أحسن من شعرى وقد أسلفتنى ما أخجلنى وسيأتيك ثنائى، ثم غدا إليـه بقصـيدة غراء مطلعها :

ضلال لها ماذا أرادت إلى الصد ونحن وقوف من فراق على حد
مزاولة أن تخلط الود بالقلى ومغرمة أن تلحق القرب بالبعد

وقبله: وقد دفعوا بخل الزمان بجوده ولا طب حتى يدفع الضد بالضد
مقيمين فى نعماء لا يبرحونها فواقا ولوبات المطى بهم تخدى
مخفضة أقدارهم دون قدره كما انخفضت سفلى تهامة عن نجد
فكم سبط منهم إذا اختبر امرؤ علالتـه ألفاه ذا خلق جعد

(١) الوجد - بالضم - مصدر وجد المطلوب بالفتح والكسر يجده بالكسر والضم وجدا وجدة ووجودا ووجدانا: أصابه وأدركه.

شيء يريده من لذاته وسائر مطالبه سمي المال الكثير غنى ، وكذلك لما كان من قل ماله عجز عن إرادته سمى قلة المال فقراً ، فهو من جلس تسمية السبب باسم المسبب وإلا لحقيقة[1] الغنى انتفاء الاحتياج وحقيقة الفقر الاحتياج ، والله تعالى الغنى على الحقيقة لاستحالة الاحتياج عليه جل وتعالى عن صفات المخلوقين . وعلى ذاك ما جاء فى الخبر من أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « أتدرون ما المفلس ؟ قالوا المفلس فينا يارسول الله من لا درهم له ولا متاع » قال : « المفلس من أمتى من يأتى يوم القيامة بصلاته وزكاته وصيامه فيأتى وقد شتم هذا وأكل مال هذا وقذف هذا وضرب هذا وسفك دم هذا ، فيعطَى هذا من حسناته وهذا من حسناته ، فإن فنيت حسناته قبل أن يفنى ماعليه من الخطايا أخذ من خطاياهم فطُرحت عليه ثم طُرح فى النار » وذاك أنه صلى الله عليه وسلم بين الحكم فى الآخرة فلما كان الإنسان إنما يعدّ غنياً فى الدنيا بماله لأنه يجتلب به المسرة ، ويدفع المضرة ، وكان هذا الحكم فى الآخرة للعمل الصالح ، ثبت لا محالة أن يكون الخالى - نعوذ بالله من ذلك - هو المفلس ، إذ قد عرى مما لأجله يسمى الخالى من المال فى الدنيا مفلساً ، وهو مايوصله إلى الخير والنعيم ، ويقيه الشر والعذاب الأليم ، نسأل الله التوفيق لما يُؤمِن من عقابه .

وإذا كان البحث والنظر يقتضى أن الغنى والفقر فى هذا الوجه[2] دالان على حقيقة هذا التركيب[3] فى اللغة كقولك غنيت عن الشيء واستغنيت عنه إذا لم تحتج إليه ، وافتقرت إلى كذا إذا احتجت إليه ، وجب

(١) أى إن لم ننظر إلى عرف اللغة ونظرنا إلى وضع اللغة الاول .
(٢) وجه الكلام السبيل المقصود به .
(٣) المراد به ماذكر بقوله : غنيت عن الشيء واستغنيت عنه .

ألا يعدواها [١] ههنا فى المستعار والمنقول عن أصله .

فصـــل

إن قال قائل ، إن تنزيل الوجود منزلة العدم ، أو العدم منزلة الوجود ليس من حديث التشبيه فى شىء لأن التشبيه أن يثبت [٢] لهذا معنى من معانى ذاك أو حكما [٣] من أحكامه كإثباتك للرجل شجاعة الأسد ، وللحجة حكم النور ، فى أنك تفصل بها بين الحق والباطل كما تفصل بالنور بين الأشياء . وإذا قلت فى الرجل القليل المعانى [٤] هو معدوم ، أو قلت هو والعدم سواء ، فلست تأخذ له شبها من شىء ، ولكنك تنفيه وتبطل وجوده كما أنك إذا قلت ليس هو بشىء ، أو ليس برجل كان كذلك . وكما لا يسمى أحد نحو قولنا « ليس بشىء » تشبيها كذلك ينبغى ألا يكون قولك ، وأنت تقلل الشىء أخبرت عنه « معدوم » تشبيها . وكذلك إذا جعلت المعدوم موجوداً كقولك مثلا للمال يذهب ويفنى ويثمر صاحبه ذكراً جميلا ، وثناء حسناً « إنه باق لك موجود » لم يكن ذلك تشبيها ، بل إنكاراً لقول من نفى عنه الوجود حتى كأنك تقول عينه باقية كما كانت . وإنما استبدل بصورة صورة ، فصار جمالا ؛ بعد ما كان مالا ، ومكارم ؛ بعد أن كان دراهم . وإذا ثبت هذا فى نفس الوجود والعدم ثبت

---

(١) ضمير التثنية عائد إلى الغنى والفقر وضمير المفعول عائد إلى الحقيقة .

(٢) المناسب تثبت بدليل مابعده .

(٣) الفرق بين الحكم والمعنى أنه إذا أثبتت صفة من صفات المشبه به للمشبه سمى ذلك المثبت معنى ، وإذا أثبت حكم من صفات المشبه به للمشبه سمى ذلك المثبت حكما وسيزيده المصنف إيضاحا فيما بعد

(٤) المعانى ماللإنسان من الأوصاف المحمودة كالعلم والخلق الحسن يقال فلان حسن المعانى كما قال (وجيران تنافوا فى المعانى) أى خالف بعضهم بعضا فى محمود الأوصاف .

فى كل ماكان على طريق تنزيل[١] الصفة الموجودة كأنها غير موجودة نحو ماذكرت من جعل الموت عبارة عن الجهل فلم يكن ذلك تشبيها؛ لأنه إذا كان لايراد بجعل الجاهل ميتا إلا نفى الحياة عنه مبالغة ، ونفى العلم والتمييز والإحساس الذى لا يكون إلا مع الحياة كان محصوله أنك لم تعتد بحياته ، وترك الاعتداد بالصفة لا يكون تشبيها، إنما هو نفى لها وإنكار لقول من أثبتها .

فالجواب أن الأمر كما ذكرت ، ولكن تتبعت فيما وضعته ظاهر الحال ، ونظرت إلى قولهم « موجود كالمعدوم ، وشىء كلاشىء ، ووجود شبيه بالعدم » فإن أبيت أن تعمل على هذا الظاهر لم أضايق فيه إلا أن من حقك أن تعلم أنه لاغنى بك عن حفظ الترتيب الذى رتبته فى إعطاء المعقول اسم معقول آخر ، أعنى لابد من أن تعلم أنه يجىء على طريقين .

(أحدهما) تنزيل الوجود[٢] منزلة العدم كما مضى من أن جعل الموت عبارة عن الجهل وإيقاع اسمه عليه يرجع إلى تنزيل حياته الموجودة كأنها معدومة

(والثانى) ألا يكون هذا المعنى ، ولكن على أن لأحد المعنيين شبها بالآخر نحو إن السؤال يشبه فى كراهته وصعوبته على نفس الحرّ الموت :

واعلم أنى ذكرت لك فى تمثيل هذه الأصول : الواضح الظاهر ، القريب المتناول ، الكائن[٣] من قبيل المتعارف فى كل لسان ، ومانجد اعترافا به وموافقة عليه من كل إنسان ، أو مايشابه هذا الحد ويشاكله ، ويداخل هذا الضرب

---

(١) الأحسن التعبير بجعل عوضا من التنزيل أو حذف « كأن » ووضع « منزلة » موضعها ومثل ذلك فيما سيأتى .

(٢) ويكون من المجاز الذى علاقته التضاد .

(٣) لايقر النحويون هذا .

ويشاركه، ولم أذكر مايدق ويغمض، ويلطف ويغرب[1]، وماهو من الأسرار التى أثارتها الصنعة؛ وغاصت عليها فكرة الأفراد من ذوى البراعة فى الشعر، لأن القصد إذا كان لتمهيد الأساس، ووضع قواعد للقياس؛ كان الأولى أن يعمد إلى ماهو أظهر وأجلى من الأمثلة؛ لتكون الحجة بها عامة لايصرف وجهها بحال[2]؛ والشهادة تامة لاتجد من السامعين غير قبول وإقبال؛ حتى إذا تمهدت القواعد، وأحكمت العرى[3] والمعاقد[4]، أخذ حينئذ فى تتبع ما اخترعته القرائح، وعمد إلى حل المشكلات عن ثقة بأن هيئت المفاتح.

هذا - وفى الاستعارة بعدُ من جهة القوانين والأصول شغل الفكر، ومذهب القول؛ وخفايا ولطائف تبرز من حجبها بالرفق؛ والتدريج[5] والتلطف والتأنى. ولكنى أظن أن الصواب أن أنقل الكلام إلى القول على التشبيه والتمثيل وحقيقتهما، والمراد منهما، خصوصا فى كلام من يتكلم على الشعر، ونتعرف أهما متساويان[6] فى المعنى أو مختلفان؟ أم جنسهما[7] واحد

---

(١) غرب الشىء غرابة خفى وغمض.

(٢) الصواب لانصرف عن وجهها بحال.

(٣) جمع عروة وهى من الدلو والكوز المقبض وكل مايوثق به ويعول عليه ومن ذلك قولهم الصحابة عرا الإسلام.

(٤) جمع معقد المفصل وموضع العقد ومن ذلك قولهم هو منى معقد الإزار؛ أى قريب المنزلة.

(٥) المناسب التدرج يقال تدرج إليه تقدم إليه شيئا فشيئا.

(٦) وهو مذهب الزمخشرى.

(٧) وهو مذهب الجمهور وهم فى ذلك على طريقين طريق الشيخ عبدالقاهر ومعه السكاكى وسيأتى بيانه بعد وطريق بقية البلغاء وهو المعروف المشهور ومابعد «أم» الثانية هو المعادل لماقبلها وهذا كقولهم: الحسن أو الحسين أفضل؛ أم ابن الحنفية؛ بالعطف «بأو» أولا «وأم» ثانيا ويجاب بقولنا أحدهما وعند الكيسانية بابن الحنفية؛

إلا أن أحدهما أخص من الآخر ؟ وأنا أضع لك جملة من القول نبين بها هذه الأمور .

التشبيه والتمثيل

« التشبيه وأقسامه » [١]

إعلم أن الشيئين إذا شبه أحدهما بالآخر كان ذلك على ضربين :

(أحدهما) أن يكون من جهة أمر بين لا يحتاج فيه إلى تأول (والآخر) أن يكون الشبه محصلا بضرب من التأول ، فمثال الأول تشبيه الشيء بالشيء من جهة الصورة والشكل ، نحو أن يشبه الشيء إذا استدار : بالكرة فى وجه ؛ وبالحلقة فى وجه آخر . وكالتشبيه من جهة اللون كتشبيه الخد [٢] بالورد ، والشعر بالليل ، والوجه بالنهار [٣] . وتشبيه سقط النار [٤] بعين الديك ، وما جرى فى هذا الطريق ، أو جمع الصورة واللون كتشبيه الثريا بعنقود

= ولا يجوز الجواب بقولك الحسن أو الحسين لأنه لم يسأل عن الأفضل من الحسن وابن الحنفية ولا عن الحسين وابن الحنفية وإنما جعل واحدا منهما لا بعينه قرينا لابن الحنفية كذا فى المغنى بتصرف .

(١) صوابه التمثيل وأقسامه .

(٢) كقوله : الخد ورد والصدغ غالية والريق خمر والثغر كالدرر

(٣) كقول بكر بن النطاح :

بيضاء تسحب من قيام فرعها وتغيب فيه وهو جثل أسحم
فكأنها فيه نهار ساطع وكأنه ليل عليها مظلم

(٤) سقط النار بالتثليث ما سقط منها بين الزندين قبل استحكام الورى ووجه الشبه الحمرة والشكل الكرى والمقدار المخصوص كقول ذى الرمة وسيأتى بعد .

وسقط كعين الديك عاورت صحبتى أباها وهيأنا لموضعها وكرا

الكرم[١] المنثور ؛ والنرجس بمداهن[٢] در حشوهن عقيق . وكذلك التشبيه من جهة الهيئة[٣] نحو إنه مستو منتصب مديد ، كتشبيه القامة بالرمح ، والقد اللطيف بالغصن[٤] . ويدخل فى الهيئة حال الحركات فى أجسامها كتشبيه الذاهب على الاستقامة بالسهم[٥] السديد ، ومن تأخذه الأريحية فيهتز بالغصن[٦] تحت البارح ونحو ذلك . وكذلك كل تشبيه جمع بين شيئين فيما يدخل تحت الحواس نحو تشبيهك صوت بعض الأشياء بصوت غيره كتشبيه أطيط الرحل بأصوات الفراريج كما قال[٧]

---

(١) صوابه الكرم المنور كقوله وسيأتى :

وقد لاح فى الصبح الثريا لمن رأى   كعنقود ملاحية حين نوّرا

(٢) كما سيأتى من قوله :

كأن عيون النرجس الغض حولنا   مداهن در حشوهن عقيق

(٣) يراد بالهيئة مايعرض للجسم من الأوضاع الخاصة كالقيام والقعود ونحو ذلك كقول الطغرائى .

وذى شطاط كصدر الرمح معتقل   بمثله غير هياب ولا وكل

(٤) كقول المتنبى :

بدت قمرا ومالت خوط بان   وفاحت عنبرا ورنت غزالا

(٥) كقول أعرابى :

يغزو كولغ الذئب غاد ورائح   وسير كصدر السيف لايتعرج

(٦) الأريحية حال يرتاح معها الشخص إلى البذل ، والبارح الريح الشديدة .

كقوله :   وتأخذه عند المكارم هزة   كما اهتز تحت البارح الغصن الرطب

(٧) القائل ذو الرمة أبو الحرث غيلان ينتهى نسبه إلى معد بن عدنان وهو أحد عشاق العرب وصاحبته ، مية بنت مقاتل ، وكان كثير التشبيب بها وإياهما عنى أبو تمام بقوله :

ماربع مية معمورا يطيف به   غيلان أبهى ربا من ربعها الخرب

وكان كثير المديح لبلال بن أبى بردة الأشعرى وتوفى سنة ١١٧ هجرية ولما حضرته الوفاة قال أنا ابن نصف الهرم أنا ابن الأربعين ، والرمة بالضم الحبل البالى وبالكسر =

كأن أصوات من إيغالهن بنا   أواخرِ الميس إنقاض الفراريج[١]

تقدير البيت : كأن أصوات أواخر الميس أصوات الفراريج من إيغالهن بنا ، ثم فصل بين المضاف والمضاف إليه بقوله « من إيغالهن » ، وكتشبيه صريف أنياب البعير بصياح البوازى كما قال[٢]

= العظم البالى واجتمع بالفرزدق فقال ما أحسن ماتقول فقال مالى لا أذكر مع الفحول قال قصر بك عن غاياتهم بكاؤك فى الدمن ووصفك الأبعار والعطن ، ولقبته مية : بذى الرمة ولقبها بالخرقاء

(١) الفراريج جمع فروج وفروجة فرخ الدجاج خاصة وأوغل فى السير أمعن فيه والبيت من قصيدة أولها :ـ

ياجارتى بنت فصاص أمالكما   حتى نكلمها همٌّ بتعريج
خود كأن اهتزاز الرمح مشيتها   لفاء ممكورة من غير تهبيج
كأنها بكرة أدماء زينها   عتق النجار وعيش غير ترليج

إلى أن قال قبله :ـ

يغادر الأرحبيّ المحض أركبها   كأن غاربه يأفوخ مشجوج
رفيق أعين ذيال تشبهه   فحل الهجان تنحى غير مخلوج
ومنهل آجن الجمات مجتنب   غسلته بالهبلات الهماليج
ينفحن أشكل مخلوطا تقمصه   مناخر العجرفيات الملاجيج
كأنما ضربت قدام أعينها   قطنا بمستحصد الأوتار محلوج

اللفاء عظيمة الفخذين ، والممكورة الضامرة البطن ، والتهبيج غلظ فى الوجه من غير وجع ولا علة ، والأدماء البيضاء ، والترليج عيش الكفاف والأرحبي فحل منسوب إلى أرحب من همدان ، والأعين واسع العين ، والذيال طويل الذنب ، والهجان البيض ، والمخلوج المجذوب ، والجمات مجتمعات الماء ، وغلسته أتيته غلسا والهبلات الأبل الضخام ، والهماليج اللاتى يسرن سير الهملجة ، والأشكل الأبيض تخالطه حمرة ويعنى به الزبد ، وتقمصه لبسه كالقميص ، والعجرفيات اللاتى يسرن بنشاط ، والملاجيج اللاتى تلج فى السير ، والمستحصد الثقيل .

(٢) القائل ذو الرمة وأولها :ـ

أقول لأطلاح برى هطلانها   بنا عن حوانى دأيها المتلاحك =

كأن على أنيابها كل سحرة　　صياح البوازى من صريف اللوائك[١]

وأشباه ذلك من الأصوات المشبهة له . وكتشبيه بعض الفواكه الحلوة بالعسل والسكر وتشبيه اللين الناعم بالخز[٢] والخشن بالمسح[٣]. أو رائحة بعض الرياحين برائحة الكافور . أو رائحة بعضها ببعض كما لا يخفى

وهكذا التشبيه من جهة الغريزة والطباع كتشبيه الرجل بالأسد فى الشجاعة والذئب فى النكر .[٤] والأخلاق كلها تدخل فى الغريزة نحو السخاء والكرم واللؤم . وكذلك تشبيه الرجل بالرجل فى الشدة والقوة وما يتصل بها .

فالشبه فى هذا كله بين لا يجرى فيه التأول ولا يفتقر إليه فى تحصيله ، وأى تأول يجرى فى مشابهة الخد للورد فى الحمرة ، وأنت تراها ههنا كما تراها هناك ؟ وكذلك تعلم الشجاعة فى الأسد كما تعلمها فى الرجل .

(ومثال الثانى) وهو الشبه الذى يحصل بضرب من التأول كقولك هذه

=وبعده : اذا ذكرتك النفس مىّ تقل لها　　أفيقى فأيهات الهوى من مزارك

وماذكرك الشىء الذى ليس راجعا　　به الوجد إلا ضلة من ضلالك

أما والذى حج الملبون بيته　　وفودا ومولى كل باق وهالك

لقد كنت أهوى الأرض مايستفزنى　　لها الشوق إلا أنها من ديارك

أحبك حبا خالطته نصيحة　　وإن كنت إحدى اللاويات المواعك

(١) الصواب على أنيابه لأن الضمير يعود إلى كل موار فى الأبيات قبله والسحرة السحر الأعلى أى أول السحر والصريف صرير ناب البعير واللوائك جمع لائكة من لاك أى مضغ .

(٢) كقول ذى الرمة :ـ

لها بشر مثل الحرير ومنطق　　رخيم الحواشى لا هراء ولا نزر

(٣) المسح كساء من شعر كثوب الرهبان والجمع أمساح ومسوح .

(٤) النكر بالضم والفتح والنكارة والنكراء : الدهاء والفطنة كقول الفرزدق :

وكنت كذئب السوء لما رأى دما　　بصاحبه يوما أحال على الدم

حجة كالشمس ، قد شبهت الحجة بالشمس من جهة ظهورها كما شبهت فيما مضى الشيء بالشيء من جهة ما أردت من لون أو صورة أو غيرهما إلا أنك تعلم أن هذا التشبيه لا يتم لك إلا بتأول وذلك أن تقول حقيقة ظهور الشمس وغيرها من الأجسام ألا يكون دونها حجاب ونحوه مما يحول بين العين وبين رؤيتها ولذلك يظهر الشيء لك ولا يظهر لك إذا كنت[١] من وراء حجاب أو إذا لم يكن بينك[٢] وبينه ذلك الحجاب .

ثم تقول إن الشبهة نظير الحجاب فيما يدرك بالعقول لأنها تمنع القلب رؤية ماهي شبهة فيه كما يمنع الحجاب العين أن ترى ماهو من ورائه . ولذلك توصف الشبهة بأنها اعترضت دون الذي يروم[٣] إدراكه ويصرف فكره للوصول إليه من صحة حكم أو فساده ، فإذا ارتفعت الشبهة وحصل العلم بمعنى الكلام الذي هو الحجة على صحة ما أدى من الحكم قيل هذا ظاهر كالشمس ، أي ليس ههنا مانع عن العلم به ولا للتوقف والشك فيه مساغ ، وأن المنكر له إما مدخول[٤] في عقله أو جاحد مباهت[٥] ومسرف في العناد ، كما أن الشمس الطالعة لا يشك فيها ذو بصر ولا ينكرها إلا من لا عذر له في إنكاره . فقد احتجت في تحصيل الشبه الذي أثبته بين الحجة والشمس إلى مثل هذا التأول كما ترى .

ثم إن ما طريقه التأول يتفاوت تفاوتاً شديداً ، فمنه مايقرب مأخذه ويسهل

---

(١) ظرف لقوله لا يظهر لك .

(٢) متعلق بقوله يظهر لك ففي العبارة لف ونشر مهوش .

(٣) المناسب تروم وتصرف فكرك .

(٤) الدخل محركة ماداخلك من فساد في عقل أو جسم وقد دخل كفرح وعنى دخلا ودخلا بالفتح والتسكين .

(٥) باهت فلانا حيره بما يفتري عليه من الكذب ومنه قولهم فلان من عادته أن يباحث ويباهت .

الوصول إليه ويعطى المقادة طوعا حتى إنه يكاد يداخل (١) الضرب الأول الذى ليس من التأول فى شىء، وهو ماذكرته لك، ومنه ما يحتاج فيه إلى قدر من التأمل، ومنه ما يدق ويغمض حتى يحتاج فى استخراجه إلى فضل روية، ولطف فكرة.

فما يشبه الذى بدأت به فى قرب المأخذ وسهولة المأتى قولهم فى صفة الكلام: ألفاظه كالماء فى السلاسة، وكالنسيم فى الرقة، وكالعسل فى الحلاوة، يريدون أن اللفظ لا يستغلق ولا يشتبه معناه، ولا يصعب الوقوف عليه، وليس هو بغريب وحشى يستكره لكونه غير مألوف، أو ماليس فى حروفه تكرير وتنافر يكد (٢) اللسان من أجلهما فصار لذلك كالماء الذى يسوغ فى الحلق؛ والنسيم الذى يسرى فى البدن ويتخلل المسالك اللطيفة منه، ويهدى إلى القلب روحا (٣) ويوجد فى الصدر انشراحا، ويفيد النفس نشاطا، وكالعسل الذى يلذ طعمه، وتهش (٤) النفس له ويميل الطبع إليه، ويحب وروده عليه. فهذا كله تأول ورد شىء إلى شىء بضرب من التلطف، وهو أدخل قليلا فى حقيقة التأول، وأقوى حالا فى الحاجة إليه من تشبيه الحجة بالشمس.

وأما ما تقوى فيه الحاجة إلى التأول حتى لا يعرف المقصود من التشبيه

---

(١) داخله مداخلة دخل فيه يقال داخله العجب

(٢) كده من باب نصر أتعبه. يقال كد لسانه بالكلام وقلبه بالفكر.

(٣) الروح بفتح الراء وسكون الواو الراحة والفرح والسرور والرحمة ومنه قوله (لاتيأسوا من روح الله).

(٤) هش له وبه من بابى دب ومل هشاشة وهشاشا نشط وارتاح

فيه بديهة السماع فنحو قول كعب الأشقرى [١] وقد أوفده المهلب على الحجاج فوصف [٢] له بنيه وذكر مكانهم من الفضل والبأس ، فسأله فى آخر القصة قال فكيف كان بنو المهلب فيهم [٣] ؟ قال كانوا حماة السرح [٤]

(١) هو كعب بن معدان الأشقرى (كان أشقر اللون) الأزدى (الأزد : حى من اليمن) الشاعر الخطيب البليغ كان من أصحاب المهلب الذين أبلوا بلاء حسنا فى حرب الأزارقة ، قال الفرزدق : شعراء الإسلام أربعة : أنا وجرير والأخطل وكعب الأشقرى مات مقتولا بيد أخيه من أمه بعمان سنة ١٠ هجرية .

(٢) كان من حديث ذلك أنه لما افتتح المهلب خراسان ونفى الخوارج عنها وتفرقت الأزارقة كتب إليه الحجاج أن اشرح لى القصة كأنى شاهدها فبعث إليه المهلب كعباً فأنشده قصيدة فيها ستون بيتاً قص فيها خبرهم ومطلعها :

يا حفص إنى عدانى عنكم السفر   وقد سهرت فآذى عينى السهر

فقال له الحجاج ، بعد أن أتمها : أخطيب أم شاعر ، قال كلاهما أعز الله الأمير ، قال خبرنى عن بنى المهلب قال المغيرة سيدهم وكفاك بزيد فارسا ، وما لقى الأبطال مثل حبيب ، وما استحيا شجاع أن يفر من مدرك وعبدالملك سم ناقع وأسمحهم قبيصة ومحمد ليث غاب . فقال الحجاج : ما أراك فضلت واحداً منهم ، فأخبرنى عن جملتهم ومن أفضلهم فقال هم أعز الله الأمير كالحلقة المفرغة لايدرى أين طرفاها ، قال خبرنى كيف رضا المهلب عن جنده ورضا جنده عنه ، قال أعز الله الأمير له عليهم شفقة الوالد ولهم به بر الولد . فقال الحجاج له : المهلب أعلم بك حيث أرسلك ، وفى رواية أنه قال له كيف تركت جماعة الناس فقال له تركتهم بخير أدركوا ما أملوا وأمنوا مما خافوا ، قال له فكيف كان بنو المهلب ، فقال رعاة البيات حتى يأمنوه وحماة السرح حتى يردوه قال فأيهم أفضل ، قال ذلك إلى أبيهم ، قال وأنت أيضا قال هم كالحلقة الخ

والمثل لفاطمة بنت الخرشب (بضم فسكون فضم) الأنمارية إحدى المنجبات فى الجاهلية وهى أم الكملة من بنى عبس الربيع وعمارة وأنس الفوارس وأخوتهم . سألها أبو سفيان حين قدمت عليه حاجة فى الجاهلية أى بنيك أفضل . فقالت الربيع لا بل عمارة . لا بل أنس الفوارس . ثكلتهم إن كنت أدرى أيهم أفضل . هم كالحلقة المفرغة الخ . فأخذه كعب ووصف به بنى المهلب

(٣) أى فى القوم المحاربين .

(٤) هو المال السائم من الأنعام ، وأليلوا : دخلوا فى الليل والبيات الهجوم ليلا

نهاراً فإذا أيلوا ففرسان البيات قال فأيهم كان أنجد ؟ قال « كانوا كالحلقة المفرغة لا يدرى أين طرفاها » ، فهذا كما ترى ظاهر الأمر فى فقره إلى فضل الرفق به والنظر ، ألا ترى أنه لا يفهمه حق فهمه إلا من له ذهن ونظر يرتفع به عن طبقة العامة . وليس كذلك تشبيه الحجة بالشمس فإنه كالمشترك البين الاشتراك حتى يستوى فى معرفته اللبيب اليقظ والمضعوف المغفل (١)

وهكذا تشبيه الألفاظ بما ذكرت قد تجده فى كلام العامى . فأما ما كان مذهبه فى اللطف مذهب قوله « هم كالحلقة » ، فلا تراه إلا فى الآداب والحكم المأثورة عن الفضلاء وذوى العقول الكاملة .

الفرق بين التشبيه والتمثيل

وإذ قد عرفت الفرق بين الضربين فاعلم أن التشبيه عام والتمثيل (٢) أخص منه فكل تمثيل تشبيه وليس كل تشبيه تمثيلا . فأنت تقول فى قول قيس بن الخطيم (٣) .

= على العدو والمراد أنه لا يطرقهم طارق إلا كانوا على صهوات خيولهم لملاقاته .

(١) من به ضعفة بالفتح وهى ضعف الفؤاد وقلة الفطنة .

(٢) رأيه فى التمثيل غير رأى الجمهور فأنه يرى أن التمثيل ماكان الوجه فيه محتاجا إلى تأول أى إنه منتزع من لازم الصفة ولا يكون كذلك إلا إذا كان عقليا والجمهور يخصون التمثيل بما كان الوجه فيه منتزعا من متعدد أعم من أن يكون حسيا أو غير حسى

(٣) هو قيس بن الخطيم بن عدى شاعر جاهلى أوسى جيد الشعر حسن الديباجة أتى إلى النبى صلى الله عليه وسلم فدعاه إلى الإسلام وتلا عليه شيئا من القرآن ، فقال إنى لأسمع كلاما عجبا فدعنى أنظر فى أمرى هذه السنة ثم أعود إليك فمات قبل الحول ، وله فى وقعة « بعاث » التى كانت بين الأوس والخزرج أشعار كثيرة وفيها قتل ، والمشهور نسبة البيت لأبى قيس الأسلت أو أحيحة بن الجلاح .

وقد لاح فى الصبح الثريا لمن رأى كعنقود ملاحِيَّة حين نوَّرا (١)

إنه تشبيه حسن ولا تقول هو تمثيل. وكذلك تقول: ابن (٢) المعتز حسن التشبيهات بديعها، لأنك تعنى تشبيهه المبصرات بعضها ببعض وكل ما لا يوجد التشبيه فيه من طريق التأول كقوله:

كأن عيون النرجس الغض حولها مداهن درّ حشوهن عقيق (٣)

وقوله:

وأرى الثريا فى السماء كأنها قدم تبدت من ثياب حداد (٤)

وقوله وتروم الثريا فى الغروب مراما
كانكباب طِمِرٍّ كاديلقى اللجاما (٥)

وقوله (٦) قد انقضت دولة الصيام وقد بشر سقم الهلال بالعيد
يتلو الثريا كفاغر شره يفتح فاه لأكل عنقود

---

(١) الملاحى بضم الميم وتشديد اللام وتخفيفها عنب أبيض طويل، ونور الزرع تنويرا أدرك.

(٢) هو أبو العباس عبد الله بن المعتز بن المتوكل بويع بالخلافة وسمى المرتضى بالله فأقام يوما وليلة خليفة ثم قتله المقتدر ودفعه إلى أهله ملفوفا فى كساء عام ٢٩٦ هـ وكان من الأدباء العلماء وله جملة مؤلفات أشهرها كتاب البديع.

(٣) الرواية المشهورة حولنا والنرجس بفتح الجيم وكسرها الواحدة. نرجسة تشبه به الأعين، ومنها ماله زهر أبيض مستدير فى وسطه شىء أصفر منه ما يميل إلى اللون العقيق الكدر وهو المراد هنا، وبعده:

إذا بلهن القطر خلت دموعها بكاء عيون كحلهن خلوق

(٤) وقبله: قم ياندیمی نصطبح بسواد قد كاد يبدو الصبح أو هو باد

(٥) وأولها: طال وجدى وداما وفنيت سقاما

وقبلهما: يا خليلى هيا واسقيانى المداما
قد لبسنا صباحا وخلعنا ظلاما

وأكب عليه أقبل ولزم، كانكب والطمر بكسرتين الفرس المستعد للوثب

(٦) قبلهما: أهلا وسهلا بالناى والعود وكأس ساق كالغصن مقدود

وقوله (١)

لما تعرى أفق الضيــاء مثل ابتسام الشفة اللمياء
وشمطت ذوائب الظلمـاء قدنا (٢) لعين الوحش والظباء
داهية محـذورة اللقاء ويعرف الزجر من الدعاء
باذن ساقطة الأرجاء كوردة السوسنة الشهباء
ذا برثن كمثقب الحذاء ومقلة قليلة الأقذاء
صافية كقطرة من ماء (٣)

وما كان من هذا الجنس ولا تريد نحو قوله : (٤)

اصبر على مضض الحسو د فإن صبرك قاتله
فالنــار تأكل نفسها إن لم تجد ما تأكله

وذلك أن إحسانه فى النوع الأول أكثر ، وهو به أشهر . وكل ما لا يصح أن يسمى تمثيلا فلفظ المثل لا يستعمل فيه أيضاً فلا يقال . ابن المعتز حسن الأمثال تريد به نحو الأبيات التى قدمتها وإنما يقال (٥) صالح بن

---

(١) فى وصف كلب وكلبة من الجوارح

(٢) فى الديوان قبل قوله قدنا الخ قوله :-

* وهم نجم الليــل بالإغفاء *

ونجم الليل هو الثريا . والترتيب الذى هنا يخالف مافى الديوان

(٣) اللمياء السمراء والشمط محركة اختلاط الشعر الأسود والأبيض والعين بكسر العين جمع أعين وهو ثور بقر الوحش ، وداهية هى الكلبة . وجاء فى وصف الكلب قوله :

ومخطفا موثق الأعضاء * خالفها بجـلدة بيضاء * كأثر الشهاب فى السماء

والسوسن : زهر . منه برى ومنه بستانى ، الواحدة : سوسنة

(٤) رواية الديوان : اصبر على حسد الحسود . وكذا : والنار تأكل بعضها

(٥) هو صالح بن عبد الله بن عبدالقدوس من حكماء الشعراء قتله المهدى لاتهامه بالزندقة وتظاهره بمبدأ الثنوية القائلين بمبدأ النور والظلمة وصلبه على جسر بغداد سنة ١٦٧ هجرية

عبد القدوس كثير الأمثال فى شعره يراد نحو قوله [١] .

وإن من أدبته فى الصبا كالعود يسقى الماء فى غرسه
حتى تراه مورقا ناضراً بعد الذى أبصرت من يبسه

وما أشبهه مما الشبه فيه من قبيل ما يجرى فيه التأول ، ولكن [٢] إن قلت فى قول ابن المعتز :

فالنار تأكل نفسها إن لم تجد ما تأكله

إنه تمثيل ، فمثل الذى قلت ينبغى أن يقال ؛ لأن تشبيه الحسود إذا صبر عليه وسكت عنه وترك غيظه يتردد فيه بالنار التى لا تمدّ بالحطب حتى يأكل بعضها بعضاً - مما حاجته إلى التأول ظاهرة بينة .

فقد تبين بهذه الجملة وجه الفرق بين التشبيه والتمثيل . وفى تتبع ما أجملت من أمرهما وسلوك طريق التحقيق فيهما ضرب من القول ينشط له من يأنس بالحقائق .

فصـــل

اعلم أن الذى أوجب أن يكون فى التشبيه هذا الانقسام أن الاشتراك فى الصفة يقع مرة فى نفسها وحقيقة جنسها ، ومرة فى حكم لها ومقتضى ، فالخد يشارك الورد فى الحمرة نفسها ، وتجدها فى الموضعين بحقيقتها ، واللفظ

---

(١) بعد البيتين :

لا يبلغ الأعداء من جاهل ما يبلغ الجاهل من نفسه
والشيخ لا يترك أخلاقه حتى يوارى فى ثرى رمسه
إذا ارعوى عاد إلى جهله كذى الضنا عاد إلى نكسه

(٢) فيه تصريح بما علم من قوله ولا تريد نحو قوله الخ

يشارك العسل فى الحلاوة لا من حيث جلسه [١] بل من جهة حكم وأمر يقتضيه [٢] ، وهو ما يجده الذائق فى نفسه من اللذة ، والحالة التى تحصل فى النفس إذا صادفت بحاسة الذوق ما يميل إليه الطبع ويقع منه بالموافقة ، فلما كان كذلك احتيج لا محالة - إذا شبه اللفظ بالعسل فى الحلاوة - أن يبين أن هذا التشبيه ليس من جهة الحلاوة نفسها وجلسها ، ولكن من مقتضى لها ، وصفة تتجدد فى النفس بسببها ، وأن القصد أن يخبر بأن السامع يجد عند وقوع هذا اللفظ فى سمعه حالة فى نفسه شبيهة بالحالة التى يجدها الذائق للحلاوة من العسل حتى لو تمثلت الحالتان للعيون لكانتا تريان على صورة واحدة ، ولوجدتا من التناسب على حد الحمرة من الخد والحمرة من الورد ، وليس ههنا عبارة أخص بهذا البيان من التأول ؟ لأن حقيقة قولنا « تأولت الشىء » أنك تطلب ما يؤول إليه من الحقيقة أو الوضع الذى يؤول إليه من العقل لأن « أولت وتأولت » - فعلت وتفعّلت من آل الأمر إلى كذا يؤول إذا انتهى إليه والمآل المرجع . وليس قول من جعل أوّلت وتأوّلت « من أول » بشىء لأن ما فاؤه وعينه من موضع واحد ككوكب ودَدن [٣] لا يصرّف منه فعل ، و « أول » [٤] أفعل بدلالة قولنا « أول منه »

(١) الصواب من جنسها

(٢) الصواب تقتضيه

(٣) الدد والددا والددن : اللهو واللعب ، وفى الحديث « ما أنا من دد ولا الدد منى »

(٤) قال الرضى فى شرح الكافية ، أما أول فمذهب البصريين أنه أفعل ، ثم اختلفوا على ثلاثة أقوال ، فجمهورهم على أنه من تركيب وول كددن ولم يستعمل إلا فى أول ومتصرفاته ، وقيل أصله أوأل من وأل بمعنى نجا لأن النجاة فى السبق وقيل أصله أأول من آ ل أى رجع لأن كل شىء يرجع إلى أوله فهو أفعل بمعنى مفعول كأشهر وأحمد ، فقلبت الهمزة فى الوجهين واوا قلبا شاذا . وقال الكوفيون هو فوعل من =

كقولنا «أسبق منه وأقدم» فالواو الأولى فاء والثانية عين وليس هذا موضع الكلام فى ذلك فيستقصى.

وأما الضرب الأول فإذا كان (١) المثبت من المشبه (٢) فى الفرع من جلس المثبت فى الأصل كان أصلا بنفسه، وكان ظاهر أمره وباطنه واحداً، وكان حاصل جمعك بين الورد والخد أنك وجدت فى هذا وذاك حمرة والجلس لا تتغير حقيقته بأن يوجد فى شيئين، وإنما يتصور فيه التفاوت بالكثرة والقلة والضعف والقوة، نحو إن حمرة هذا الشىء أكثر وأشد من حمرة ذاك.

وإذا تقررت هذه الجملة حصل من العلم بها أن التشبيه الحقيقى الأصلى هو الضرب الأول، وأن هذا الضرب فرع له ومرتب عليه. ويزيد ذلك بيانا أن مدار التشبيه على أنه يقتضى ضربا من الاشتراك ومعلوم أن

= وأل فنقلت الهمزة إلى موضع الفاء ورد ذلك بمنعه الصرف وبمجىء من بعده وبتصريفه كتصريف أفعل. وقولهم أولة وأولتان من كلام العوام. ثم قال فأول كأسبق معنى وتصريفا واستعمالا. ولما لم يكن لفظ أول مشتقا من شىء مستعمل على القول الصحيح لا مما استعمل فيه فعل كأحسن ولا مما استعمل منه اسم كأحنك خفى فيه معنى الوصفية إذ هى إنما تظهر باعتبار المشتق منه. وإنما تظهر وصفيته بسبب تأويله بالمشتق وهو أسبق فلاجرم لم تعتبر وصفيته إلا مع ذكر الموصوف قبله ظاهرا نحو يوما أول. أو ذكر من التفضيلية بعده ظاهرة فإن خلا منهما معا. ولم يكن مع اللام أو الإضافة دخل فيه التنوين مع الجر لخفاء وصفيته كما مر. وذلك كقول على أحمده أولا باديا. ويقال ماتركت له أولا ولا آخرا. ويجوز حذف المضاف إليه من أول وبناؤه على الضم إذا كان مؤولا بظرف الزمان نحو: على أينا تغدو المنية أول اهـ بتصرف

(١) فيه فساد فى التقسيم لأنه لامقابل له فى الضرب الأول، فالصواب أن تغير العبارة كأن يقال: وهو ما يكون المثبت من المشبه فى الفرع من جنس المثبت فى الأصل وهو الأصل فى التشبيه الخ أونحو ذلك مما يستقيم به كلام المصنف

(٢) الصواب الشبه

الاشتراك فى نفس الصفة أسبق فى التصور من الاشتراك فى مقتضى الصفة كما أن الصفة نفسها مقدمة فى الوهم على مقتضاها ، فالحلاوة أولا ثم إنها تقتضى اللذة فى نفس الذائق لها . وإذا تأملنا متصرف [1] تركيبه وجدناه يقتضى أن يكون الشيئان من الاتفاق والاشتراك فى الوصف بحيث يجوز أن يتوهم أن أحدهما الآخر . وهكذا تراه فى العرف والمعقول فإن العقلاء يؤكدون أبداً أمر المشابهة بأن يقولوا لا يمكنك أن تفرق بينهما ولو رأيت هذا بعد أن رأيت ذاك لم تعلم أنك رأيت شيئاً غير الأول حتى تستدل بأمر خارج عن الصورة ، ومعلوم أن هذه القضية إنما توجد على الإطلاق والوجود الحقيقى فى الضرب الأول . وأما الضرب الثانى فإنما يجىء فيه على سبيل التقدير والتنزيل ، فأما ألا تجد فصلا بين ما يقتضيه العسل فى نفس الذائق ، وما يحصل باللفظ المرضى والكلام المقبول فى نفس السامع ، فما لا يمكن ادعاؤه إلا على نوع من المقاربة أو المجازفة ، فأما على التحقيق والقطع فلا . فالمشابهات المتأولة التى ينتزعها العقل من الشىء للشىء لا تكون فى حد المشابهات الأصلية الظاهرة بل الشبه العقلى كاد الشىء به يكون شبيها بالمشبه به .

فصـــل

ثم إن هذا الشبه العقلى ربما انتزع من شىء واحد كما مضى من انتزاع الشبه للفظ من حلاوة العسل . وربما انتزع من عدة أمور يجمع بعضها إلى بعض ثم يستخرج من مجموعها الشبه فيكون سبيله سبيل الشيئين يمزج

(١) أى التراكيب المختلفة الشبه .

أحدهما بالآخر حتى تحدث [١] صورة غير ما كان لهما فى حال الإفراد لاسبيل الشيئين يجمع بينهما وتحفظ صورتهما [٢] . ومثال ذلك قوله عز وجل : (مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفاراً) الشبه منتزع من أحوال الحمار وهو أنه يحمل الأسفار التى هى أوعية العلوم ، ومستودع ثمر العقول ، ثم لايحس بما فيها ولا يشعر بمضمونها ، ولا يفرق بينها وبين سائر الأحمال التى ليست من العلم فى شىء ، ولا من الدلالة عليه بسبيل ، فليس له مما يحمل حظ سوى أنه يثقل عليه ، ويكد جنبيه ، فهو كما ترى مقتضى أمور مجموعة ونتيجة لأشياء ألفت وقرن بعضها إلى بعض .

بيان ذلك أنه احتيج إلى أن يراعى من الحمار فعل مخصوص وهو الحمل وأن يكون المحمول شيئاً مخصوصاً وهو الأسفار التى فيها أمارات تدل على العلوم ، وأن يثلث [٣] ذلك بجهل الحمار مافيها حتى يحصل الشبه المقصود . ثم إنه لايحصل من كل واحد من هذه الأمور على الانفراد ولا يتصور أن يقال إنه تشبيه بعد تشبيه من غير أن يقف الأول على الثانى ويدخل الثانى فى الأول ، لأن الشبه لايتعلق بالحمل حتى يكون من الحمار ، ثم لايتعلق أيضاً بحمل الحمار حتى يكون المحمول الأسفار ؛ ثم لايتعلق بهذا كله حتى يقترن به جهل الحمار بالأسفار المحمولة على ظهره ، فما لم تجعله كالخيط الممدود ولم يمزج حتى يكون القياس قياس أشياء يبالغ فى مزاجها حتى تتحد وتخرج عن أن تعرف صورة كل واحد منها على الانفراد بل تبطل صورها المفردة

---

(١) هذا هو التشبيه المركب .

(٢) ذلك هو التشبيه الذى يجمع فيه بين الصفات المتعددة .

(٣) ثلثهم : من باب ضرب كان ثالثهم أو كملهم ثلاثة أو ثلاثين .

التى كانت قبل المزاج وتحدث صورة خاصة غير اللواتى عهدت ويحصل مذاقها [١] حتى لو فرضت حصولها لك فى تلك الأشياء من غير امتزاج فرضت ما لا يكون - لم يتم المقصود [٢] ولم تحصل النتيجة المطلوبة وهى الذم بالشقاء فى شىء يتعلق به غرض جليل وفائدة شريفة مع حرمان ذلك الغرض وعدم الوصول إلى تلك الفائدة واستصحاب مايتضمن المنافع العظيمة والنعم الخطيرة من غير أن يكون ذلك الاستصحاب سبباً إلى نيل شىء من تلك المنافع والنعم .

ومثال مايجىء فيه التشبيه [٣] معقوداً على أمرين إلا أنهما لايتشابكان هذا التشابك قولهم « هو يصفو ويكدر ويمرّ [٤] ويحلو ويشج ويأسو ويسرج ويلجم » [٥] لأنك وإن كنت أردت أن تجمع له الصفتين فليست إحداهما ممتزجة بالأخرى لأنك لو قلت هو « يصفو » ولم تتعرّض لذكر الكدر أو قلت « يحلو » ولم يسبق ذكر « يمرّ » وجدت المعنى فى تشبيهك له بالماء فى الصفاء وبالعسل فى الحلاوة بحاله وعلى حقيقته ، وليس كذلك الأمر فى الآية لأنك لو قلت كالحمار يحمل أسفاراً ولم تعتبر أن يكون جهل الحمار مقروناً بحمله وأن يكون متعدياً إلى ماتعدى إليه الحمل لم يتحصل لك

---

(١) ويحصل : معطوفة على تحدث أى أنه يوجد لها مذاق جديد غير ماعرف قبل .

(٢) جواب قوله فما لم تجعله كالخيط الخ ،

(٣) هذا ليس تشبيها اصطلاحيا بل هو تشبيه معنوى باعتبار أصله إذ هو الآن استعارة .

(٤) كدر : مثلث الدال من باب قعد وحسن ويمر بفتح الميم وضمها .

(٥) لعل أصل العبارة يشرح ويلحم ليكون فيها تضاد فى المعانى كما فيما قبلها لأن شرح بمعنى قطع ولحم بمعنى لاءم .

المغزى منه . وكذلك لو قلت هم كالحمار فى أنه يجهل الأسفار ولم تشترط أن يكون حمله الأسفار مقروناً بجهله لها لكان كذلك [١] . وكذلك لو ذكرت الحمل والجهل مطلقين ولم تجعل لهما المفعول المخصوص الذى هو الأسفار فقلت هو كالحمار فى أنه يحمل ويجهل ، وقعت من التشبيه المقصود فى الآية بأبعد البعد . والنكتة أن التشبيه بالحمل للأسفار إنما كان بشرط أن يقترن به الجهل ولم يكن الوصف بالصفاء والتشبيه بالماء فيه [٢] بشرط أن يقترن به الكدر ولذلك لو قلت يصفو ولا يكدر لم تزدد فى صميم التشبيه وحقيقته [٣] شيئاً وإنما استدمت الصفة كقولك يصفو أبداً وعلى كل حال .

فصـــل

اعلم أن الشبه إذا انتزع من الوصف [٤] لم يخل من وجهين :

أحدهما أن يكون لأمر يرجع إلى نفسه والآخر أن يكون لأمر لايرجع إلى نفسه فالأول مامضى فى نحو تشبيه الكلام بالعسل فى الحلاوة وذلك أن وجه التشبيه [٥] هناك أن كل واحد منهما يوجب فى النفس لذة وحالة محمودة ويصادف منها قبولا وهذا حكم واجب للحلاوة من حيث هى حلاوة أو للعسل من حيث هو عسل .

وأما الثانى وهو ماينتزع منه التشبيه [٦] لأمر لايرجع إلى نفسه فمثاله

---

(١) لأن الذم إنما تعلق بهم من أجل أنها وصلت إليهم ولم يعملوا بها .
(٢) أى فى المثال المتقدم .
(٣) أى وإن زدت فى وصفه بأن جعلته مستديما .
(٤) المراد بالوصف وجه الشبه الظاهر فى الكلام كالحلاوة فى العسل .
(٥) الصواب الشبه .
(٦) الصواب الشبه .

أن يتعدى الفعل إلى شيء مخصوص يكون له من أجله حكم خاص نحو كونه واقعاً [١] في موقعه وعلى الصواب أو واقعاً غير موقعه كقولهم « هو كالقابض على الماء والراقم في الماء [٢] » فالشبه ههنا منتزع مما بين القبض والماء وليس بمنتزع من القبض نفسه وذلك أن فائدة قبض اليد على الشيء أن يحصل فيها فإذا كان الشيء مما لا يتماسك ففعلك القبض في اليد لغو وكذلك القصد في الرقم أن يبقى أثر في الشيء وإذا فعلته فيما لا يقبله كان فعلك كلا فعل . وكذلك قولهم « يضرب في حديد بارد [٣] وينفخ في غير فحم [٤] » .

وإذا ثبت هذا فكل [٥] شبه كان هذا سبيله فإنك لا تجد بين المعنى [٦]

---

(١) كقولهم هو كالناقش على الحجر وقولهم أخذ القوس باريها .

(٢) الرقم على الماء والقبض عليه قد يضربان مثلا لمن حذق الأمور يقولون هو يرقم على الماء أي يرقم حيث لا يثبت الرقم قال الشاعر :

سأرقم في الماء القراح إليكم على نأيكم إن كان في الماء راقم

يريد أنه يعمل ما لا يعمله أحد بحذقه ورفقه ؛ وقد يضربان لمن يرجو ما لا يحصل ، ولمن لا يحصل من سعيه على طائل قال :

فأصبحت من ليلها الغداة كقابض على الماء لا يدري بما هو قابض

(٣) يضرب لمن يطمع في غير مطمع قال :

وإذا تألفت القلوب على الهوى فالناس تضرب في حديد بارد

ولمن يطلب الحاجة من غير أهلها كما قال :

ياخادع البخلاء عن أموالهم هيهات تضرب في حديد بارد

(٤) يضرب كذلك لمن يعمل في غير عائدة قال الأغلب العجلي :

هل غير غار هدّ غارا فانهدم قد قاتلوا لو ينفخون في فحم
وصبروا لو صبروا على أمم

يريد لو كان قتالهم يغني شيئاً ولكنه لا يغني .

(٥) يريد فكل وجه شبه .

(٦) هو الشبه الذي ضربت له المثل .

المذكور وبين المشبه [١] إذا أفردته ملابسة البتة . ألا تراك تضرب الرقم في الماء والقبض عليه لأمور لاشبه بينهما وبينها البتة من حيث هما رقم وقبض .

وإذ قد عرفت هذا فالحمل في الآية من هذا القبيل أيضاً لأنه تضمن الشبه من اليهود لا لأمر يرجع إلى حقيقة الحمل بل لأمرين [٢] آخرين أحدهما تعديه إلى الأسفار والآخر اقتران الجهل للأسفار به ، وإذا كان الأمر كذلك كان قطعك الحمل عن هذين الأمرين في البعد من الغرض كقطعك القبض والرقم عن الماء في استحالة أن يعقل منهما مايعقل بعد تعديهما إلى الماء بوجه من الوجوه فاعرفه [٣] .

فإن قلت ففي اليهود شبه من الحمل من حيث هو حمل على حال وذلك أن الحافظ للشيء بقلبه يشبه الحامل للشيء على ظهره ، وعلى ذلك يقال حملة الحديث وحملة العلم كما جاء في الأثر « يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله » [٤] « ورب حامل فقه إلى من هو أفقه » [٥] ، فالجواب : أن الأمر وإن كان كذلك فإن هذا الشبه لم يقصد ههنا وإنما قصد مايوجبه تعدى الحمل إلى الأسفار

---

(١) صوابه المشبه به .

(٢) الصواب بل له ولأمرين آخرين .

(٣) يفهم من هذا أن الآية من قبيل التشبيه الذى طرفاه مقيدان ومن الفصل قبله أن الآية من قبيل التشبيه المركب الطرفين فإما أن الشيخ لايرى بينهما فرقا أو أن العبارة تحتاج إلى تحرير .

(٤) لفظ الحديث يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين .

(٥) لفظه «نضر الله امرأ سمع منا حديثا فحفظه حتى يبلغه غيره فرب حامل فقه إلى من هو أفقه منه ورب حامل فقه ليس بفقيه»

مع اقتران الجهل بها به وهو العناء بلا منفعة . يبين ذلك أنك قد تقول للرجل يحمل فى كمه أبداً دفاتر علم وهو بليد لايفهم أو كسلان لايتعلم : إن كان يحمل كتب العلم فالحمار أيضاً قد يحمل ، تريد أن تبطل دعواه أن له فى حمله فائدة وأن تسوى بينه وبين الحمار فى فقد الفائدة مما يحمل ، فالحمل ههنا نفسه موجود فى المشبه بالحمار ، ثم التشبيه لاينصرف إليه من حيث هو حمل وإنما ينصرف إلى ماذكرت لك من عدم الجدوى والفائدة وإنما يتصور أن يكون الشبه راجعاً إلى الحمل من حيث هو حمل حيث يوصف الرجل مثلا بكثرة الحفظ للوظائف [١] أو جهد النفس فى الأشغال المتراكمة وذلك خارج عن الغرض مما نحن فيه .

ومن هذا الباب قولهم « أخذ القوس باريها [٢] » ، وذلك أن المعنى على وقوع الأخذ فى موقعه ووجوده من أهله فلست تشبه من حيث الأخذ نفسه وجنسه ولكن من حيث الحكم الحاصل له بوقوعه من بارى القوس على القوس . وكذلك قولهم [٣] « مازال يفتل منه فى الذروة والغارب »

(١) تطلق الوظيفة بمعنى المنصب والخدمة المعينة ، وقد تطلق على مايقدر للعامل من طعام ورزق وغيرهما وقد تكون بمعنى النوبة والدولة يقال الدنيا وظائف أى هى مرة لهؤلاء ومرة لأولئك .

(٢) قال الشاعر :

يابارى القوس بريا ليس يحسنه ... لاتظلم القوس أعط القوس باريها

(٣) فى حديث الزبير . سأل عائشة الخروج إلى البصرة فأبت عليه فما زال يفتل فى الذروة والغارب حتى أجابته . الذروة أعلى السنام من البعير والغارب الكاهل من ذى الخف وهو مابين السنام والعنق والمراد أنه أراد إزالتها عن رأيها كما يفعل بالجمل النفور إذا أريد تأنيسه وإزالة نفاره .

الشبه مأخوذ [١] بين الفتل وما تعدّى إليه من الذروة والغارب ولو أفردته لم تجد شبهاً بينه وبين مايضرب هذا الكلام مثلا له . لأنه يضرب فى الفعل أو القول يصرف به الإنسان عن الامتناع إلى الإجابة ، وعن الإباء عليك فى مرادك إلى موافقتك والمصير إلى ماتريد منه . وهذا لايوجد فى الفتل من حيث هو فتل وإنما يوجد فى الفتل إذا وقع فى الشعر من ذروة البعير وغاربه .

واعلم أن هذا الشبه حكمه واحد سواء أخذته مابين الفعل والمفعول الصريح أو مايجرى مجرى المفعول . فالمفعول كالقوس فى قولك « أخذ القوس باريها » وما يجرى مجرى المفعول الجار مع المجرور كقولك « كالرقم فى الماء . وهو كمن يخط فى الماء » ، وكذلك الحال [٢] كقولهم « كالحادى وليس له بعير » فقولك : وليس له بعير ـ جملة من الحال قد احتاج الشبه إليها لأنه مأخوذ مابين المعنى الذى هو الحدو وبين هذه الحال كما كان مأخوذاً بين [٣] الرقم والماء وما بين الفتل والذروة والغارب . وقد تجد بك حاجة إلى مفعول وإلى الجار مع المجرور كقولك : وهل يجمع السيفان فى الغمد [٤] ؟ وأنت كمن يجمع السيفين فى غمد . ألا ترى أن الجمع فيه

(١) الصواب مأخوذ مما بين الفتل الخ وكذا فى قوله فى قوله بعد ، أخذته مما بين الفعل والمفعول وفيما بعده أيضا .

(٢) يضرب مثلا للرجل ينتفخ بما لايملك وأخصر منه وأجود قوله عليه السلام : « المتشبع بما لم يعط كلابس ثوبى زور » ، مأخوذ من تشبع الرجل إذا أظهر أنه شبعان وليس كذلك .

(٣) صوابه مما بين الرقم والماء . ومما بين الفتل والذروة والغارب

(٤) يضرب مثلا للمستحيل قال أبو ذؤيب الهذلى خويلد بن خالد الشاعر المخضرم الذى أسلم ومات فى الغزو بإفريقية سنة ٢٦ بمصر :

تريدين كيما تجمعينى وخالدا ... وهل يجمع السيفان ويحك فى غمد
أخالد ماراعيت من ذى قرابة ... فتحفظنى فى الغيب أو بعض ماتدرى =

لا يغنى بتعديه إلى السيفين حتى يشترط كونه جمعاً لهما فى الغمد فجموع ذلك كله يحصل الغرض وهكذا نحو قول العامة : هو كثير الجور على إلفه [١] ، وقولهم : « كمبتغى الصيد فى عِرِّيسة الأسد [٢] » لأن الصيد مفعول وفى عريسة جار مع المجرور .

فإذا ثبت هذا ظهر منه أنه لابد لك فى هذا الضرب من الشبه من جملة صريحة أو حكم الجملة ، فالجملة الصريحة قولك : أخذ القوس باريها . وحكم الجملة أن تقول : هذا منك كالرقم فى الماء والقبض على الماء ، فتأتى بالمصدر أو تقول : كالراقم فى الماء وكالقابض على الماء فتأتى باسم الفاعل . وذاك أن المصدر واسم الفاعل ليسا بجملتين صريحاً ولكن حكم الجملة قائم فيهما وهو أنك أعملتهما عمل الفعل ، ألا ترى أنك عديتهما على حسب

= دعاك إليها مقلتاها وجيدها   فملت كما مال المحب على عمد
وكنت كرقراق السراب إذا بدا   لقوم وقد بات المطى بهم يخدى
فآليت لا أنفك أحذو قصيدة   تكون وإياها بها مثلا بعدى

ومن حديث ذلك أنه كان يهوى امرأة من قومه وكان يرسل إليها ابن أخته خالد ابن زهير وهو صغير فلما شب أفسد صديقة خالد عليه فهجرها فأرسلت تترضاه فأبى وأنشد هذه الأبيات .

(١) صواب العبارة هو كناثر الجوز على القبة . يضرب مثلا لمن يضع الشىء فى غير موضعه .

(٢) هو من قول الطرماح بن حكيم الطائى الشاعر الأموى .

ياطئ السهل والأجبال موعدكم   كمبتغى الصيد فى عريسة الأسد
والليث من يلتمس صيدا بعقوته   يعرج بحوبائه من آخر الجسد

والأجبال أجأ سلمى والعوجاء ، والعقوة الساحة والعريسة مأوى الأسد ويعرج يصعد من عرج الملك بالروح أى صعد يريد أنه يذهب بروحه ولا يبقى فيه رمق والحوباء النفس وهو مثل للرجل يخطئ فيطلب الشىء من غير موضعه أو من حيث يغلب عليه ويقهر .

ماتعدّى الفعل . وخصائص هذا النوع من التمثيل أكثر من أن تضبط وقد وقفتك على الطريقة .

فهذا أحد الوجوه التى يكون الشبه العقلى بها حاصلا لك من جملة [1] من الكلام وأظنه من أقوى الأسباب والعلل فيه .

وعلى الجملة فينبغى أن تعلم أن المثل الحقيق والتشبيه الذى هو الأولى بأن يسمى تمثيلا لبعده عن التشبيه الظاهر الصريح ماتجده لايحصل لك إلا من جملة من الكلام أو جملتين أو أكثر حتى إن التشبيه كلما كان أوغل فى كونه عقليا محضاً كانت الحاجة إلى الجملة أكثر . ألا ترى إلى نحو قوله عز وجل (إنما مثلُ الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نباتُ الأرض مما يأكلُ الناسُ والأنعامُ حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازّيّنت وظنّ أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرُنا ليلًا أو نهاراً فجعلناها حصيداً كأن لم تغْنَ بالأمس) كيف كثرت الجمل فيه حتى إنك ترى فى هذه الآية عشر جمل إذا فصلت . وهى وإن كان قد دخل بعضها فى بعض حتى كأنها جملة واحدة فإن ذلك لايمنع من أن تكون صورة الجمل معنا حاصلة تشير إليها واحدة واحدة . ثم إن الشبه منتزع من مجموعها من غير أن يمكن فصل بعضها عن بعض وإفراد شطر من شطر حتى إنك لوحذفت منها جملة واحدة من أى موضع كان أخل ذلك بالمغزى من التشبيه .

ولا ينبغى أن تعد الجمل فى هذا النحو بعدّ التشبيهات التى يضم بعضها إلى بعض والأغراض الكثيرة التى كل واحد منها منفرد بنفسه ، بل بعد جمل تنسق ثانية منها على أولة ، وثالثة على ثانية وهكذا . فإن ما كان من هذا الجنس

---

(١) المراد بالجملة ما قابل المفرد فيشمل المفرد المقيد كما أشار إلى ذلك فيما تقدم.

لم تترتب فيه الجمل ترتيباً مخصوصاً حتى يجب أن تكون هذه سابقة وتلك تالية لها والثالثة بعدهما . ألا ترى أنك إذا قلت زيد كالأسد بأساً والبحر جوداً والسيف مضاء والبدر بهاء ، لم يجب عليك أن تحفظ فى هذه التشبيهات نظاماً مخصوصاً بل لو بدأت بالبدر وتشبيهه به فى الحسن وأخرت تشبيهه بالأسد فى الشجاعة كان المعنى بحاله [١] ، وقوله [٢] :

النشر مسك والوجوه دنا نير وأطراف الأكف عنم [٣]

إنما يجب حفظ هذا الترتيب فيها لأجل الشعر فإما أن تكون هذه الجمل متداخلة كتداخل الجمل فى الآية وواجباً فيها أن يكون لها نسق مخصوص كالنسق فى الأشياء إذا رتبت ترتيباً مخصوصاً كان لمجموعها صورة خاصة فلا .

وقد يجىء الشىء من هذا القبيل يتوهم فيه أن إحدى الجملتين أو الجمل

---

(١) يقصد بذلك أن سقوط بعض التشبيهات لا يغير حال الباقى فى إفادته معناه وما كان يدل عليه قبل الحذف وهو التشبيه المستقل ، وإن كان يتغير حال الباقى فى إفادة اجتماع الصفات ، ولكن هذا ليس تغييرا فى إفادة التشبيه بل فيما أفاده واو العطف إذ أن فوات اجتماع الصفات فى المخبر عنه ليس تغييرا فى إفادته التشبيه بل ذلك من عدم ذكر حرف العطف وهو الواو لا للتركيب والاتصال .

(٢) هو المرقش الأكبر البكرى عمرو بن سعد بن مالك شاعر جاهلى وهو أحد عشاق العرب المشهورين وصاحبته أسماء بنت عوف زوجها أبوها من غيره فذهب إليها فمات فى الطريق ولقب بالمرقش لقوله فى هذه القصيدة :ـ

الدار وحش والرسوم كما رقش فى ظهر الأديم قلم

وأولها هل بالديار أن تجيب صمم لو أن حيا ناطقا كلم

الدار وحش ... الخ

ديار سلمى التى بتلت قلبى فعينى ماؤها يسجم

أضحت خلاء نبتها تئد نور فيها زهره فاعتم

بل شجتك الظعن باكرة كأنهن النخل من ملهم

(٣) والنشر الريح الطيبة والعنم بالتحريك ثمر أحمر يشبه به البنان المخضوب .

تنفرد وتستعمل بنفسها تشبيهاً وتمثيلا ثم لا يكون كذلك عند حسن التأمل. مثال ذلك قوله [١] :

كما أبرقت قوماً عطاشاً غمامة فلما رأوها أقشعت وتجلت [٢]

هذا مثل فى أن يظهر للمضطر إلى الشىء الشديد الحاجة إليه أمارة وجوده ثم يفوته ويبقى لذلك بحسرة وزيادة ترح . وقد يمكن أن يقال إن قولك « أبرقت قوماً عطاشاً غمامة » تشبيه مستقل بنفسه لاحاجة به إلى مابعده من تمام البيت فى إفادة المقصود الذى هو ظهور أمر مطمع لمن هو شديد الحاجة ، إلا أنه وإن كان كذلك فإن حقنا أن ننظر فى مغزى المتكلم فى تشبيهه . ونحن نعلم أن المغزى أن يصل ابتداء مطمعاً بانتهاء مؤيس وذلك يقتضى وقوف الجملة الأولة على مابعدها من تمام البيت . ووزان هذا أن الشرط والجزاء جملتان ولكنا نقول إن حكمهما حكم جملة واحدة . من حيث دخل فى الكلام معنى يربط إحداهما بالأخرى حتى صارت الجملة لذلك بمنزلة الاسم المفرد فى امتناع أن تحصل به الفائدة . فلو قلت « إن تأتنى » وسكت لم يفد كما لايفيد إذا قلت « زيد » وسكت فلم تذكر اسما آخر ولا فعلا ولا كان منويا فى النفس معلوما من دليل الحال . ثم إن الأمر وإن كان كذلك فقد يجوز أن يخرج الكلام عن الجزاء فتقول « تأتينى » فتعود الجملة على الإفادة لإغنائك لها عن أن ترتبط بأخرى وإزالتك المعنى الذى أوجب فقرها إلى صاحبة لها ، إلا أن الغرض الأول

---

(١) ينسبونه إلى كثير وقبله فيما زعموا .

لقد أطمعتنى بالوصال تبسما فلما رأتنى أعرضت وتولت

(٢) فى رواية اليتيمة «رجوها» بدل «رأوها» وأقشعت مطاوع قشعت الريح السحاب فأقشع .

يبطل ، والمعنى يتبدل فكذلك الاقتصار على الجملة التى هى « أبرقت قومًا عطاشا غمامة » تخرج [١] عن غرض الشاعر .

فإن [٢] قلت فهذا يلزمك فى قولك « هو يصفو ويكدر » وذلك أن الاقتصار على أحد الأمرين يبطل غرض القائل - وقصده أن يصف الرجل بأنه يجمع الصفتين وأن الصفاء لايدوم . فالجواب : أن بين الموضعين فرقا وإن كان يغمض قليلا وهو أن الغرض فى البيت أن يثبت ابتداء مطمعاً مؤنسا أدى إلى انتهاء مؤيس موحش ، وكون الشىء ابتداء لآخر هو له انتهاء معنى زائد على الجمع بين الأمرين والوصف بأن كل واحد منهما يوجد فى المقصود ، وليس لك فى قولك : يصفو ويكدر ، أكثر من الجمع بين الوصفين . ونظير هذا أن تقول هو كالصفو بعد الكدر فى حصول معنى يجب معه ربط أحد الوصفين بالآخر فى الذكر ويتعين به الغرض حتى لوقلت يكدر ثم يصفو لجئت بثم التى توجب الثانى مرتبا على الأول وأن أحدهما مبتدأ والآخر بعده - صرت بالجملة إلى حد مانحن عليه من الارتباط ووجوب أن يتعلق الحكم بمجموعهما ، ويوجد الشبه إن شبهت مابينهما على التشابك والتداخل : دون التباين والتزايل .

---

(١) الصواب يخرج بالياء من أخرج الرباعى .

(٢) قال عبد الحكيم فى حواشى المطول لايخفى أنه لا ورود لهذا الاعتراض لأن ماتقدم يفيد أنه إذا كان وجه الشبه مركبا من متعدد فقد يقع الخطأ فيه بأن ينتزع من أقل مما يجب الانتزاع منه ، أما فى التشبيهات المجتمعة أى التى يكون الغرض فيها مجرد الاجتماع فإنما يفوت الغرض من الكلام إذا اعتبر كل واحد على حدة لا أن يقع الخطأ فى الانتزاع لوجه الشبه فى قولنا زيد يصفو ويكدر وجه الشبه فى كل من التشبيهين باق على حاله فى حال الاجتماع والانفراد .

ومن الواضح فى كون الشبه معلقا بمجموع الجملتين حتى لا يقع فى الوهم تميز إحداهما [(١)] على الأخرى قوله [(٢)] « بلغنى أنك تقدم رجلا وتؤخر أخرى فإذا أتاك كتابى هذا فاعتمد على أيهما شئت والسلام » وذلك أن المقصود من هذا الكلام التردد بين الأمرين وترجيح الرأى فيهما ، ولا يتصور التردد والترجيح [(٣)] فى الشىء الواحد ، فلو جهدت وهمك أن تتصور لقولك « تقدم رجلا » معنى وفائدة مالم تقل « وتؤخر أخرى » أو تنوه فى قلبك كلفت نفسك شططا .

وذكر أبو أحمد العسكرى [(٤)] أن هذا النحو من الكلام يسمى المماثلة . وهذه التسمية توهم أنه شىء غير المراد بالمثل والتمثيل ، وليس الأمر كذلك ، كيف وأنت تقول « مثلك مثل من يقدم رجلا ويؤخر أخرى » ووزان هذا أنك تقول : زيد الأسد ، فيكون تشبيها على الحقيقة وإن كنت

---

(١) الصواب من الأخرى أو عن الأخرى يقال تميز منه أو عنه .

(٢) قال الجاحظ فى البيان والتبيين: لما بايع الناس يزيد بن الوليد وأتاه الخبر عن مروان ابن محمد يبعض التلكؤ والتحبس كتب إليه «بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله أمير المؤمنين يزيد بن الوليد إلى مروان بن محمد أما بعد فإنى أراك تقدم رجلا وتؤخر أخرى الخ .. » ، ومفعول تؤخر محذوف أى تؤخرها وأخرى صفة لمرة محذوفة أيضاً أى تؤخرها اى هذه الرجل مرة أخرى ، وعد المصنف هذا من التمثيل يخالف عد المتأخرين له من باب الاستعارة التمثيلية .

(٣) الصواب الترجح يقال ترجح الشىء تذبذب بين شيئين ومنه الأرجوحة .

(٤) هو الحسن بن عبد الله بن سعيد العسكرى نسبة إلى بلد تسمى «عسكر مكرم» بالأهواز وهو أستاذ أبى هلال وخاله توفى سنة ٣٨٣ هجرية وله عدة مصنفات منها صناعة الشعر والحكم والأمثال والتصحيف ، أما أبو هلال فهو الحسن بن عبد الله المتوفى سنة ٣٩٥ هجرية وله كتاب جمهرة الأمثال وكتاب أعلام المعانى فى معانى الشعر وكتاب الحماسة وكتاب الأوائل وكتاب نوادر الجمع والواحد وكتاب العمدة وكتاب الصناعتين .

لم تصرح بحرف التشبيه ومثله أنك تقول : أنت ترقم فى الماء ، وتضرب فى حديد بارد ، وتنفخ فى غير فحم ، فلا تذكر مايدل صريحا على أنك تشبه ولكنك تعلم أن المعنى على قولك : أنت كمن يرقم فى الماء وكمن يضرب فى حديد بارد وكمن ينفخ فى غير فحم ، وما أشبه ذلك مما تجىء فيه بمشبه به ظاهر تقع هذه الأفعال فى صفة اسمه أو صفته [١] .

واعلم أن المثل قد يضرب بجمل لابد فيها من أن يتقدمها مذكور يكون مشبها به ولا يمكن حذف المشبه به والاقتصار على ذكر المشبه ونقل الكلام إليه حتى كأنه صاحب الجملة [٢] إلا أنه مشبه بمن صفته وحكمه مضمون تلك الجملة .

بيان هذا أن قول النبي صلى الله عليه وسلم « الناس كإبل مائة لاتكاد تجد فيها راحلة » [٣] لابد فيه من المحافظة على ذكر المشبه به الذى هو الإبل . فلو قلت الناس لاتجد فيهم راحلة أو لاتجد فى الناس راحلة كان ظاهر التعسف . وههنا ماهو أشد اقتضاء للمحافظة على ذكر ماتعلق الجملة به وتسند إليه وذلك مثل قوله عز وجل : (إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء) الآية . لو أردت أن تحذف الماء الذى هو المشبه [٤] به وتنقل الكلام إلى المشبه الذى هو الحياة أردت ما لاتحصل منه على كلام يعقل لأن الأفعال المذكورة المحدث بها عن الماء لايصح إجراؤها على الحياة ، فاحفظ هذا

---

(١) الصواب صلته .

(٢) الصواب لأنه .

(٣) فى البيان برواية الناس كالإبل ترى المائة لا تجد فيها راحلة .

(٤) المشبه به حال النبات الذى اخضر وأينع ثم أتته جائحة فأبادته سريعا والجامع سرعة التقضى وإذاً فقوله الماء مشبه به ليس كما ينبغى .

الأصل فإنك تحتاج إليـه وخصوصا فى الاستعارة على مايجىء القول فيه إن شاء الله تعالى .

والجملة إذا جاءت بعد المشبه به لم تخل من ثلاثة أوجه :

(أحدها) أن يكون المشبه به معبراً عنه بلفظ موصول وتـكون الجملة صلة كقولك : أنت الذى [١] من شأنه كيت وكيت ، كقوله تعالى : (مثلهم كمثل الذى استوقد ناراً فلما أضاءت ماحوله) .

(والثانى) أن يكون المشبه به نـكرة تقع الجملة صفة له كقولنا : أنت كرجل من أمره كذا وكذا ، وقول النبى صلى الله عليه وسلم « الناس كإبل مائة لاتجد فيها راحلة » وأشباه ذلك .

(والثالث) أن تجىء الجملة [٢] مبتدأة وذلك إذا كان المشبه به معرفة ولم يكن هناك الذى كقوله تعالى : (كمثل العنـكبوت اتخذت بيتاً) .

فصـــل

فى مواقع التمثيل وتأثيره

واعلم أن ممـا اتفق العقلاء عليه أن التمثيل إذا جاء فى أعقاب المعانى أو برزت [٣] هى باختصار فى معرضه ، ونقلت عن صورها الأصلية إلى

---

(١) الصواب كالذى .

(٢) هذا بناء على قراءة الوقف على العنكبوت وأن الجملة بعدها استئناف وقد جوزوا إعرابها حالا بتقدير قد أو صفة بناء على أن «أل» جنسية أو صلة لموصول محذوف ، وعليها فلا تكون مبتدأة .

(٣) يعنى أن للتمثيل طريقين أولهما أن يجىء المعنى ابتداء فى صورة التمثيل وهو الكثير فى الكتاب الكريم كقوله (مثلهم كمثل الذى استوقد نارا) وثانيهما أن يتأثر المعانى ويجىء فى أعقابها لإيضاحها كقوله بعد ما قرر أمر التوحيد وشنع على الذين اتخذوا

صورة، كساها أبهة (١)، وكسبها منقبة، ورفع من أقدارها، وشبَّ من نارها، وضاعف قواها فى تحريك النفوس لها، ودعا القلوب إليها، واستثار لها من أقاصى الأفئدة صبابة وكلفا، وقسر الطباع على أن تعطيها محبة وشغفا.

فإن كان مدحا (٢) كان أبهى وأفخم، وأنبل فى النفوس وأعظم، وأهز للعِطف، وأسرع للإلف، وأجلب للفرح، وأغلب على الممتدح، وأوجب شفاعة للمادح، وأقضى له بغُرّ المواهب والمنائح، وأسير على الألسن وأذكر، وأولى بأن تعلقه القلوب وأجدر.

وإن كان ذما كان مَسُّه أوجع، ومِيسمه ألذع، ووقعه أشدّ، وحدّه أحدّ (٣).

وإن كان حجاجا كان برهانه أنور، وسلطانه أقهر، وبيانه أبهر (٤).
وإن كان افتخاراً كان شأوه (٥) أبعد، وشرفه أجدّ، ولسانه ألدّ.

= من دونه أولياء - ضرب الله مثلا رجلا فيه شركاء متشاكسون ورجلا سلما لرجل هل يستويان مثلا ؟ الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون.

(١) تأبه فلان بالتشديد أى تكبر والأبهة العظمة والبهجة والكبر.

(٢) كقول أبى تمام :-

صدفت عنه ولم تصدف مواهبه ... عنى وعاوده ظنى فلم يخب
كالغيث إن جئته وافاك ريقه ... وإن تأخرت عنه لج فى الطلب

ومنه ما جاء فى الكتاب الكريم فى وصف الصحابة فى تقويتهم لدعائم الإسلام حتى اشتد وقوى (ومثلهم فى الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع)

(٣) نحو ما جاء فى الذى أوتى الآيات فانسلخ منها فمثله كمثل الكلب أن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث؛ أى يخرج لسانه من العطش.

(٤) كقول أبى العتاهية :

ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها ... إن السفينة لا تجرى على اليبس

(٥) السبق.

وإن كان اعتذاراً كان إلى القبول أقرب ، وللقلوب أخلب ، وللسخائم [١] أسلّ [٢] ، ولغرب [٣] الغضب أفل ، وفى عُقَد العقود أنفث [٤] وعلى حسن الرجوع أبعث .

وإن كان وعظاً كان أشفى للصدر ، وأدعى إلى الفكر ، وأبلغ فى التنبيه والزجر وأجدر بأن يجلى الغياية ، ويبصر الغاية ، ويبرئ العليل ، ويشفى الغليل [٥] .

وهكذا الحكم إذا استقريت فنون القول وضروبه ، وتتبعت أبوابه وشعوبه ، [٦] وإن أردت أن تعرف ذلك وإن كان تقل الحاجة فيه إلى التعريف ، ويستغنى فى الوقوف عليه عن التوقيف [٧] فانظر إلى نحو قول البحترى [٨] :

دانٍ على أيدى العفاة وشاسع عن كل ند فى الندى وضريب
كالبدر أفرط فى العلو وضوءه للعصبة السارين جِدُّ قريب

(١) الضغائن .
(٢) أنزع : من سل الشىء نزعه .
(٣) حد .
(٤) النفث : النفخ
(٥) الغليل : العطش كما جاء فى الحديث . إن المنبت لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى .
(٦) شعوب الكلام مناحيه كالغزل والرثاء والوصف والشكوى وأعمها الوصف كقوله يهز الجيش حولك جانبيه كما نفضت جناحيها العقاب
(٧) وقف القارئ عله مواضع الوقف ثم استعمل فى كل أنواع التعليم .
(٨) يمدح أبا الفضل إسماعيل بن إسحاق بن يعقوب بن نوبخت من قصيدة مطلعها :
كم بالكثيب من اعتراض كثيب وقوام غصن فى الثياب رطيب
دمن لزينب قبل تشريد النوى من ذى الأراك بزينب ولعوب
والضريب : المثل والنظير ، وجد قريب أى بالغ غاية القرب .

وفكر فى حالك وحال المغنى معك وأنت فى البيت الأول لم تنته إلى الثانى ولم تتدبر نصرته إياه ، وتمثيله له فيما يملى على الإنسان عيناه ، ويؤدى إليه ناظراه ، ثم قسهما على الحال وقد وقفت عليه ، وتأملت طرفيه ، فإنك تعلم بعد مابين حالتيك ، وشدة تفاوتهما فى تمكن المغنى لديك ، وتحببه إليك ، ونبله فى نفسك ، وتوفيره لأنسك ، وتحكم لى بالصدق فيما قلت ؛ والحق فيما ادعيت .

وكذلك فتعهد الفرق بين أن تقول : فلان يكد نفسه فى قراءة الكتب ولا يفهم منها شيئا ، وتسكت . وبين أن تتلو الآية و[1] تنشد قول الشاعر[2] :

زوامل للأشعار لاعلم عندهم بجيدها إلا كعلم الأباعر[3]

لعمرك مايدرى البعير إذا غدا بأوساقه أو راح مافى الغرائر

والفصل بين أن تقول «أرى قوما لهم بهاء ومنظر ، وليس هناك مخبر[4] بل فى الأخلاق دقة[5] ، وفى الكرم ضعف وقلة » ، وتقطع الكلام ، وبين أن تتبعه نحو قول الحكيم : أما البيت فحسن وأما الساكن فردىء .

وقول[6] ابن لنكك[7] :

---

(١) الصواب أو تنشد .

(٢) هو مروان بن سليمن بن يحي بن أبي حفصة يهجو قوما من رواة الشعر بأنهم لايعلمون ماهو على استكثارهم من روايته .

(٣) الزوامل جمع زاملة وهى ما يحمل عليها من الإبل وغيرها والأباعر والأباعير جمع أبعرة التى هى جمع بعير والوسق بالفتح والكسر حمل البعير وجمعه أوساق والغرائر جمع غرارة الجوالق معرب .

(٤) المخبر والمخبرة بفتح الراء وضمها خلاف المنظر .

(٥) قلة خير .

(٦) الصواب أو قول

(٧) هو أبو الحسن محمد بن محمد بن لنكك البصرى وكان فرد البصرة وصدر أدبائها فى عصره وأكثر شعره ملح وطرف جلها فى شكوى الزمان وأهله وهجاء =

في شجر الدرو منهم مثل　　له رُواء وماله ثمــر

وقول ابن الرومى : (١)

فغدا كالخلاف يورق للعيـ　　ـن ويأبى الإثمار كل الإباء

وقول الآخر (٢)

= شعراء عصره كما كان شديد التحامل على أبى الطيب المتنبي وقبل البيت : -

لاتخدعنك اللحى ولا الصور　　تسعة أعشار من ترى بقر

تراهم كالسحاب منتشرا　　وليس فيها لطالب مطر

ومدح الصاحب بن عباد شعر ابن لنكك فقال :

شعر الظريف ابن لنكك　　مهذب ومحكك

مذهب وممســك　　بمثله يتمسك

(١) هو أبو الحسن على بن العباس بن جريج مولى عبيد الله بن عيسى بن جعفر ابن المنصور صاحب النظم العجيب والتوليد الغريب يغوص على المعانى النادرة ويبرزها فى أحسن صورة ، وله القصائد المطولة والمقاطيع البديعة توفى سنة ٢٨٣ هجرية وقيل مات مسموما ، والبيت من قصيدة يعاتب بها أبا القاسم التوزى الشطرنجى ويمدحه ومطلعها : -

يا أخى أين عهد ذاك الأخاء　　أين ما كان بيننا من صفاء

وقبله　أنت عينى وليس من حق عينى　　غض أجفانها على الأقـذاء

ما بأمثال ما أتيت من الأمـ　　ـر يحـل الفتى ذرا العلياء

ليس من حل بالمحل الذى أنـ　　ـت فيه من سماحة ووفاء

بذل الوعد للأخلاء سمحا　　وأبى بعد ذاك بذل العطاء

والخلاف : صنف من الصفصاف .

(٢) هو خالد بن صفوان الشاعر الخطيب فى عصر بنى أمية .

وقبله　أرى الناس فى الاخلاق أهل تخلق　　وأخبارهم شتى فعرف ومنكر

قريب تدانيهـم إذا ما رأيتهم　　ومختلف ما بينهـم حين تخبر

فلا تحمدنّ الدهر ظاهر صفحة　　من المرء مالم تبل ماليس يظهر

فما المرء إلا الأصغران لسانه　　ومعقوله والجسم خلق مصور

وما الزين فى ثوب تراه وإنما　　يزين الفتى مخبوره حين يخبر

فإن طرة راقتك فانظر فربما   أمرّ مذاق العود والعودُ أخضر (١)

وانظر إلى المعنى فى الحالة الثانية كيف يورق شجره ويثمر، ويَفترّ ثغره ويبسِم، وكيف تشتار الأرى (٢) من مذاقته، كما ترى الحسن فى شارته (٣) وأنشد (٤) قول ابن لنكك:

إذا أخو الحسن أضحى فعله سمجا   رأيت صورته من أقبح الصور (٥)

وتبين المعنى وأعرف مقداره ثم أنشد البيت بعده:

وهبك كالشمس فى حسن ألم ترنا   نفرّ منها إذا مالت إلى الضرر

وانظر كيف يزيد شرفه عندك، وهكذا فتأمل بيت أبى تمام: (٦)

وإذا أراد الله نشر فضيلة   طويت أتاح لها لسان حسود

مقطوعا عن البيت الذى يليه؛ والتمثيل الذى يؤديه، واستقص فى تعرّف قيمته، على وضوح معناه وحسن مزيته ثم أتبعه إياه:

لولا اشتعال النار فيما جاورت   ماكان يعرف طيب عَرف العود

وانظر هل نشر المعنى تمام حلته، وأظهر المكنون من حسنه وزينته،

---

(١) وفى رواية صورة بدل طرة، والطرة الناصية والمراد بها هنا الحسن والبهاء فى الجسم عامة وأمر صار مرا.

(٢) العسل واشتاره اجتناه.

(٣) الهيئة واللباس.

(٤) الصواب أو تنشد

(٥) أخذ هذا المعنى الصاحب بن عباد:-

يقال تركت الذى حسنه   يكاد يخجل شمس الضحى
فقلت وشمس الضحى تحتمى   إذا بسطت فى المصيف الأذى

(٦) يمدح أحمد بن أبى دؤاد ويعتذر إليه ويستشفع خالد بن يزيد ومطلعها:-

أرأيت أى سوالف وخدود   عنت لنا بين اللوى فزرود
لولا التخوف للعواقب لم يزل   للحاسد النعمى على المحسود

وعطرك بعرف عوده ، وأراك النضرة فى عوده ، وطلع عليك من مطلع سعوده ، واستكمل فضله فى النفس ونبله ، واستحق التقديم كله ، إلا بالبيت الأخير ، وما فيه من التمثيل والتصوير .

وكذلك فرق [1] فى بيت المتنبى [2]

ومن يك ذا فم مرّ مريض   يجد مرّاً به الماء الزلالا

لو كان سُلِك بالمعنى الظاهرُ من العبارة كقولك : إن الجاهل الفاسد [3] الطبع يتصور المعنى بغير صورته ويخيل إليه فى الصواب أنه خطأ . هل كنت تجد هذه الروعة ؟ وهل كان يبلغ من وقم الجاهل ووقذه [4] وقمعه وردعه ، والتهجين له والكشف عن نقصه ، مابلغ التمثيل فى البيت وينتهى إلى حيث انتهى .

وإن أردت اعتبار ذلك فى الفن الذى هو أكرم وأشرف فقابل بين أن تقول : إن الذى يعظ ولا يتعظ يضر [5] بنفسه من حيث ينفع غيره ، ـ وتقتصر عليه ـ وبين أن تذكر المثل فيه على ما جاء فى الخبر من أن النبى صلى الله عليه وسلم قال « مثل الذى يعلم الخير ولا يعمل به مثل السراج الذى يضىء للناس ويحرق نفسه » ويروى « مثل الفتيلة تضىء للناس وتحرق

---

(١) الصواب بين .

(٢) من قصيدة يمدح بها بدر بن عمار مطلعها : ـ

بقائى شاء ليس هم ارتحالا   وحسن الصبر زموا لا الجمالا
تولوا بغتة فكأن بينا   تهيبنى ففاجأنى اغتيالا

وقبله   أرى المتشاعرين غروا بذمى   ومن ذا يحمد الداء العضالا

والبيت من قول الحكيم : النفس الكريمة ترى الأشياء حسنة .

(٣) الصواب وما لو ... الخ والظاهر نائب فاعل سلك .

(٤) وقم الرجل قهره وأذله والوقذ الضرب بغير محدد ويكون أطول ألما وأشد تعذيبا .

(٥) ضره وبه وأضره وبه .

نفسها ، وكذا فوازن بين قولك للرجل وأنت تعظه « إنك لا تجزى على السيئة حسنة فلا تغر نفسك » وتمسك . وبين أن تقول فى أثره « إنك [١] لا تجنى من الشوك العنب وإنما تحصد [٢] ما تزرع » وأشباه ذلك . وكذا بين أن تقول : لا تكلم الجاهل بما لا يعرفه ونحوه . وبين أن تقول لا تنثر الدر قدام الخنازير [٣] . أو لا تجعل الدر فى أفواه الكلاب » [٤] وتلشد نحو قول الشافعى رحمه الله .

« أأنثر درًّا بين سارحة الغنم » [٥]

وكذا بين أن تقول : الدنيا لا تدوم ولا تبق . وبين أن تقول « هى ظل زائل ؛ وعارية تسترد ، ووديعة تسترجع » [٦] وتذكر قول النبى صلى الله عليه وسلم « من فى الدنيا ضيف وما فى يديه عارية ، والضيف مرتحل والعارية

---

(١) من كلام أكثم بن صيفى والمعنى إذا ظلمت فاحذر الانتصار فإن الظلم لا يكسبك إلا مثل فعلك وقيل المراد إنك لا تجد عند ذى المنبت السوء جميلا وقد أخذه بعض الشعراء فقال :ـ

إذا وترت امرأ فاحذر عداوته ... من يزرع الشوك لا يحصدن عنبا

(٢) حصد من بابى ضرب ونصر .

(٣) قال عيسى عليه السلام لا تطرح اللؤلؤ إلى الخنزير فإن الخنزير لا يصنع باللؤلؤ شيئا ولا تعطى الحكمة لمن لا يريدها فإن الحكمة خير من اللؤلؤ ومن لا يريدها شر من الخنزير ، وفى الحديث ، قام أخى عيسى خطيبا فى بنى اسرائيل فقال : يابنى إسرائيل لا تعطوا الحكمة غير أهلها فتظلموها ولا تمنعوها أهلها فتظلموهم .

(٤) صوابه أو تنشد .

(٥) من أبيات قالها عند ماقدم مصر وطلب إليه الكلام فى مسائل الفقه ومنها :ـ

أأنثر درا بين سارحة الغنم ... وأنثر منظوما لراعية النعم

فمن منح الجهال علما أضاعه ... ومن منع المستوجبين فقد ظلم

(٦) الصواب أو تذكر .

مؤداة ، [١] وتنشد قول لبيد [٢] .

وما المال والأهلون إلا ودائع ... ولا بد يوما أن تُرد الودائع

وقول الآخر [٣] .

إنما نعمة قوم متعة ... وحياة المرء ثوب مستعار

فهذه جملة من القول تخبر عن صيغ [٤] التمثيل وتخبر عن حال المعنى معه ، فأما القول فى العلة والسبب : لم كان للتمثيل هذا التأثير ؟ وبيان جهته ومأتاه ، وما الذى أوجبه واقتضاه ، فغيرها . وإذا بحثنا عن ذلك وجدنا له أسبابا وعللا كل منها يقتضى أن يفخم المعنى بالتمثيل وينبل ، ويشرف ويكمل ،

---

(١) صوابه أو تنشد .

(٢) من قصيدة مطلعها :ـ

بلينا وماتبلى النجوم الطوالع ... وتبقى الجبال بعدنا والمصانع

(٣) هو الأفوه الأودى صلاءة بن عمرو المذحجى المكنى بأبى ربيعة أحد حكماء العرب وهـذا البيت من أمثاله السائرة نهى النبى عليه السلام عن إنشادها لما فيها من ذكر إسماعيل وإياه عنى بقوله :ـ

ريشت جرهم نبلا فرمى ... جرهما منهن فوق وغرار

وصروف الدهر فى أطباقه ... خلفة فيها ارتفاع وانحدار

بينما الناس على عليائها ... إذ هووا فى هوة منها فغاروا

ومطلعها إن ترى رأسى فيها نزع ... وشواتى خلة فيها دوار

وبعده حكم الدهر علينا إنه ... طلف ما نال منا وجبار

النزع انحسار الشعر من جانبى الجبهة ، والشواة جلدة الرأس والدوار الصداع ، والطلف الباطل والجبار المهدر .

ومن جيد شعره قوله :ـ

لاتصلح الناس فوضى لاسراة لهم ... ولاسراة إذا جهالهم سادوا

تهدى الأمور بأهل الرأى ماصلحت ... فإن تولت فبالأشرار تنقاد

(٤) الصواب صنع التمثيل .

فأول ذلك وأظهره أن أنس النفوس موقوف على أن تخرجها من خفى إلى جلى ، وتأتيها بصريح بعد مكنى ، وأن تردها فى الشىء تملها إياه إلى شىء آخر هى بشأنه أعلم ، وثقتها به فى المعرفة أحكم ، نحو أن تنقلها عن العقل إلى الإحساس ، وعما يعلم بالفكر ، إلى ما يعلم بالاضطرار والطبع ، لأن العلم المستفاد من طرق الحواس أو المركوز فيها من جهة الطبع وعلى حد الضرورة يفضل المستفاد من جهة النظر والفكر فى القوة والاستحكام ، وبلوغ الثقة فيه غاية التمام ، كما قالوا «ليس الخبر كالمعاينة» (١) ولا الظن كاليقين ، فلهذا يحصل بهذا العلم هذا الأنس أعنى الأنس من جهة الاستحكام والقوة ، وضرب آخر من الأنس وهو ما يوجبه تقدم الإلف كما قيل (٢)

« ما الحب إلا للحبيب الأول »

ومعلوم أن العلم الأول أتى النفس أولا من طريق الحواس والطباع ثم من جهة النظر والروية ، فهو إذن أمس بها رحماً ، وأقوى لديها ذمما ، وأقدم لها صحبة ، وآكد عندها حرمة ، وإذا نقلتها فى الشىء (٣) بمثله عن المدرك بالعقل المحض ، وبالفكرة فى القلب ، إلى ما يدرك بالحواس أو يعلم

---

(١) وجاء فى الحديث «يرحم الله أخى موسى ما الخبر كالمعاينة لقد أخبره الله تعالى بفتنة قومه فعرف أن ما أخبره به حق وأنه على ذلك متمسك بما فى يده فلما عاين ما صنعوا ألقى الألواح فانكسرت» .

(٢) قائله أبو تمام وصدره : نقل فؤادك حيث شئت من الهوى
وبعده . كم منزل للأرض يألفه الفتى وحنينه أبدا لأول منزل
ومطلع القطعة :

البين جرعنى نقيع الحنظل والبين أثكلنى وإن لم أثكل
ماحسرتى أن كدت أقضى إنما حسرات قلبى أننى لم أفعل

(٣) الصواب فى الشىء مشبها بمثله .

بالطبع ، وعلى حد الضرورة ، فأنت كمن يتوسل إليها للغريب بالحميم وللجديد الصحبة بالحبيب القديم ، فأنت إذن مع الشاعر وغير الشاعر إذا وقع المعنى فى نفسك غير ممثل ثم مثله كمن يخبَر عن شىء من وراء حجاب ثم يُكشف عنه الحجاب ويقول [١] هاهو ذا ، فأبصِره تجده على ما وصفت [٢]

(فإن قلت) إن الأنس بالمشاهدة بعد الصفة والخبر إنما يكون لزوال الريب والشك فى الأكثر [١] ، أفتقول إن التمثيل إنما أنس به لأنه يصحح المذكور والصفة السابقة ويثبت أن كونها جائز ووجودها صحيح غير مستحيل حتى لايكون تمثيل إلا كذلك ؟ فالجواب أن المعانى التى يجىء التمثيل فى عقبها على ضربين غريب بديع يمكن أن يخالف فيه ويدَّعى امتناعه واستحالة وجوده وذلك نحو قوله : [٢]

فإن تفق الأنام وأنت منهم فإن المسك بعض دم الغزال

وذلك أنه أراد أنه فاق الأنام وفاتهم إلى حد بطل معه أن يكون بينه وبينهم مشابهة ومقاربة ، بل صار كأنه أصل بنفسه . وجنس برأسه ، وهذا أمر غريب وهو أن يتناهى بعض أجزاء الجنس فى الفضائل الخاصة به إلى أن يصير كأنه ليس من ذلك الجنس ، وبالمدعى له حاجة أن يصحح دعواه فى جواز وجوده على الجملة ، إلى أن يجىء إلى وجوده فى الممدوح . فإذا قال

---

(١) الصواب ويقال .
(٢) الصواب وصف لك .
(٣) فى العبارة ضعف لأن كلمة (الأكثر) لاتجعل للجواب محلا .
(٤) هو أبو الطيب من قصيدة يرثى بها والدة سيف الدولة .
ومطلعها نعد المشرفية والعوالى وتقتلنا المنون بلاقتال
وترتبط السوابق مقربات وما ينجين من خبب الليالى
وقبله رأيتك فى الذين أرى ملوكا كأنك مستقيم فى محال

« فإن المسك بعض دم الغزال » فقد احتج لدعواه وأبان أن لما ادعاه أصلا فى الوجود ، وبرأ نفسه من صفة الكذب وباعدها من سفه المُقدِم على غير بصيرة ، والمتوسع فى الدعوى من غير البينة [١] ، وذلك أن المسك قد خرج عن صفة الدم وحقيقته حتى لايعد فى جنسه إذ لايوجد فى الدم شيء من أوصافه الشريفة الخاصة [٢] بوجه من الوجوه لا ماقل ولا ما كثر ، ولا فى المسك شيء من الأوصاف التى كان لها الدم دما البتة .

(والضرب الثانى) ألا يكون المعنى الممثل غريباً نادراً يحتاج فى دعوى كونه على الجملة إلى بينة وحجة وإثبات . نظير ذلك أن ينفى عن فعل من الأفعال التى يفعلها الإنسان الفائدة ويدعى أنه لايحصل منه على طائل ، ثم يمثله فى ذلك بالقابض على الماء والراقم فيه ، فالذى مثلت ليس بمنكر مستبدع ، إذ لاينكر خطأ الإنسان فى فعله أو ظنه وأمله وطلبه . ألا ترى أن المغزى من قوله :

فأصبحت من ليلى الغداة كقابض ... على الماء خانته فروج الأصابع

أنه قد خاب فى ظنه أنه يتمتع بها ويسعد بوصلها ، وليس بمنكر ولا عجيب ولا ممتنع فى الوجود ، خارج من المعروف المعهود ، أن يخيب ظن الإنسان فى أشباه هذا من الأمور ، حتى يستشهد على إمكانه ، وتقام البينة على صدق المدعى لوجدانه .

وإذا ثبت أن المعانى الممثلة تكون على هذين الضربين فإن فائدة التمثيل وسبب الأنس فى الضرب الأول بين لائح ، لأنه يفيد فيه الصحة وينفى الريب والشك ، ويؤمن صاحبهُ من تكذيب المخالف وتهجم المنكر

(١) الصواب بينة .

(٢) صوابه الخاصة به .

وتهكم المعترض ، وموازنته بحالة كشف الحجاب عن الموصوف المخبر عنه حتى يرى ويبصر ، ويعلم كونه على ما أثبته عليه – موازنة ظاهرة صحيحة .

وأما الضرب الثانى فإن التمثيل وإن كان لا يفيد فيه هذا الضرب من الفائدة فهو يفيد أمراً آخر يجرى مجراه وذلك أن الوصف كما يحتاج إلى إقامة الحجة على صحة وجوده فى نفسه ، وزيادة التثبيت والتقرير فى ذاته وأصله ، فقد يحتاج إلى بيان المقدار فيه ، ووضع قياس من غيره يكشف عن حده ومبلغه فى القوة والضعف والزيادة والنقصان .

وإذا أردت أن تعرف ذلك فانظر أولا إلى التشبيه الصريح الذى ليس بتمثيل كقياس الشىء على الشىء فى اللون مثلا « كحنك الغراب » [١] تريد أن تعرف مقدار الشدة لا أن تعرف نفس السواد على الإطلاق .

وإذا تقرر هذا الأصل فإن الأوصاف التى ترد السامع فيها بالتمثيل من العقل إلى العيان والحس وهى فى أنفسها معروفة مشهورة صحيحة لا تحتاج إلى الدلالة على أنها هل هى ممكنة موجودة أم لا ؟ فإنها [٢] وإن غَنيتْ من هذه الجهة عن التمثيل بالمشاهدات والمحسوسات ، فإنها تفتقر إليه من جهة المقدار ، لأن مقاديرها فى العقل تختلف وتتفاوت ، فقد يقال فى الفعل إنه من حال الفائدة على حدود مختلفة فى المبالغة والتوسط ، فإذا رجعت إلى ما تبصر وتحس عرفت ذلك بحقيقته وكما يوزن بالقسطاس ، فالشاعر لما قال : « كقابض على الماء خانته فروج الأصابع » أراك رؤية لا تشك معها ولا ترتاب أنه بلغ فى خيبة ظنه وبوار سعيه إلى أقصى المبالغ ، وانتهى فيه

(١) حنك الغراب وحلكه منقاره أو السواد منه .

(٢) تكرير «إنها» فيه وفيما بعده لطول الفصل كقوله : –

وإن امرأ دامت مواثيق عهده على مثل هذا إنه لكريم

إلى أبعد الغايات ، حتى لم يحظ لا بما قل ولا ما كثر .

فهذا هو الجواب ونحن بنوع من التسهيل والتسامح نقع (١) على أن الأنس الحاصل بانتقالك فى الشىء عن الصفة والخبر إلى العيان ورؤية البصر ليس له سبب سوى زوال الشك والريب .

فأما إذا رجعنا إلى التحقيق فإنا نعلم أن المشاهدة تؤثر فى النفوس مع العلم بصدق الخبر كما أخبر الله تعالى عن إبراهيم عليه الصلاة والسلام فى قوله (قال بلى ولكن ليطمئن قلبى) (٢) والشواهد فى ذلك كثيرة والأمر فيه ظاهر . ولولا أن الأمر كذلك لما كان لنحو قول أبى تمام (٣) :

وطول مقام المرء فى الحى مخلق لديباجتيه فاغترب تتجدد (٤)

فإنى رأيت الشمس زيدت محبة إلى الناس أن ليست عليهم بسرمد

معنى . وذلك أن هذا التجدد لا معنى له إن كانت الرؤية لا تفيد أنساً من حيث هى رؤية وكان الأنس لنفيها الشك والريب . أو لوقوع العلم بأمر زائد لم يعلم من قبل . وإذا كان الأمر كذلك فأنت إذا قلت للرجل أنت مضيع للحزم فى سعيك ومخطىء وجه الرشاد وطالب لما لا تناله إذا كان الطلب على هذه الصفة ومن هذه الجهة ، ثم عقبته بقولك « هل يحصل فى

---

(١) أى ننزل على أن الخ والمراد أنا نكتفى بذلك

(٢) ولابن حزم فى هذا المعنى :ـ

لئن أصبحت مرتحلا بجسمى فروحى عندكم أبدا مقيم

ولكن للعيان لطيف معنى له سأل المعاينة الكليم

(٣) يمدح أبا سعيد بن يوسف الثغرى ومطلعها :ـ

غدت تستجير الدمع خوف نوى غد وعاد قتادا عندها كل مرقد

وأنقذها من غمرة الموت إنه صدود فراق لا صدود تعمد

(٤) أخلق الثوب : أبلاه . الديباجتان : الخدان

كف القابض على الماء شيء مما يقبض عليه »[1] فلو تركنا حديث تعريف المقدار فى الشدّة والمبالغة ونفى الفائدة من أصلها جانباً بقى لنا ماتقتضيه الرؤية للموصوف على ماوصف عليه من الحالة المتجددة مع العلم بصدق الصفة . يبين ذلك أنه لو كان الرجل مثلا على طرف نهر فى وقت مخاطبة صاحبه وإخباره له بأنه لايحصل من سعيه على شيء فأدخل يده فى الماء وقال انظر هل حصل فى كفى من الماء شيء ؟ فكذلك أنت فى أمرك — كان[3] لذلك ضرب من التأثير زائد على القول والنطق بذلك دون الفعل ولو أن رجلاً أراد أن يضرب لك مثلا فى تنافى الشيئين فقال : هذا وذاك هل يجتمعان ؟ وأشار إلى ماء ونار حاضرين وجدت لتمثيله من التأثير مالا تجده إذا أخبرك بالقول فقال : هل يجتمع الماء والنار ؟ وذلك الذى تفعل المشاهدة من التحريك للنفس ، والذى يجب بها من تمكن المعنى فى القلب ، إذا كانت مستفادة من العيان ، ومتصرفة حيث تتصرف العينان ، وإلا فلا حاجة بنا فى أن الماء والنار لايجتمعان ، إلى مايؤكده من رجوع إلى مشاهدة ، واستيثاق بتجربة .

ومما يدلك على أن التمثيل بالمشاهدة يزيد أنساً وإن لم يكن بك حاجة إلى تصحيح المعنى أو بيان لمقدار المبالغة فيه ؛ أنك قد تعبر عن المعنى بالعبارة التى تؤديه وتبالغ وتجتهد حتى لاتدع فى النفوس[2] منزعا[4] نحو أن تقول وأنت تصف اليوم بالطول : يوم كأطول مايتوهم وكأنه لا آخر له . وماشاكل

---

(١) فيه حذف لجواب «إذا» ويقدر بنحو ثبت ذلك فى النفس واطمأنت إليه .

(٢) جواب لو كان الرجل مثلا .

(٣) الصواب فى القوس .

(٤) المنزع بفتح الميم والزاى النزوع إلى الغاية والجمع منازع وبكسر الميم السهم الذى ينتزع به وكذا الشديد النزع .

ذلك من نحو قوله (١) :

في ليل صول تناهى العرض والطول كأنما ليله بالحشر موصول (٢)

فلا تجد له من الأنس ماتجده لقوله (٣) :

« ويوم كظل الرمح قصر طوله » (٤)

على أن عبارتك الأولى أشد وأقوى فى المبالغة من هذا فظل الرمح على كل حال متناه تدرك العين نهايته وأنت قد أخبرت عن اليوم بأنه كأنه لا آخر له ، وكذلك تقول : يوم كأقصر مايتصور وكأنه ساعة وكلمح البصر و « كلا و لا » (٥) فتجد هذا مع كونه تمثيلا لايؤنسك إيناس قولهم أيام

(١) هو حندج (كقنفذ) بن حندج المرى من أبيات قالها وهو فى الجيش، وبعده

لافارق الصبح كفى إن ظفرت به وإن بدت غرة منه وتحجيل

لساهر طال فى صول تململه كأنه حية بالسوط مقتول

متى أرى الصبح قد لاحت مخايله والليل قد مزقت عنه السرابيل

ليل تحير ما ينحط فى جهة كأنه فوق متن الأرض مشكول

ما أقدر الله أن يدنى على شحط من داره الحزن ممن داره صول

(٢) وصول بالضم بلدة بقرب باب الأبواب على بحر قزوين .

(٣) هو شبرمة بن الطفيل (كحذيم) .

(٤) وتمامه : دم الزق عنا واصطفاق المزاهر .

ورواية الحماسة : ويوم شديد الحر قصر طوله .

وبعده : لدن غدوة حتى أروح وصحبتى عصاة على الناهين شم المناخر

كأن أباريق الشمول عشية إوزّ بأعلى الطف عوج الحناجر

ومثله للمجنون :

ويوم كظل الرمح قصرت ظله بليلى فلهانى وما كنت لاهيا

قال الجاحظ : فأما قولهم : منينا بيوم كظل الرمح ، فإنهم لايريدون منه الطول فقط ولكنهم يريدون مع الطول أنه ضيق غير واسع .

(٥) كناية عن سرعة التقضى فإن حرفين ثانيهما حرف لين سريعا الانقضاء لدى السمع قال أبو برهان المغربى :-

=

كأباهيم (١) القطا . وقول ابن المعتز :

بدّلت من يوم كظل حصاة ليلا كظل الرمح غير موات (٢)

وأسرع فى العين من لحظة وأقصر فى السمع من لا و لا

وقد وقع هذا الاسلوب فى كلام على فى رسالة له يحدث عن جيش أعدائه (فسرحت إليه جيشا كثيفا من المسلمين فلما بلغه ذلك شمر هاربا ونكص نادما فلحقوه ببعض الطريق وقد طفلت الشمس للإياب فاقتتلوا شيئا كلا ولا ، وفى كلام جرير حيث يقول :-

وهاجد موماة بعثت إلى السرى وللنوم أحلى عنده من جنى النحل

يكون نزول الركب فيها كلا و لا غشاشا ولا يدنون رحلا إلى رحل

والهاجد الساهر والموماة الفلاة وبعثت أيقظت والغشاش العجلة ولا يدنون الخ أى لأنهم من عجلهم يحطون عند كل ناقة رحلها ، وفى كلام أبى نواس إذ يقول :-

تركت قلبى قليلا من القليل أقلا

يكاد لا يتجزا أقل فى اللفظ من لا

ووقعت فى كلام الصاحب بن عباد إذ يقول وأنا عنو بأيام تحاكى ظل الرمح طولا ، وليال كابهام القطاة قصرا ، ونوم كلا ولا قلة .

(١) قال جرير :-

ويوم كابهام القطاة محبب إلى صباه غالب لى باطله

رزقنابه الصيد الغرير ولم نكن كمن نبله محرومة وحبائله

فيالك يوم خيره دون شره تعيب واشيه وأقصر عاذله

قال أبو إسحق الزجاج وقد أخذه جرير من قول الآخر :

ظللنا عند دار أبى نعيم بيوم مثل سالفة الذباب

ثم قال : وهذا نهاية الإفراط وخروج عن حدود التشبيه

ونظيره فى الإفراط وفى ضد المعنى قول أبى تمام :

تحمل عنه الصبر يوم تحملوا وعادت صباه فى الصبا وهى شمأل

بيوم بطول الدهر فى عرض مثله ووجدى من هذا وهذاك أطول

(٢) رواية الديوان :

بدلت من ليل كظل حصاة ، وهى الأنسب وبعد البيت

وتجارب الإنسان عدة عقله لحوادث الدهر الذى هو آتى

وانظر إلى دنيا ربيع أقبلت مثل البغى تبرجت لزناة

وإذا تعرى الصبح من كافوره نطقت صنوف طيورها بلغات

وقول آخر :

ظللنا عند باب أبي نعيم   بيوم مثل سالفة الذباب [١]

وكذا تقول فلان إذا هم بالشيء لم يزل ذاك عن [٢] ذكره وقلبه ، وقصر خواطره على إمضاء عزمه ، ولم يشغله شيء عنه ، فتحتاط للمعنى بأبلغ مايمكن ، ثم لاترى فى نفسك له هزة ، ولاتصادف لما تسمعه أريحية ، وإنما تسمع حديثاً ساذجاً وخبراً غفلا حتى إذا قلت :

إذا هم ألقى بين عينيه عزمه [٣]

امتلأت نفسك سروراً وأدركتك طربة - كما يقول القاضى أبو الحسن [٤] - لاتملك دفعها عنك . ولاتقل إن ذلك لمكان الإيجاز فإنه وإن كان يوجب شيئاً منه فليس الأصل له بل لأن أراك العزم واقفاً بين العينين ، وفتح إلى مكان المعقول من قلبك باباً من العين .

---

(١) رواية الوساطة عند دار أبي نعيم والسالفة ناصية مقدم العنق .

(٢) الذكر بالضم التذكر تقول هو مني على ذكر وقيل المضموم مخصوص بالقلب والمكسور باللسان .

(٣) هو لسعد بن ناشب العنبرى وكان من مردة العرب وهو مذكور فى شطر قصيدتين إحداهما بائية والأخرى رائية فمن الأولى :-

سأغسل عنى العار بالسيف جالبا   على قضاء الله ما كان جالبا

إلى أن قال :

إذا هم ألقى بين عينيه عزمه   ونكب عن ذكر العواقب جانبا
ولم يستشر فى رأيه غير نفسه   ولم يرض إلا قائم السيف صاحبا

ومن الثانية :

إذا هم ألقى بين عينيه عزمه   وصمم تصميم السريجى ذى الأثر

(٤) أى فى كتاب الوساطة والقاضى أبو الحسن هو على بن عبد العزيز الجرجانى المتوفى سنة ٣٦٦ .

وههنا - إذا تأملنا - مذهب آخر فى بيان السبب الموجب لذلك هو ألطف مأخذ وأمكن فى التحقيق وأولى بأن يحيط بأطراف الباب . وهو أن لتصور الشبه من الشيء فى غير جنسه وشكله ، والتقاط ذلك له من غير محلته ، واجتلابه إليه من النيق البعيد [١] باباً آخر من الظرف واللطف ، ومذهباً من مذاهب الإحسان لا يخفى موضعه من العقل . وأحضر شاهداً لك على هذا أن تنظر إلى تشبيه المشاهدات بعضها ببعض فإن التشبيهات سواء كانت عامية مشتركة ، أم خاصية مقصورة على قائل دون قائل ، تراها لا يقع بها اعتداد ، ولا يكون لها موقع من السامعين ولا تهزّ ولا تحرك حتى يكون الشبه مقرّراً بين شيئين مختلفين فى الجنس ، فتشبيه العين بالنرجس عامى مشترك معروف فى أجيال الناس جار فى جميع العادات ، وأنت تنظر إلى بعد ما بين العينين وبينه من حيث الجنس . وتشبيه الثريا بما شبهت به من عنقود الكرم [٢] المنور ، واللجام المفضض [٣] ، والوشاح [٤] المفصل ، وأشباه ذلك - خاصى ، والتباين بين المشبه والمشبه به فى الجنس على ما لا يخفى.

وهكذا إذا استقريت التشبيهات وجدت التباعد بين الشيئين كلما كان

---

(١) النيق بالكسر أرفع موضع فى الجبل .

(٢) كقوله :

وقد لاح فى الصبح الثريا لمن رأى ... كعنقود ملاحية حين نورا

(٣) كقوله :

كأن الثريا فى أواخر ليلها ... تفتح نور أو لجام مفضض

(٤) كقوله :

إذا ما الثريا فى السماء تعرضت ... تعرض أثناء الوشاح المفصل

والوشاح بالضم والكسر كرسان بكسر الكاف من لؤلؤ وجوهر منظومان يخالف بينهما - وأديم عريض يرصع بالجوهر تشده المرأة بين عاتقيها وكشحها وهو المراد هنا .

أشد ، كانت إلى النفوس أعجب ، وكانت النفوس لها أطرب ؛ وكان مكانها إلى أن تحدث الأريحية أقرب ، وذلك أن موضع الاستحسان ، ومكان الاستظراف ، والمثير للدفين من الارتياح ، والمتألف للنافر من المسرة ، والمؤلف لأطراف البهجة ، أنك ترى بها الشيئين مثلين متباينين ، ومؤتلفين مختلفين ، وترى الصورة الواحدة فى السماء والأرض [١] ، وفى خلقة الإنسان وخلال الروض [٢] ، وهكذا طرائف تنثال عليك إذا فصلت هذه الجملة ، وتتبعت هذه اللمحة [٣] ولذلك تجد تشبيه البنفسج فى قوله [٤] .

ولازوردية تزهو بزرقتها   بين الرياض على حمر اليواقيت

كأنها فوق قامات ضعفن بها   أوائلُ النار فى أطراف كبريت

أغرب وأعجب ، وأحق بالولوع وأجدر ، من تشبيه النرجس بمداهن در حشوهن عقيق ، لأنه إذ ذاك مشبه لنبات غض يرف ، [٥] وأوراق رطبة ترى الماء منها يشف ، [٦] بلهب نار مستول عليه اليبس ، وباد فيه الكلف [٧]

---

(١) كما علمت من تشبيه الثريا بعنقود الكرم .

(٢) كما فى تشبيه العيون بالنرجس فى قول أبى نواس :-

تبكى فتذرى الدر من نرجس   وتلطم الورد بعناب

(٣) اللمحة واحدة اللمح وهى اختلاس النظر .

(٤) نسبهما ابن خلكان لأبى القاسم على بن إسحق بن خلف المعروف بالزاهى وكان وصافا محسنا كثير الملح من مداح سيف الدولة والوزير المهلبى وله مدائح كثيرة فى أهل البيت توفى سنة ٣٥٢ هجرية وقد أخذهما من أبيات ابن المعتز ، ونسبهما فى المطول لأبى العتاهية وفى معاهد التنصيص لابن الرومى .

(٥) من بابى ضرب ونصر برق وتلألأ .

(٦) رق وحكى ما تحته .

(٧) بالتحريك لون بين السواد والحمرة وحمرة كدرة تعلو الوجه .

ومبنى الطباع وموضوع الجبلة ، على أن الشىء إذا ظهر من [١] مكان لم يعهد ظهوره منه ، وخرج من موضع ليس بمعدن له ، كانت صبابه النفوس به أكثر ، وكان بالشغف منها أجدر ، فسواء فى إثارة التعجب ، وإخراجك إلى روعة المستغرب ، وجودك الشىء فى مكان ليس من أمكنته ، [٢] ووجود شىء لم يوجد ولم يعرف من أصله فى ذاته وصفته ، [٣] ولو أنه شبه البنفسج ببعض النبات ، أو صادف له شبهاً فى شىء من المتلونات ، لم تجد له هذه الغرابة ، ولم ينل من الحسن هذا الحظ .

وإذا ثبت هذا الأصل وهو أن تصوير الشبه بين المختلفين فى الجنس مما يحرك قوى الاستحسان ، ويثير الكامن من الاستظراف ، فإن التمثيل أخص شىء بهذا الشان ، وأسبق جار فى هذا الزمان ، وهذا الصنيع صناعته التى هو الإمام فيها ، والبادئ لها والهادى إلى كيفيتها ، وأمره فى ذلك إنك إذا قصدت ذكر ظرائفه ، وعد محاسنه فى هذا المعنى ، والبدع التى يخترعها بحذقه ، والتأليفات التى يصل إليها برفقه ، ازدحمت عليك ، وغمرت جانبيك ، فلم تدر أيها تذكر ، ولا عن أيها تعبر ، كما قال [٤] .

إذا أتاها طالب يستامها تكاثرت فى عينه كرامها

وهل تشك فى أنه يعمل عمل السحر فى تأليف المتباينين حتى يختصر

---

(١) صوابه فى .

(٢) كما فى هذين البيتين .

(٣) كما فى بيتى أبى الغنائم الحمصى .

خود كأن بنانها فى خضرة النقش المزرد
سمك من البلور فى شبك تكون من زبرجد

(٤) أحد الأعراب الرجاز فى مدح إبله .

بعد مابين المشرق والمغرب ، ويجمع مابين المشئم والمعرق [١] وهو يريك للمعانى الممثلة بالأوهام شبهاً فى الأشخاص الماثلة [٢] ، والأشباح القائمة ، وينطق لك الأخرس [٣] ، ويعطيك البيان من الأعجم [٤] ، ويريك الحياة فى الجماد [٥] ، ويريك التئام عين الأضداد [٦] ، فيأتيك بالحياة والموت مجموعين والماء والنار مجتمعين ، كما يقال فى الممدوح هو حياة لأوليائه ، موت لأعدائه ، ويجعل الشىء من جهة ماء ومن أخرى ناراً كما قال [٧] :

أنا نار فى مرتقى نظر الحا   سد ماء جار مع الإخوان

وكما [٨] يجعل الشىء حلواً مرا ، وصاباً عسلا [٩] ، وقبيحاً حسناً ، كما قال [١٠] :

---

(١) المشئم من أتى الشام والمعرق من أتى العراق .

(٢) كما فى تشبيه العلم بالنور .

(٣) كقول أبى نواس : -

فاستنطق العود قد طال السكوت به   لن ينطق اللهو حتى ينطق العود

(٤) كقول المتنبى فى القلم :

فصيح متى ينطق تجد كل لفظة   أصول البراعات التى تتفرع

(٥) كقولهم أخبرتنى أسارير وجهه .

(٦) كقوله :

كفاه مخلفة ومتلفة   وعطاؤه متخرق جزل

(٧) هو أبو على محمد بن الحسين بن مقلة وزير المقتدر توفى سنة ٣٢٨ وقبله .

لست ذا ذلة إذا عضنى الدهـــر ولا شامخا إذا واتانى

(٨) تحذف .

(٩) كما قال : -

عسل الأخلاق مايا سرته   فإذا عاسرت ذقت السلعا

(١٠) هو المتنبى يمدح القائد على بن أحمد المزنى الخراسانى من قصيدة مطلعها -

لا افتخار إلا لمن لا يضام   مدرك أو محارب لا ينام

وقبله : يتداوى من كثرة المال بالإقـــلال جودا كأن مالا سقام

حسن فى عيون أعدائه أقـ ـبح من ضيفه رأته السوام (١)

ويجعل الشىء أسود أبيض فى حال كنحو قوله (٢) :

له مَنظرٌ فى العين أبيض ناصع ولـكنه فى القلب أسود أسفع (٣)

ويجعل الشىء كالمقلوب إلى حقيقة ضده كما قال (٤) :

غُرةُ بهمة ألا إنمـا كنـ ـتَ أغرَّ أيام كنت بهيما (٥)

ويجعل الشىء قريباً بعيداً معاً كقوله :

---

(١) حسن خبر لمحذوف أى هو وفى عيون متعلق بأقبح الذى هو خبر ثان والسوام الماشية .

(٢) هو أبو تمام من قصيدة يمدح بها أبا سعيد محمد بن يوسف الثغرى ومطلعها

أما إنه لولا الخليط المودع وربع خلا منه مصيف ومربع

إلى أن قال : ـ

غدا الهم مختطا بفودىّ خطة طريق الردى منها إلى النفس مهيع

هو الزور يجفى والمعاشر يجتوى وذو الإلف يقلى والجديد يرقع

(٣) الأسفع الأسود المشرب بحمرة والاسم السفعة .

(٤) هو أبو تمام فى مدح أبى سعيد أيضا من قصيدة مطلعها : ـ

إن عهدا لو تعلمين ذميما أن تناما عن ليلتى أو تنيما

كنت أرعى البدور حتى إذا ما فارقونى أمسيت أرعى النجوما

وقبله
أصبحت روضة الشباب هشيما وغدت ريحه البليل سموما

شعلة فى المفارق استودعتنى فى صميم الفؤاد ثكلا صميما

تستثير الهموم ما اكتن منها صعدا وهى تستثير الهموما

وبعده
دقة فى الحياة تدعى جلالا مثل ما سمى اللديغ سليما

حلتنى زعمتم وأرانى قبل هذا التحليم كنت حليما

(٥) الغرة فى الأصل البياض فى جبهة الفرس والبهمة كالظلمة وزنا ومعنى والبهيم الذى لا شية فيه من غير لونه ومنه ليل بهيم إذا كان لا ضوء فيه يصف الشيب بأنه غرة كالظلمة فى قبحها وكراهة الحسان لها وأنه إنما كان أغر فى الوقت الذى كان شعره أسود بهيما .

• دان على أيدى العفاة وشاسع •

وحاضراً وغائباً كما قال :

أيا غائباً حاضراً فى الفؤاد سلام على الحاضر الغائب

ومشرقاً مغرباً كقوله :

له إليكم نفس مشرّقة إن غاب عنكم مغرّباً بدنه

وسائرا مقيما كما يجىء فى وصف الشعر الحسن الذى يتداوله الرواة وتتهاداه الألسن كما قال القاضى أبو الحسن (١) :

وجوّابة الأفق موقوفة تسير ولم تبرح الحضره

وهل يخفى تقريبه المتباعدين ، وتوفيقه بين المختلفين ، وأنت تجد إصابة الرجل فى الحجة وحسن تخليصه للكلام وقد مُثلت تارة بالهِناء ومعالجة الإبل الجَرْبى به (٢) وأخرى بحز القصاب اللحم وإعماله السكين فى تقطيعه وتفريقه فى قولهم (٣) : « يضع الهناء مواضع النُقْب (٤) (وهو الجرب)

---

(١) فى وصف قصيدة .

(٢) الهناء بالكسر : القطران والنقب كصرد الجرب .

(٣) الصواب فى قوله .

(٤) شطر بيت لدريد بن الصمة فى الخنساء وهى تماضر بنت عمرو بن الشريد حين خرجت فهنأت زودا لها جربى ثم نضت عنها ثيابها واغتسلت ودريد يراها وهى لا تراه ، فقال :-

حيوا تماضر واربعوا صحبى وقفوا فإن وقوفكم حسبى
ما إن رأيت ولا سمعت به كاليوم طالى أينق جرب
متبذلا تبـدو محاسنه يضع الهناء مواضع النقب
متحسرا نضح الهناء به نضح العبير بريطة العصب
أخناس قد هام الفؤاد بكم واعتاده داء من الحب
فسليهم عنى خناس إذا غض الجميع هناك ماخطبى

ويطبق المفصِل ، [1] فانظر هل ترى مزيداً فى التناكر والتنافر على مابين طلا القَطِران ، وجنس القول والبيان ، ثم كرر النظر وتأمل كيف حصل الائتلاف وكيف جاء من جمع أحدهما إلى الآخر ما يأنس إليه العقل ويحمده الطبع . حتى إنك لربما وجدت لهذا المثل إذا أورد عليك فى أثناء الفصول ، وحين تبين الفاضل فى البيان من المفضول . قبولا ولا ماتجد عند فوح المسك ونشر الغالية [2] وقد وقع ذكر الحز والتطبيق منك موقع ماينفى الحزازات عن القلب ، ويزيل إطباق الوحشة عن النفس

وتكلف القول فى أن للتمثيل فى هذا المعنى المدى الذى لايجارى إليه . والباع الذى لايطاول فيه ، كالاحتجاج للضروريات . وكفى دليلا على تصرفه فيه باليد الصناع [3] ، وإيفائه على غايات الابتداع ، أنه يريك العدم وجوداً والوجود عدما ، والميت حيا والحى ميتا ، أعنى جعلهم الرجل إذا بقى له ذكر جميل وثناء حسن بعد موته كأنه لم يمت ، وجعل الذكر حياة له كما قال [4] . « ذكرة الفتى عمره الثانى » ، وحكمهم على الخامل الساقط القدر : الجاهل

---

(١) هو من قولهم فى المثل إنك لتقل الحز وتطبق المفصل - يضرب لمن لايتعب فى العمل ثم يظفر بالمراد ، والتطبيق إصابة المفصل وهو طبق (بفتحتين) العظمين أى ملتقاهما فيفصل بينهما . وفى المثل رب كلام بفتح الكاف بالمفصل أشد من كلام بكسر الكاف بالمفصل أى رب كلام باللسان أشد من جراحة بالمفصل .

(٢) النشر الرائحة الطيبة والغالية طيب معروف .

(٣) بالتخفيف الحاذق الماهر .

(٤) هو المتنبى يمدح أبا شجاع فاتكا وهوشطر بيت صواب إنشاده .

ذكر الفتى عمره الثانى وحاجته   ما قاته وفضول العيش أشغال

وشبيه به قول أبى الفضل الميكالى : ـ

عمر الفتى ذكره لاطول مدته   وموته خزيه لايومه الدانى
فأحى ذكرك بالإحسان تزرعه   تجمع بذلك فى الدنيا حياتان

الدنىء بالموت . وتصييرهم إياه حين لم يكن مايؤثر عنه ويعرف به كأنه خارج عن الوجود إلى العدم أو كأنه لم يدخل فى الوجود .

ولطيفة أخرى له فى هذا المعنى هى إذا نظرت أعجب ، والتعجب بها أحق ومنها أوجب ، وذلك جعل الموت نفسه حياة مستأنفة حتى يقال إنه بالموت استكمل الحياة فى قولهم . « فلان عاش حين مات » يراد الرجل تحمله النفس الأبية وكرم النفس والأنفة من العار على أن يسخو بنفسه فى الجود والبأس ففعل (١) مافعل كعب بن مامة (٢) فى الإتيان (٣) على نفسه ، أو مايفعله الشجاع المذكور من القتال دون حريمه والصبر فى مواطن الإباء والتصميم فى قتال الأعداء ، حتى يكون له يوم لايزال يذكر ، وحديث يعاد على مر الدهور ويُشهر ، كما قال ابن نُباته (٤) :

(١) صوابه فيفعل .

(٢) هو كعب بن مامة الإيادى أحد أجواد العرب فى الجاهلية آثر رفيقه (وهو رجل من النمر بن قاسط وكان مسافرا معه) على نفسه إذ قل عليهما الماء فتصافناه (والتصافن أن يطرح فى الإناء حجر ثم يصب فيه من الماء مقدار ما يغمره لئلا يتغابنوا) فجعل النمرى . يشرب نصيبه فإذا أخذ كعب نصيبه قال اسق أخاك النمرى فيؤثره حتى جهد كعب ورفعت له أعلام الماء فقيل رد ولا ورود به فمات عطشا وقد مدحه أبو دؤاد الإيادى فقال :ـ

أوفى على الماء كعب ثم قيل له   رد كعب إنك وراد فما وردا

وإليه يشير جرير بقوله فى مدح عمر بن عبد العزيز :ـ

وما كعب بن مامة وابن سعدى   بأجود منك يا عمر الجوادا

وابن سعدى هو أوس بن حارثة بن لأم الطائى وكان سيدا مقداما جوادا .

(٣) الصواب فى الإيثار على نفسه .

(٤) هو ابن نباتة السعدى وقد تقدمت ترجمته

بأبى وأمى كل ذى نفس تعاف الضيم مرّه[١]
يرضى بأن يرد الردى فيميتها ويُعيش ذكره

وإنه ليأتيك من الشىء الواحد بأشياء عدة ، ويشتق من الأصل الواحد أغصاناً فى كل غصن ثمر على حدة ، نحو إن الزند بإرائه[٢] يعطيك شبه الجواد والذكى الفطن وشبه النجح فى الأمور والظفر بالمراد ، وبإصلاده شبه البخيل الذى لا يعطيك شيئاً ، والبليد الذى لا يكون له خاطر ينتج فائدة ويخرج معنى ، وشبه من يخيب سعيه ونحو ذلك . ويعطيك[٣] من القمر الشهرة فى الرجل والنباهة والعز والرفعة . ويعطيك الكمال عن النقصان والنقصان بعد الكمال . كقولهم : «هلال نما فعاد بدراً» يراد بلوغ النجل الكريم المبلغ الذى يشبه أصله من الفضل والعقل وسائر معانى الشرف كما قال أبو تمام :[٤]

لهفى على تلك الشواهد منهما لو أمهلت حتى تصير شمائلا
لغدا سكونهما حجى وصباهما كرما وتلك الأريحية نائلا
إن الهلال إذا رأيت نموه أيقنت أن سيصير بدراً كاملا

---

(١) ومرة : يصح ضبطها بالكسر على تقدير مضافا أى ذات مرة أى قوة وبالضم ضد حلوة .

(٢) يقال ورى الزند وأورى إذا أخرج ناره وأصلد إذا صوت ولم تخرج منه النار .

(٣) عطف على قوله يأتيك من الشىء الواحد الخ ...

(٤) فى رثاء ولدين لعبد الله بن طاهر ومطلعها : ـ

ماذالت الأيام تخبر سائلا أن سوف تفجع مسهلا أو عاقلا
إن المنون إذا استمر مريرها كانت لها جثث الأنام مقاتلا
وقبلها نجمان شاء الله ألا يطلعا إلا ارتداد الطرف حتى يأفلا
إن الفجيعة بالرياض نواضرا لأجل منها بالرياض ذوابلا

وعلى (١) هذا المثل بعينه يضرب مثلا فى ارتفاع الرجل فى الشرف والعز من طبقة إلى أعلى منها كما قال البحترى : (٢)

شرف تزيّد بالعراق إلى الذى   عهدوه بالبيضاء أو ببلَنْجرا (٣)

مثل الهلال بدا فلم يبرح به   صوغ الليالى فيه حتى أقمرا

ويعطيك شبه الإنسان فى نشأته ونمائه إلى أن يبلغ حد التمام ، ثم تراجعه إذا انقضت مدة الشباب ، كما قال : (٤)

المرء مثل هلال حين تبصره   يبدو ضئيلا ضعيفاً ثم يتسق (٥)

يزداد حتى إذا ماتم أعقبه   كر الجديدين نقصاً ثم ينمحق

وكذلك يتفرع من حالتى تمامه ونقصانه فروع لطيفة فمن ذلك قول ابن بابك . (٦)

---

(١) الصواب حذف وعلى .

(٢) يمدح إسحق بن كنداج الخزرى القائد الكبير عندما توج وقلد السيفين ومطلعها :-

لله عهد سويقة ما أنضرا   إذ جاور البادون فيه الحضرا

لم أنسه وقصار من علق الهوى   أن يستعيد الوجد أو يتذكرا

وقبلها قد ألبس التاج المعاود لبسه   فى الحالتين عملكا ومؤمرا

لم تنكر الخرزات ألف ذؤابة   تحتل فى الخزر الذؤابة والذرا

(٣) البيضاء وبلنجر قريتان ببلاد الخزر قرب باب الأبواب على بحر الخزر (بحر قزوين) وقوله تزيد بالعراق أى ابتدأت زيادته فيه ثم لازال يمتد إلى الذى عهدوه الخ . . .

(٤) أى أبو الحسن بن أبى البغل من شعراء القرن الرابع وكتابه ، ومثلهما قول أبى العلاء .

فإن كنت تبغى العز فابغ توسطا   فعند التناهى يقصر المتطاول

توقى البدور النقص وهى أهلة   ويدركها النقصان وهى كوامل

(٥) اتسق الأمر انتظم والقمر كمل نوره وتم .

(٦) هو أبو القاسم عبد الصمد بن منصور بن الحسن المتوفى سنه ٤١٠ =

وأعرت شطر الملك شطر كماله　　والبدر فى شطر المسافة يكمل

قاله فى الأستاذ أبى [١] على وقد استوزره فخر الدولة بعد وفاة الصاحب، وأبا [٢] العباس الضبى وخلع عليهما . وقول أبى بكر الخوارزمى : [٣]

أراك إذا أيسرت خيمت عندنا　　مقيما وإن أعسرت زرت لماما [٤]

فما أنت إلا البدر إن قل ضوءه　　أغب وإن زاد الضياء أقاما

المعنى لطيف وإن كانت العبارة لم تساعده على الوجه الذى يجب فإن الإغباب أن يتخلل وقتى الحضور وقت يخلو منه . وإنما يصلح لأن يراد أن القمر إذا نقص نوره لم يوال الطلوع كل ليلة بل يظهر فى بعض الليالى ويمتنع من الظهور فى بعض وليس الأمر كذلك لأنه على نقصانه يظهر كل ليلة حتى يكون السرار ، وقال ابن بابك فى نحوه :

= ببغداد وقبله :-

برق الثناء وشق ذاك القسطل　　وجرى عنانك والسماك الأعزل

ورآك للتشريف أهلا فاجتبى　　بوفائه ملك يقول ويفعل

فأعرت شطر الملك شطر كماله　　والبدر فى شطر المسافة يكمل

قال فى اليتيمة فانظر إلى حسن وصفه لوزارته المشتركة وتدبيره نصف المملكة لفخر الدولة .

(١) هو أبو على الحسن بن أحمد .

(٢) عطف على الضمير المنصوب فى استوزره وأبو العباس هو أحمد بن إبراهيم الضبى ولاه الوزارة فخر الدولة أولا ولقب بالرئيس ثم ولى بعده الأستاذ أبا على الجليل وهجاهما أحد الشعراء من بيت المنجم فقال :-

والله والله لا أفلحتم أبدا　　بعد الوزير ابن عباد ابن عباس

إن جاء منكم جليل فاجلبوا أجلى　　أو جاء منكم رئيس فاقطعوا راسى

(٣) هو محمد بن العباس أحد الشعراء المجيدين العالمين باللغة والانساب توفى سنة ٣٨٣ هجرية .

(٤) بالكسر أى غبا .

كذا البدر يسفر فى تمـه فإن خاف نقص المحاق انتقب [١]

وهكذا ينظر إلى مقابلته الشمس واستمداده من نورها وإلى كون ذلك سبب زيادته ونقصه وامتلائه من النور والائتلاق ، وحصوله فى المحاق ، وتفاوت حاله فى ذلك ، فيصاغ منه أمثال ويبين أشباه ومقاييس ؛ فمن لطيف ذلك قول ابن نُباتة : [٢]

قد سمعنا بالغر من آل ساسا ن ويونان فى العصور الخوالى
والملوك الألى إذا ضاع ذكر وُجدوا فى سوائر الأمثال
مكرمات إذا البليغ تعاطى وصفها لم يجده فى الأقوال
وإذا نحن لم نضفها إلى مد حك كانت نهاية فى الكمال
إن جمعناهما أضر بها الجم ع وضاعت فيه ضياع المحال
فهو [٣] كالشمس بُعدها يملأ البد ر وفى قربها محاق الهلال

وغير ذلك من أحواله كنحو ما خرج من الشبه من بعده وارتفاعه [٤] وقرب ضوئه وشعاعه ، فى نحو ما مضى من قول البحترى : دان على أيدى العفاة : البيتين . ومن ظهوره بكل مكان ، ورؤيته فى كل موضع كقوله : [٥]

---

(١) سفر الصبح وأسفر أضاء والتم بالتثليث التمام والمحاق بتثليث الميم آخر الشهر وقيل ثلاث ليال من آخره وقبله .

إذا هو أثرى بدا واصلا وإن قل فارقنا واحتجب

(٢) هو ابن نباتة السعدى يمدح عضد الدولة بن ركن الدولة أخى فخر الدولة .

(٣) أى مدحك .

(٤) الضمير يعود إلى القمر .

(٥) أى المتنبى من قصيدة يمدح بها على بن منصور الحاجب وقبله .

هذا الذى أبصرت منه حاضرا مثل الذى أبصرت منه غائبا
ومطلعها بأبى الشموس الجانحات غواربا اللابسات من الحرير ملابسا

كالبدر من حيث التفت رأيته   يهدى إلى عينيك نوراً ساطعاً [١]

فى أمثال كذلك تكثر . ولم أعرض لما يشبه به من حيث المنظر وما تدركه العين نحو تشبيه الشىء بتقويس الهلال [٢] ودقته ، والوجه بنوره وبهجته [٣] ، فإنا فى ذكر ما كان تمثيلا وكان الشبه فيه معنويا .

فصل آخر

وإن كان مما مضى إلا أن الأسلوب غيره وهو أن المعنى إذا أتاك ممثلا فهو فى الأكثر ينجلى لك بعد أن يحوجك إلى طلبه بالفكرة ، وتحريك الخاطر له والهمة فى طلبه . وما كان منه ألطف ، كان امتناعه عليك أكثر ، وإباؤه أظهر ، واحتجاجه أشد .

ومن المركوز فى الطبع أن الشىء إذا نيل بعد طلب له أو الاشتياق إليه . ومعاناة الحنين نحوه ، كان نيله أحلى ، وبالميزة أولى ، فكان موقعه من النفس أجل وألطف ، وكانت به أضن وأشغف ، وكذلك [٤] ضرب المثل لكل مالطف موقعه ببرد الماء على الظمأ كما قال : [٥]

---

(١) الصواب ثاقبا لأن القصيدة بائية .

(٢) كالآية الكريمة (والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم) .

(٣) كقول المتنبى :

بدت قمرا وماست خوط بان   وفاحت عنبرا ورنت غزالا

(٤) الصواب ولذلك .

(٥) أى القطامى عمير بن شييم شاعر إسلامى فحل مقل كان نصرانيا وقيل أسلم وتوفى سنة ١٠١ ولقب بالقطامى لقوله :

يصكهن جانبا فجانبا   صك القطامى القطا القواربا

ويلقب صريع الغوانى لقوله :ــ

صريع غوان راقهن ورقنه   لدن شب حتى شاب سود الذوائب =

وهنّ ينبِذْن من قول يُصِبْن به مواقع الماء من ذى الغلة الصادى (١)

وأشباه ذلك مما ينال بعد مكابدة الحاجة إليه، وتقدم المطالبة من النفس به،

فإن قلت فيجب على هذا أن يكون التعقيد والتعمية وتعمد مايكسب المعنى غموضاً مشرفا له وزائداً فى فضله، وهذا خلاف ماعليه الناس ألا تراهم قالوا: إن خير الكلام ما كان معناه إلى قلبك أسبق من لفظه إلى سمعك، فالجواب إنى لم أرد هذا الحد من الفكر والتعب وإنما أردت القدر الذى يحتاج إليه فى نحو قوله:

* فإن المسك بعض دم الغزال *

وقوله (٢):

وما التأنيث لاسم الشمس عيب وما التذكير فخر للهلال

وقوله (٣):

رأيتك فى الذين أرى ملوكا كأنك مستقيم فى محال

وقول النابغة (٤):

= ويقال للصقر قطامى وقطانى، حدث الشعبى أن عبدالملك قال للأخطل وأنا حاضر يا أبا مالك أتحب أن لك بشعرك شعر شاعر من العرب؟ قال اللهم لا إلا شاعرا مقذف القناع خامل الذكر حديث السن إن يكن فى أحد خير فسيكون فيه ولوددت أنى سبقته إلى قوله:ـ

يقتلننى بحديث ليس يعلمه من يتقين ولا مكنونه بادى
فهن ينبذن من قول يصبن به مواقع الماء من ذى الغلة الصادى

وقبلها وفى الخدور غمامات برقن لنا حتى تصيدننا من كل مصطاد

(١) النبذ الطرح وإلقاء الشىء وفعله من باب ضرب والغلة العطش.

(٢) هو المتنبى فى عزاء سيف الدولة.

(٣) المتنبى من مديح القصيدة السابقة.

(٤) هو زياد بن معاوية الذبيانى ويكنى أبا أمامة من قصيدة يمدح بها أباقابوس =

فإنك كالليل الذى هو مدركى   وإن خلت أن المنتأى عنك واسع

وقوله (١) :

فإنك شمس والملوك كواكب   إذا طلعت لم يبد منهن كوكب

وقول البحترى (٢) :

ضحوك إلى الأبطال وهو يروعهم   وللسيف حد حين يسطو ورونق

وقول امرئ القيس (٣) :

ه بمنجرد قيد الأوابد هيكل ه (٤)

وقوله (٥) :

= النعمان ابن المنذر ومطلعها :-

عفا ذو حسى من فرتنى فالفوارع   فجنبا أريك فالتلاع الدوافع
فمجتمع الأشراج غير رسمها   مصايف قد مرت بنا ومرابع
توهمت آيات لها فعرفتها   لستة أعوام وذا العام سابع

(١) هو النابغة أيضا فى إحدى اعتذارياته للنعمان بن المنذر من قصيدة مطلعها :-

أتانى أبيت اللعن أنك لمتنى   وتلك التى أهتم منها وأنصب
فبت كأن العائدات فرشن لى   هراسا به يعلى فراشى ويقشب
وقبله   ألم تر أن الله أعطاك سورة   ترى كل ملك دونها يتذبذب

(٢) يمدح محمد بن على القمى ومطلعها :-

أفى كل دار منك عين ترقرق   وقلب على طول التذكر يخفق
على دمنة فيها لإدمانة النقا   محاسن أيام تحب وتعشق

(٣) من معلقته وصدره - وقد أغتدى والطير فى وكناتها .

(٤) والمنجرد من الخيل الأجرد قصير شعر الجلد وهو ممدوح فيها والأوابد جمع آبدة وهى من الوحوش والطيور التى تقيم فى مكان لاتظعن منه صيفا ولا شتاء ويستعار للفرس الجواد .

(٥) هو قطرى بن الفجاءة المكنى بأبى نعامة الخارجى سلم عليه بالخلافة عشرين سنة وكان زعيم الخوارج قتل سنة ٧٨ هجرية ومطلعها :-

لايركنن أحد إلى الإحجام   يوم الوغى متخوفا لحمام

ثم انصرفتُ وقد أصبتُ ولم أُصب　　جذع البصيرة قارح الإقدام

فإنك تعلم على كل حال أن هذا الضرب من المعانى كالجوهر فى الصدف لا يبرز لك إلا أن تشقه عنه، وكالعزيز المحتجب لا يريك وجهه حتى تستأذن عليه؛ ثم ما كل فكر يهتدى إلى وجه الكشف عما اشتمل عليه، ولا كل خاطر يؤذن له فى الوصول إليه، فما كل أحد يفلح فى شق الصدفة، ويكون فى ذلك من أهل المعرفة، كما ليس كل من دنا من أبواب الملوك فتحت له وكان:

من النفر البيض الذين إذا اعتزوا　　وهاب رجال حلقة الباب قعقعوا [١]

أو كما قال: [٢]

= فلقد أرانى للرماح دريئة　　من عن يمينى مرة وأمامى
حتى خضبت بما تحدر من دمى　　أكناف سرجى أو عنان لجامى

وقوله أو عنان لجامى يريد وعنان لجامى، وقوله جذع البصير يريد أنه فتى فى الاستبصار وقوله قارح الإقدام أى متناه فيه والمعنى أن إقدامه إقدام قارح وبصيرته بصيرة جذع والقارح من الإبل ماله ناب وقوله لم أصب أى لم أوجد ولم ألف.

(١) هذا البيت من قصيدة لأبى ربيس - بضم الراء - التغلبى عباد بن طرفة يمدح بها أسيلم بن الأحنف الأسدى من سادات أهل الشام ومطلعها: -

أسيلم ذاكم لا خفى بمكانه　　لعين ترجى أو لأذن تسمع
ألا أيها الركب المخبون هل لكم　　بسيد أهل الشام تحبوا وترجعوا
جلا المسك والحمام والبيض كالدمى　　وفرق المدارى رأسه فهو أنزع

والقعقعة صوت الحديد ونحوه - يخبر بجلالهم ومعرفتهم بأقدارهم بأن مثلهم لا يرد قال عبد الملك لأسيلم ما أحسن ما مدحت به فاستعفاه فأبى أن يعفيه وهو معه على سريره فلما أبى إلا أن يخبره أنشده هذه الأبيات، قال عبد الملك ما قاله أخو الأوس أحسن مما قيل لك يعنى أبا قيس بن الأسلت فى قوله:

قد حصت البيضة رأسى فما　　أطعم نوما غير تهجاع

(٢) هو جرير فى قصيدة فى رثاء الفرزدق

=

تفتح أبواب الملوك لوجهه بغير حجاب دونه أو تملق

وأما التعقيد فإنما كان مذموماً لأجل أن اللفظ لم يرتب الترتيب الذى بمثله تحصل الدلالة على الغرض حتى احتاج السامع أن يطلب المعنى بالحيلة ويسعى إليه من غير الطريق كقوله : (١)

(٢) وكذا اسم أغطية العيون جفونها من أنها عمل السيوف عوامل

وإنما ذم هذا الجنس لأنه أحوجك إلى فكر زائد على المقدار الذى يجب فى مثله (٣) وكدك بسوء الدلالة ، وأودع المعنى لك فى قالب غير مستو ولا مملس ، بل خشن مضرس ، حتى إذا رمت إخراجه منك عسر عليك ، وإذا خرج خرج مشوه الصورة ناقص الحسن .

هذا ـ وإنما يزيد (٤) الطلب فرحاً بالمعنى وأنساً به وسروراً بالوقوف

= وقبله ثوى حامل الأثقال عن كل مغرم ودافع شيطان الغشوم السملق
عماد تميم كلها ولسانها وناطقها البذاخ فى كل منطق
فمن لذوى الأرحام بعد ابن غالب وأم عيال ساغبين ودردق
وكم من دم غال تحمل ثقله وكان حمولا فى وفاء ومصدق
وكم حصن جبار همام وسوقة إذا أتى أبوابه لم تغلق
تفتح أبواب الملوك الخ ..

وبعده لتبك عليه الإنس والجن إذ ثوى فتى مضر فى كل غرب ومشرق
فتى عاش بين المجد تسعين حجة وكان إلى الخيرات والمجد يرتقى

(١) أى المتنبي فى قصيدة يمدح بها القاضى أحمد بن عبدالله الأنطاكى مطلعها . ـ
لك يا منازل فى القلوب منازل أقفرت أنت وهن منك أواهل
وقبله من طاعنى ثغر الرجال جآذر ومن الرماح دمالج وخلاخل

(٢) الصواب ولذا .

(٣) قد جاء هذا المعنى بلا تعقيد فى بيت لأحد الشعراء المعاصرين قال :
بين السيوف وعينيها مناسبة من أجلها قيل للأغماد أجفان

(٤) الصواب يزيدك

عليه إذا كان لذلك أهلا . وأما إذا كنت معه كالغائص فى البحر يحتمل المشقة العظيمة ويخاطر بالروح ثم يخرج الخرز فالأمر بالضد مما بدأت به . ولذلك كان أحق أصناف التعقيد بالذم ما يتعبك ثم لا يجدى عليك ، ويؤرقك ثم لا يروق لك ، وما سبيله إلا سبيل البخيل الذى يدعوه لؤم فى نفسه ، وفساد فى حسه ، إلى ألا يرضى بضعته فى بخله ، وحرمان فضله ، حتى يأبى التواضع ولين القول فيتيه ، ويشمخ بأنفه ، ويسوم المتعرض له بابا ثانيا من الاحتمال تناهياً فى سخفه ، أو كالذى لا يؤيسك من خيره فى أول الأمر فتستريح إلى اليأس ، ولكنه يطمعك ويسحب على المواعيد (١) الكاذبة ، حتى إذا طال العناء وكثر الجهد تكشف عن غير طائل : وحصلت منه على ندم لتعبك فى غير حاصل ، وذلك مثل ما تجده لأبى تمام من تعسفه فى اللفظ وذهابه به فى نحو من التركيب لا يهتدى النحو إلى إصلاحه ، وإغراب فى الترتيب يعمى الإعراب فى طريقه ويضل فى تعريفه ، كقوله : (٢)

ثانيه فى كبد السماء ولم يكن   لاثنين ثان إذ هما فى الغار (٣)

---

(١) فيه سقط وصوابه يسحب على المواعيد ذيل الآمال الكاذبة .

(٢) يمدح المعتصم ويذكر حرق الأفشين من قصيدة مطلعها :-

الحق أبلج والسيوف عوارى   فحذار من أسد العرين حذار

ملك غدا جار الخلافة منكم   والله قد أوصى بحفظ الجار

وقبله   ولقد شفى الأحشاء من برحائها   أن صار بابك جار مازيار

(٣) وتخريج ما هنا على أنه أجرى حالة النصب مجرى حال الرفع كما فى قوله :-

ولو أن واش باليمامة داره   ودارى بأعلى حضرموت اهتدى ليا

قال فى الموازنة ليس إلى غير النصب سبيل وإلا بطل المعنى وفسد لأن اسمها اسم بابك مضمر ولو أخليت يكن من ضمير بابك وجعلت قوله ثان اسمها كان ذلك خطأ ظاهرا لأنك إذا قلت كان زيد وعمرو اثنين ولم يكن لهما ثان كنت مخطئا لأن اثنين أحدهما ثان للآخر وأيضا لو أراد هذا المعنى لم يكن فى البيت فائدة البتة اه =

وقوله :[١]

يدى لمن شاء رهن من يذق جرعا

من راحتيك درى ما الصاب والعسل [٢]

ولو كان الجنس الذى يوصف من المعانى باللطافة ويعد فى وسائط العقود[٣] لا يحوجك إلى الفكر ولا يحرّك من حرصك على طلبه بمنع جانبه، وببعض الإدلال عليك، وإعطائك الوصل بعد الصد، والقرب بعد البعد، لكان «باقلّى حارّ»[٤]، وبيت معنى هو عين القلادة وواسطة العقد واحداً

= والأفشين هو خيذر بن كاوس مقدم قواد المعتصم وهو الذى حارب بابك الخرمى لما خرج على الدولة وغلب على جبل طبرستان عشرين سنة وعظم أمره حتى انتصر عليه الأفشين وأسره ومن معه واقتادهم إلى المعتصم ثم كشف المعتصم على الأفشين امورا أحفظته عليه فحبسه حتى مات ثم صلبه هو وبابك ومازيار سنة ٢٢٦ هجرية .

(١) يمدح المعتصم أيضا من قصيدة مطلعها :ـ

خواك عين على نجواك يا مذل   حتام لا يتقضى قولك الخطل

وقبل البيت :

كأن أمواله والبذل يمحقها   نهب تعسفه التبذير والنفل

شرست بل لنت بل قانيت ذاك بذا   فأنت لا شك فيه السهل والجبل

(٢) البيت على رواية المصنف لا تعقيد فيه ولا حذف ولكن الرواية التى فيها التعقيد هى كما فى ديوانه :

يدى لمن شاء رهن لم يذق جرعا   من راحتيك درى ما الصاب والعسل

وهى التى قال فيها صاحب الوساطة . حذف عمدة الكلام وأخل بالنظم فهو إنما أراد يدى لمن شاء رهن (إن كان) لم يذق فحذف إن كان فأفسد الترتيب وأحال الكلام عن وجهه ومثل ذلك فى الموازنة .

(٣) الوسائط جمع واسطة وهى ما كان من الجوهر فى وسط العقد وأجوده .

(٤) الباقلى ويمدّ الفول أى لكان نداء بائع الفول السخن بهذه الكلمة (باقلى حار) وبيت شعر حسن الأسلوب والرصف ـ متساويين لا تفاضل بينهما .

ولسقط تفاضل السامعين فى الفهم والتصور والتبيين [١] وكان. كل من روى الشعر عالما به وكل من حفظه - إذا كان يعرف اللغة على الجملة - ناقداً فى تمييز جيده من رديئه ، وكان قول من قال :

زوامل للأشعار لا علم عندهم بجيدها إلا كعلم الأباعر

وكقول[٢] ابن الرومى :[٣]

قلت لمن قال لى عرضت على الأخـ ـفش ما قلته فما حمده

قصرت بالشعر حين تعرضه على مبين العمى إذا انتقده

ما قال شعـراً ولا رواه فلا ثعلبة[٤] كان لا ولا أسده

(١) التبنيين الإيضاح وهو أيضا الوضوح وهو المراد هنا ومنه المثل قد بين الصبح لذى عينين أى تبين.

(٣) الصواب حذف الكاف .

(٣) يهجو أبا الحسن على بن سليمن بن الفضل المعروف بالأخفش الأصغر النحوى غلام المبرد وكان شابا مترفا ومليحا مستظرفا وكان يعبث بابن الرومى فيأتيه سحرا فيقرع الباب فيقال له من فيقول قولوا له مرة بن حنظلة فيتطير لقوله ويقيم الأيام لا يخرج من داره واتصل بابن الرومى أن رجلا عرض عليه قصيدة من شعره فطعن فيها فهجاه بهذه القصيدة وقبل الأبيات : -

أعتقت عبدىّ فى القريض معا عبدة والعجل من بنى عبده

إن أنا لم أرم بالإساءة من زاغ عن القصد أو أبى سدده

وبعده سأسمع الناس ذمه أبدا ما سمع الله حمد من حمده

ثم حفظ الأخفش هذه الأهاجى المثبتة هنا وغيرها مما هو فى ديوانه وكان يوردها استحسانا لها وافتخارا بأنه نبه بذكره إذ هجاه فلما علم بذلك ابن الرومى أقصر عنه هذا والأخافشة ثلاثة الأخفش الأكبر أبو الخطاب أحد أستاذى سيبويه وأبو الحسن سعيد بن مسعده كان معاصرا لسيبويه وهو الأخفش الصغير وكان يعرض عليه سيبويه ما يضعه من النحو ، والأخفش الأصغر المعاصر لابن الرومى .

(٤) هو أبو العباس ثعلب أحمد بن يحي كان معاصرا لأبى العباس المبرد وتوفى سنة ٢٩١ ﻫ روى عنه ابن الأنبارى واليزيدى وابن درستويه .

فإن يقل إننى رويت فكالـــدفتر جهـــلا بكل ما اعتقـــده

وما أشبه ذلك، دعوى[١] غير مسموعة ولا مؤهلة للقبول فإنما أرادوا بقولهم : «ما كان معناه إلى قلبك ، أسبق من لفظه إلى سمعك» أن يجتهد المتكلم فى ترتيب اللفظ وتهذيبه وصيانته من كل ما أخل بالدلالة ، وعاق دون الإبانة ، ولم يريدوا أنّ خير الكلام ما كان غُفلا مثل ما يتراجعه[٢] الصبيان ويتكلم به العامة فى السوق .

هذا — وليس إذا كان الكلام فى غاية البيان وعلى أبلغ مايكون من الوضوح أغناك ذاك عن الفكرة إذا كان المعنى لطيفاً ، فإن المعانى الشريفة اللطيفة لابدّ فيها من بناء ثان على أول ، ورد تال إلى سابق . أفلست تحتاج فى الوقوف على الغرض من قوله : «كالبدر أفرط فى العلو» إلى أن تعرف البيت الأول فتتصور حقيقة المراد منه ووجه المجاز فى كونه دانياً شاسعاً وترقم ذلك فى قلبك ثم تعود إلى مايعرض البيت الثانى عليك من حال البدر ثم تقابل إحدى الصورتين بالأخرى وترد البصر من هذه إلى تلك وتنظر إليه كيف شرط فى العلو الإفراط ليشاكل قوله «شاسع» لأن الشسوع هو الشديد من البعد ثم قابله بما لايشاكله من مراعاة التناهى فى القرب فقال «جد قريب[٣]» . فهذا هو الذى أردت بالحاجة إلى الفكر . وبأن المعنى لايحصل لك إلا بعد انبعاث منه فى طلبه واجتهاد فى نيله ؟

هذا — وإن توقفت فى حاجتك أيها السامع للمعنى إلى الفكر فى تحصيله

---

(١) خبر قوله وكان قول من قال الخ ...
(٢) راجعه الكلام حاوره إياه .
(٣) أى ليشاكل قوله دان .

فهل تشك فى أن الشاعر الذى أداه إليك ، ونشر بَزّه [١] لديك ، قد تحمل فيه المشقة الشديدة ، وقطع إليه الشقة البعيدة ، وأنه لم يصل إلى دره حتى غاص ، وأنه لم ينل المطلوب حتى كابد منه الامتناع والاعتياص [٢] ؟؟ ، ومعلوم أن الشىء إذا علم أنه لم ينل فى أصله إلا بعد التعب ، ولم يدرك إلا باحتمال النصب . كان للعلم بذلك من أمره من الدعاء إلى تعظيمه ، وأخذ الناس بتفخيمه ، ما [٣] يكون لمباشرة الجهد فيه ، وملاقاة الكرب دونه ، وإذا عثرت بالهوينى على كنز من الذهب لم تخرجك سهولة وجوده إلى أن تنسى جملة أنه الذى كد الطالب ، وحمّل المتاعب ، حتى إن لم تكن فيك طبيعة من الجود تتحكم عليك ، ومحبة للثناء تستخرج النفيس من يديك كان من أقوى حجج الضن الذى يخامر الإنسان أن تقول ، إن لم يكدنى فقد كد غيرى ، كما يقول الوارث للمال المجموع عفواً إذا ليم على بخله به ، وفرط شحه عليه ، إن لم يكن كسبى وكدى ، فهو كسب والدى وجدى ، ولئن لم ألق فيه عناء لقد عانى سلفى فيه الشدائد ، ولقوا فى جمعه الأمرين [٤] أفأضيع ماثمروه وأفرق ما جمعوه ، وأكون كالهادم لما أنفقت الأعمار فى بنائه ، والمبيد لما قصرت الهمم على إنمائه .

وإنك لاتكاد تجد شاعراً يعطيك فى المعانى الدقيقة من التسهيل والتقريب ورد البعيد الغريب إلى المألوف القريب ، مايعطى البحترى ويبلغ

---

(١) البز نوع من الثياب والسلاح وجمعه بزوز .
(٢) اعتاص عليه الأمر اعتياصا امتنع والتاث عليه فلم يهتد إلى الصواب .
(٣) ما اسم كان وللعلم خبرها ومن الدعاء بيان لما مقدم عليها .
(٤) يقال لقى منه الأمرين ، ونزل به الأمران - إذا لقى منه شرا - والأمران الهرم والمرض .

فى هذا مبلغه . فإنه ليروض لك المهر الأرِن [١] رياضة الماهر حتى يُعنق [٢] من تحتك إعناق القارح [٣] المذلَّل وينزع من شماس الصعب الجامح حتى يلين لك لين المنقاد المطيع ، ثم لايمكن ادعاء أن جميع شعره فى قلة الحاجة إلى الفكر ، والغنى عن فضل النظر ، كقوله : [٤]

فؤادى منك ملآن وسرى فيك إعلان

وقوله : [٥] ∗ عن أى ثغر تبتسم ∗

وهل ثقل على المتوكل قصائده الجياد حتى قل نشاطه لها واعتناؤه بها إلا لأنه لم يفهم معانيها كما فهم معانى النوع النازل الذى انحط له إليه ؟ أتراك تستجيز أن تقول إن قوله :

---

(١) الأرن المرح .
(٢) أعنق الفرس أسرع .
(٣) والقارح ما قرح نابه أى طلع .
(٤) أى البحترى يمدح الفتح بن خاقان وهو مطلع القصيدة ؛ وبعده :

وأنت الحسن لو كا ن وراء الحسن إحسان
غزال فيه إبعاد وإعراض وهجران

إلى أن قال

لك النعماء والطول وإفضال وإحسان
وأخلاقك أنصار على الدهر وأعوان
وأموالك للحمد الـ ـذى يؤثر أثمان

(٥) أى البحترى من مطلع قصيدة فى مدح المتوكل وتمامه (وبأى طرف تحتكم) وبعده :

حسن يضن بوصله والحسن أشبه بالكرم
أفديه من ظلم الوشا ة وإن أساء وإن ظلم

إلى أن قال

قل للخليفة جعفر الـ ـمتوكل بن المعتصم
أما الرعية فهى من أمنات عدلك فى حرم
اسلم لدين محمد فإذا سلمت فقد سلم

« منى النفس فى أسماء لو تستطيعها »[١]

من جنس المعقد الذى لايحمد ، وإن هذه الضعيفة الأسر[٢] الواصلة إلى القلوب من غير فكر ، أولى بالحمد وأحق بالفضل .

هذا — والمعقد من الشعر والكلام لم يذم لأنه مما تقع حاجة فيه إلى الفكر على الجملة ، بل لأن صاحبه يعثر[٣] فكرك فى متصرّفه ويشيك[٤] طريقك إلى المعنى ويوعر مذهبك نحوه . بل ربما قسم فكرك ، وشعب ظنك[٥] حتى لاتدرى من أين تتوصل وكيف تطلب .

وأما الملخص فيفتح لفكرتك الطريق المستوى ويمهده ، وإن كان فيه تعاطف[٦] أقام عليه المنار ، وأوقد فيه الأنوار ، حتى تسلكه سلوك

---

(١) مطلع قصيدة من جيد قصائده فى مدح المتوكل قال :

منى النفس فى أسماء لو تستطيعها ... بها وجدها من غادة وولوعها
وقد راعنى منها الصدود وإنما ... تصد لشيب فى عذارى يروعها

ومنها :

وفرسان هيجاء تجيش صدورها ... بأحقادها حتى تضيق دروعها
تقتل من وتر أعز نفوسها ... عليها بأيد ما تكاد تطيعها
إذا احتربت يوما ففاضت دماؤها ... تذكرت القربى ففاضت دموعها
شواجر أرماح تقطع بينهم ... شواجر أرحام ملوم قطوعها
فلولا أمير المؤمنين وطوله ... لعادت جيوب والدماء دروعها

ومما أثر عن المتوكل أنه قال مازال يقول « عهاعها » حتى كدنا نتقيء . وهذا هو مراد المصنف بقوله لأنه لم يفهم معانيها الخ ..

(٢) الأسر : إحكام الخلقة ومنه . (نحن خلقناهم وشددنا أسرهم) .

(٣) عثره وأعثره جعله يعثر .

(٤) أشاك الطريق أدخل الشوك فيه .

(٥) شعبه فرقه .

(٦) تعاطف القوم عطف بعضهم على بعض وفلان فى مشيته حرك رأسه وتمايل وتثنى فالأنسب هنا عطف أو تعطف من عطف الوسادة ثناها وعنان فرسه رده .

المتبين لوجهته ، وتقطعه قطع الواثق بالنجح فى طِيته [١] فترد الشريعة [٢] زرقاء ، والروضة غناء [٣] فتنال الرى ، وتقطف الزهر الجنى [٤] وهل شىء أحلى من الفكرة إذا استمرت وصادفت نهجاً مستقيما ، ومذهباً قويماً ، وطريقة تنقاد ، وتبينت لها الغاية فيما ترتاد ، فقد قيل : قرة العين ، وسعة الصدر ، وروح القلب ، وطيب النفس ، من أربعة أمور : الاستبانة للحجة ، والأنس بالأحبة ، والثقة بالعدة ، والمعاينة للغاية . وقال الجاحظ [٥] فى أثناء فصل يذكر فيه مافى الفكر والنظر من الفضيلة : «وأين تقع لذة البهيمة بالعلوفة [٦] ، ولذة السبع بلطع الدم [٧] وأكل اللحم ، من سرور الظفر بالأعداء ، ومن انفتاح باب العلم بعد إدمان قرعه ، وبعد فإذا أُعِدت الحلبات [٨] لجرى الجياد ، ونصبت الأهداف ليعرف فضل الرماة فى الإبعاد

---

(١) الطية الجهة التى إليها تطوى البلاد تقول له طيات شتى وتقول لقيته بطيات العراق أى نواحيه وجهاته وقال الخليل الطية تكون منزلا ومنتأى تقول منه مضى لطيته أى نيته التى انتواها وبعدت عنا طيته وهو المنزل الذى انتواه .

(٢) مورد السابلة .

(٣) الغناء بالتشديد كثيرة الشجر يقال غن الوادى إذا كثر شجره .

(٤) الجنى ما جنى لساعته فهو غض ليس بذابل .

(٥) فى الحيوان للجاحظ فى الجزء الأول بعد هذه العبارة : وأين ذلك من سرور السودد وعزّ الرياسة ، وأين ذلك من حال النبوة والخلافة ، ومن عزهما وساطع نورهما .

(٦) بالفتح ما تأكله الدابة والجمع علف بضمتين وفى المصباح العلوفة بزنة حلوبة ما يعلف من الغنم وغيرها تطلق على الواحدة والجمع .

(٧) لطع الدم شربه أو لحسه .

(٨) جمع حلبة بالسكون الدفعة من الخيل فى الرهان خاصة يقال هو يركض فى حلبات المجد ، والخيل تجمع للسباق من كل أوب ولا تخرج من وجه واحد ويقال جاءت الفرس فى الحلبة بالتحريك أى آخر الخيل والجمع الحلائب .

والسّداد فرهان العقول التى تستبق ، ونضالها الذى تمتحن قواها فى تعاطيه هو الفكر والروية والقياس والاستنباط » .

ولن يبعد المدى فى ذلك ولا يدق المرمى إلا بما تقدم من تقرير الشبه بين الأشياء المختلفة . فإن الأشياء المشتركة فى الجنس ، المتفقة فى النوع ، تستغنى بثبوت الشبه بينها ، وقيام الاتفاق فيها ، عن تعمّل[١] وتأمل فى إيجاب ذلك لها ، وتثبيته فيها ، وإنما لصنعة تستدعى جودة القريحة والحذق ، الذى يلطف ويدق ، فى أن يجمع أعناق المتنافرات المتباينات فى ربقة ،[٢] ويعقد بين الأجنبيات معاقد نسب وشبكة ،[٣] وما شرفت صنعة ولا ذكر بالفضيلة عمل إلا لأنهما يحتاجان من دقة الفكر ولطف النظر ونفاذ الخاطر إلى ما لا يحتاج إليه غيرهما ويحتكمان على من زاولهما والطالب لهما فى هذا المعنى[٤] ما لا يحتكم ما عداهما . ولا يقتضيان ذلك إلا من جهة إيجاد الائتلاف فى المختلفات ، وذلك بين لك فيما تراه من الصناعات وسائر الأعمال التى تنسب إلى الدقة . فإنك تجد الصورة المعمولة فيها كلما كانت أجزاؤها أشد اختلافا فى الشكل والهيئة ، ثم كان التلاؤم بينها مع ذلك أتم ، والائتلاف أبين ، كان شأنها أعجب ، والحذق لمصورها أوجب .

وإذا كان هذا ثابتاً موجوداً ، ومعلوما معهوداً ، من حال الصور المصنوعة والأشكال المؤلفة ، فاعلم أنها القضية فى التمثيل واعمل عليها واعتقد صحة

---

(١) تعمل فلان لكذا تكلف العمل قال ولم تتعمل للسيادة فيهم .

(٢) الربقة بالكسر جمعها ربق ورباق وهى الحبل فى العنق ومنه الحديث من فارق الجماعة قيد شبر فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه .

(٣) بالضمّ القرابة تقول بينهما شبكة سبب لا شبكة نسب .

(٤) أى دقة الفكر ولطف النظر .

ما ذكرت لك من أخذ الشبه للشيء مما يخالفه فى الجنس ، وينفصل عنه من حيث ظاهر الحال حتى يكون هذا شخصاً يملأ المكان[١] وذاك معنى لا يتعدى الأفهام والأذهان ، وحتى إن هذا إنسان يعقل ، وذاك جماد أو موات لا يتصف بأنه يعلم أو يجهل ،[٢] وهذا نور شمس يبدو فى السماء ويطلع . وذاك معنى كلام يوعى ويسمع[٣] وهذا روح يحيا به الجسد ، وذاك فضل ومكرمة تؤثر وتحمد ، كما قال[٤]

إن المكارم أرواح يكون لها ... آل المهلب دون الناس أجسادا

وهذا مقال متعصب منكر للفضل حسود ، وذاك نار تلتهب فى عود.[٥]
وهذا مخلاف[٦] وذاك ورق خلاف كما قال ابن الرومى :[٧]

---

(١) كما فى قول أبى العتاهية :

أتته الخلافة منقادة ... إليه تجرر أذيالها

وقوله

العمر مثل الطيف أو ... كالضيف ليس له إقامه

(٢) كقول ذى الرمة :

وأسقيه حتى كاد مما أبثه ... تكلمنى أحجاره وملاعبه

(٣) كقوله :

الحلم فى الصدر مثل الشمس فى الفلك ... والعقل للمرء مثل التاج للملك

(٤) هو عمر به لجأ التيمى يمدح المهلب بن أبى صفرة القائد المشهور الذى دوخ الخوارج وقبله :

آل المهلب قوم خولوا حسبا ... ما ناله عربى لا ولا كادا

لو قيل للمجد حد عنهم وخلهم ... بما احتكمت من الدنيا لما حادا

(٥) كقول أبى تمام :

وإذا أراد الله نشر فضيلة ... طويت أتاح لها لسان حسود

لولا اشتعال النار فيما جاورت ... ما كان يعرف طيب عرف العود

(٦) أى وعد مخلاف .

(٧) من قصيدة يعاتب بها بعض أصدقائه وأولها :

يا أخى أين ريع ذاك اللقاء ... أين ما كان بيننا من صفاء =

بذل الوعد للأخلاء سمحاً وأبى بعد ذاك بذل العطاء
فغدا كالخلاف يورق للعيـ ـن ويأبى الإثمار كل الإباء

وهذا رجل يروم العدو تصغيره والازدراء به فيأبى فضله إلا ظهوراً . وقدره إلا سموا . وذاك شهاب من نار تصوب وهى تعلو . وتخفض وهى ترتفع . كما قال أيضا :[١]

ثم حاولت بالمثيقيل تصغيـ ـرى فما زدتنى سوى التعظيم
كالذى طأطأ الشهاب ليخفى وهو أدنى له إلى التضريم

وأخذ هذا المعنى من كلام فى حكم[٢] الهند وهو أن الرجل ذا المروءة والفضل ليكون خامل المنزلة غامض الأمر فما تبرح به مروءته وعقله حتى يستبين ويعرف كالشعلة من النار التى يصوبها صاحبها وتأبى إلا ارتفاعاً .

هـذا هو الموجب للفضيلة والداعى إلى الاستحسان . والشفيع الذى أحظى التمثيل عند السامعين ، واستدعى له الشغف والولوع من قلوب العقلاء الراجحين ، ولم تأتلف هذه الأجناس المختلفة للمتمثل ، ولم تتصادف[٣] هـذه الأشياء المتعادية على حكم المشبه ، إلا لأنه لم يراع مايحضر العين ،

= أين مصداق شاهد كان يحكى أنك المؤنس الصحيح الإخاء
كشفت منك حاجتى هنوات غطيت برهة بحسن اللقاء
وبعدها ليس يمضى الصديق منك ببشر تحت مخبوره دفين جفاء

ولأبى الفتح البستى فى هذا المعنى :

توق خلافا إن سمحت بموعد لتسلم من هجو الورى وتعافى
فلو أثمر الصفصاف من بعد نوره وإيراقه ما لقبوه خلافا

(١) هو ابن الرومى يخاطب بعض أعدائه الذين كانوا يحرضون عليه محمد بن يعقوب الملقب مثقالا الشاعر الهجاء الخبيث اللسان ليهجوه والمثيقيل تصغير مثقال.

(٢) من كتاب كليلة ودمنة .

(٣) الصواب لم تتصاف من المصافاة وهى المودة .

ولكن ما يستحضر العقل ، ولم يعن بما تنال الرؤية ، بل بما تعلق الروية [١] ولم ينظر إلى الأشياء من حيث توعى فتحويها الأمكنة ، بل من حيث تعيها القلوب الفطنة ، ثم على حسب دقة المسلك ، إلى ما استخرج من الشبه ولطف المذهب ، وبعد التصعد إلى ما حصل من الوفاق استحق مُدْرِكُ ذلك المدح ، واستوجب التقديم ، واقتضاك العقل أن تنوه بذكره . وتقضى بالجنى [٢] فى نتائج فكره نعم وعلى حسب المراتب فى ذلك وأعطيته فى بعض منزلة الحاذق الصنع [٣] والملهم [٤] المؤيد . والألمعى [٥] المحدَّث [٦] الذى سبق إلى اختراع نوع من الصنعة حتى يصير إماماً ويكون من بعده تبعاً له وعيالا عليه ، وحتى تعرف تلك الصنعة بالنسبة إليه ، فيقال صنعة فلان وعمل فلان . ووضعته فى بعض موضع المتعلم الذكى والمقتدى المصيب فى اقتدائه الذى يحسنُ التشبه بمن أخذ عنه ، ويجيد حكاية العمل الذى استفاد ، ويجتهد أن يزداد .

واعلم أنى لست أقول لك أنك متى ألفت الشىء ببعيد عنه فى الجنس على الجملة فقد أصبت وأحسنت ، ولكن أقوله بعد تقييد وبعد شرط وهو أن تصيب بين المختلفين فى الجنس وفى ظاهر الأمر شبها صحيحاً معقولا ، وتجد

---

(١) الروية النظر والفكر وتعلق أصله تدلق .

(٢) الجنى مصدر جنى الثمرة والثمرة نفسها وكل ما يجنى مادام غضا .

(٣) الصنع بفتحتين وبكسر فسكون الحاذق الماهر .

(٤) ألهم الله فلانا الخير أوحى به إليه ودفعه وفى الحديث أسألك رحمة من عندك تلهمنى بها رشدى .

(٥) سئل الأصمعى عن الألمعى فأنشد البيت

الألمعى الذى يظن بك الظـــن كأن قد رأى وقد سمعا

(٦) بالتشديد بصيغة المفعول الملهم الصادق الحدس فقد جاء فى الحديث قد كان فى الأمم محدثون فإن يكن فى أمتى أحد فعمر بن الخطاب .

للملاءمة والتأليف السوى بينهما مذهباً وإليهما سبيلا ، وحتى يكون ائتلافهما الذى يوجب تشبيهك[١] من حيث العقل والحدْس ، فى وضوح اختلافهما من حيث العين والحس ، فإما أن تستكره الوصف وتروم أن تصوره حيث لا يتصور فلا لأنك تكون فى ذلك بمنزلة الصانع الأخرق يضع فى تأليفه وصوغه الشكل[٢] بين شكلين لا يلائمانه ولا يقبلانه ، حتى تخرج الصورة مضطربة وتجىء فيها نتوٌ ويكون للعين عنها من تفاوتها نُبو ، وإنما قيل[٣] شبهت ولا تعنى فى كونك مشبهاً أن تذكر حرف التشبيه أو تستعير ، إنما تكون مشبهاً بالحقيقة بأن ترى الشبه وتبينه ، ولا يمكنك بيان ما لا يكون ؛ وتمثيل ما لا تتمثله الأوهام والظنون .

ولم أرد بقولى إن الحذق فى إيجاد الائتلاف بين المختلفات فى الأجناس أنك تقدر أن تحدث هناك مشابهة ليس لها أصل فى العقل ، وإنما المعنى أن هناك مشابهات خفية يدق المسلك إليها فإذا تغلغل فكرك فأدركها فقد استحققت الفضل ، ولذلك يشبه المدقق فى المعانى كالغائص[٤] على الدر . ووازن ذلك أن القطع التى يجىء من مجموعها صورة الشَّنْف[٥] والخاتم أو غيرهما من الصور المركبة من أجزاء مختلفة الشكل لو لم يكن بينها تناسب أمكن ذلك التناسب أن[٦] يلائم بينها الملاءمة المخصوصة ويوصل

(١) أى يكون منشأ ومسوغا له .
(٢) الظاهر فى التنظير أن يقول كصانع أخرق يؤلف صورة من شكلين لا تلاؤم بينهما إلا أن يقال إنه عنى بالشكل الموضوع بين الشكلين وجه الشبه الجامع بينهما .
(٣) الصواب قلت .
(٤) الصواب بالغائص .
(٥) الشنف بفتح الشين القرط الأعلى .
(٦) فاعل يلائم وذلك التناسب مفعوله .

الوصل الخاص لم يكن ليحصل لك من تأليفها الصورة المقصودة .

ألا ترى أنك لو جئت بأجزاء مخالفة لها فى الشكل ثم أردتها على أن تصير إلى الصورة التى كانت من تلك الأول طلبت مايستحيل ، فإنما استحققت الأجرة على الغوص وإخراج الدر ، لا إن الدر كان بك ، واكتسى شرفه من جهتك ، ولكن لما كان الوصول إليه صعبا وطلبه عسيراً ثم رزقت ذلك وجب أن يجزل لك ويكبر صنيعك .

ألا ترى أن التشبيه الصريح إذا وقع بين شيئين متباعدين فى الجنس ثم لطف وحسن لم يكن ذلك اللطف وذلك الحسن إلا لاتفاق كان ثابتا بين المشبه والمشبه به من الجهة التى بها شبهت ، إلا أنه كان خفيا لاينجلى إلا بعد التأنق فى استحضار الصور وتذكرها وعرض بعضها على بعض ، والتقاط النكتة المقصودة منها ، وتجريدها من سائر مايتصل بها ، نحو أن يشبه الشىء بالشىء فى هيئة الحركة فتطلب الوفاق بين الهيئة والهيئة ، والهيئة مجردة من الجسم وسائر ما فيه من اللون وغيره من الأوصاف كما فعل ابن المعتز فى تشبيه البرق حيث قال :(١)

وكأن البرق مصحف قار فانطباقا مرة وانفتاحا

لم ينظر من جميع أوصاف البرق ومعانيه إلا إلى الهيئة التى تجدها العين له من انبساط يعقبه انقباض ، وانتشاره يتلوه انضمام ، ثم فكر فى نفسه عن هيئات الحركات لينظر أيها أشبه بها فأصاب ذلك فيما يفعله القارىء من الحركة الخاصة فى المصحف إذا جعل يفتحه مرة ويطبقه أخرى ولم يكن إعجاب

---

(٢) من قصيدة يمدح بها أباه المعتز بالله ومطلعها كما تقدم:

عرف الديار تحيا وناحا بعد ما كان صحا واسترحا

وقبله من رأى برقا يضىء التماحا ثقب الليل سناه فلاحا

هذا التشبيه لك وإيناسه إياك لأن الشيئين مختلفان فى الجنس أشد الاختلاف فقط ، بل لأن حصل بإزاء الاختلاف اتفاق كأحسن مايكون وأتمه ، فبمجموع الأمرين - شدة ائتلاف فى شدة اختلاف - حلا وحسن ، وراق وفتن .

ويدخل فى هذا الموضوع الحكاية المعروفة فى حديث عدى بن الرقاع قال جرير أنشدنى عدى [١] : « عرف الديار توهماً فاعتادها » فلما بلغ إلى قوله : « تزجى أغن كأن أبرة روقه » [٢] رحمته وقلت قد وقع ، ما عساه يقول [٣] وهو أعرابى جلف [٤] جاف ؟ فلما قال :

« قلم أصاب من الدواة مدادها »

استحالت الرحمة حسداً [٥] فهل كانت الرحمة فى الأولى والحسد فى الثانية إلا أنه رآه حين افتتح التشبيه قد ذكر ما لا يحضر له فى أول الفكر وبديهة

---

(١) هو عدى بن زيد بن مالك بن الرقاع العاملى شاعر بليغ مقدم كان مداحا لبنى أمية واختص بالوليد بن عبد الملك وهو الذى أنشده القصيدة ومطلعها :

عرف الديار توهما فاعتادها   من بعد ما شمل البلى أبلادها
إلا رواسى كلهن قد اصطلى   جمراً وأشعل أهلها إيقادها

ومنها فى المديح :

غلب المساميح الوليد سماحة   وكفى قريش المعضلات وسادها
تأتيه أسلاب الأعزة عنوة   فرأوه يجمع للحروب عتادها

(٢) الإزجاء السوق ، والأغن ذو الغنة : وهو صوت يتردد بين اللهاة والأنف ، والروق القرن ، وإبرته رأسه وتكون سوداء .

(٣) فى العمدة : فنفل الممدوح عنه فسكت فقال الفرزدق لجرير ماتراه يقول فقال يقول : قلم ... الخ

(٤) فعله جلف من باب فرح جلفا وجلافة .

(٥) عبارة الكامل : قال قلت فى نفسى وقع والله مالا يقدر أن يقول أو يشبه به ، فقال قلم الخ قال فما قدرت حسدا له أن أقيم حتى انصرفت .

الخاطر وفى القريب من محل الظن شبه [١] وحين أتم التشبيه وأداه صادفه قد ظفر بأقرب صفة من أبعد موصوف ، وعثر على خبيء مكانه غير معروف ؟ وعلى ذلك استحسنوا قول الخليل [٢] ، فى انقباض كف البخيل .

كفاك لم تخلقا للندى ولم يك بخلهما بدعه
فكف عن الخير مقبوضة كما نقصت مائة سبعه
وكف ثلاثة آلافها وتسع مئيها لها منعه [٣]

[٤] وذلك أنه أراك شكلا واحداً فى اليدين ، مع اختلاف العددين ومع اختلاف المرتبتين فى العدد أيضا لأن أحدهما من مرتبة العشرات

---

(١) فاعل يحضر .

(٢) والخليل هو الخليل بن أحمد بن تميم الفراهيدى الأزدى البصرى صاحب العربية والعروض وواضع كتاب العين وصاحب النقط والشكل وأستاذ سيبويه والأصمعى والنضر بن شميل وكان ذا زهد وعفاف توفى سنة ١٧٠ هجرية .

(٣) الأبيات فى اللسان برواية أخرى قال وأنشد الخليل يذم رجلا :

كفاك لم تخلقا للندا ولم يك لؤمهما بدعه
فكف عن الخير مقبوضة كما حط عن مائة سبعه
وأخرى ثلاثة آلافها وتسعمئيها لها شرعه

والشرعة : العادة وهذا شرعة ذاك أى مثاله وهى المرادة هنا .

(٤) أى إن اليمنى التى يعقدون بها للآحاد والعشرات إذا أردت أن يتقدمها ٩٣ (وهى المائة تنقصها سبعة) تقبض الخنصر والبنصر والوسطى بحيث تكون الأظافر فى باطن الكف وهى عقدة الثلاثة ، وتقبض السبابة وتجعل ظفرها ظاهرا (لأن ظهور الأظافر للعشرات وإخفاءها للآحاد) وتضع الإبهام على ظهرها وهى عقدة التسعين فتلك ٩٣ ما حصلت إلا من قبض الكف وأما اليسرى التى يعقد بها للمئين والالوف فتكون مقبوضة بعقد ٣٩٠٠ وذلك أن تقبض الخنصر والبنصر والوسطى وهى عقدة ٣٠٠٠ وتقبض السبابة وتحلق عليها بالإبهام (كعقد ٩٠ فى اليمنى) وهى عقدة ٩٠٠ فتلك ٣٩٠٠ حصلت بقبض اليد اليسرى أيضاً .

والآحاد والآخر من مرتبة المئين والألوف . فلما حصل الاتفاق كأشد ما يكون فى شكل اليد مع الاختلاف كأبلغ ما يوجد فى المقدار والمرتبة من العدد كان التشبيه بديعاً . قال المرزبانى : وهذا مما أبدع فيه الخليل لأنه وصف انقباض اليدين بحالين من الحساب مختلفين فى العدد متشاكلين فى الصورة . وقوله هذا إجمال ما فصلته .

ومما ينظر إلى هذا الفصل ويداخله [١] ويرجع إليه حين تحصيله ، الجنس الذى يراد فيه كون الشىء من الأفعال سبباً لضده [٢] كقولنا : أحسن [٣] من حيث قصد الإساءة ، ونفع من حيث أراد الضر . إذا لم يقنع التشاغل [٤] بالعبارة الظاهرة ، [٥] والطريقة المعروفة ، وصور فى نفس الإساءة الإحسان ، وفى البخل الجود ، وفى المنع العطاء ، وفى موجب الذم موجب الحمد ، وفى الحالة التى حقها أن تعد على الرجل حكم ما يعتد له ، والفعل الذى هو بصفة ما يعاب وينكر ، صفة ما يقبل المنة ويشكر ، فيدل ذلك بما يكون فيه من الوفاق الحسن مع الخلاف البين على حذق شاعره ، [٦] وعلى جودة طبعه

---

(١) وجه المداخلة كما سبق أن هذا النوع يشبهها شبها معنويا من قبل أنه جعل ما يستحق الذم مستحقا للمدح فكأنه شبه ما يستحق الذم بما يستحق المدح على طريق التهكم .

(٢) أى لما يستحقه ضده فنحن نثبت مثلا مدحا وهذا المدح يستحقه ضد المنع وهو العطاء .

(٣) كما يفعل الحاسد بذمه للمحسود كما قال أبو تمام :

وإذا أراد الله نشر فضيلة طويت أتاح لها لسان حسود

(٤) فى العبارة تحريف مسخ المعنى والصواب . إذ لم يقنع بالتشاغل بالعبارة الظاهرة والطريقة المعروفة بل صور الخ ولو حذف كلمة التشاغل لكان خيرا .

(٥) مثل أساء أو ضر أو نحوهما .

(٦) المناسب الشاعر .

وحدة خاطره ، وعلو مصعده وبعد غوصه ، إذا لم يفسده بسوء العبارة ، ولم يخطئه التوفيق فى تلخيص الدلالة ، وكشف تمام الكشف عن سَروِ المعنى وسره [١] بحسن البيان وسحره . مثال ما كان من الشعر بهذه الصفة قول أبى العتاهية :

جُزىَ البخيل علىَّ صالحة ... عنى لخفته على ظهرى
أعلى وأكرمَ عن يديه يدى ... فعلَتْ ونزّه قدرهُ قدرى
ورُزقتُ من جدواه عافية ... ألا يضيق لشكره صدرى
وغَنيتُ خِلواً من تفضله ... أحنو عليه بأحسن [٢] العذر
ما فاتنى خير امرئٍ وضعت ... عنى يداه مؤنة الشكر

ومن اللطيف مما يشبه هذا قول الآخر : [٣]

أعتقنى سوء ما صنعت من الرّ ... ق فيا بردها على كبدى
فصرتُ [٤] عبداً للسوء فيك وما ... أحسن سوء قبلى إلى أحد

فصـــل

« هذا فنّ آخر من القول يجمع التشبيه والتمثيل جميعاً »

اعلم أن معرفة الشىء من طريق الجملة غير معرفته من طريق التفصيل

(١) السرو : الفضل والزيادة .
(٢) فى رواية : بأوسع العذر .
(٣) هو ابن الرومى .
(٤) هذا عبد السوء وأبو الفتح البستى عبد الإحسان حين يقول :

أحسن إلى الناس تستعبد قلوبهم ... فطالما استعبد الإنسان إحسان

وفى الحديث جبلت القلوب على حب من أحسن إليها .

نحن وإن كنا لا يشكل علينا الفرق بين التشبيه الغريب وغير الغريب إذا سمعنا بهما فإن لوضع القوانين وبيان التقسيم فى كل شىء وتهيئة العبارة فى الفروق فائدة لا ينكرها المميز . ولا يخفى أن ذلك أتم للغرض وأشفى للنفس. والمعنى الجامع فى سبب الغرابة أن يكون الشبه المقصود من الشىء مما لا ينزع إليه الخاطر ، ولا يقع فى الوهم عند بديهة النظر إلى نظيره الذى يشبه به بل بعد تثبت وتذكر وفكر للنفس فى الصور التى تعرفها وتحريك الوهم فى استعراض ذلك واستحضار ما غاب منه .

بيان ذلك أنك كما ترى الشمس ويجرى فى خاطرك استدارتها ونورها تقع فى قلبك المرآة المجلوة [١] ويتراءى لك الشبه منها فيها . وكذلك إذا نظرت إلى الوشى [٢] منشوراً وتطلبت لحسنه ونقشه واختلاف الأصباغ فيه شبهاً حضرك ذكر الروض ممطوراً مفتراً عن أزهاره ، متبسما عن أنواره ، وكذلك إذا نظرت إلى السيف الصقيل عند سله وبريق متنه لم يتباعد عنك أن تذكر انعقاق البرق [٣] وإن كان هذا أقل ظهوراً من الأول وعلى هذا القياس . ولكنك تعلم أن خاطرك لا يسرع إلى تشبيه الشمس بالمرآة فى كف الأشلّ كقوله : [٤] « والشمس كالمرآة فى كف الأشل » هذا الإسراع

---

(١) كما قال كشاجم فى وصف مرآة

أخت شمس الضحا يا فى الشكل والإشـ ... راق غير الإعشاء للأجفان

جونة الصقل فضلها فى المرايا ... فضل أذهانكم على الأذهان

(٢) كما قال كشاجم :-

وكأن مجلسنا المفوّف فرشه ... نور الرياض لبسن منه برودا

(٣) انعق البرق : تسرب فى السحاب والعقيقة ما بقى من شعاعه وبه تشبه السيوف فتسمى عقائق .

(٤) شاع نسبته إلى الشماخ أو أبى النجم أو ابن المعتز وأن عجزه : =

ولا قريباً منه ولا إلى تشبيه البرق بأصبع السارق كقول كشاجم . (١)

أرِقتَ أم نمت لضوء بارق مؤتلق مثل فؤاد العاشق

كأنه أصبع كف السارق

وكقول ابن بابَك : (٢)

ونضنض فى حضنىْ سحائلَ بارقٌ له جذوة من زبرج اللاذ لامعه (٣)

= لما رأيتها بدت فوق الجبل

والصحيح كما فى ديوان الشماخ أنه من أرجوزة لجبار بن جزء ابن أخى الشماخ حين أمره عمه الشماخ أن يحدو بالإبل ويعرض برجل كان معهم بالركب يسمى جندب بن عمر وكان الشماخ يبغضه لأنه كان يتحدث إلى امرأته أثناء حدوه وكانوا فى ركب على سفر ومطلعها :

قالت سليمى لست بالحادى المدل مالك لا تملك أعضاد الإبل

رب ابن عم لسليمى مشمعلّ يجبه القوم وتشناه الإبل

إلى أن قال :

والشمس كالمرآة فى كف الأشل مقلدات القد يعرون الدغل

ثم تردّى جانباه وأدل وزل كالإبريق بالمتن القبل

كأنه مسربل وقد فعل ملاء كتان وربطا ما احتمل

إلا الشوى منه وإلا المكتحل

(١) هو أبو الفتح محمود بن الحسين الشاعر الأديب المنجم المتوفى سنة ٣٥٠ ومن شعره .

كأن الشموع وقد أوقدت فأطلعن فى كل رمح سنانا

أصابع أعدائك الخائفـ ـين تضرع تطلب منك الأمانا

والأبيات مطلع أرجوزة وبعدها :

يسوقها الرعد بغير سائق سوق الحداة طلح الأيانق

لما رآها زهر الحدائق

ورواية الديوان مؤتلق مثل الفؤاد الخافق

(٢) هو أبو القاسم عبد الصمد المتوفى سنة ٤١٠ هـ .

(٣) نضنض تحرك والحضنان الجانبان وسحائل مكان بالعراق، وبارق فاعل =

تعوّج فى أعلى السحاب كأنها بنان يد من كِلّة اللاذ ضارعه

ولا إلى تشبيه البرق فى انبساطه وانقباضه ، والتماعه وائتلافه ، بانفتاح المصحف وانطباقه ، فيما مضى من قول ابن المعتز . (١)

وكأن البرق مصحف قار فانطباقاً مرّةً وانفتاحا

ولا إلى تشبيه سطور الكتاب بأغصان الشوك فى قوله : (٢)

بلفظ يأخذ الحرف المحلى كأن سطوره أغصان شوك

ولا إلى تشبيه الشقيق بأعلام ياقوت على رماح زبرجد كقول الصنوبرى : (٣)

وكأن مُحْمرّ الشقيـ ـق إذا تصوّب أو تصعّد (٤)

أعـلام ياقوت نُشر نَ على رماح من زبرجد

ولا إلى تشبيه النجوم طالعات فى السماء مفترقات مؤتلفات فى أديمها وقد مازجت زرقة لونها بياض نورها بدر منثور على بساط أزرق كقول أبى طالب الرّقّى : (٥)

= نضنض والزبرج الزينة من وشى أوجوهر واللاذ جميع لاذة ثوب أحمر من الحرير وضارعة طالبة مع الذلّ .

(١) من قصيدة مطلعها :ـ

عرف الدار فحيا وناحا بعد ماكان صحا واستراحا

ظل يلحاه العذول ويأبى فى عنان العذل إلا جماحا

(٢) هو ابن المعتز يصف كتابا وقبله :

وذى نكت موشى نمنمته وحاكته الأنامل أى حوك

ورواه فى زهر الآداب هكذا :

بشكل يرفع الإشكال عنه كأن سطوره أغصان شوك

(٣) هو أبو بكر أحمد الطيبى الحلبى المتوفى سنة ٣٣٤ .

(٤) شقائق النعمان اسم جنس واحدته شقيقة والنعمان الدم نسبت إليه لحمرتها .

(٥) من شعراء القرن الرابع ووصفه أبو بكر الخوارزمى بقوله «إنه أحد المقلين =

وكأن أجرام النجوم لوامعاً درر نثرن على بساط أزرق

ولا ما جرى فى هذا السبيل ، وكان من هذا القبيل ، بل تعلم أن الذى سبقك إلى أشباه هذه التشبيهات لم يسبق إلى مدى قريب بل أحرز غاية لا ينالها غير الجواد ، وقرطس[1] فى هدف لا يصاب إلا بعد الاحتفال والاجتهاد.

واعلم أنك إن أردت أن تبحث بحثاً ثانياً حتى تعلم لم وجب أن يكون بعض الشبه على الذكر أبداً وبعضه كالغائب عنه وبعضه كالبعيد عن الحضرة لا ينال إلا بعد قطع مسافة إليه ، وفضل تعطف[2] بالفكر عليه ، فإن ههنا ضربين من العبرة يجب أن تضبطهما أولا ثم ترجع فى أمر التشبيه فإنك حينئذ تعلم السبب فى سرعة بعضه إلى الفكر وإباء بعض أن يكون له ذلك الإسراع.

فإحدى العبرتين أنا نعلم أن الجملة أبداً أسبق إلى النفوس من التفصيل . وأنك تجد الرؤية نفسها لا تصل بالبديهة إلى التفصيل ولكنك ترى بالنظر الأول الوصف على الجملة ثم ترى التفصيل عند إعادة النظر ولذلك قالوا : النظرة الأولى حمقاء . وقالوا : لم ينعم النظر ولم يستقص التأمل . وهذا الحكم فى السمع وغيره من الحواس . فإنك تتبين من تفاصيل الصوت بأن يعاد عليك حتى تسمعه مرة ثانية مالم تتبينه بالسماع الأول .

= المحسنين الذين يطبقون المفصل فى أغراضهم وينظمون الدر المفصل فى معانيهم وألفاظهم والبيت أحد ثلاثة هى :

ولقد ذكرتك والظلام كأنه يوم النوى وفؤاد من لم يعشق
وكأن أجرام النجوم لوامعا درر نثرن على زجاج أزرق
والفجر فيه كأنه قطر الندى ينهل من سح الغمام المغدق

(١) قرطس : أصاب القرطاس أى الغرض ، والاحتفال : المبالغة فى القيام بالأمور على أحسن وجه .

(٢) التعطف : المبالغة فى العطف والشفقة .

وتدرك من تفصيل طعم الذوق [١] بأن تعيده إلى اللسان مالم تعرفه فى الذوقة الأولى . وبإدراك التفصيل يقع التفاضل بين راء وراء وسامع وسامع وهكذا . فأما الجمل فتستوى فيها الأقدام ، ثم تعلم أنك فى إدراك تفصيل ماتراه وتسمعه أو تذوقه كمن ينتقى الشىء من بين جملة ، وكمن يميز الشىء مما قد اختلط به ، فإنك [٢] حين لايهمك التفصيل كمن يأخذ الشىء جزافاً وجَرفاً . [٣]

وإذا كانت هذه العبرة ثابتة فى المشاهدة ، ومايجرى مجراها مما تناله الحاسة ، فالأمر فى القلب كذلك : تجد الجمل أبداً هى التى تسبق إلى الأوهام وتقع فى الخاطر أولا ، وتجد التفاصيل مغمورة فيما بينها ، وتراها لاتحضر إلا بعد إعمال الروية واستعانة بالتذكر . ويتفاوت الحال فى الحاجة إلى الفكر بحسب مكان الوصف ومرتبته من حد الجملة وحد التفصيل ، وكلما كان أوغل فى التفصيل كانت الحاجة إلى التوقف والتذكر أكثر ، والفقر إلى التأمل والتمهل أشد .

وإذ قد عرفت هذه العبرة فالاشتراك فى الصفة إذا كان من جهة الجملة على الإطلاق بحيث لايشوبه شىء من التفصيل نحو إن كلا الشيئين أسود أو أحمر فهو يقل عن أن يحتاج فيه إلى قياس وتشبيه ، فإن دخل فى التفصيل شىء نحو إن هذا السواد صاف براق والحمرة رقيقة ناصعة احتجت بقدر ذلك إلى إدارة الفكر ، وذلك مثل تشبيه حمرة الخد ، بحمرة التفاح والورد ، فإن زاد تفصيله بخصوص تدق العبارة عنه ويتعرّف بفضل تأمل ازداد

(١) الصواب : المذوق .
(٢) الصواب : وإنك .
(٣) الجزاف : بيع شىء لايعلم كيله ولاوزنه ، والجرف بالفتح : الذهاب بالشىء كله .

الأمر قوة فى اقتضاء الفكر ، وذلك نحو تشبيه سقط النار بعين الديك فى قوله : (١)

ه وسقط كعين الديك عاورت صحبتى ه (٢)

وذلك أن مافى عينه من تفصيل وخصوص يزيد على كون الحمرة رقيقة ناصعة والسواد صافياً براقاً ، وعلى هذا تجد هذا الحد من المرتبة التى لا يستوى فيها البليد والذكى والمهمل نفسه والمستيقظ المستعد للفكر والتصور ، فقوله :

كأن على أنيابها كل سحرة　　صياح البوازى من صريف اللوائك (٣)

أرفع طبقة من قوله : (٤)

---

(١) هو أبو الحرث غيلان ينتهى نسبه إلى نزار قال أبو عمرو بن العلاء ختم الشعر بذى الرمة والرجز برؤبة بن العجاج .

(٢) وتمامه - أباها وهيأنا لموضعها وكرا والبيت فى وصف السقط الذى يكون من الزند . وكان من عادتهم حينما يريدون استخراج النار أن يأتوا بعودين أحدهما أسفل ويسمونه الأنثى ويفرضون فيه فرضا ويجرون فيه عودا آخر يسمونه الأب ، فإذا طال العمل ولم تخرج النار تناوب العود الذكر جماعة الواحد بعد الآخر يحركه حتى تخرج : قال فى الأمالى زناد العرب من خشب وأكثر ما يكون من المرخ والعفار ولذلك قال الأعشى

زنادك خير زناد الملوك ه صادف منهن مرخ عفارا

وإنما يؤخذ عود قدر شبر فيثقب فى وسطه ثقب لا ينفذ ويؤخذ عود آخر قدر ذراع فيحدد طرفه فيجعل ذلك المحدد فى ذلك الثقب وقد وضعه رجل بين رجليه فيديره ويفتله فيورى ناراً فالأعلى زند والأسفل زندة .

(٣) قد تقدم البيت والقصيدة التى هو منها والصواب أنيابه والضمير يعود إلى موار فى الأبيات قبله .

(٤) هو لامرئ القيس من قصيدة مطلعها :-

سما لك شوق بعد ما كان أقصرا　　وحلت سليمى بطن قو فعرعرا

كنانية بانت وفى الصدر ودها　　مجاورة غسان والحى يعمرا =

كأن صليل المرو حين تشذه ... صليل زيوف يُلتقدن بعبقرا [١]

لأن التفصيل والخصوص فى صوت البازى أبين وأظهر منه فى صليل الزيوف ، وكما أن قوله [٢] يصف الفرس :

وللفؤاد وَجيب تحت أبهـره ... لدْمَ الغلام وراء الغيب بالحجر [٣]

لا يستوى بتشبيه وقع الحوافر بهزمة الرعد وتشبيه الصوت الذى يكون لغليان القدر بنحو ذلك كقوله [٤] :

= وقبله : فدع ذا وسل الهم عنك بجسرة ... ذمول إذا صام النهار وهجرا
كأن الحصى من خلفها وأمامها ... إذا نجلته رجلها حذف أعسرا

(١) المرو الحجارة البيض الرقاق ، وتشذه تنحيه ، وعبقر بلد باليمن مشهور بتزييف النقود . وقوله حذف أعسر يريد أنه يذهب إلى غير قصد وقوله صليل زيوف أى إنه شديد الصوت صافيه .

(٢) هو تميم بن مقبل من بنى العجلان جاهلىّ إسلامى وهو أحد عوران قيس الخمسة ومنهم عمرو بن أحمر الباهلى والراعى والشماخ وحميد بن ثور ومن حديث القصيدة أنه استسقى فخرجت إليه بنتان بعس لبن فرأتا شيخاً أعور كبيرا فأبدتا له بعض الجفوة فغضب وجاز ولم يشرب فبلغ أباهما ذلك فخرج فى طلبه ليرده فلم يرجع فقال له ارجع ولك أعجبهما إليك فرجع وقال تلك القصيدة ومنها قبل وصف الفرس .

كان الشباب لحاجات وكن له ... فقد فرعت إلى حاجاتى الأخر
ياحار أمسيت شيخاً قدوهى بصرى ... والتاث مادون يوم البعث من عمرى
ثم قال: قالت سليمى ببطن القاع من سرح ... لاخير فى المرء بعد الشيب والكبر
واستهزأت تربها منى فقلت لها ... ماذا تعيبان منى يا ابنتى عصر
لولا الحياء ولولا الدين عبتكما ... ببعض مافيكما إذ عبتما عورى

(٣) والأبهر عرق مستبطن فى الصلب والقلب متصل به فإذا انقطع لم تكن معه حياة.

(٤) أى عمرو بن أحمر الباهلى مخضرم أسلم وغزا وأصيب بإحدى عينيه وتوفى زمن عثمان وهى من قطعة يفتخر فيها بالكرم ومنها :

ودهم تصاديها الولائد جلة ... إذا جهلت أجوافها لم تحلم
ترى كل هرجاب لجوج لهمة ... زفوف بشلو الناب هوجاء عيلم
وبعده إذا ركدت حول البيوت كأنما ... ترى الآل يجرى عن قنابل صيم

لها لغط جنح الظلام كأنه عجارف غيث رائح متهزم[1]

لأن هناك من التفصيل الحسن ما تراه . وليس فى كون الصوت من جنس اللغط تفصيل يعتد به وإنما هو كالزيادة والشدة فى الوصف، ومثال ذلك مثال أن يكون جسم أعظم من جسم فى أنه لا يتجاوز مرتبة الجمل كبير تجاوز . فإذا رأى الرجل شخصاً قد زاد على المعتاد فى العظم والضخامة لم يحتج فى تشبيهه بالفيل أو الجبل أو نحو ذلك إلى شىء من الفكر بل يحضره ذلك حضور ما يعرف بالبديهة .

والمقابلات التى تريك الفرق بين الجملة والتفصيل كثيرة . ومن اللطيف فى ذلك أن تنظر إلى قوله :[2]

يتابع لا يبتغى غـــيره بأبيض كالقبس الملتهب[3]

ثم تقابل به قوله :[4]

(١) عجارف : المطر، والغيث : شدته، والمتهزم : المصوت، يقال تهزمت القوى وتهزم الرعد أى صوّتا .

(٢) هو عنترة بن شداد فى ورد بن حابس وقد قتل نضلة الأسدى وقبله :

يذبب ورد على إثره وأمكنه وقع مردى خشب

وبعده : ومن يك فى قتله يمترى فإن أبا نوفل قد شجب

وغادرن نضلة فى معرك يجر الأسنة كالمحتطب

(٣) رواية الحماسة : تتابع ، والتذبيب مثل الطراد وأصله الإسراع ، والمردى حجر صلب تكسر به الصخور شبه به فرسه لصلابته ، والخشب الخشن ، وأبو نوفل كنية نضلة ، وشجب هلك ، وضمير غادرن للخيل ، والمحتطب دوبية تمر على الأرض فتعلق بها العيدان .

(٤) هو امرؤ القيس من قصيدة مطلعها :

لمن طلل أبصرته فشجانى كخط زبور فى عسيب يمانى

ليالى يدعوننى الصبا فأجيبه وأعين من أهوى إلىّ روانى

فإن أمس مكروبا فيارب بهمة كشفت إذا ما اسود وجه جبان

وإن أمس مكروبا فيارب قينة منعمة أعملتها بكران

جمعت ردينيا كأن سنانه سنا لهب لم يتصل بدخان (١)

فإنك ترى بينهما من التفاوت فى الفضل ما تراه مع أن المشبه به فى الموضعين شىء واحد وهو شعلة النار . وما ذاك إلا من جهة أن الثانى قصد إلى تفصيل لطيف ومر الأول على حكم الجمل . ومعلوم أن هذا التفصيل لا يقع فى الوهم فى أول وهلة بل لا بد فيه من أن تتثبت وتتوقف وتروى وتنظر فى حال كل واحد من الفرع والأصل حتى يقوم حينئذ فى نفسك أن فى الأصل شيئا يقدح فى حقيقة الشبه وهو الدخان الذى يعلو رأس الشعلة وأنه ليس فى رأس السنان ما يشبه ذلك وأنه إذا كان كذلك كان التحقيق وما يؤدى الشىء كما هو أن تستثنى الدخان وتنفى اتصاله باللهب وتقصر التشبيه على مجرد السنا وتصور السنان فيه مقطوعا عن الدخان ولو فرضت أن يقع هذا كله على حد البديهة من غير أن يخطر ببالك ما ذكرت لك قدرت محالا لا يتصور ، كما أنك لو قدرت أن يكون تشبيه الثريا بعنقود ملاحية حين نور بمنزلة تشبيهها بالنور (٢) على الإطلاق أو تفتح نور فقط كما قال : (٣)

---

(١) والرواية الصحيحة حملت «ردينيا» بدل جمعت ، قال الجوهرى القناة الردينية والرمح الردينى منسوب إلى امرأة السمهرى التى تسمى ردينة وكانا يقومان القنا بخط (بالفتح) هجر اه .

(٢) كما قال ابن المعتز :

قد سقانى المدام والليـــل بالصبح مؤتزر

والثريا كنور غصن على الغرب قد نثر

(٣) هو ابن المعتز وقبله :

ألا فاسقنيها والظلام مقوض ونجم الدجى فى ظلمة الليل يركض

ورواية معاهد التنصيص «مفتح نور» وهى الأنسب بما قبلها وما بعدها .

كأن الثريا فى أواخر ليلها تفتح نور ... ... (١)

حتى ترى حاجتهما إلى التأمل على مقدار واحد وحتى لايحوج أحدهما من الرجوع إلى النفس وبحثها عن الصور التى تعرفها إلا إلى مثل مايحوج إليه الآخر أسرفت فى المجازفة ونقصت (٢) يداً بالصواب والتحقيق .

والعبرة الثانية أن مما يقتضى كون الشىء على الذكر وثبوت صورته فى النفس أن يكثر دورانه على العيون ويدوم تردده فى مواقع الأبصار ، وأن تدركه الحواس فى كل وقت أو فى أغلب الأوقات ، وبالعكس وهو أن من سبب بعدِ ذلك الشىء عن أن يقع ذكره بالخاطر وتعرض صورته فى النفس قلة رؤيته ، وإنه مما يُحسّ بالفيئة (٣) بعد الفيئة وفى الفرط بعد الفرط (٤) وعلى طريق الندرة . وذلك أن العيون هى التى تحفظ صورة الأشياء على النفوس وتجدد عهدها بها وتحرسها من أن تدثر وتمنعها أن تزول ، ولذلك قالوا من غاب عن العين فقد غاب عن القلب . وعلى هذا المعنى كانت المدارسة والمناظرة فى العلوم وكرورها على الأسماع سبب سلامتها من النسيان ، والمانع لها من التفلت والذهاب .

وإذا كان هذا لايشك فيه بان منه أن كل شبه رجع إلى وصف أوصورة أو هيئة من شأنها أن ترى وتبصر أبداً فالتشبيه المعقود عليه نازل مبتذل ، وما كان بالضد من هذا وفى الغاية القصوى من مخالفته فالتشبيه المردود إليه

---

(١) والبيت غير تام فى الأصل والرواية كما فى اليتيمة :
كأن الثريا فى أواخر ليلها تفتح نور أو لجام مفضض

(٣) الصواب نفضت يدا من الصواب والتحقيق .

(٣) الفينة والفيئة بمعنى الحين ويستعملا بدون حرف جر .

(٤) الحين وأن تأتيه فى بعض الايام .

غريب نادر بديع ، ثم تتفاضل التشبيهات التي تجيء واسطة لهذين الطرفين بحسب حالها منهما ، فما كان منها إلى الطرف الأول أقرب ، فهو أدنى وأنزل ، وما كان إلى الطرف الثاني أذهب ، فهو أعلى وأفضل ، وبوصف الغريب أجدر .

واعلم أن قولنا « التفصيل » عبارة جامعة ومحصولها على الجملة أن معك وصفين أو أوصافاً فأنت تنظر فيها واحداً واحداً وتفصل بالتأمل بعضها من بعض ، وقد أرتك في الجملة حاجة إلى أن تنظر في أكثر من شيء واحد ، وأن تنظر في الشيء الواحد إلى أكثر من جهة واحدة . ثم إنه يقع على أوجه (أحدها) وهو الأول والأحق بهذه العبارة أن تفصل بأن تأخذ بعضاً وتدع بعضاً ، كما فعل في اللهب حين عزل الدخان عن السنا وجرده ، وكما فعل الآخر حين فصل الحدق عن الجفون وأثبتها مفردة فيما شبه وذلك قوله [1]

« لها حدق لم تتصل بجفون »

ويقع في هذا الوجه من التفصيل لطائف فمنها قول ابن المعتز [2]

يطارح النظرة في كل أفق ذي منسر أقنى إذا شك خرق

ومقلة تصدقه إذا رمق كأنها نرجسة بلا ورق [3]

---

(١) هو ابن المعتز في وصف الخمر وقبله :

وخمارة تعنى المسيح بربها طرقت وضوء الصبح غير مبين

فلما رأتني أيقنت بمعذل قصير بقاء الوفر غير ضنين

فجاءت بها في كأسها ذهبية لها حدق لم تتصل بجفون

كأنا وضوء الصبح يستعجل الدجى نطير غرابا ذا قوادم جون

(٢) يصف خروج البازي سحرا للصيد .

(٣) هي غير مرتبة على حسب الأصل وهي في الديوان هكذا .

غدوت في ثوب من الليل خلق يطارح النظرة في كل أفق =

وقوله : (١)

تكتب فيه أيدى المزاج لنا ميمات سطر بغير تعريق

(والثانى) أن تفصّل بأن تنظر من المشبه فى أموره لتعتبرها كلها وتطلبها فيما يشبه به وذلك كاعتبارك فى تشبيه الثريا بالعنقود الأنجم نفسها والشكل منها واللون وكونها مجتمعة على مقدار فى القرب والبعد فقد نظرت فى الأمور واحداً واحداً وجعلتها بتأملك فصلا فصلا ثم جمعتها فى تشبيهك وطلبت للهيئة الحاصلة من عدة أشخاص الأنجم والأصناف (٢) التى ذكرت لك من الشكل واللون والتقارب على وجه مخصوص هيئة أخرى شبيهة بها فأصبتها فى العنقود المنور من الملاحية ولم يقع لك التشبيه بينهما إلا بأن فصلت أيضاً أجزاء العنقود بالنظر وعلمت أنها خصل (٣) بيض وإن فيها شكل استدارة النجم ، ثم الشكل إلى الصغر ماهو ، كما أن شكل أنجم الثريا كذلك وإن هذه الخصل لامجتمعة اجتماع النظام (٤) والتلاصق ولا هى شديدة الافتراق ، بل لها مقادير فى التقارب والتباعد على نسبة قريبة مما تجده فى رأى العين بين تلك الأنجم ، بذلك (٥) على أن التشبيه موضوع على مجموع

= ذى منسر أقنى إذا شك خرق محتضب فى كل يوم بعلق
وكل عظم مفصل إذا علق ومقلة تصدقه إذا رمق
كأنها نرجسة بلا ورق تنشب فى الديباج حتى ينفتق

(١) هو ابن المعتز أيضا فى وصف الخمر ، والتعريق هنا مدة الميم ونظن أنها مأخوذة من العرق بفتحتين وهو السطر من البناء والنخل وغيرهما وهو اصطلاح خطى

(٢) الصواب «والأوصاف» وقبل البيت :

لا شىء يسلى همى سوى قدح تدمى عليه أوداج الأباريق

(٣) الخصل: جمع خصلة وهى بالفتح والضم: العنقود .

(٤) الصواب « التضام » .

(٥) الصواب « تدلك » .

هذه الأوصاف حتى إنا لو فرضنا فى تلك الكواكب أن تفترق وتتباعد تباعداً أكثر مما هى عليه الآن أو قدر فى العنقود أن ينثر لم يكن التشبيه بحاله .

وكذلك الحكم فى تشبيه الثريا باللجام [١] المفضض لأنك راعيت الهيئة الخاصة من وقوع تلك القطع والأطراف بين اتصال وانفصال وعلى الشكل الذى يوجبه موضوع اللجام ولو فرضت أن تركب مثلا على سنن واحد طولا فى سير واحد مثلا ويلصق بعضها ببعض بطل التشبيه وكذا قوله : [٢]

« تعرُّض أثناء الوشاح المفصل [٣] »

قد اعتبر فيه هيئة التفصيل فى الوشاح والشكل الذى يكون عليه الخرز المنظوم فى الوشاح فصار اعتبار التفصيل أعجب تفصيل فى التشبيه .

﴿والوجه الثالث﴾ أن تفصل بأن تنظر إلى خاصة فى بعض الجنس كالتى تجدها فى صوت البازى وعين الديك فأنت تأبى أن تمر على جملة أن هذا صوت وذاك حمرة ولكن تفصّل فتقول فيهما ما ليس فى كل صوت وكل حمرة .

واعلم أن هذه القسمة فى التفصيل موضوعة على الأغلب الأعرف ؛ وإلا فدقائقه لا تكاد تضبط .

---

(١) يراد باللجام المفضض المشبه به جزء منه وهو ما على وجه الفرس .

(٢) امرؤ القيس وصدره « إذا ما الثريا فى السماء تعرضت »

(٣) جمع ثنى وهو الجانب ، والوشاح بالضم والكسر كرسان بضم الراء وكسرها «صفان» من لؤلؤ وجوهر منظومان يخالف بينهما ، معطوف أحدهما على الآخر وشبه قلادة ينسج من أديم عريض يرصع بالجوهر تشده المرأة بين عاتقها وكشحها ويقال أشاح والجمع وشح وأوشحة ووشائح .

فما يكثر فيه التفصيل ويقوى معناه فيه ما كان من التشبيه مركباً بين[١] شيئين أو أكثر وهو ينقسم قسمين :

(أحدهما) أن يكون[٢] شيئاً بقدر المشبه وبصفته أولا[٣] يكون ، ومثال ذلك تشبيه النرجس بمداهن در حشوهن عقيق ، وتشبيه الشقيق بأعلام ياقوت نشرت على رماح من زبرجد . لأنك[٤] فى هذا النحو تحصل الشبه بين شيئين يقدر اجتماعهما على وجه مخصوص وبشرط معلوم فقد حصله فى النرجس من شكل المداهن والعقيق بشرط أن تكون المداهن من الدر وأن يكون العقيق فى الحشو منها ، وكذلك اشترط فى هيئة الأعلام أن تكون من الياقوت وأن تكون مشورة على رماح من زبرجد . فبك حاجة فى ذلك إلى مجموع أمور لو أخللت بواحد منها لم يحصل الشبه وكذلك لو خالفت الوجه المخصوص فى الاجتماع والاتصال بطل الغرض فكما بك حاجة إلى أن يكون الشكل شكل المُدهُن وأن يكون من الدر وأن يكون معه العقيق فبك أيضاً فقر إلى أن يكون العقيق فى حشو المداهن - وعلى هذا القياس .

(وثانيهما) أن تعتبر فى التشبيه هيئة تحصل من اقتران شيئين وذلك الاقتران مما يوجد ويكون ومثاله قوله :[٥]

---

(١) الصواب من .

(٢) أى المشبه به .

(٣) الصواب ولا يكون : أى لا يوجد .

(٤) هذا شرح لقوله بقدر المشبه وصفته وسيأتى شرح قوله : ولا يكون فى قوله أما الأول . . . الخ

(٥) هو ابن المعتز وقبله :

ويوم فاختى الدجن مرخ عزاليه بهطل وانهمال =

غدا والصبح تحت الليل باد   كطِرْفٍ أشهب مُلق الجلال [١]

قصد الشبه الحاصل لك إذا نظرت إلى الصبح والليل جميعاً وتأملت حالهما معاً ، وأراد أن يأتى بنظير للهيئة المشاهدة من مقارنة أحدهما الآخر ؛ ولم يرد أن يشبه الصبح على الانفراد ولا الليل على الانفراد ، كما لم يقصد الأول أن يشبه الدائرة البيضاء من النرجس بمدهن الدر ثم يستأنف تشبيهاً للثانية بالعقيق ، بل أراد أن يشبه الهيئة الحاصلة من مجموع الشكلين ، من غير أن يكون بينٌ [٢] فى البين ، ثم إن هذا الاقتران الذى وضع عليه التشبيه مما يوجد ويعهد إذ ليس وجود الفرس الأشهب قد ألقى الجل من المعوز [٣] فيقال إنه مقصور على التقدير والوهم .

فأما الأول فلا يتعدى التوهم وتقدير أن يصنع ويعمل فليس فى العادة أن تتخذ صورة أعلاها ياقوت على مقدار العلم وتحت ذلك الياقوت قطع مطاولة من الزبرجد كهيئة الأرماح والقامات ، وكذلك لا يكون ههنا مداهن تصنع من الدر ثم يوضع فى أجوافها عقيق . وفى تشبيه الشقيق زيادة معنى تباعد الصورة من الوجود وهو شرطه أن تكون أعلاماً منشورة والنشر

= ربحت سروره وظللت فيه   برغم العاذلات رخىّ بال
وساق يجعل المنديل منه   مكان حمائل السيف الطوال
غلالة خده صبغت بورد   ونون الصدغ معجمة بخال
وبعده بكأس من زجاج فيه أسد   فرائسهن ألباب الرجال
إذا ما صرعت منا نديما   توسد باليمين وبالشمال

(١) الجل للفرس والحمار - بالضم والفتح - مايوضع على الظهر ليركب عليه وجمعه جلال وأجلال .

(٢) البين الأول الفرقة والثانى الوسط .

(٣) من أعوزه الشىء إذا احتاج إليه فلم يجده أو لم يقدر عليه .

فى الياقوت وهو حجر لا يتصور موجوداً .

وبقى أن تعلم أن الوجه فى إلقاء الجل أن تريد أنه أداره عن ظهره وأزاله عن مكانه حتى تكشف أكثر جسده لا أنه رمى به جملة حتى انفصل منه لأنه إذا أراد ذلك كان قد قصد إلى تشبيه الصبح وحده من غير أن يفكر فى الليل ، ولم يشاكل قوله فى أول البيت « والصبح تحت الليل باد » .

وأما قوله : (١)

إذا تبدى البرق منها خلته بطن شجاع فى كثيب يضطرب
وتارة تبصره كأنه أبلق مال جله حين وثب

فلا شبه (٢) فيه أن يكون القصد إلى تشبيه البرق وحده ببياض البلق دون أن يدخل لون الجل فى التشبيه حتى كأنه يريد أن يريك بياض البرق فى سواد الغمام بل ينبغى أن يكون الغرض بذكر الجل أن البرق يلمع بغتة ويلوح للعين فجأة فصار لذلك كبياض الأبلق إذا ظهر عند وثوبه وميل جله عنه . وقد قال ابن بابك فى هذا المعنى :

للبرق فيها (٣) لهبٌ طائش كما يعرى الفرس الأبلق

---

(١) هو ابن المعتز وقبله :
باكية يضحك فيها برقها موصولة بالأرض مرخاة الطنب
كأنها ورعدها مستعبر لج به على بكاه ذو صخب
جاءت بجفن أكحل وانصرفت مرهاء من إسبال دمع منسكب
وبعده : وتارة تخاله إذا بدا سلاسلا مصقولة من الذهب
والشجاع : الأفعى وهو الأسود من الحيات ووجه الشبه فى البيتين الاضطراب فى الأول والظهور فجأة فى الثانى .
(٢) الصواب فلا شبهة فى أن يكون .
(٣) ضمير فيها السحابة .

إلا أن لقول ابن المعتز « حين وثب » من الفائدة مالا يخفى (١) . وقد عُنِىَ المتقدمون أيضاً بمثل هذا الاحتياط ألا تراه قال : (٢)

وترى البرق عارضاً مستطيلا   مَرَحَ البُلْق جلن فى الإجلال (٣)

فجعلها تمرح وتجول ليكون قد راعى مابه يتم الشبه وهو معظم الغرض من تشبيهه وهو هيئة حركته وكيفية لمعه .

ثم اعلم أن هذا القسم الثانى الذى يدخل فى الوجود يتفاوت حاله فمنه ما يتسع وجوده ومنه ما يوجد فى النادر وبيين ذلك بالمقابلة فأنت إذا قابلت قوله : (٤)

وكأن أجرام النجوم لوامعاً   درر نثرن على بساط أزرق

بقول (٥) ذى الرمة : « كأنها فضة قد مسها ذهب » علمت فضل الثانى

---

(١) وهى ظهوره فجأة .

(٢) هو كثير عزة .

(٣) عرض ظهر ولم يدم ومرح مفعول مطلق لفعل محذوف فى موضع نصب على الحال وجلّ الدابة جمعه جلال وأجلال وجمع الجلال أجلة وجلال كل شىء غطاؤه وفى حديث ابن عمر « إنه كان يجلل بدنه القباطى » وقبله :

تسمع الرعد فى المخيلة منها   مثل هزم القروم فى الأشوال

وبعده أو مصابيح راهب فى يفاع   سقم الزيت ساطعات الزبال

(٤) هو أبو طالب الرقى .

(٥) من قصيدة أنشدها هشام بن عبد الملك وكانت سبب نكبته لأنه ظنّ أنه يعرض به فى بيته الأول إذ كانت عين هشام تدمع كثيراً لمرض أصابها ومطلعها :

ما بال عينك منها الماء ينسكب   كأنه من كلى مفرية سرب

ومنها فى وصف محبوبته

ديار مية إذ مىّ تساعفنا   ولا يرى مثلها عجم ولا عرب

لمياء فى شفتيها حوة لعس   وفى اللثات وفى أنيابها شنب

كحلاء فى برج صفراء فى نعج   كأنها فضة قد مسها ذهب =

على الأول فى سعة الوجود وتقدم الأول على الثانى فى غرابته وقلته وكونه نادر الوجود فإن الناس يرون أبداً فى الصياغات فضة قد أجرى فيها ذهب وطليت به ولا يكاد يتفق أن يوجد در قد نثر على بساط أزرق .

فإذا عرفت انقسام المركب من التشبيه إلى هذين القسمين فاعتبر موضعهما من العبرتين (١) المذكورتين فإنك تراهما بحسب نسبتهما منهما وتحققهما بهما قد أعطتاهما لطف الغرابة ، ونفضتا عليهما صِبْغَ الحسن ، وكستاهما روع الإعجاب ، فتجد المقدار الذى لا يباشر الوجود نحو قوله : (٢)

أعــلامُ ياقوت نشرْ ... نَ على رماح من زبرجد

وكقوله فى النَّيلوفر :

كلنـا باسط اليد ... نحو نَيلوفر ندى

كدبابيس عسجد ... قُضبها من زبرجـد

قد اجتمع فيه العبرتان جميعاً . وتجد العبرة الثانية (٣) قد أتت فيه على غاية القوة لأنه لا مزيد فى بعـد الشىء عن العيون على أن يكون وجوده ممتنعاً أصلا حتى لا يتصور إلا فى الوهم . وإذا تركت هذا القسم ونظرت إلى

= والكلى جمع كلية رقعة فى عروة الدلو وساعفه ساعده واللمى سمرة الشفة ومثلها الحوة واللعس لون يضرب إلى السواد والشنب حدة الأسنان وقيل برد وعذوبة والبرج بالتحريك أن يكون بياض العين محدقا بالسواد كله والنعج البياض الخالص ، وهو يريد أنه يشوب صفرتها بياض خالص وهو محمود عندهم .

(١) العبرتان اللتان هما سبب الغرابة ـ التفصيل وبعـد الشىء عن العيون وغيبته عن الحس

(٢) هو الصنوبرى أو ابن المعتز والنينوفر والنيلوفر بفتح النون وضم اللام وفتحها ضرب من الرياحين ينبت فى المياه الراكدة وهو المسمى عند العامة بالبشنين أو عروس النيل ورواية معاهد التنصيص : مثل نيلوفر ندى .

(٣) هى عبرة البعد عن النظر وقلة التردد عليه .

القسم الثانى الذى يدخل فى الوجود نحو قوله :

« درر نثرن على بساط أزرق »

وجدت العبرة الثانية لاتقوى فيه تلك القوة لأنه إذا كان مما يعلم أنه يوجد ويعهد بحال وإن كان لايتسع بل يندر ويقل ، فقد دنا من الوقوع فى الفكر ، والتعرض المذكر ، دنوا لايدنوه الأول الذى لا يطمع أن يدخل تحت الرؤية للزومه العدم ، وامتناعه أن يجوز عليه إلا التوهم

ولا جرم لما كان الأمر كذلك كان للضرب الأول من الروعة والحسن ، ولصاحبه من الفضل فى قوة الذهن ، مالم يكن ذلك فى الثانى . وقوى الحكم (١) بحسب قوة العلة ، وكثر الوصف الذى هو الغرابة بحسب الجالب له .

وفى هذا التقرير ماتعلم به الطريق إلى التشبيه من أين تفاوت فى كونه غريباً ، ولم تفاضل فى مجيئه عجيباً ، وبأى سبب وجدت عند شىء منه من الهزة مالم تجده عند غيره ، علماً يخرجك عن نقيصة التقليد ، ويرفعك عن طبقة المقتصر على الإشارة ، دون البيان والإفصاح بالعبارة .

واعلم أن العبرة الثانية التى هى مرور الشىء على العيون هو (٢) معنى واحد لايتكثر ولكنه يقوى ويضعف كما مضى . وأما العبرة الأولى وهى التفصيل فإنها فى حكم الشىء يتكثر وينضم فيه الشىء إلى الشىء . ألا ترى أن أحد التفصيلين يفضل الآخر بأن تكون قد نظرت فى أحدهما إلى ثلاثة أشياء أو ثلاث جهات وفى الآخر إلى شيئين أو جهتين والمثال فى ذلك قول الشاعر : (٣)

---

(١) أى الحكم بالغرابة.

(٢) هذا ملزوم العبرة الثانية ، إذ الندرة أو عدمها ناشئة من قلة المرور أو كثرته.

(٣) هو بشار بن برد الأعمى من شعراء الدولتين الأموية والعباسية وقد أجمع =

كأن مُثار النقع فوق رءوسنا وأسيافنا ليلٌ تهاوى كواكبه

مع قول المتنبي :[1]

يزور الأعادى فى سماء عجاجه أسنتُه فى جانبيها الكواكب

أو قول عمرو[2] بن كلثوم :

الرواة على تقدمه طبقات المحدثين ، قتل لاتهامه بالزندقة سنة ١٦٧ ﻫ والبيت من قصيدة يمدح بها ابن هبيرة مطلعها . ــ

جفا وده فازور أو مل صاحبه وأزرى به أن لايزال يعاتبه
خليلىّ لا تستكثرا لوعة الهوى ولا سلوة المحزون شطت حبائبه
ومنها: إذا كنت فى كل الأمور معاتبا صديقك لم تلق الذى تعاتبه
فعش واحدا أو صل أخاك فإنه مقارف ذنب مرة ومجانبه

(١) يرثى محمد بن إسحق التنوخى مطلعها : ــ

لأى صروف الدهر فيه نعاتبه وأى رزاياه بوتر نطالب
مضى من فقدنا صبرنا عند فقده وقد كان يعطى الصبر والصبر عازب

(٢) الصواب أبو عمرو كلثوم بن عمرو العتابىّ التغلبى من ولد عمرو بن كلثوم المتوفى سنة ٢٢٠ ﻫ شامى صالح تقى كان ينزل قنسرين وهو شاعر مطبوع وكاتب بليغ وخطيب مفوه وكان منقطعا إلى البرامكة وبهم وصل إلى الرشيد فبلغ عنده كل مبلغ وعظمت لديه صلاته وقد قربه الرشيد لما بلغته هذه القصيدة فوافاه وعليه قميص غليظ وفروة وخف وعلى كتفه ملحفة بغير سراويل فأمر أن يفرش له حجرة ويقام بوظائفه فكان إذا جاء الطعام أخذ رقاقة وملحا ثم ينام على الأرض إذا جاء ميعاد نومه فعجب الخدم لذلك وخبروا الرشيد فأمر بطرده فلامته امرأته فأنشد عدة أبيات يؤنبها على لومها ، والبيت من قصيدة أنشدها الرشيد يتنصل من أشياء نسبت إليه ومطلعها :

ماذا شجاك بحوارين من طلل ودمنة كشفت عنها الأعاصير
شجاك حتى ضمير القلب مشترك والعين إنسانها بالماء مغمور

حوارين بلد قرب تدمر بها مات يزيد بن معاوية .
ومنها فى المدح :

ماذا عسى مادح يثنى عليك وقد ناداك فى الوحى تقديس وتطهير =

تبنى سنابكها من فوق أرؤسهم سقفاً كواكبه البيض المباتير

التفصيل فى الأبيات الثلاثة كأنه شىء واحد لأن كل واحد منهم يشبِّه لمعان السيوف فى الغبار بالكواكب فى الليل ، إلا أنك تجد لبيت بشار من الفضل ومن كرم الموقع ولطف التأثير فى النفس مالا يقل مقداره ، ولا يمكن إنكاره ، وذلك لأنه راعى مالم يراعه غيره وهو أن جعل الكواكب تهاوى فأتم الشبه ، وعبر عن هيئة السيوف وقد سلت من الأغماد وهى تعلو وترسب ، وتجىء وتذهب ، ولم يقتصر على أن يريك لمعانها فى أثناء العجاجة كما فعل الآخران . وكان لهذه الزيادة التى زادها حظ من الدقة تجعلها فى حكم تفصيل بعد تفصيل . وذلك أنا وإن قلنا إن هذه الزيادة - وهى إفادة هيئة السيوف فى حركاتها - إنما أتت فى جملة لا تفصيل فيها فإن حقيقة تلك الهيئة لا تقوم فى النفس إلا بالنظر إلى أكثر من جهة واحدة ، وذلك أن تعلم أن لها فى حال احتدام الحرب ، واختلاف الأيدى بها فى الضرب ، اضطراباً شديداً وحركات بسرعة ، ثم إن لتلك الحركات جهات مختلفة ، وأحوالا تنقسم بين الاعوجاج والاستقامة ، والارتفاع والانخفاض، وإن السيوف باختلاف هذه الأمور تتلافى وتتداخل ويقع بعضها فى بعض ويصدم بعضها بعضاً. ثم إن أشكال السيوف مستطيلة فقد نظم هذه الدقائق كلها فى نفسه ثم أحضرك صورها بلفظة واحدة ونبه عليها بأحسن التنبيه وأكمله بكلمة وهى قوله (تهاوى) لأن الكواكب إذا تهاوت اختلفت جهات حركاتها وكان لها فى تهاويها تواقع وتداخل ، ثم إنها بالتهاوى تستطيل أشكالها ، فأما إذا لم تزل عن أماكنها فهى على صورة الاستدارة .

= فت المدائح إلا أن ألسنا مستنطقات بما تخفى الضمائر

وفى الصناعتين رواية البيت «مدت سنابكها» والمباتير السيوف القاطعة مفردها باتر .

ويشبه هذا الموضع فى زيادة أحد التشبيهين على الآخر مع أن جنسهما جنس واحد وتركيبهما على حقيقة واحدة بأن فى أحدهما فضل استقصاء ليس فى الآخر قول ابن المعتز [١] :

وطاف بها ساق أديب بِمِبزَل كخِنْجَر عيَّار صناعته الفتك [٢]
وحمّل آذريونة فوق أذنه ككأس عقيق فى قرارتها مسك [٣]

مع قوله [٤] مداهن من ذهب فيها بقايا غاليه [٥]

الأول ينقص عن الثانى شيئا ، وذلك أن السواد الذى فى باطن

---

(١) مطلع القصيدة فى وصف مجلس أنس .

أديرا علىّ الكأس ليس لها ترك ويالائمى لى فتلتى ولك النسك
دعونى ونفسى بارك الله فيكم أما لأسير الغىّ من لومكم فك
إذا لم يكن للرشد والنصح قابلا فسخطكم جهل ولومكم محك
خلوا فتى باللهو والكأس مغرما فما عنده سمع فهل عندكم ترك

(٢) المبزل ما يصفى به الشراب ويشبه حلمة الضرع والعيار بالتشديد كثير المجىء والذهاب والذى يخلى نفسه وهواها ولا يردعها ولا يزجرها .

(٣) الآذريون جمع أذريونة وهو المسمى الآن (بعباد الشمس) .

(٤) هو ابن المعتز أيضا وشبيه بهما قول الصنوبرى .

كأن آذريونها من فوق العصب
خيام مسك فوقها سرادق من ذهب

وقول ابن حجة : كأن آذريونها ونوره قد أبهجا
وميض برق لامع فى جنح ليل قد دجا

وقول ابن تميم

وكأن آذريونها فى روضة سرج تضىء على صفا أنهارها
والسرج تخفيها الشموس وهذه سرج تزيد الشمس فى أنوارها

(٥) قبله : سقيا لروضات لنا من كل نور حاليه
عيون آذريونها للشمس فيها كاليه

والكالية الحافظة من كلأه أى حفظه وكلاءة الآذريون للشمس أنها تستقبلها وتدور =

الآذريونة الموضوع [1] بإزاء الغالية والمسك فيه أمران أحدهما أنه ليس بشامل لها والثانى أن هذا السواد ليس صورته صورة الدرهم فى قعرها أعنى أنه لم يستدر هناك بل ارتفع من قعر الدائرة حتى أخذ شيئا من سمكها [2] من كل الجهات وله فى منقطعه هيئة تشبه آثار الغالية فى جوانب المدهن إذا كانت بقية بقيت عن الأصابع . وقوله «فى قرارتها مسك» يبين الأمر الأول [3] ويؤمن من دخول النقص عليه كما كان يدخل لو قال «ككأس عقيق فيها مسك» ولم يشترط أن يكون فى القرارة .

وأما الثانى من الأمرين فلا يدل عليه كما يدل قوله «بقايا غاليه» وذاك [4] من شأن المسك والشىء اليابس إذا حصل فى شىء مستدير فى القعر لا يرتفع فى الجوانب الارتفاع الذى تراه فى سواد الآذريونة . وأما الغالية فهى رطبة ثم هى تؤخذ بالأصابع وإذا كان كذلك فلا بد فى البقية منها من أن تكون قد ارتفعت عن القرارة وحصلت بقية شبيهة بذلك السواد ثم هى لنعومتها ترق فتكون كالصبغ الذى لا جرم له يملك المكان وذلك أصدق للتشبيه .
ومن أبلغ الاستقصاء وعجيبه قول ابن المعتز : [5]

= معها حيث دارت . وهى نوعان منها مالها أوراق حمراء فى وسطها سواد له نمو وارتفاع ومنها ماتكون أوراقها تميل إلى الصفرة وتارة تشبه بكأس من عقيق فيها مسك وتارة بمدهن من ذهب فيه شىء من الغالية وهى أخلاط من الطيب .

(١) أى المقصود بكل منها .

(٢) السمك بالفتح القامة من كل شىء طويل ثخين وهو من أعلى البيت إلى أسفله .

(٣) وهو كونه ليس بشامل .

(٤) الصواب وذاك أن من شأن الخ .

(٥) من قصيدة مطلعها :

كأنا وضوء الصبح يستعجل الدجى نُطير غرابا ذا قوادم جُون [1]

شبه ظلام الليل حين يظهر فيه الصبح بأشخاص الغربان ثم شرط أن تكون قوادم ريشها بيضاً لأن تلك الفرق من الظلمة تقع فى حواشيها من حيث يلى معظم الصبح وعموده لمع [2] نور يتخيل [3] منها فى العين كشكل قوادم إذا كانت بيضاء. وتمام التدقيق والسحر فى هذا التشبيه فى شىء آخر وهو أن جعل ضوء الصبح لقوة ظهوره ودفعه لظلام الليل كأنه يحفز الدجى ويستعجلها، ولا يرضى منها بأن تتمهل فى حركتها. ثم لما بدأ بذلك أولا اعتبره فى التشبيه آخراً فقال: «نطير غرابا» ولم يقل غراب يطير مثلا وذلك أن الغراب وكل طائر إذا كان واقعاً هادئاً فى مكان فأزعج وأخيف وأطير منه أو كان قد حبس فى يد أو قفص فأرسل كان ذلك لا محالة أسرع لطيرانه وأعجل وأمدّ له وأبعد لأمده فإن تلك الفزعة التى تعرض له من تنفيره أو الفرحة التى تدركه وتحدث فيه من خلاصه وانفلاته مما دعته إلى أن يستمر حتى يغيب عن الأفق ويصير إلى حيث لا تراه العيون وليس كذلك إذا طار عن اختيار لأنه يجوز حينئذ أن يصير إلى مكان قريب من مكانه الأول وألا يسرع فى طيرانه بل يمشى على هيئة ويتحرك حركة غير المستعجل فاعرفه.

= صحوت ولكن بعد أى فتون فلا تسأليني صبوة ودعيني
ودب مشيبي بعضه فوق بعضه فأخرجنى من أنفس وعيون

(١) قوادم الطير مقاديم ريشه وهى عشرة فى كل جناح الواحدة قادمة والجون بالضم جمع جون بالفتح وهو الأبيض والأسود والمراد الأول، وقد شبه الليل الذى فيه تباشير الصبح بغراب له قوادم بيض.

(٢) جمع لمعة بالضم وهى البريق.

(٣) أى يتراءى منها فى العين.

ومما حقه أن يكون على فرط الاستقصاء فى التشبيه وفضل العناية بتأكيد مابدا به قول ابن فارس [١] فى صفة البازى :

كأن عينيه إذا ما أثأرا [٢] فَصَّان قيضا من عقيق أحمرا
فى هامة غلباء تهدى مِنسرا كعطفة الجيم بكف أعسرا [٣]

أراد أن يشبه المنقار بالجيم ، والجيم خطان الأول الذى مبدؤه وهو الأعلى والثانى وهو الذى يذهب إلى اليسار وإذا لم توصل فلها تعريق [٤] كما لا يخفى والمنقار إنما يشبه الخط الأعلى فقط فلما كان كذلك قال ، كعطفة

---

(١) الصواب أنها لأبى نواس كما ذكره أبو هلال فى الصناعتين وصاحب الإيضاح وصاحب المختارات وأولها :

لما رأيت الليل قد تحسرا عنى وعن معروف صبح أسفرا
ألبست كفى دستبانا مشعرا يقى بنان الكف ألا يخصرا
ثم قال: أعددت للبغثان حتفا عقرا أرقط ضاحى الدفتين أنمرا
كأن شدقيه إذا تضورا صدعان من عرعرة تفطرا

قال فى الصناعتين وسمعت بعض العلماء يقول ومن المعانى الباردة قول أبى نواس فى وصف البازى (كعطفة الجيم بكف أعسرا) فهذا مليح جيد ثم زاد بعده يقول ... الخ فمن يجهل أن الجيم إذا أضيفت إليها العين والفاء والراء تصير جعفرا وسواء قال هذا أو قال : لو زادها حاء إلى دال وراء فاتصلت بالجيم صارت جحدرا - وإنما أراد أبو نواس أن يشبه الجيم لا يغادر من شبهها شيئاً حتى لو زدت عليها هذه الأحرف صارت جعفراً لشدة شبهها به وهو عندى صواب إلا أنه لو اكتفى بقوله : كعطفة الجيم بكف أعسرا ولم يزد ما بعدها كان أجود وأرشق وأدخل فى مذاهب الفصحاء وأشبه بالشعر القديم اهـ.

(٢) الصواب : أتأرا بالتاء أى حدد النظر لأن الأبيات فى أوصاف البازى لا فى عمله .

(٣) المنسر كمنبر ومجلس منقار الطير الجارح .

(٤) تعريق الجيم أن يعطف بالخط الأسفل إلى اليمين على هيئة قوس كما هو الشأن فى الجيم المفردة وعطفته وهى الخط الأعلى تشبه بالمنقار .

الجيم ، ولم يقل كالجيم ثم دقق بأن جعلها بكف أعسر لأن جيم الأعسر قالوا أشبه بالمنقار من جيم الأيمن . ثم إنه أراد أن يؤكد أن الشبه مقصور على الخط الأعلى من شكل الجيم فقال :

يقول من فيها بعقل فكّرا   لو زادها عينا إلى فاء ورا

فاتصلت بالجيم صارت جعفرا

فأراك عيانا أنه عمد فى التشبيه إلى الخط الأول من الجيم دون تعريقها ودون الخط الأسفل . أما أمر التعريق وإخراجه من التشبيه فواضح لأن الوصل يسقط التعريق أصلا . وأما الخط الثانى فهو وإن كان لابد منه مع الوصل فإنه إذا [1] قال « لو زادها عينا إلى فاء وراء » ثم قال « فاتصلت بالجيم » فقد بين أن هذا الخط الثانى خارج أيضاً من قصده فى التشبيه من حيث كانت زيادة هذه الحروف ووصلها هى السبب فى حدوثه . وينبغى أن يكون قوله « بالجيم » يعنى بالعطفة المذكورة من الجيم ولأجل هذه الدقة قال : « يقول من فيها بعقل فكرا » فهو لما أراد أن يقول ونبه على أن بالمشبّه حاجة إلى فضل فكر وأن يكون فكره فكرة من راجع عقله ويستعينه على تمام البيان .

وجملة القول أنك متى زدت فى التشبيه على مراعاة وصف واحد أوجهة واحدة فقد دخلت فى التفصيل والتركيب وفتحت باب التفاصيل ثم تختلف المنازل فى الفضل بحسب الصورة فى استنفادك قوة الاستقصاء أو رضاك بالعفو دون الجهد .

---

(١) الصواب إذ : كما هو واضح .

فصــــل

اعلم أن مما يزداد به التشبيه دقة وسحراً أن يجىء فى الهيئات التى تقع عليها الحركات . والهيئة المقصودة فى التشبيه على وجهين أحدهما أن تقترن بغيرها من الأوصاف كالشكل واللون ونحوهما . والثانى أن تجرد هيئة الحركة حتى لايراد غيرها فمن الأول قوله [١] :

« والشمس كالمرآة فى كف الأشل »

أراد أن يريك مع الشكل الذى هو الاستدارة ومع الإشراق والتلألؤ على الجملة الحركة التى تراها للشمس إذا أنعمت التأمل ثم مايحصل فى نورها من أجل تلك الحركة وذاك أن للشمس حركة متصلة دائمة فى غاية للسرعة ولنورها بسبب تلك الحركة تموج واضطراب عجب ولايتحصل هذا الشبه إلا بأن تكون المرآة فى يد الأشل لأن حركته تدور [٢] وتتصل ويكون فيها سرعة وقلق شديد حتى ترى المرآة لاتقر فى العين وبدوام الحركة وشدة القلق فيها يتموج نور المرآة ويقع الاضطراب الذى كأنه يسحر الطرف ، وتلك حال الشمس بعينها حين تُحِدّ النظر وتُنفذ البصر حتى تتبين الحركة العجيبة فى جرمها وضوئها فإنك ترى شعاعها كأنه يهمّ بأن ينبسط حتى

---

(١) تقدم أنه من أرجوزة لجبار وأخذه التلعفرى فقال :

أفدى الذى زارنى فى الليـل مستترا   أحلى من الأمن عند الخائف الدهش
ولاحت الشمس تحكى عند مطلعها   مرآة تبر بدت فى كفّ مرتعش

وأخذه القاضى الفاضل فقال :

والشمس من بين الأرائك قد حكت   سيفا صقيــلا فى يد رعشاء

(٢) الصواب تدوم .

يفيض من جوانبها ثم يبدو له فيرجع من الانبساط الذى بدأه إلى انقباض كأنه يجمعه من جوانب الدائرة إلى الوسط . وحقيقة حالها فى ذلك مما لا يكمل البصر لتقريره وتصويره فى النفس فضلا عن أن تكمل العبارة لتأديته ، ويبلغ البيان كنه صورته .

ومثل هذا التشبيه وإن صور فى المرآة قول المهلبى الوزير [١] :

الشمس من مشرقها قد بدت　　مشرقة ليس لها حاجب
كأنها بُوتقة أحميت　　يجول فيها ذهب ذائب [٢]

وذلك أن الذهب الذائب يتشكل بأشكال البوتقة على النار فإنه يتحرك فيها حركة على الحد الذى وصفت لك . وما فى طبع الذهب من النعومة وفى أجزائه من شدة الاتصال والتلاحم يمنعه أن يقع فيه غليان على الصفة التى تكون فى الماء ونحوه مما يتخلله الهواء فيرتفع وسطه ارتفاعا شديدا ولكن جملته كأنها تتحرك بحركة واحدة ويكون فيها ما ذكرت من انبساط إلى الجوانب ثم انقباض إلى الوسط فاعرفه .

ومن عجيب ما جمع فيه بين الشكل وهيئة الحركة قول الصنوبرى [٣] :

---

(١) هو أبو محمد الحسن بن محمد بن ولد المهلب بن أبى صفرة وزير معز الدولة ابن بويه الديلمى المتوفى سنة ٣٥٢ وكان رفيع القدر عالى الهمة مشهورا بحب الأدب وأهله وفيه يقول صاحب اليتيمة :

يقول الشعر قولا لطيفا يضرب بحسنه المثل ولا يستحلى معه العسل ، واشتهى اللحم مرة قبل يسره فلم يقدر عليه فقال :

ألا موت يبـاع فأشتريه　　فهذا العيش ما لا خير فيه
ألا موت لذيذ الطعم يأتى　　يخلصنى من العيش الكريه

(٢) الحاجب المانع ، والبوتقة ما يذيب الصائغ فيه الذهب والفضة .

(٣) هو أبو على الحسين بن أحمد وكان معاصراً للتنبى ومدح سيف الدولة .

كأن في غدرانها حواجبا ظلت تمط [١]

أراد ما يبدو فى صفحة الماء من أشكال كأنصاف دوائر صغار ثم إنك تراها تمتد امتداداً ينقص من انحنائها وتحدُّبها كما تباعد بين طرفى القوس وتثنيهما إلى ناحية الظهر كأنك تقربها من الاستواء وتسلبها بعض شكل التقوس الذى هو إقبال أحد طرفيها على الآخر ومتى حدثت هذه الصفة فى تلك الأشكال الظاهرة على متون الغدران كانت أشبه شىء بالحواجب إذا مدت لأن الحاجب لا يخفى تقويسه ومده ينقص من تقويسه .

ومن لطيف ذلك أيضاً أعنى الجمع بين الشكل وهيئة الحركة قول ابن المعتز يصف وقوع القطر على الأرض :

بكرت تعير الأرض ثوب شباب رحبية [٢] محمودة الأسكاب [٣]

نثرت أوائلها حبـاً فكأنه نَقْطٌ على عجل ببطن كتاب

وأما هيئة الحركة مجردة من كل وصف يكون فى الجسم فيقع فيها نوع من التركيب بأن يكون للجسم حركات فى جهات مختلفة نحو إن بعضها يتحرك إلى يمين والبعض إلى شمال وبعض إلى فوق وبعض إلى قدام ونحو ذلك وكلما كان التفاوت فى الجهات التى تتحرك أبعاض الجسم إليها أشد كان التركيب فى هيئة المتحرك أكثر فحركة الرحا والدولاب وحركة السهم لا تركيب فيها لأن الجهة واحدة ولكن فى حركة المصحف فى قوله « فانطباقا مرة وانفتاحا »

(١) البيت من قطعة يصف بها حديقة فيقول إن فيها غدرانا يهب عليها الريح فتبدو على صفحات غدرانها أشكال كأنها حواجب لها تقوس وامتداد .

(٢) الرحبية ما تسيل بجانبى الوادى إليه والظاهر أنها رجبية نسبة إلى رجب أى أنها تنضج فى شهر رجب .

(٣) الصواب التسكاب لأنه ليس هناك فعل رباعى والوزن من الكامل .

تركيب لأنه فى إحدى الحالتين يتحرك إلى جهة غير جهته فى الحالة الأخرى.
فما جاء فى التشبيه (١) معقوداً على تجريد هيئة الحركة ثم لطف وعرف لما فيه من التفصيل والتركيب قول الأعشى (٢) يصف السفينة (٣) فى البحر وتقاذف الأمواج بها :

تقص السفين بجانبيه كما ينزو الرباح خلاله كرَع (٤)

الرباح الفصيل وقيل القرد . والكرع ماء السماء، شبه السفينة فى انحدارها وارتفاعها بحركات الفصيل فى نزوه وذلك أن الفصيل إذا نزا - ولا سيما فى الماء وحين يعتريه ما يعترى المهر ونحوه من الحيوانات التى هى فى أول النشء (٥) - كانت له حركات متفاوتة تصير لها أعضاؤه فى جهات مختلفة ويكون هناك تسفل وتصعد على غير ترتيب وبحيث تكاد تدخل إحدى الحركتين فى الأخرى فلا يثبته (٦) الطرف مرتفعا حتى يراه منحطا متسفلا ويهوى مرة نحو الرأس ومرة نحو الذنب وذلك أشبه شىء بحال السفينة وهيئة حركاتها حين يتدافعها الموج .

ونظيره قول الآخر (٧) يصف الفصيل وهو يثب على الناقة ويعلوها

(١) الصواب من التشبيه .

(٢) هو ميمون بن قيس جاهلى يدعى صناجة العرب .

(٣) الذى فى القاموس إنه جمع لا مفرد إلا إذا كان مرخما فى غير النداء .

(٤) تقص أى تثب والنزو الوثوب والرباح كرمان ويخفف الفصيل أو القرد وخلا من الخلو والكرع الغدير .

(٥) الفعل كمنع وكرم نشئا ونشوءا ونشاءة .

(٦) أثبته عرفه حق المعرفه .

(٧) هو العجاج ويكنى أبا الشعثاء واسمه عبد الله بن رؤبة من بنى زيد بن مناة من تميم وهو أحد رجاز الإسلام ولقب بالعجاج لقوله : =

ويلقى نفسه عليها لأنها قد بركت فلا يتمكن من أن يرتضع فهو يفعل ذلك لتثور الناقة :

يقتاعها [١] كل فصيل مكرم   كالحبشى يرتقى فى السلم

« يقتاعها » يفتعل من قولهم قاع البعير الناقة إذا ضربها يقوعها قوعا أراد يعلوها ويثب عليها ، وشبه بالحبشى فى هذه الحالة المخصوصة لما يكون له عند ارتفاعه فى السلم من تصعد بعض أعضائه وتسفل بعض على اضطراب مفرط وغثارة [٢] شديدة وذلك كما ترى فى أنه اختلاف فى جهات أبعاض الجسم على غير نظام مضبوط كحركات الفصيل فى الماء. وقد خلا له . وقد عرفتك أن الاختلاف فى جهات الحركات الواقعة فى أبعاض الجسم كالتركيب بين [٣] أوصاف مختلفة ليحصل من مجموعها شبه خاص .

واعلم أن هذه الجهات يغلب عليها الحكم المستفاد من العبرة الثانية . وذلك أن كل هيئة من هيئات الجسم فى حركاته إذا لم يتحرك فى جهة واحدة فمن شأنها أن تقل وتعز فى الوجود فيباعدها ذلك أيضاً من أن تقع فى الفكر بسرعة زيادة مباعدة مضمومة إلى مايوجب [٤] حديث التركيب والتفصيل

=   حتى يعج عندها من عجعجا

أى يصوت والبيت من أرجوزة طويلة أولها :

يا دار سلمى اسلمى ثم اسلمى   بسمسم أو عن يمين سمسم

وما سؤال طلل وأرسم   والنؤى بعد عهده المدهدم

(١) فى اللسان قاع الفحل الناقة وعلى الناقة يقوعها قوعا وقياعا واقتاعها وتقوعها ضربها وهو قلب قعا ، واقتاع الفحل إذا هاج، وفسر هذا البيت فقال هذه ناقة طويلة وقد طال فصلانها فركبوها .

(٢) هجنة وقبح .

(٣) الصواب من .

(٤) صوابه يوجبه .

فيها . ألا ترى أن الهيئة التى اعتمدها فى تشبيه البرق بالمصحف ليست تكون إلا فى النادر من الأحوال وبعد عمد من الإنسان وخروج عن العادة ومقصد خاص أو عيب [1] غالب على النفس غير معتاد وهكذا حال الفصيل فى وثوبه على أمه ليثيرها وانسيابه فى الماء ونزوه كما توجبه رؤيته الماء خالياً وطباع الصغير والفصيلة [2] مما لا ترى إلا نادراً . وليس الأمر فى هذا النحو كالأمر فى حركة الدولاب والرحا والسهم ونحو ذلك من الحركات المعتادة التى تقع فى مصارف العيون كثيراً .

ومما يقوى فيه أن يكون سبب غرابته قلة رؤية العيون له مامضى من تشبيه الشمس بالمرآة فى كف الأشل وذلك أن الهيئة التى تراها فى حركة المرآة إذا كانت فى كف الأشل مما ترى نادراً فى الأقل فربما قضى الرجل دهره ولا يتفق له أن يرى مرآة فى يد مرتعش . هذا - وليس موضع الغرابة من التشبيه دوام حركة المرآة فى يد الأشل فقط بل النكتة المقصودة فيما يتولد من دوام تلك الحركة من الالتماع وتموج الشعاع وكونه فى صورة حركات من جوانب الدائرة إلى وسطها وهذه صفة لا تقوم فى نفس الرائى المرآةَ الدائمة الاضطراب إلا أن يستأنف تأملا ، وينظر متثبتاً فى نظره متمهلا ، فكأن ههنا هيئتين كلتاهما من هيئات الحركة . إحداهما حركة المرآة على الخصوص الذى يوجبه ارتعاش اليد . والثانية حركة الشعاع واضطرابه الحادث من تلك الحركة . وإذا كان كون المرآة فى يد الأشل مما ترى نادراً ثم كانت هذه الصفة التى هى كائنة فى الشعاع إنما ترى وتدرك فى حال رؤية حركة المرآة بجهد وبعد استئناف إعمال للبصر فقد بعدت عن حد مايعتاد

(١) غير واضحة المعنى هنا ولعلها أو طبع .

(٢) الفصيلة أنثى الفصيل .

رؤيته مرتين ، ودخلت فى النادر الذى لا تألفه العيون من جهتين ، فاعرفه .

واعلم أنه كما تعتبر هيئة الحركة فى التشبيه فكذلك تعتبر هيئة السكون على الجملة وبحسب اختلافه نحو هيئة المضطجع وهيئة الجالس ونحو ذلك . فإذا وقع فى شىء من هيئات الجسم فى سكونه تركيب وتفصيل لطف التشبيه وحسن . فمن ذلك قول ابن المعتز يصف سيلا :

فلما طغا ماؤه فى البلاد　　وغصّ به كل واد صد [١]

نرى الثور فى متنه طافيا　　كضجعة ذى التاج فى المرقد

وكقول المتلبي [٢] فى صفة الكلب :

* يُقعى جلوسَ البدوىّ المصطلى *

فقد اختص هيئة البدوى المصطلى فى تشبيه هيئة سكون أعضاء الكلب ومواقعها فيها [٣] ولم ينل التشبيه حظا من الحسن إلا بأن فيه تفصيلا من حيث كان لكل عضو من الكلب فى إقعائه موقع خاص وكان مجموع تلك الجهات فى حكم أشكال مختلفة تؤلف فتجىء منها صورة خاصة .

ومن لطيف هذا الجنس قوله [٤] فى صفة المصلوب :

---

(١) الصدى الظمآن .

(٢) من أرجوزة قالها ارتجالا يصف كلب صيد أخذ ظبية وحده بغير صقر وأولها :

ومنزل ليس لنا بمنزل　　ولا لغير الغاديات الهطل

ندى الخزامى زفر القرنفل　　محلل ملوحش لم يحلل

إلى أن قال : يقعى جلوس البدوى المصطلى　　بأربع مجدولة لم تجدل

أثارها أمثالها فى الجندل

(٣) أى مواقع الأعضاء فى تلك الهيئة .

(٤) فى الكامل إنها للأخطل الأهوازى وهو رجل محدث من أهل البصرة ويعرف بالأخيطل ويلقب ببرقوقا وذكر أبو الحسن أن أبا العباس كان يدلس به وفى معناهما قول عمارة اليمنى فى وصف مصلوب :　=

كأنه عاشق قد مد صفحته يوم الوداع إلى توديع مرتحل
أو قائم من نعاس فيه لُوثَته [١] مواصل لتمطيه من الكسل

[٢] ولم يلطف إلا لكثرة ما فيه من التفصيل . ولو قال كأنه متمط من نعاس واقتصر عليه كان قريباً من المتناول لأن الشبه إلى هذا القدر يقع فى نفس الرائى المصلوب لكونه من حد الجملة ، فأما بهذا القيد وعلى هذا التقييد الذى يفيد به استدامة تلك الهيئة فلا يحضر إلا مع سفر من الخاطر وقوة من التأمل وذلك لحاجته أن ينظر إلى غير جهة فيقول هو كالمتمطى ثم يقول المتمطى يمد ظهره ويده مدة ثم يعود إلى حالته فيزيد فيه أنه مواصل لذلك ثم إذا أراد ذلك طلب علته وهى قيام اللوثة والكسل فى القائم من النعاس وهذا أصل فيما يزيد به التفصيل وهو أن يثبت فى الوصف أمر زائد على المعلوم المتعارف ثم يطلب له علة وسبب :

ويشبه التشبيه فى البيت قول الآخر [٣] وهو مذكور معه فى الكتب [٤]

لم أر صفا مثل صفِّ الزُّط [٥] تسعين منهم صلبوا فى خط

= ومدّ على صليب الصلب منى يمينا لا تطول إلى الشمال
ونكس رأسه لعتاب قلب دعاه إلى الغواية والضلال

قال فى معاهد التنصيص ومن عجيب المصادفات أنه بعد أن قال هذه المقالة صلبه صلاح الدين الأيوبى لموالاته الفاطميين .

(١) الاسترخاء والبطء .

(٢) الصواب حذف الواو .

(٣) هو دعبل بن على الخزاعى الأسدى المتوفى سنة ٢٤٦ هـ .

(٤) كالكامل .

(٥) من حديث الزط أن جماعة منهم خرجوا من الهند إلى البصرة وعاثوا فى البلاد فسادا وقطعوا الطرق وأخذوا الغلال من البيادر فوجه اليهم المعتصم فى سنة ٢١٩ القائد عجيف بن عنبسة لحربهم فأخذ عليهم الآفاق وأسر منهم ٥٠٠ وقتل=

من كل عال جِذعُهُ بالشط كأنه فى جـذعِهِ المشتط
أخو نعاس جَدَّ فى التمطى قد خامر النوم ولم يَغِط

فقوله « جدَّ فى التمطى » شرط يتم التشبيه كما أن قوله « مواصل » كذلك إلا أن فى اشتراط المواصلة من الفائدة ماليس فى هذا . وذلك أنه يجوز أن يبالغ ويجتهد ويجد فى تمطيه ثم يدع ذلك فى الوقت ويعود إلى الحالة التى يكون عليها فى السلامة مما [1] يدعو إلى التمدد . وإذا كان كذلك كان المستفاد من هذه العبارة [2] صورة التمطى وهيئته الخاصة وزيادة معنى وهو بلوغ الصفة غاية ما يمكن أن يكون [3] عليها . وهذا كله مستفاد من الأول ثم فيه [4] زيادة أخرى وهو أخص مايقصد من صفة المصلوب وهى الاستمرار على الهيئة والاستدامة لها فأما قوله بعد : « قد خامر النوم ولم يغط » فهو إن كان كأنه يحاول أن يرينا هذه الزيادة من حيث يقال إنه إذا أخذه النعاس فتمطى ثم خامر النوم فإن الهيئة الحاصلة له من جده فى التمطى تبقى له فليس ببالغ مبلغ قوله « مواصل لتمطيه » وتقييده من بعد بأنه « من الكسل » واحتياطه قبل بقوله « فيه لوثته [5] » .

= فى المعركة ٣٠٠ وصلب كثيرا من رؤسائهم ومكث يقاتلهم نحو ٩ أشهر وفى سنه ٢٢٠هـ رحل عجيف إلى بغداد بالزط بعد أن قهرهم وطلبوا منه الأمان فعبأهم فى زوارق وهم على هيئتهم فى الحرب ومعهم البوقات حتى دخل بهم بغداد وبقوا فيها ثلاثة أيام ثم عبر بهم إلى الشاطئ الغربى ثم أهلكهم ولم يفلت منهم أحد . والشط شاطئ نهير يتفرع من نهر دجلة والزط هم المسمون الآن (بالنور) أو الغجر .

(١) متعلق بالسلامة . (٢) أى عبارة الأبيات .

(٣) الصواب ـ يمكن أن تكون عليه .

(٤) أى فى الأول .

(٥) خلاصة الفرق بين هذا والأول أن الأول صريح فى الاستمرار على الهيئة والاستدامة لها دون بلوغ الصفة غاية ما يمكن أن تكون عليه والثانى بالعكس .

وشبيه بالأول فى الاستقصاء قول ابن الرومى :

كأن له فى الجو حبلاً يبوعه   إذا ما انقضى حبل أتيح له حبل
يعانق أنفاس الرياح مودعاً   وداع رحيل لايحط له رحل

فاشتراطه أن يكون له بعد الحبل الذى ينتهى ذرعه [١] حبل آخر يخرج من بوع الأول إليه كقوله «مواصل لتمطيه من الكسل» فى استيفاء الشبه والتنبيه على استدامته لأنه إذا كان لا يزال يبوع حبلا لم يقبض باعه ولم يرسل يده . وفى ذلك بقاء شبه المصلوب على الاتصال فاعرفه .

واعلم أن من حقك ألا تضع الموازنة بين الشبهين فى حاجة أحدهما إلى زيادة من التأمل على وقتنا هذا ، ولكن تنظر إلى حالها فى قوى العقل ولم تسمع بواحد منهما ، فتعلم أن لو أرادهما مريد واتفقا له جميعاً ولم يكن قد سمع بواحد منهما أيهما [٢] كان يكون أسهل عليه ، وأسرع إليه ، وأعطى بيديه وأيهما تجده أدل على ذكاء من يسمعه منه ، وأرجى ليخرج [٣] من تقوّله [٤] وذلك أن تقابل بين تشبيه النجوم بالمصابيح والمصابيح بها وبين تشبيه سل السيوف بعقائق [٥] البرق وتشبيهها بسل السيوف ، فإنك تعلم

---

(١) الصواب بوعه .

(٢) المناسب فأيهما لأنه جواب «لو» .

(٣) خرج فلان فى العلم والصناعة خروجاً نبغ وخرّجه فى الأدب تخريجاً فتخرج وهو خريجه قال زهير يصف خيلا :

وخرجها صوارخ كل يوم   فقد جعلت عرائكها تلين

أراد أنه أدبها كما يخرج المعلم تلميذه وخرجت خوارج فلان إذا ظهرت نجابته وتوجه لإبرام الأمور وإحكامها وفرس خروج سابق معروف فى الحلبة .

(٤) تقول عليه قولا وتقولا ابتدعه عليه كذبا ويراد هنا مطلق القول .

(٥) العقائق جمع عقيقة وهى شعاع البرق وكثر استعارتها للسيوف حتى جعلوها من أسمائها فقالوا (سلوا عقائق كالعقائق) أى سيوفا تلمع كالبروق .

أن الأول يقع فى نفس الصبى أول مايحس بنفسه وأن الثانى لا يجيب إجابته، ولا يبذل طاعته، وكذلك تعلم أن تشبيه الثريا بنَوْر العنقود لا يكون فى قرب تشبيهها بتفتح النور ، وأن تشبيه الشمس بالمرآة المجلوة كما مضى يقع فى نفس الغِرّ [١] العامى والصبى، ولا يقع تشبيهها بالمرآة فى كف الأشل إلا فى قلب الحصيف [٢] وتشبيهها فى حركتها تلك بمرآة تضطرب على الجملة من غير أن تجعل فى كف الأشل قد يقع لمن لا يقع له بهذا التقييد، وذلك لما مضى من حاجته إلى الفكرة فى حال الشمس وإن حركتها دائمة متصلة، ثم طلب متحرك حركة غير اختيارية ، وجعل المرآة صادرة عن تلك الحركة ومأسورة فى حكمها دائماً . وإنما اشترط عليك هذا الشرط لأنه لا يمتنع أن يسبق الأول إلى تشبيه لطيف يحسن تأمله ويدل على ذكائه وحدة خاطره ثم يشيع ويتسع ويذكر ويشهر حتى يخرج إلى حد المبتذل وإلى المشترك فى أصله ، وحتى يجرى مع دقة تفصيل فيه مجرى المجمل الذى تقوله الوليدة الصغيرة والعجوز الورهاء [٣] فإنك تعلم أن قولنا « لا يُشَقُّ غباره » الآن فى الابتذال كقولنا لا يلحق ولا يدرك وهو كالبرق ونحو ذلك . إلا أنا إذا رجعنا إلى أنفسنا علمنا أنه لم يكن كذلك من أصله ، وأن هذا الابتذال أتاه بعد أن قضى زماناً بطراءة [٤] الشباب وجِدّة الفَتاء [٥] وبعزة المنيع ، ولو قد منعك جانبه وطوى عنك نفسه، لعرفت كيف يَشُقُّ مطلَبه، ويصعب

(١) من لا تجربة له من شاب وشابة .

(٢) القوى العقل الجيد الرأى .

(٣) الحمقاء .

(٤) مصدر طرأ الشيء طراءة وطراء فهو طرى وهو خلاف الذاوى الذابل وشيء طرى غض بين الطراوة ، ومثله طرؤ اللحم وطرى طراوة وطراءة وطراء وطرى .

(٥) الشباب وهو مصدر فتى والفتى الشاب والسخي .

تناوله . ومثل هذا وأظهر منه أمراً إن قولنا «أما بعد» ملسوب فى الأصل إلى واحد بعينه [١] وإن كان الآن فى البِذلة [٢] كقولنا : هذا بعد ذاك - مثلا .

وهكذا الحكم فى الطرق التى ابتدأ بها الأولون ، والعبارات التى لخصها المتقدمون ، والقوانين التى وضعوها حتى صارت فى الاشتراك كالشىء المشترك من أوله ، والمبتذل الذى لم يكن الصون من شأنه ، والمبذول الذى لم يعترض دونه المنع فى شىء من زمانه ، ورب نفيس جُلب إليك من الأمكنة الشاسعة ، ورُكب فيه النوى الشطون [٣] وقُطع به عرْض الفيافى [٤] ثم أخفى عنك فضله ، حتى جهلت قدره أن سهل [٥] مرامه ، واتسع وجوده ، ولو انقطع مدده عنك حتى تحتاج إلى طلبه من مَظِنته لعلمت إحسان الجائى به إليك ، والجالب المقرب نيله عليك ، ولأكثرت من شكره بعد أن أقللت ، وأخذت نفسك بتلافى ما أهملت . وكذلك رُبَّ شىء نال فوق ما يستحقه من شغف النفوس به ؛ وأكثر مما توجبه المنافع الراجعة [٦] إليه ، لأنه [٧] لا يتسع اتساع الأول الذى فوائده أعم وأكثر ، ووجود العوض عنه عند الفقد

---

(١) المشهور أنها لداود عليه السلام أو لكعب بن لؤى .

(٢) ما يستعمل من الثياب فى عامة الأوقات وينزع وقت الزينة .

(٣) نية شطون بعيدة وشطنت الدار بعدت قال النابغة :

نأت بسعاد عنك نوى شطون ... فبانت والفؤاد بها رهين

(٤) المفاوز لا ماء فيها مع الاستواء والسعة مفردها فيف وفيفاة وفيفاء ومن الجموع أفياف وفيوف وعرضها سعتها .

(٥) وفى هذا المعنى قيل :

عرضنا أنفسا عزت علينا ... عليكم فاستخف بها الهوان

ولو أنا منعناها لعزت ... ولكن كل معروض يهان

(٦) العائدة .

(٧) تعليل لنيله فوق ما يستحقه .

أعسر ، فكسبت عزةُ الوجود هذا عزا لم يستحقه بفضله ، كما منعت سعة الآخر فضلا هو ثابت له فى أصله .

ويتصل (١) بهذا الموضع حديث عبد الرحمن (٢) بن حسان ، وذلك أنه رجع إلى أبيه حسان وهو صبي يبكى ويقول « لسعنى طائر » فقال حسان صفه يابنى فقال كأنه مُلتفٌّ فى بُرْدَىْ حِبرَة (٣) وكان لسعه زنبور فقال حسان قال ابنى الشعر ورب الكعبة أفلا تراه جعل هذا التشبيه مما يستدل به على مقدار قوة الطبع ، ويجعل عياراً فى الفرق بين الذهن المستعد للشعر وغير المستعد له ، وسره ذلك من ابنه كما سره نفس الشعر حين قال (٤) فى وقت آخر .

الله يعلم أنى كنت منتبذاً فى دار حسان أصطاد اليعاسيبا (٥)

(فإن قلت) إن التشبيه يتصور فى مكان الصبغ والنقش العجيب ولم يعجب حسانَ هذا وإنما أعجبه قوله « ملتف » وحسنُ هذه العبارة إذ لو قال : طائر فيه كوشى الحبرة ، لم يكن له هـذا الموقع فهو إن يكن مشبهاً ما أنت فيه فمن حيث دلالته على الفطنة فى الجملة (قيل) مسلم لك إن نكتة الحسن فى قوله ملتف ولكن لايسلم أنه خارج من الغرض بل هو عين المراد من

(١) هذا ايضاح لقوله فيما سبق وأرجى ليخرج من تقوله .

(٢) اختلف فى صحابته وأمه سيرين أخت مارية القبطية فهو ابن خالة ابراهيم ابن النبي عليه الصلاة والسلام وهو شاعر مجيد يلقب بأبى سعيد .

(٣) ضرب من برود اليمن مخطط .

(٤) وذلك أن معلمه عاقب الصبيان على ذنب وأراده بالعقوبة فقال ذلك ورواية الحيوان مشتغلا بدل منتبذا .

(٥) الانتباذ التنحي واليعاسيب جمع يعسوب طائر أصغر من الجراد تشبه به الخيل الضمر .

التشبيه وتمامه فيه . وذلك أنه يفيد الهيئة الخاصة فى ذلك الوشى والصبغ وصورة الزنبور فى اكتسائه بهما ويؤدى الشبه كما مضى من طريق التفصيل دون الجملة ، فما ظننت أنه يبعده عما نحن بصدده هو الذى يدنيه منه ، ولقد نفيت العيب من حيث أردت إثباته .

فصل

فى التشبيه المتعدد والفرق بينه وبين المركب

اعلم أنى قد قدمت بيان المركب من التشبيه وههنا مايذكر مع الذى عرفتك أنه مركب ويقرن إليه فى الكتب (١) وهو على الحقيقة لايستحق صفة التركيب ولايشارك الذى مضى ذكره فى الوصف الذى كان له تشبيهاً مركباً وذلك أن يكون الكلام معقوداً على تشبيه شيئين بشيئين ضربة واحدة إلا أن أحدهما لايداخل الآخر فى الشبه ومثاله قول (٢) امرئ القيس :

كأن قلوب الطير رطباً ويابساً لدى وكرها العناب والحشف البالى

وذلك أنه لم يقصد إلى أن يجعل بين الشيئين اتصالا وإنما أراد اجتماعاً فى مكان فقط . كيف ولا يكون لمضامة الرطب من القلوب إلى اليابس هيئة

(١) كالصناعتين والكامل والأغانى والوساطة .

(٢) من قصيدته التى مطلعها :ـ

ألا عم صباحا أيها الطلل البالى وهل يعمن من كان فى العصر الخالى

والبيت فى وصف عقاب بكثرة اصطيادها للطيور وقبله فى وصف فرسه وتشبيها بالعقاب فى شدة الهوى وسرعة الكر .

كأنى بفتخاء الجناحين لقوة على عجل منها أطأطئ شملالى

تخطف خزان الشربة بالضحى وقد حجرت منها ثعالب أورال

والفتخاء اللينة الجناحين واللقوة الخفيفة السريعة والشربة بفتح الشين والراء وتشديد الباء موضع وحجر منع والخزان جمع خزز كصرد ذكر الأرانب .

يقصد ذكرها ، أو يُعنى بأمرها ، كما يكون ذلك لتباشير الصبح فى أثناء الظلماء [١] ، وكون الشقيقة على قامتها الخضراء [٢] ، فيؤدى ذلك الشبه الحاصل من مداخلة أحد المذكورين الآخرَ واتصاله به اجتماع الحشف البالى والعناب ، كيف ولا فائدة لأن ترى العناب مع الحشف أكثر من كونهما فى مكان واحد . ولو أن اليابسة من القلوب كانت مجموعة ناحية والرطبة كذلك فى ناحية أخرى لكان التشبيه بحاله . ولذلك لو فرقت التشبيه ههنا فقلت كأن الرطب من القلوب عناب وكأن اليابس حشف بال لم تر أحد التشبيهين موقوفاً فى الفائدة على الآخر وليس كذلك الحكم فى المركبات التى تقدمت .

وقد يكون فى التشبيه المركب ما إذا فضضت تركيبه وجدت أحد طرفيه يخرج عن أن يصلح تشبيها [٣] لما كان جاء فى مقابلته مع التركيب بيان ذلك أن الجلال فى قوله « كطرف أشهب ملقى الجلال » فى مقابلة الليل وأنت لو قلت : كأن الليل جلال وسكتَّ لم يكن شيئا .

وقد يكون الشىء منه إذا فض تركيبه استوى التشبيه فى طرفيه إلا أن الحال تتغير ومثال ذلك قوله :

وكأن أجرام النجوم لوامعا درر نثرن على بساط أزرق

فأنت وإن كنت إذا قلت كأن النجوم درر وكأن السماء بساط أزرق وجدت التشبيه مقبولا معتاداً مع التفريق فإنك تعلم بعد ما بين الحالتين ، ومقدار الإحسان الذى يذهب من البين ، وذلك أن المقصود من التشبيه

---

(١) كما تقدم من قول ابن المعتز غدا والصبح تحت الليل باد الخ ...

(٢) كما تقدم من قوله وكأن محمرا الشقيق الخ ...

(٣) الصواب شبيهاً .

أن يريك الهيئة التى تملأ النواظر عجبا ، وتستوقف العيون وتستنطق القلوب بذكر الله تعالى : من طلوع النجوم مؤتلفة مفترقة فى أديم السماء وهى زرقاء وزرقتها [1] الصافية التى تخدع العين والنجوم تلألأ وتبرق فى أثناء تلك الزرقة. ومن لك بهذه الصورة إذا فرقت التشبيه وأزلت عنه الجمع والتركيب ؟ وهذا أظهر من أن يخفى .

وإذ قد عرفت هذه التفاصيل فاعلم أن ماكان من التركيب فى صورة بيت امرىء القيس فإنمـا يستحق الفضيلة من حيث اختصار اللفظ وحسن الترتيب فيه لا لأن للجمع فائدة فى عين التشبيه . ونظيره أن للجمع بين عدة تشبيهات فى بيت كقوله [2] :

بدت قمراً وماست خوط بان ۔۔۔ وفاحت عنبراً ورنت غزالا

مكانا من الفضيلة مرموقا ، وشأواً ترى فيه سابقاً ومسبوقا ، لا أن حقائق التشبيهات تتغير بهذا الجمع ، أو أن الصور تتداخل وتتركب وتأتلف ائتلاف الشكلين يصيران إلى شكل ثالث ، فكونُ قدها كخوط البان ، لا يزيد ولا ينقص فى شبه الغزال حين ترنو منه العينان . وهكذا الحكم فى أنها تفوح فوح العنبر ، ويلوح وجهها كالقمر . وليس كذلك بيت بشار «كأن مثار النقع» لأن التشبيه هناك كما مضى مركب وموضوع على أن يريك الهيئة التى ترى عليها النقع المظلم والسيوف فى أثنائه تبرق وتومض ، وتعلو

---

(١) الصواب حذف الواو وإعراب زرقتها مفعول مطلق لزرقاء .

(٢) أى المتنبى من قصيدة مطلعها :ـ

بقائى شاء ليس هم ارتحالا ۔۔۔ وحسن الصبر زموا لا الجمالا

وقبله : بجسمى من برته فلو أصارت ۔۔۔ وشاحى ثقب لؤلؤة لجالا

ولولا أننى فى غير نوم ۔۔۔ لبت أظننى منى خيالا

وتنخفض ، وترى لها حركات من جهات مختلفة كما يوجبه الحال حين يحمى الجلاد . وتركض (١) بفرسانها الجياد ، كما أن قول (٢) رؤبة مثلا :

فيها خطوط من سواد وَبَلَق ... كأنها فى الجلد توليع البَهَق (٣)

ليس القصد فيه أن يريك كل لون على الانفراد وإنما القصد أن يرى الشبه من اجتماع اللونين . وقول البحترى (٤) :

ترى أحجاله يصعدن فيه ... صعود البرق فى الغيم الجهام (٥)

لا يريد به تشبيه بياض الحجول على الانفراد بالبرق بل المقصود الهيئة الخاصة الحاصلة من مخالطة أحد اللونين الآخر ، كذلك اللون (٦) المقصود فى بيت بشار بتشبيه النقع بالليل من جانب ، والسيوف بالكواكب من جانب ، ولذلك وجب الحكم كما كنت ذكرت فى موضع بأن الكلام إلى قوله

---

(١) تضطرب .

(٢) من أرجوزته المشهورة التى أولها :

وقاتم الأعماق خاوى المخترق ... مشتبه الأعلام لماع الخفق

إلى أن قال يصف حمرا وحشية فيها خطوط الخ ... وقد أورده فى الكشاف فى سورة البقرة عند قوله تعالى (عوان بين ذلك) ورواه كأنه فى الجلد .

(٣) التوليع استطالة البلق والبهق بالتحريك بياض رقيق فى البشرة .

(٤) فى وصف فرس استهداه من عبد الله بن طاهر ومطلع القصيدة :

غرام ما أتيح من الغرام ... وشجو للمحب المستهام

عشيت عن المشيب غداة أصبو ... بذكرك أو صممت عن الملام

وقبله . أراجعتى يداك بأعوجى ... كقدح النبع فى الريش اللؤام

بأدهم كالظلام أغر يجلو ... بغرته دياجير الظلام

تقدّم فى العنان فمدّ منه ... وضمر فاستزاد من الحزام

(٥) الجهام السحاب لاماء فيه وقوله فيه أى فى الفرس المحجل .

(٦) أى إنه ليس بمراد لبشار بل مراده الهيئة .

« وأسيافنا » فى حكم الصلة للمصدر [١] وجار مجرى الاسم الواحد لئلا يقع فى التشبيه تفريق ويتوهم أنه كقولنا : كأن مثار النقع ليل وكأن السيوف كواكب . ونصب [٢] الأسياف لا يمنع من تقدير الاتصال ولا يوجب أن يكون فى تقدير الاستئناف ، لأن الواو فيها بمعنى « مع » كقوله [٣] : « فإنى وقيّار بها لغريب » وقوله : « كل رجل وضيعته » وهى إذا كانت بمعنى مع لم يكن فى معطوفها الانقطاع وأن يكون الكلام فى حكم جملتين . ألا ترى أن قولهم « لو تركت الناقة وفصيلها لرضعها » لا يكون بمنزلة أن تقول لو تركت الناقة ولو ترك فصيلها فتجعل الكلام جملتين . وكذا لا يمكنك أن تقول كل رجل كذا وضيعته كذا ، فتفرق الخبر عنهما ، كما يجوز فى قولك زيد وعمرو كريمان ، أن تقول : زيد كريم وعمرو كريم . وهذا موضع غامض وللكلام فيه موضع آخر .

وإن أردت أن تزداد تبييناً لأن التشبيه إذا كان معقوداً على الجمع دون التفريق كان حال أحد الشيئين مع الآخر حال الشيء فى صلة الشيء وتابعا له ومبنيا عليه حتى لا يتصور إفراده بالذكر فالذى [٤] يفضى بك إلى معرفة ذلك أنك تجد فى هذا الباب إذا فرق لم يصلح للتشبيه بوجه كقوله [٥] :

---

(١) سواء أكان لفظ مثار مصدرا أو اسم مفعول لأن قيد اسم المفعول قيد لمصدره وإنما زاد لفظ حكم لأنه ليس معمولا لمثار لأنه مفعول معه والعامل فيه معنى التشبيه المستفاد من كأن ولكنه قيد له فيكون فى حكم الصلة له .

(٢) يريد أن النصب ليس باعتبار العطف على اسم كأن حتى يكون تشبيها مستقلا بل باعتبار أنه مفعول معه .

(٣) هو ضابئ البرجمى وصدره (ومن يك أمسى بالمدينة رحله) .

(٤) جواب إن .

(٥) هو القاضى التنوخى أبو القاسم علىّ بن محمد بن داود الأنطاكى ينتهى نسبه =

كأنما المريخ والمشترى قدامه فى شامخ الرفعة [1]
منصرف بالليل عن دعوة قد أسرجتْ قدامه شمعه

لو قلت كأن المريخ منصرف بالليل عن دعوة وتركت حديث المشترى والشمعة كان خَلْفاً من القول . وذاك أن التشبيه لم يكن للمريخ من حيث هو نفسه ولكن من حيث الحالة الحاصلة له من كون المشترى أمامه . وأنت وإن كنت تقول المشترى شمعه [2] على التشبيه العامى الساذج فى قولهم كأن النجوم مصابيح وشموع فإنه لم يضع التشبيه على هذا وإنما قصد الهيئة التى يكتسبها المريخ من كون المشترى أمامه . وهكذا قول ابن المعتز [3] :

كأنه وكأن الكأس فى فمه هلال أول شهر غاب فى شفق

لم يقصد أن يشبه الكأس على الانفراد بالهلال والشفة بالشفق بل أراد

= إلى تنوخ من قضاعة وكان عالما بأصول المعتزله والنجوم واللغة والفقه والنحو واشتهر بالفلسفة والكلام والمنطق تولى قضاء البصرة والاهواز وتوفى سنة ٣٤٢ وهو شاعر مكثر له ديوان شعر مفقود .

(١) المريخ فعيل من المرخ وهو الاسترخاء واللين وسمى به لأن لونه فيه اضطراب ولين فى رأى العين ورواية اليتيمة .

* قـــد أسرجو أقدامه شمعه *

ونظيره قول أبى عتيق السفار :

وكأن البدر والمريخ إذ وافى إليه ملك توقد ليلا شمعة بين يديه

(٢) فى اللسان الشمع بالتحريك ويسكن لغتان فصيحتان وجمعه شموع والواحدة شمعة بالتحريك وجمعها شمعات .

(٣) قبله :

أباح عينى لطول الليل والأرق وصاح إنسانها فى الدمع بالفرق
ظبى تخلى من الأحزان أوترة ما يعلم الله من حزن ومن أرق

ورواية البيت فى الديوان هكذا :

كأنه وكأن الكأس فى يده هلال تم ونجم غاب فى شفق

أن يشبه بمجموع الصورتين ، ألا ترى أنك لو فرقت لم تحل [1] من التشبيه بطائل ؟ إذ لا معنى لأن تقول : كأن الشفة شفق ، وتسكت ألا ترى أن قوله [2] :

بياض فى جوانبـــه احمرار كما احمرت من الخجل الخدود

لم يستوجب الفضل والخروج من التشبيه العامى وأن يقال قد زاد زيادة لم يسبق إليها إلا بالتركيب والجمع ، وبأن ترك أن يراعى الحمرة وحدها ؟ .

وقال القاضى [3] أبو الحسن رحمه الله لو اتفق له أن يقول : احمرار فى جوانبه بياض ، لكان قد استوفى الحسن وذلك لأن خد الخجل هكذا يحدق البياض فيه بالحمرة لا الحمرة بالبياض ، إلا أنه لعله وجد الأمر كذلك فى الوردة فشبه على طريق العكس فقال هذا البياض حوله الحمرة كالحمرة حولها البياض هناك . فانظر الآن إن فرقت كيف يتفرق عنك الحسن والإحسان ، ويحضر العى ويذهب البيان ، لأن تشبيه البياض على الانفراد لا معنى له ، وأما تشبيه الحمرة وإن كانت تصح على الطريقة الساذجة أعنى تشبيه الورد الأحمر بالخد فإنه يفسد من حيث إن القصد إلى جلس من الورد مخصوص وهو ما فيه بياض يحدق به حمرة . فيجب أن يكون وصف المشبه على هذا الشرط أيضاً .

---

(١) يقال ما حليت منه بطائل أى لم استفد فائدة .

(٢) هو ابن المعتز وقبله :

أتاك الورد محبوباً مصونا كمعشوق تكنفه الصدود

كأن وجوهه لما توافت نجوم فى مطالعها سعود

(٣) أى فى كتاب الوساطة ولفظه : ولو اتفق له أن يقول حمرة فى جوانبها بياض لكان قد طبق المفصل وأصاب الغرض ووافق شبه الخجل لكن أراد أن البياض والحمرة يجتمعان فجعل الاحمرار فى جوانب البياض فراغ عن موقع التشبيه

وبهذا الاختصاص وكما ذكرت لك تجد أحد المشبهين فى الأمر الأعم الأكثر وقد ذكر فى صلة الآخر ولم يعطف عليه كقوله [١]

« والشيب ينهض فى الشباب » و « بياض فى جوانبه احمرار » وأشباه ذلك . فإن جاءت « الواو » كانت واو حال كقوله :

كأنما المريخ والمشترى قدامه فى شامخ الرفعه

وهى إذا كانت حالية فهى كالصفة فى كونها تابعة وبحيث لا ينفرد [٢] بالذكر بل يذكر فى ضمن الأول وعلى أنه من تبعه وحاشيته .

وهكذا الحكم فى الطرف الآخر ألا ترى قوله : « ليل تهاوى كواكبه » فتهاوى كواكبه : جملة من [٣] الصفة لليل . وإذا كان كذلك فالكواكب مذكورة على سبيل التبع لليل ، ولو كانت مستبدة بشأنها لقلت : ليل وكواكب . وكذلك قوله : « ليل يصيح بجانبيه نهار » [٤]

وأشد من ذلك أن يجىء (كما) [٥] فى الطرف الثانى كقوله « كما احمرت من الخجل الخدود » وبيت امرىء القيس على خلاف هذه الطريقة لأن أحد الشيئين فيه فى الطرفين معطوف على الآخر ، أما فى طرف الخبر وهو طرف المشبه به فبين وهو قوله « العناب والحشف البالى » وأما فى طرف المخبر عنه وهو المشبه فإنك وإن كنت ترى اسما واحداً وهو القلوب فإن الجمع الذى تفيده الصيغة فى المتفق ، يجرى مجرى العطف فى المختلف ، فاجتماع

---

(١) أى الفرزدق وتمامه ما سيأتى بعد وهو (ليل يصيح بجانبيه نهار) .

(٢) الضمير يعود إلى أحد المشبهين .

(٣) الصواب هى صفة لليل .

(٤) من قولهم صاح العنقود إذا استتم خروجه من كمه وطال .

(٥) يريد لفظ « ما » المصدرية إذا اتصلت بها كاف التشبيه .

شيئين أو أشياء فى لفظ تثنيه أو جمع لا يوجب أن أحدهما [١] فى حكم التابع للآخر كما يكون ذلك إذا جرى الثانى فى صفة الأول أو حاله أو ما أشبه ذلك . هذا وقد صرح بالعطف فى البدل وهو المقصود فقال رطبا ويابسا.

واعلم أنه قد يجىء فى هذا الباب [٢] شىء له حد آخر وهو نحو قوله [٣] :

إنى وتزيينى بمدحى معشراً   كمعلق دراً على خــــنزير

هو على الجملة جمع بين شيئين فى عقد تشبيه إلا أن التشبيه فى الحقيقة لأحدها ألا ترى أن المعنى على أن فعله فى التزيين بالمدح كفعل الآخر فى محاولته تزيين الخنزير بتعليق الدر عليه . ووجهُ الجمع أن كل واحد منهما يضع الزينة حيث لا يظهر لها أثر لأن الشىء غير قابل للتحسين ، ومتى كان المشبه به كمعلق فى البيت فلا شك أن التشبيه لا يرجع إلى ذات الشىء بل إلى المعنى المشتق منه الصفة . وإذا رجع إليه رجع إليه مقروناً بصفته على نحو ما مضى فى نحو « مازال يفتل فى الذروة والغارب » فقد شبه تزيينه بالمدح من ليس من أهله بتعليق الدر على الخنزير هكذا بجملته لا بالتعليق غير معدى إلى الدر والخنزير ، فالشبه مأخوذ من مجموع المصدر وما فى صلته ، ولابد للواو فى هذا النحو أن تكون بمعنى مع ، وأمرها فيه أبين ، إذ لا يمكن أن يقال إنى كذا وإن تزيينى كذا لأنه ليس معنا شيئان يكون أحدهما خبراً عن ضمير المتكلم فى « إنى » الذى هو المعطوف عليه والآخر عن « تزيينى » المعطوف كما يكون فى نحو بيت بشار شيئان يمكن فى ظاهر اللفظ أن يجعل أحدهما خبراً عن النقع والآخر عن الأسياف إلى أن تجىء إلى فساده من جهة

---

(١) أى أو أحدها .

(٢) أى باب التشبيه المركب .

(٣) هو ابن الرومى .

المعنى . فأنت فى نحو « إنى وتزيينى » ملجأ إلى جعل الواو بمعنى مع من كل وجه حتى لا تقدر على إخراج الكلام إلى صورة تكون فيها الواو عارية من معنى مع ويكون تشبيهاً بعد تشبيه .

فإن قلت إن فى « مُعلق » معنى الذات والصفة معاً فيمكن أن يكون أراد أن يشبه نفسه بذات الفاعل وتزيينه بالفعل نفسه . أقول لو أريد : إنى كمعلق دراً على خنزير ، وإن تزيينى بمدحى معشراً كتعليق در على خنزير كان قولا ظاهر السقوط لما ذكرت من أنه لا يتصور أن يشبه المتكلم نفسه من حيث هو زيد مثلا بمعلق الدر على الخنزير من حيث هو عمرو ، وإنما يشبه الفعل بالفعل فاعرفه .

فإن قلت فما تقول فى قوله : [1]

وحتى حسبتُ الليل والصبح إذ بدا   حِصانين مختالين جَونا وأشقرا

فإن ظاهره إنه من جنس المفرق ؟ أقول نعم إلا أن ثمة [2] شيئا من الحسن وهو أن لاقتران الحصانين الجون والأشقر فى الاختيال ضربا من الخصوصية فى الهيئة لكنه لا يبلغ مبلغ « ليل تهاوى كواكبه » ولا يبلغ [3] قوله [4] « والصبح مثل غرة فى أدهم » كما أن قوله : [5]

---

(١) أى ابن المعتز ومطلعها :-

أيا ويحه ماذنبه أن تذكرا   سوالف أيام سبقن وآخرا
وسكرة عيش فارغ من همومه   ومعروف حال لم نخف أن ينكرا

وقبله: فبادرته قبل الصباح بسابح   جواد كما شاء الحسود وأكثرا

(٢) الظاهر فيه بدل ثمة .   (٣) الصواب مبلغ .

(٤) أى ابن المعتز .

(٥) أى المتنبى من قصيدة يمدح بها القاضى أحمد بن عبد الله الأنطاكى ومطلعها :-

لك يامنازل القلوب منازل   أقفرت أنت وهن منك أواهل

دون التعانق ناحلين كَشَكلَى   نصب أدقَّهما وضمَّ الشاكل

لايكون كقوله [١]

إنى رأيتك فى نومى تعانقنى   كما تعانق لام الكاتب الألفا

فإن هذا قد أدى إليك شكلا مخصوصا لا يتصور فى كل واحد من المذكورين على الانفراد بوجه [٢] ، وصورة [٣] لا تكون مع التفريق وأما المتنبى فأراك الشيئين فى مكان واحد وشدد فى الفرق بينهما . وذاك أنه لم يعرض لهيئة العناق ، ومخالفتها صورة الافتراق ، وإنما عمد إلى المبالغة فى فرط النحول واقتصر من بيان حال المعانقة على ذكر الضم مطلقا . والأول [٤] لم يُعن بحديث الدقة والنحول وإنما عنى بأمر الهيئة التى تحصل فى العناق خاصة من انعطاف أحد الشكلين على صاحبه والتفاف الحبيب بمحبه كما قال [٥]

« لف الصبا بقضيب قضيبا »

---

(١) هو بكر بن النطاح الحنفى فى غلام نصرانى كان يهواه وقبله :-

يامن إذا درس الإنجيل ظل له   قلب التقى عن القرآن منصرفا

ورواية الأمالى للبيت هكذا :-

رأيت شخصك فى نومى يعانقنى   كما يعانق لام الكاتب الألفا

ونظيره قول أبى المطاع ذى القرنين بن ناصر الدولة بن حمدان :-

إنى لأحسد «لا» فى أسطر الصحف   إذا رأيت اعتناق اللام والألف

وما أظنهما طال اجتماعهما   إلا لما لقيا من شدة الشغف

(٢) متعلق بقوله لا يتصور .

(٣) عطف على قوله شكلا .

(٤) أى السابق فى الزمن .

(٥) أى البحترى من قصيدة يمدح الفتح بن خاقان ومطلعها :-

لوت بالسلام بنانا خضيبا   ولحظا يشوق الفؤاد الطروبا

وزارت على عجل فاكتسى   لرؤيتها أبرق الحزن طيبا

وأجاد وأصاب الشبه أحسن إصابة لأن خطى اللام والألف فى «لا» ترى رأسيهما فى جهتين وتراهما قد تماسا من الوسط وهذه هيئة المعتنقين على الأمر المعروف . فأما قصد المتنبي فليس بصفة عناق على الحقيقه وإنما هو تضام وتلاصق وهو بنحو قوله :[1]

ضممته ضمة عدنا بها واحداً ... فلو رأتنا عيون ماخشيناها

أشبه ، لأن القصد فى مثله شدة الالتصاق ، من غير تعريج على هيئة الاعتناق ، وذهب القاضى فى بيت المتنبي إلى أنه كأنه معنى مفرد غير مأخوذ من قوله «كما تعانق لام الكاتب الألفا» ، وقال ولئن كان أخذه كما يقولون فليس عليه بعتب ، لأن التعب فى نقله ليس بأقل من التعب فى ابتدائه .

وهذا التفضيل والتفصيل من قول القاضى ليس قادحاً فى غرضى لأنى أردت أن أريك مثالا فى وضع التشبيه على الجمع والتفريق واجعل البيتين معياراً فيما أردت . ولئن كان المتنبي قد زاد على الأول فليس تلك الزيادة من حيث وضع الشبه على تركيب شكلين ولكن من جهة أخرى وهى الإغراق فى الوصف بالنحول وجمع ذلك للخلين معاً ثم إصابة مثال له ونظير من الخط فاعرف ذلك ، ولا تظن أن قصدى المفاضلة بين البيتين من حيث القول

(١) هو أبو إسحق الفارسى من عصر الدولة البويهية وصحة إنشاده هكذا :-

ضممته ضمة عدنا بها جسدا ... فلو رأتنا عيون ماخشيناها

وهى كذلك فى الوساطة وديوان المتنبي وبها يتزن عروضه . ولصبرى باشا :

ولما التقينا قرب الشوق جهده ... خليلين ذابا لوعة وعتابا
كأن صديقا فى خلال صديقه ... تسرب أثناء العناق وغابا

إلى أن قال :

ولم أنس ليلتنا فى العنا ... ق لف الصبا بقضيب قضيبا
سكوت يحير عليه الهوى ... شكوى تهيج البكا والنحيبا

بين السابق والمسبوق والأخذ والسرقة فتحسب أنى خالفت القاضى فيما حكم به .

فصـــل

«هذا فن غير ما تقدم فى الموازنة بين التشبيه والتمثيل»

اعلم أنى قد عرفتك أن كل تمثيل تشبيه وليس كل تشبيه تمثيلا وثبت وجه الفرق بينهما . وهذا أصل إذا اعتبرته وعرضت كل واحد منهما عليه فوجدته يجىء فى التشبيه مجيئاً حسناً وينقاد القياس فيه انقياداً لا تعسف فيه ثم صادفته لا يطاوعك فى التمثيل تلك المطاوعة ولا يجرى فى عنان مرادك ذلك الجرى؛ ظهر لك نوع من الفرق والفصل بينهما غير ما عرفت ، وانفتح منه باب إلى دقائق وحقائق وذلك جعل الفرع أصلا والأصل فرعاً وهو إذا استقريت التشبيهات الصريحة وجدته يكثر فيها . وذلك نحو أنهم يشبهون الشىء فيها بالشىء فى حال ثم يعطفون على الثانى فيشبهونه بالأول؛ فترى الشىء مشبهاً مرة ومشبهاً به أخرى .

فمن أظهر ذلك أنك تقول فى النجوم كأنها مصابيح [1] ثم تقول فى حالة أخرى فى المصابيح كأنها نجوم [2] ، ومثله فى الظهور والكثرة تشبيه الخد [3]

---

(١) كقول امرئ القيس من قصيدته المتقدمة :

نظرت إليها والنجوم كأنها مصابيح رهبان تشب لقفال

وقول ذى الرمة :

وردت وأرداف النجوم كأنها قناديل فيهن المصابيح تزهر

وقول خندج المرى :

نجومه ركد ليست بزائلة كأنما هن فى الجو القناديل

(٢) كقوله تعالى «الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح فى زجاجة الزجاجة كأنها كوكب درى»

(٣) كقول ابن سكرة الهاشمى :-

=

بالورد والورد بالخد [١] وتشبيه الروض المنور بالوشى [٢] المنمنم ونحو ذلك . ثم تشبه النقش والوشى فى الحلل بأنوار الرياض [٣] وتشبه العيون بالنرجس ثم تشبه النرجس بالعيون كقول أبى نواس [٤] :

لدى نرجس غضّ القطاف كأنه إذا ما منحناه العيونَ عيون

وكذلك تشبيه الثغر بالأقاحى [٥] ثم تشبيهها بالثغر كقول ابن المعتز [٦] :

= الغصن منسوب إلى قده والورد منثور على خده
بدر يودّ البدر فى حسنه بأن يعزى إلى عبده

وقول ابن الرومى :

كأن تلك الدموع قطر ندى يقطر من نرجس على ورد

(١) كقول البحترى :

شقائق يحملن الندى فكأنه دموع التصابى فى خدود الخرائد

(٢) كقول ابن المعتز فى وصف بستان :

أما ترى البستان كيف نورا ونشر المنثور بردا أصفرا

وقول التنوخى فى وصف الرّياض .

ورياض حاكت لهنّ الثريا حللا كان غزلها للرعود

وقول الحمانى :

دمن كأن رياضها يكسين أعلام المطارف

(٣) كقول كشاجم :

وكأن مجلسنا المفوف فرشه نور الرياض لبسن منه برودا

وقول آخر :

ترى الرقم والديباج فى بيته معا كما زين الروض الأنيق حدائقه

(٤) من قطعة أولها :

وذى حلف فى الراح قلت له اصطبح فليس على أمثال تلك يمين
كميتا تخطاها الزمان فقد أتت سنون لها فى دنها وسنون

وبعده : مخالفة أشكالهن فصفرة مكان سواد والبياض جفون

(٥) الأقاحى بالتشديد والأقاح جمع أقحوان بالضم زهر له أوراق بيض مستطيلة ووسطه أصفر ومنه نوع صغير ليس له ورق وله رائحة قوية يسمى البابونج .

(٦) من أرجوزة بستانية منها : =

والأقحوان كالثنايا الغُرّ قد صقلت أنواره بالقطر

وقول التنوخى [(١)] :

أقحوان معانق لشقيق كثغور تعضّ ورد الخدود

وبعده وهو تشبيه النرجس بالعيون :

وعيون من نرجس تتراءى كعيون موصولة التسهيد

وكما يشبهون السيوف عند الانتضاء بعقائق البروق كما قال [(٢)] ثم يعودون فيشبهون البرق بالسيوف المنتضاة كما قال ابن المعتز يصف سحابة [(٣)] :

وسارية لا تملُّ البكا جرى دمعها فى خدود الثرى

سرت تقدح الصبح فى ليلها ببرق كهندية تُنتضى

= أما ترى البستان كيف نورا ونشر المنثور بردا أصفرا
وضحك الورد إلى الشقائق واعتنق الورد اعتناق الوامق

وقبله : وجلنار كاحمرار الورد أو مثل أعراف ديوك الهند

(١) وقبله .

ورياض حاكت لهن الثريا حللا كان غزلها للرعود
نثر الغيث در دمع عليها فتحلى بمثل در العقود

(٢) هو عنترة فى وصف سيفه وهو من قطعة يخاطب بها عمارة بن زياد العبسى وكان قد تهدده فى غيبته وأولها :

أحولى تنفض استك مذرويها لتقتلنى فهأنذا عمارا

وقد سقط بيت الشاهد من النسخة وهو :

وسيفى كالعقيقة وهو كمعى سلاحى لا أفل ولا فطارا

والكمع بزنة حمل الضجيع والفطار ما فيه تشقق .

(٣) وبعدهما :ـ

فلما دنت جلجلت فى السما ء رعدا أجش كجرس الرحى
ضمان عليها ارتداء اليفاع بأنوارها واعتجار الربى
فما زال مدمعها باكيا على الترب حتى اكتسى ما اكتسى

وكقول الآخر (١) يصف نار السذق .

وما زال يعلو عجاج الدخان إلى أن تكوّن منه زُحل
وكنا نرى الموج من فضة مُذَهَّبة النور حين اشتعـــل
شراراً يحاكى انقضاض النجوم وبرقا كإيماض بيض تسل

ومن لطيفه قول على بن محمد بن جعفر (٢) :

---

(١) هو أبو الحسن محمد بن عبد الله المخزومى السلامى نسبة إلى دار السلام وهى بغداد ومن أشهر أهل العراق وقال الشعر وهو ابن عشر سنين وكانت أمه شاعرة توفى سنة ٣٢٤ والبيت من قصيدة سذقية والسذق عيد للفرس يسمى أبان رموز وهو فى الحادى من شهر بهمن ماه نحو ١٣ نوفبر وسنتهم فيه إيقاد النيران العظيمة بسائر الأدهان ويلقون فيها أنواع الحبوب وسبب ذلك أن الأب الأول عندهم وهو كيومرت لما كمل له مائة ولد زوج البنات للبنين وصنع لهم عرسا أكثر فيه من إيقاد النيران فصار ذلك سنة عندهم والأبيات مصحفة وصحة إنشادها هكذا كما فى اليتيمة :ـ

وما زال يعلو عجاج الدخان إلى أن تلوّن منه زحل
فكنا نرى الموج من فضة فذهبه النور حتى اشتعل

وقبلها : ولم نر بحرا جرى بالعقا ر ولا ذهبا صيغ منه جبل
إلى أن جرت دجلة فى الشعا ع وطنب بالنور أعلى القلل
سحاب الدخان وبرق الشرا ر ورعد الملاهى وغيث الجدل

وفى صبح الأعشى إنها ليلة السدق بالدال لا بالذال .

(٢) هو علىّ بن محمد بن جعفر الحمانى من بنى حمان بن كعب بن سعد الكوفىّ الشاعر العباسى المتوفى فى أواخر القرن الثالث عشر وصواب إنشاد البيت الأول هكذا :

دمن كأن رياضها يكسين أعلام المطارف

وقبل البيت الأخير بيتان هما :

باتت سواريها تمخـ ض فى رواعدها القواصف
ثم انبرت سحا كبا كية بأربعة زوارف

وقوله بأربعة : أى أربعة شئون وهى مجارى الدموع والذى فى القاموس أن الحشور =

دِمَنٌ كأن رياضها تسكين أعلام المطارف (١)
وكأنما غدرانها فيها عشور من مصاحف
وكأنما أنوارها تهتز فى نكباء عاصف (٢)
طـرر الوصائف يلتقيـ ـن بها إلى طرر الوصائف (٣)
وكأن لمع بروقها فى الجو أسياف المثاقف (٤)

المقصود البيت الأخير ولكن البيت إذا قطع عن القطعة كان كالكعاب تفرد عن الأتراب ، فيظهر فيها ذل الاغتراب ، والجوهرة لثمينة مع أخواتها فى العقد أبهى فى العين ، وأملأ بالزين ، منها إذا أفردت عن النظائر ، وبدت فذة للناظر .

ويشبهون الجواشن (٥) والدروع بالغدير يضرب الريح متنه فيتكسر ويقع فيه ذلك الشنج (٦) المعلوم كقوله (٧) :

= جمع العشير وهو جزء من عشرة وأن عواشر المصحف جمع العاشرة وهى حلقة التعشير وهو المناسب هنا فالظاهر فيها عواشر من مصاحف إلا إذا قدر مضاف أى كعلامات عشور والطرر جمع طرة وهى قطعة من النسيج توضع فى مقدم ناصية الجارية كالعلم تحت التاج، وثاقفه فثقفه غالبه فغلبه فى الحذق والمهارة .

(١) الدمن جمع دمنة وهى هنا الموضع القريب من الدار والمطارف جمع مطرف كنبر رداء مربع من الخز فيه أعلام .

(٢) النكباء ريح بين الصبا والشمال .

(٣) الوصائف جمع وصيفة وهى الجارية إذا تم قدها والمراد بها هنا الاغصان

(٤) المثاقف الملاعب بالسلاح .

(٥) الجواشن الدروع جمع جوشن .

(٦) الشنج بالتحريك التقبض من مس نار أو برد شديد .

(٧) هو أوس بن حجر بن عتاب كان من أوصف الشعراء للحمر الوحشية والسلاح لا سيما القوس . قال أبو عمرو بن العلاء : كان أوس فحل مضر حتى نشأ النابغة وزهير فأخملاه .

وبيضاء زَغْف نَثلة سُلمِيَّة لها رفرف فوق الأنامل من علُ (١)

وأشبرنيها الهالكى كأنها غدير جرت فى متنه الريح سلسل (٢)

وقال (٣) :

وسابغة من جياد الدرو ع تسمع للسيف فيها صليلا

كمتن الغدير زهته الدبور يجر المدجج منها فضولا (٤)

وقال البحترى (٥) :

يمشون فى زغف كأن متونها فى كل معركة متون نهاء (٦)

وهو من الشهرة بحيث لايخفى . ثم إنهم يعكسون هذا التشبيه فيشبهون

---

(١) الزغف الدرع الواسعة المحكمة ، والنثلة الدرع الطويلة وصواب الشطر الثانى «لها رفرف فوق الأنامل مرسل» والسلمية نسبة إلى سليم الذى جاء فى شعرهم اختصاره عن سليمان سماعا .

(٢) أشبرنيها أعطانيها والهالكى هنا الصيقل .

(٣) هو عبد القيس بن خفاف البرجمى شاعر جاهلىّ من قصيدة مطلعها :

صحوت وزايلى باطلى لعمر أبيك زيالا طويلا

فأصبحت لا نزقا باللحاء ولا للحوم صديق أكولا

إلى أن قال : وأصبحت أعددت للنائبا ت عرضا بريئاً وسيفاً صقيلا

ووقع لسان كحد السنا ن ورمحا طويل القناة عسولا

(٤) الدبور ريح غربية والمدجج اللابس السلاح والفضول الزيادة

(٥) من قصيدة يمدح بها أبا سعيد محمد بن يوسف الثغرى مطلعها :

زعم الغراب منبئ الأنباء أن الأحبة آذنوا بتناء

فاثلج ببرد الدمع صدرا واغرا وجوانحا مسجورة الرمضاء

وقبله : وعصائب يتهافتون إذا ارتمى بهم الوغى فى غمرة الهيجاء

مثل اليراع بدت له نار وقد لفته ظلمة ليلة ليلاء

(٦) النهاء أصغر محابس الماء الواحدة نهاءة وهى الغدير الصغير .

الغدران والبرك بالدروع والجواشن كقول البحترى [١] يصف البركة :

إذا زهتها الصبا أبدت لها حبكا   مثل الجواشن مصقولا حواشيها [٢]

ومن فاتن ذلك وفاخره ، لاستواء أوله فى الحسن وآخره ، قول أبى فراس الحمدانى [٣] :

انظر إلى زهر الربيع   والماء فى البرك البديع
وإذا الرياح جرت عليـ   ـه فى الذهاب وفى الرجوع
نثرت على بيض الصفا   ئح بيننا حلق الدروع

وتشبه أنوار الرياض بالنجوم كقوله [٤]

بكت السماء بها رذاذ دموعها   فغدت تبسم عن نجوم سماء

ثم تشبه النجوم بالنور كقوله [٥]

---

(١) يمدح المتوكل ويصف البركة ومطلعها :

ميلوا إلى الدار من ليلى نحييها   نعم ونسألها عن بعض أهليها

وقبله : يامن رأى البركة الحسناء رؤيتها   والآنسات إذا لاحت مغانيها
بحسبها أنها فى فضـل رتبتها   تعد واحـدة والبحر ثانيها
ما بال دجلة كالغيرى تنافسها   فى الحسن طوراً وأطواراً تباهيها

ورواية الديوان علتها الصبا .

(٢) زهتها علتها ، والصبا ريح شرقية ، والحبك بضمتين جمع حبيكة وهى الطريق فى الرمل .

(٣) وقد جلس يوما فى البستان (البديع) والماء يتدرج فى البرك وصواب إنشاء البيت الأول :

انظر إلى زهر الربيع   والماء فى برك البديع

(٤) هو البحترى من القصيدة السابقة فى مدح الثغرى .

(٥) أى البحترى فى مدح إسماعيل بن بلبل أبى الصقر ومطلعها :

إليك ما أنا من لهو ومن طرب   منيت منى بقلب غير منقلب
ردى على الصبا إن كنت فاعلة   إن الهوى ليس من شأنى ولا أربى =

قد أقذف العيس فى ليل كأن به   وشياً من النور أو روضاً من العشب

وكقول ابن المعتز : (١)

كأن الثريا فى أواخر ليلها   تفتح نور أو لجام مفضض

وقال : (٢)

وتوقد المريخ بين نجومها   كبهارة (٣) فى روضة من نرجس

وكذلك تشبه غرة الفرس الأدهم بالنجم أو الصبح ويجعل جسمه كالليل كما قال ابن المعتز :

جاء سليلا من أب وأم   أدهم مصقول ظلام الجسم

• قد سمرت جبهته بنجم (٤) •

وكما قال كاتب (٥) المأمون يصف فرسا .

= جاوزت حد الشباب النضر ملتفتا   إلى بنات الصبا يركض فى طلب

وقبله: والمرء لو كانت الشعرى له وطنا   حطت عليه صروف الدهر من صبب

(١) تقدم ذكره .

(٢) من قطعة أولها :

كم ليلة محمودة أحييتها   جاءت بأسعد طائر لم ينحس

بيضاء مقمرة لقاها صبحها   وثيابها فى ظلمة لم تدنس

وبعده كملت وتم نعيمها وسرورها   بأحب زائرة وأطيب مجلس

(٣) والمريخ : يمتاز باحمرار لونه والبهارة واحدة البهار بالفتح نبت طيب الريح .

(٤) رواية الديوان :

جاء سليلا من أب وأم   لا أقفلت من ولد بعقم

أدهم مصقول ظلام الجسم   منتعل بجندلات صم

قد سمرت جبهته بنجم

(٥) هو أبو الفضل عمر بن مسعدة بن صول أحد وزراء المأمون ومن أبلغ الكتاب يضرب به المثل فى جزالة اللفظ وقلته وصواب المعنى وكثرته وتوفى =

قـــد بعثنا بجواد مثـــله ليس يرام
فرس يزهى [١] به لا حسن سرج ولجام
وجهه صبح ولـكن سائر الجسم ظلام
والذى يصلح للمو لى على العبد حرام

وقال ابن نباتة [٢] :

وأدهم يستمد الليل منه وتطلع بين عينيه الثريا

ثم يعكس فيشبه النجم أو الصبح بالغرة فى الفرس كقول ابن المعتز [٣] .

والصبح فى طرة ليل مسفر كأنه غرة مهر أشقر

وتشبه الجوارى فى قدودهن بالسرو تشبيها عاميا مبتذلا . ثم إنهم قد جعلوا فيه الفرع أصلا فشبهوا السرو بهن كقوله [٤] :

= بأذنة سنة ٢١٦ وكان قد أهدى المأمون فرسا أدهم أغرّ لم يكن لأحد مثله فراهة وحسنا وكان قد بلغه خبره وعرف عمرو ذلك فخاف أن يؤمر بقوده إليه فلا يكون له محمدة فى ذلك فوجه به إليه وكتب :

يا إماما لا يدانيـــه إذا عد إمام
فضل الناس كما يفـــضل نقصانا تمام

(١) يزهى يتيه ويتكبر .
(٢) فى وصف فرس أدهم أغر محجل حمله عليه سيف الدولة أبو الحسن وسيأتى تمامها بعد .
(٣) فى وصف نجم الثريا فى حمرة الفجر ورواية زهر الآداب للأبيات هكذا :

قد أغتدى على الجياد الضمر والصبح قد أسفر أو لم يسفر
حتى بدا فى ثوبه المعصفر ونجمه مثل السراج الأزهر
كأنه غرة مهر أشقر

(٤) هو أحمد بن سليمان بن وهب الكاتب كان ناثراً ناظما بارعا فى فنون كثيرة ومن أسرة شهرت بالأدب توفى سنة ٢٨٥ .

حفت بسرو كالقيان ولحفت خضر الحرير على قوام معتدل [١]
فكأنهـا والريح حين تميلها تبغى التعانق ثم يمنعها الخجل

المقصود من البيت الأول ظاهر وفى البيت الثانى تشبيه من جلس الهيئة المجردة من هيئات الحركة وفيه تفصيل ظريف فاتن فقد راعى الحركتين حركة التهيؤ للدنو والعناق ، وحركة الرجوع إلى أصل الافتراق ، وأدى ما يكون فى الحركة الثانية من سرعة زائدة تأدية تحسب معها السمع بصراً تبييناً للتشبيه كما هو وتصويراً لأن حركة الشجرة المعتدلة فى حال رجوعها إلى اعتدالها أسرع لا محالة من حركتها فى خروجها من مكانها من الاعتدال ، وكذلك حركة من يدركه الخجل فيرتدع أسرع أبداً من حركته إذا هم بالدنو . فإزعاج الخوف والوجل ، أبداً أقوى من إزعاج الرجاء والأمل ، فمع الأول تمهل الاختيار [٢] ، وسعة الحوار [٣] ومع الثانى حفز الاضطرار ، وسلطان الوجوب . وأعود إلى الغرض .

ومن تشبيه السرو بالنساء قول ابن المعتز :

ظلِلت بملهى خيرَ يوم وليـلة تدور علينا الكأس فى فتية زُهر [٤]

---

(١) ضمير حفت يعود إلى الرياض ولحفت جملة حالية بتقدير قد ويظهر أن الأصل تلحفت وفى القاموس لحفه كمنعه غطاه بلحاف ونحوه فالشاعر قد عداه إلى المفعول الثانى بالتضعيف وهو قياسى والريح بالنصب مفعول معه ومثله قول الآخر

انظر إلى الأغصان كيف تعانقت وتفارقت بعد التعانق رجعا
كالصب حاول قبلة من إلفه ورأى المراقب فانثنى مسترجعا

(٢) الصواب الاختيار .

(٣) الحوار بالفتح ويكسر مراجعة الكلام .

(٤) رواية الديوان ظللت بنعمى والطرّة شعر الناصية والصدغ ما بين العين والأذن والشعر المتدلى على هذا الموضع وهو المراد هنا .

بكف غزال ذى عـــذار وطرة   وصدغين كالقافين فى طرفى سطر
لدى نرجس غض وسرو كأنه   قدود جوار مِلن فى أزر خضر

وتشبيه ثدى الكواعب بالرمان كقوله (١) .

ربما تبيت أناملى   يجنين رمان النحور

وقال المتنبى (٢) .

وقابلنى رمانتا غصن بانة   يميل به بدر ويمسكه حِقْف

وقوله (٣) :

---

(١) هو السلامىّ الذى تقدم ذكره من قصيدته التى مطلعها :

عدل الحبيب فمن يجور   ودنا فأين بنا يسير
عوضت من عيس تدو   ر بى الفلا كأسا تدور

(٢) من قصيدة يمدح بها أبا الفرج أحمد بن الحسين القاضى ومطلعها :

لجنية أم غادة رفع السجف   لوحشية لاما لوحشية شنف
نفور عرتها نفرة فتجاذبت   سوالفها والحلى والخصر والرّدف

(٣) هو النابغة الذبيانى ومن حديث ذلك أن النعمان بن وائل بن الجلاح الكلبى أغار على بنى ذبيان وسبا منهم سبيا كانت فيه عقرب بنت النابغة فسألها من أنت ؟ فقالت أنا بنت النابغة فقال لها والله ما أحد أكرم على غطفان من أبيك ولا أنفع لنا عند الملك منه ثم جهزها وخلاها ثم قال والله ما أرى النابغة يرضى بهـذا منا فأطلق له سبي غطفان وأسراهم فقال النابغة يمدحهم :

أهاجك من سعداك مغنى المعاهد   بروضة نعمىّ فذات الأساود
لعمرى لنعم الحى صبح سربنا   وأبياتنا يوما بذات المراود
فآب بأبكار وعون عقائل   أوانس يحميها امرؤ غير زاهد
ويخططن بالعيدان فى كل مقعد   ويخبأن رمان الثدي النواهد

والتخطيط بالعيدان كناية عن الهم قال الجاحظ : وفيه استراحة للأسير والمهموم والمفكر كما يعترى المفكر من قرع السن والغضبان من تصفيق اليد فذكر النابغة صنيع النساء وفزعهنّ فقال ويخططن الخ ...

يخططن بالعيدان فى كل منزل ويجنين رمان الثدى النواهد

ثم يقلب فيشبه الرمان بالثدى كقول القائل [١] :

ورمانة شبهتها إذ رأيتهـــا بثدى كعاب أو بحقة مرمر [٢]

منمنمة صفراء نضد حولها يواقيت حمر فى ملاء معصفر

وتشبه الجداول والأنهار بالسيوف يراد بياض الماء الصافى وبصيصه مع شكل الاستطالة الذى هو شكل السيف كقول ابن المعتز :

أعددت للجار وللعفاة كوم الأعالى متساميات

روازقا فى المحل مطعمات [٣]

يعنى نخلا ، ثم قال بعد أبيات :

تسق بأنهـــار مفجرات على حصى الكافور فائضات

مثل السيوف المتفريات [٤]

وقول ابن بابك :

فما سيل تخلصه المحانى كما سلت من الخلل المناصل [٥]

أبو فراس [٦] :

---

(١) هو أبو النصر سعيد بن الشاة من شعراء القرن الرابع ونظيره قول الآخر :

وأشجار رمان كأن ثمارها ثدى العذارى فى غلائلها الخضر

(٢) الكعاب كسحاب الفتاة الناهد والحقة والحق وعاء الطيب وغيره ويكون مستديرا فى الغالب .

(٣) العفاة واحدهم عاف وهو المحتاج والكوم واحدتها كوماء الناقة العظيمة السنام.

(٤) المتفريات من تفرى الشىء إذا انشق ويقال تفر الليل عن صبحه .

(٥) جمع محنية ومحنوة وهى منعرج الوادى .

(٦) من قطعة يتشوق إلى منازله بمنبج حين طال أسره ببلاد الروم ويسب الشامتين وقبلهما :

قف فى رسوم المستجا ب وحىّ أكناف المصلى =

والماء يفصل بين زهـ ... ر الروض فى الشطين فصلا
كبساط وشى جَرَّدت ... أيدى العيون عليه نصلا

كشاجم [١] :

وترى الجداول كالسيو ... ف لها سواق كالمبارد

آخر : [٢]

وفى الجـداول أسياف محادثة ... والطير تسجع أهزاجاً وأرمالا [٣]

وقال ذو الرمة [٤]

= تلك المنازل والملا ... عب لا أراها الله محلا
أو طفتها زمن الصبا ... وجعلت منبج لى محلا
حيث التفت رأيت ما ... ء سائحا وسكنت ظلا

والصواب أيدى القيون فى البيت الأخير .

(١) هو أبو الفتح كشاجم شاعر متفنن مطبوع ومنشىء بارع يعد ريحانة زمانه أقام بمصر مدة فاستطابها وله تصانيف عدة توفى سنة ٣٥٠ هـ والبيت من قطعة يمدح بها على بن طارق ويهنئه بعيد الفطر ومطلعها :

عادات طيفك أن يعاود ... فيبيت بين يد وساعد
وأراه صدّ فقد صدر ... ت عن الرقاد وكنت راقد

إلى أن قال فى وصف الربيع :

والليـل فيه والنهار ... كلاهما فى الوزن واحد
وهواه لا هو طائش الـ ... ـمهوى ولا هو فيه راكد

والسواق جمع ساقية وهى القناة الصغيرة بجانبها الجدول وشبهت بالمبرد لدقتها ولما فيها من التعاريج . (٢) هو النابغة الجعدى .

(٣) والمحادثة المجلوة المصقولة والهزج والرمل بالتحريك ضربان من التلحين .

(٤) من قطعة أولها :

خليلى عوجا عوجة ناقتيكما ... على طلل بين القلات فسارع

إلى أن قال :

تجلى السرى عن كل خرق كأنه ... صحيفة سيف طرفه غير خاشع

فما انشق ضوء الصبح حتى تبينت   جداول أمثال السيوف القواطع

ابن الرومى [١] :

على حفافى جدول مسجور   أبيض مثل المهرق المنشور [٢]

أو مثل متن الصارم المشهور

ثم يقلبون أحد طرفى التشبيه على الآخر فيشبهون السيوف بالجداول كقوله [٣] :

وتخال ماضربوا بهن جداولا   وتخال ماطعنوا به أشطانا [٤]

ابن بابك :

وأهدى إلى الغارات عزماً مشيعاً   وبأساً وباعاً فى اللقاء ومقصلا [٥]

---

(١) يصف عنبا رازقيا وهو عنب أبيض طويل الحب دقيق الوسط غليظ الطرفين أصله من الطائف، وكان قد خرج مع جمع من أصحابه إلى بعض المتنزهات وقصدوا كرما رازقيا فشربوا هناك عامة يومهم وكانوا يتهمونه فى شعره فقالوا إن كان ماتنشد لك فقل فى هذا شيئا فقال : لا تريموا حتى أقول فيه وأنشدهم لساعته أرجوزة طويلة أولها :

ورازقى مخطف الخصور   كأنه مخازن البلور

إلى أن قال : باكرته والطير فى الوكور   وعذر اللذات فى البكور

بفتية من ولد المنصور   أملا للعين من البدور

حتى أتينا خيمة الناطور   قبل ارتفاع الشمس للذرور

ثم جلسنا مجلس المحبور   على حفافى الخ . . .

(٢) والحفاف ككتاب الجانب والجدول النهر الصغير والمسجور المملوء والمهرق الصحيفة .

(٣) هو القطامى أو يزيد بن أبان الملقب بنابغة بنى الحارث بن كعب .

(٤) والأشطان الحبال التى يستق بها خاصة .

(٥) المشيع العجول والمقصل كمنبر السيف القطاع .

ســفيه مقط الطرتين أشيمه فيوحى إلى الأعضاء أن تترتلا (١)
أغرّ كأنى حين أخضب خده خرقت به فى ملتقى الروض جدولا

السرى (٢) :

وكم خرق الحجاب إلى مقام تَوارَى الشمس فيه بالحجاب
كأن سيوفه بين العــوالى جداول يطردن خلال غاب

وله أيضاً (٣) :

كأن سيوف الهند بين رماحه جداول فى غاب سما وتأشبا (٤)

وتشبه الأسنة كما لايخفى بالنجوم كما قال (٥) : وأسنة زرقا تخال نجوما

---

(١) السفيه المضطرب والمسرف فى عمله والطرة طرف الشىء وجانبه والصواب تتزيلا بدل تترتلا .

(٢) هو السرى الرفاء أحمد بن السرى الكندى الموصلى كان يمدح سيف الدولة بحلب وبعد وفاته سنة ٣٥٢ انتقل إلى بغداد ومدح الوزير المهلبى وجماعة من الرؤساء وكان فى صباه يرفو ويطرز بالموصل ثم اشتغل بالشعر وافتن فى التشبيه والوصف وتوفى سنة ٣٦٦ والبيتان من قطعة أولها :

تناهى فاطمأن إلى العتاب وأحسن للعواذل فى الخطاب
وصار جنيب غصن غير رطب وكان جنيب أغصان رطاب
خلت منه ميادين التصابى وعرى منه أفراس الشباب
وزهده خضاب الله لما تولى عنه فى زور الخضاب

ثم قال: لقد أضحت خلال أبى حصين حصونا فى الملمات الصعاب
كسانى ظل وابله وآوى غرائب منطق بعد اغتراب
وكنت كروضة سقيت سحابا فأثنت بالنسيم على السحاب

ومعنى البيتين إن الممدوح فتح فتوحا كثيرة حتى وصل إلى المغرب وكانت سيوفه بين الرماح كجداول فى وسط غاب .

(٣) من قصيدة فى مدح الوزير المهلبى .

(٤) تأشب الشجر التف .

(٥) هى ليلى الأخيلية صاحبة توبة بن الحمير نسبت إلى أبيها الأخيل بن شداد =

وقال البحترى (١) :

وتراه فى ظلم الوغى فتخاله   قمراً يكر على الرجال بكوكب

يعنى السنان . وقال ابن المعتز (٢) :

وتراه يُصغى فى القناة بكفه   نجما ونجما فى القناة يجره (٣)

= من قطعة أولها :

يأيها السدم الملوى رأســه   ليقود من أهل الحجاز بريما
أتريد عمرو بن الخليع ودونه   كعب إذاً لوجدته مرءوما
إن الخليع ورهطه فى عامر   كالقلب ألبس جؤجؤا وحزيما
لا تغزون الدهر آل مطرف   إن ظالما أبدا وإن مظلوما
قوم رباط الخيل وسط بيوتهم   وأسنة زرق تخال نجوما
ومزق عنه القميص تخاله   وسط البيوت من الحياء سقيما
حتى إذا رفع اللواء رأيته   يوم الهياج على الخميس زعيما

السدم : الفحل الهائج والملوى رأسه أى من الكبر والبريم الجيش والمرءوم من رئمت الناقة ولدها أحبته والحزيم وسط الصدر والخميس الجيش لانقسامه خمس فرق المقدمة والميسرة والميمنة والقلب والجناح - ومن هذا تعلم أن الصواب رفع زرق لا نصبه .

(١) من قصيدة يمدح مالك بن طوق مطلعها :

رحلوا فأية عبرة لم تسكب   أسفاً وأى عزيمة لم تغلب

وقبله : ملك له فى كل يوم كريهة   إقدام ليث واعتزام مجرب

(٢) فى المديح من قصيدة مطلعها :

طال الفراق فبان عنه صبره   وقسا عليه فليس يرحم دهره

إلى أن قال :

ملك تواضعت الملوك لعزه   قسراً وفاض على الجداول بحره
وكأنما رفع الحجاب لناظر   عن صبح ليل قد توقد فجره
وتراه فى ليل السرى وكأنه   نار يقلب طرفه ويقــرّه

(٣) يصغى الشىء إصغاء يميله والنجم الأول السنان والنجم الثانى الزج وهما لقناة واحدة فإذا أصغى المقاتل القناة فقد أمال السنان وجرّ الزج .

ومثله سواء قوله :

كأنما الحربة فى كفه　　نجم دجى شيعه البدر

ثم قد شبهوا الكواكب بالسنان كقول الصنوبرى :

بشّر بالصبح كوكب الصبح　　فاض وجنح الدجى كلا جنح [١]

فهو على الفجر كالسنان هوى　　للعـين كما هوى على رمح

ابن المعتز :

شربتها والديك لم [٢] ينتبه　　سكران من نومته طافح [٣]

ولاحت الشعرى وجوزاؤها　　كمثل زُج جـره رامح [٤]

وهذه [٥] إن أردت الحق قضية قد سبقت وقدمت فقد قالوا السماك الرامح على معنى أن كوكبا يتقدمه وهو رمحه ! ولاشك أن جل الغرض فى جعل ذلك الكوكب رمحا أن يقدروه سنانا ، فالرمح رمح بالسنان ، وإذا لم يكن السنان فهو قناة ، ولذلك قال [٦] :

• وربما طويل القناة عسولا • [٧]

ومن ذلك أن الدموع تشبه إذا قطرت على خدود النساء بالطل والقطر

---

(١) فاض أى فاض نوره والجنح بالكسر ويضم الطائفة من الليل .

(٢) الصواب (لمّا) حتى يستقيم الوزن ويصح المعنى .

(٣) طافح ممتلىء بالشراب .

(٤) الشعرى كوكب نير يطلع بعد الجوزاء .

(٥) أتى بهذه الجملة لبيان أنّ الرمح فى البيت الثانى يراد به السنان فهو من وادى ما نحن فيه من تشبيه الكواكب بالأسنة .

(٦) هو عبد القيس بن خفاف البرجمىّ من القصيدة التى تقدمت قبلُ وصدره (ووقع لسان كحد السنان) .

(٧) العسول الشديد الاهتزاز .

على مايشبه الخدود من الرياحين كقول الناشى (١)

بكت للحبيب وقد راعها　　بكاء الحبيب لبعد الديار
كأن الدموع على خدها　　بقية طل على جُلنبار (٢)

وشبيه به قول ابن الرومى (٣) :

لوكنت يوم الوداع حاضرنا　　وهن يُطفين غُلة الوجد
لم تر إلا الدموع ساكبة　　تقطر من مقلة على خد
كأن تلك الدموع قطر ندى　　يقطر من نرجس على ورد

ثم يعكس كقول البحترى (٤)

شقائق يحملن الندى فكأنه　　دموع التصابى فى خدود الخرائد

ومثله قول ابن المعتز بعد قوله فى النرجس :

كأن عيون النرجس الغض حولها　　مداهن دُر حشوهن عقيق

---

(١) أى الناشئ الأكبر أبو العباس عبد الله بن محمد الانبارى كان من الشعراء المجيدين من طبقة ابن الرومى وأضرابه أقام ببغداد مدة ثم خرج إلى مصر وتوفى بها بعد أن أقام زمناً سنة ٢٩٣ ونسبه فى اليتيمة إلى الناشئ الأوسط والناشئون ثلاثة هذان والناشىء الأصغر وهو أبوالحسن على بن عبد الله بن وصيف كان من المتكلمين ومن كبار الشيعة أخذ الكلام عن ابن نوبخت وتوفى سنة ٣٦٦

(٢) الجلنار زهر الرمان فارسى معرب.

(٣) فى الفراق وفى مختارات البارودى برواية تختلف عما هنا.

(٤) من قصيدة يمدح بها الفتح بن خاقان وابنه أبا الفتح ومطلعها :

مئالك من طيف الخيال المعاود　　ألم بنا من أفقه المتباعد
يحيي هجوداً منتشين من الكرى　　وما نفع إهداء السلام لهاجد

إلى أن قال :

سقى الغيث أكناف اللوى من محلة　　إلى الحقف من رمل اللوى المتقاود
يذكرنا ريا الأحبة كلما　　تنفس فى جنح من الليل بارد

إذا بلهنّ القطر خلت دموعها بكاء عيون كحلهن خَلوق [١]

وفى فن آخر منه خارج عن جنس ما مضى يشبه الشيخ إذا أفناه الهرم وحناه القدم حتى يدخل رأسه فى منكبيه بالفرخ كما قال [٢] :

ثلاث مئين قد مضين كواملا وها أنا هـذا أرتجى مرّ أربع
فأصبحت مثل الفرخ فى العين ثاويا إذا رام تطيارا يقال له قـع

وهو كثير ثم يعكس فيشبه الفرخ بالشيخ كما قال أبو نواس [٣] يرثى خلف الأحمر [٤] :

لو كان حى وائلا من التلف لوألت شغواء فى أعلى شعَف [٥]
أم فريخ أحـرزته فى لجف [٦] مزغّب الألغاد لم يأكل بكف

---

(١) الخلوق طيب يضرب إلى الصفرة أهم أجزائه الزعفران .

(٢) هو كعب بن حممة الدوسى الجاهلى وكان من المعمرين عاش ثلثمائة وتسعين سنة كما زعموا وقبلهما .

كبرت وطال العمر حتى كأننى سليم أفاع ليـله غير مودع
فما الموت أفنانى ولكن تتابعت علىّ سنون من مصيف ومربع

وبعدهما :

أخبر أخبار القرون التى مضت ولا بد يوما أن يطار بمصرعى

ولا توجد كلمة تطيار فى كتب اللغة التى بأيدينا .

(٣) ومن حديث ذلك أن خلفا أحب أن يرثى وهو حىّ فرثاه تلميذه أبو نواس رجزاً فأعجبه وطلب إليه أن يحوله قصيداً ففعل .

(٤) الصواب خلفا الأحمر لأن اللقب متى اقترن بأل امتنع إضافته إلى الاسم وهو الإمام اللغوى أبو محرز خلف الأحمر البصرى مولى بلال بن أبى بردة كان راوية ثقة يسلك مسلك الأصمعى وكان الأخفش يقول لم أدرك أحدا أعلم بالشعر من خلف والأصمعى توفى سنة ١٨٠ هـ .

(٥) وأل كضرب نجا وخلص والشغواء العقاب والشعف جمع شعفة رأس الجبل.

(٦) اللجف بالجيم لا بالحاء كل ما أشرف على العابر من صخر أو غيره ومزغب=

كأنه مستقعد من الخرف[1]

وأعاده فى قصيدة أخرى فى مرثيته[2] :

لا تشــل العصم فى الهضاب ولا شغواء تغذو فرخين فى لحف[3]

تخنـــو بجؤشوشها على ضَرم كقِعدة المنحنى من الخرف[4]

ويشبه الظليم فى حركة جناحيه مع إرسال لهما بالخباء المقوض أنشد أبو العباس لعلقمة[5] :

صعلٌ كأن جناحيه وجؤجؤه بيت أطافت به خرقاء مهجوم[6]

اشترط أن يتعاطى تقويضه خرقاء ليكون أشد لتفاوت حركاته وخروج

= بالجر صفة لفريخ وبعدهما :

هاتيك أو عصماء فى أعلى شرف تروغ فى الطباق والنزع الألف

أودى جماع العلم مذ أودى خلف

(١) ليس فى كتب اللغة مستقعد بل اقعندد بالمكان أقام والمقعدد فرخ النسر .

(٢) ومنها :

بت أعزى الفؤاد عن خلف وبات دمعى إلا يفض يكف

أقسى الرزايا ميت فجعت به أضحى رهينا للترب فى جدف

(٣) الصواب اللجف بالجيم لا بالحاء ، والعصم جمع أعصم وهو الوعل فى ذراعيه أو أحدهما بياض .

(٤) والجؤشوش والضرم ككتف . فرخ العقاب .

(٥) هو علقمة بن عبدة الفحل فى وصف ناقته وتشبيهها بالظليم ومطلعها :

هل ما علمت وما استودعت مكتوم أم حبلها إذ نأتك اليوم مصروم

أم هل كبير بكى لم يقض عبرته إثر الأحبة يوم البين مشكوم

إلى أن قال :

كأنها خاضب زعر قوائمه أجنى له باللوى شرى وتنوم

يظل فى الحنظل الخبطان ينقفه وما استطف من التنوم مخذوم

(٦) الصعل الصغير الرأس ، والخرقاء التى لا تحسن شيئاً فهى تفسد ما عرضت له .

اضطرابه عن الوزن . وقال ذو الرمة :

وبِيض رفعنا بالضحى عن متونها سماوة جَون كالخباء المقوض

هَجوم عليها نفسه غير أنه متى يُرم فى عينيه بالشبح ينهض

قالوا فى تفسيره [1] يعنى بالبيض بيض النعام « ورفعنا » أى أثرنا عن ظهورها و « سماوة جون » أى شخص نعام جون وسماوة الشىء شخصه والجون الأسود ههنا [2] لأنه قابل بين البياض والسواد . ثم شبه النعام فى حال إثارته عن البيض بالخباء المقوض وهو الذى نزعت أطنابه للتحويل والبيت الثانى من أبيات الكتاب [3] أنشده شاهداً على إعمال فعول عمل الفعل وذلك قوله « هجوم عليها نفسه » فنفسه منصوب بهجوم على أنه من هجم متعديا نحو هجم عليها نفسه أى طرحها عليها كأنه أراد أن يصف الظليم فى خوفه بأمرين متضادين بأن يبالغ فى الانكباب على البيض فعل من شأنه اللزوم والثبات وأن يثيره عنها الشىء اليسير نحو أن يقع بصره على الشخص من بعد فعل من كان مستوفزاً فى مكانه غير مطمئن ولا موطن نفسه على السكون . وقوله : « يرم فى عينيه بالشبح [4] » كلام ليس لحسنه نهاية .

---

(١) قال فى الأمالى أراد بالبيض بكسر الباء البيض وسماوة كل شىء شخصه يعنى الظليم والجون الأسود وهجوم عليها يعنى على البيض فإذا أبصر شخصا نهض عن البيض والشبح والشبح لغتان والبيتان مطلع قصيدة وبعدهما :

يصرّف للأصوات من كل جانب سماخا كبيت العنكبوت المغمض

وكائن تخطت صيدح من تنوفة تجاور فتق جوف ماء معرمض

(٢) لأنه مشترك بين الأسود والأبيض .

(٣) كتاب سيبويه .

(٤) فيه استعارة بالكناية فقد شبه الشبح بالحصى بجامع أن كلا يثار به ثم حذف ورمز إليه بالرّمى .

وقد قال ابن المعتز فعكس هذا التشبيه فشبه حركة الخباء بالطائر إلا أنه راعى أن يكون هناك صفة مخصوصة فشرط فى الطائر أن يكون مقصوصا وذلك قوله :

ورفعنـــا خباءنا تضرب الريـــح حشاه كالجاذف المقصوص [1]

وأخرجه إلى هذا الشرط أنه أراد حركة خباء ثابت غير مقوض إلا أن الريح تقع فى جوفه فتحرك فى [2] جانبيه على توال كما يفعل المقصوص إذا جذف وذلك أن يرد جناحيه إلى خلفه فيتحرك جانباه ، فحصل له أمران أحدهما أن الموفور الجناح يبسط جناحيه فى الأكثر وذلك إذا صف [3] فى طيرانه فلا يدوم ضربه بجناحيه والمقصوص لقصوره عن البسط يديم ضربهما . والثانى تحريك الجناحين إلى خلف . وهذا كثير جدا و تتبعه فى كل باب ونوع من التشبيه يشغل عن الغرض من هذه الموازنة [4] . وإنما يمتنع هـذا القلب فى طرفى التشبيه لسبب يعرض فى البين فيمنع [5] منه ولا يكون من صميم الوصف المشترك بين الشيئين المشبه أحدهما بالآخر :

فمن ذلك وهو أقواه فيما أظن أن يكون بين الشيئين تفاوت شديد فى الوصف الذى لأجله يشبه به ثم قصدت أن تلحق الناقص منهما بالزائد مبالغة ودلالة على أنه يفضل أمثاله فيه .

---

(١) جذف الطائر من باب ضرب أسرع .

(٢) الأولى « من » بدل « فى » .

(٣) صف الطائرة بسط جناحيه .

(٤) أى بين التشبيه الصريح والتمثيل .

(٥) يريد بالمانع ما سيذكره بعد من التفاوت الشديد وبصميم التشبيه مطلق الاشتراك فى الوصف .

بيان هذا أن ههنا أشياء هى أصول فى شدة السواد كخافية الغراب والقار ونحو ذلك فإذا شبهت شيئاً بها كان طلب العكس فى ذاك عكسا لما يوجبه العقل ونقضاً للعادة لأن الواجب أن يثبت المشكوك فيه بالقياس على المعروف لا أن يتكلف فى المعروف تعريف بقياسه على المجهول وما ليس بموجود على الحقيقة، فأنت إذا قلت فى شىء: هو كخافية الغراب فقد أردت أن تثبت له سواداً زائداً على مايعهد فى جلسه وأن تصحح زيادة مجهولة له. وإذا لم يكن ههنا مامزيد على خافية الغراب فى السواد فليت شعرى ما الذى تريد من قياسه على غيره فيه؛ ولهذا المعنى ضعف بيت البحترى (١):

على باب قِنَّسْرِينَ والليلُ لاطخ جوانبَه من ظلمة بمداد (٢)

وذاك أن المداد ليس من الأشياء التى لامزيد عليها فى السواد. كيف ورب مداد فاقد اللون (٣)، والليل بالسواد وشدته أحق وأحرى أن يكون مثلا، ألا ترى إلى ابن الرومى حيث قال (٤):

---

(١) يمدح أبا مسلم البصرى من أمراء العرب ومطلعها:

عذيرى من نأى غدا وبعاد وسير مجد لا يسير بزاد

فوالله ما أدرى أأثنى عزيمتى عن الغرب أم أمضى بغير فؤاد

إلى أن قال: وما بلغ النوم المسامح لذة سوى أرق فى جنبها وسهادى

(٢) على باب متعلق بالبيت قبله وهو:

وليلتنا والراح مجلى تحثها فنون غناء للزجاجة حاد

وجوانبه مفعول لاطخ، ومن ظلمة أى لأجل ظلمة وهو حال من ضمير لاطخ العائد إلى الليل.

(٣) أى اللون الشديد لامطلق اللون، والبحترى قد تأثر بقول الأعرابى «والليل قد صبغ الحصى بمداد» والعربى لايفهم من المداد إلا ما كان شديد الحلكة والسواد.

(٤) فى مدح حبر بن حفص الوراق وقد روى البيت فى الديوان هكذا:

حبر أبى حفص لعاب الليل كأنه ألوان دهم الخيل

يجرى إلى الإخوان جرى السيل بغير وزن وبغير كيل

حبر أبى حفص لعاب الليل   يسيل للإخوان أى سيل

فبالغ فى وصف الحبر بالسواد حين شبهه بالليل وكأن البحترى نظر إلى قول العامة فى الشيء الأسود هو كالنِقْس (١) ثم تركه للقافية .

فإن قلت : فيلبغى على هذا ألا يجوز تشبيه الصبح بغرة الفرس لأجل أن الصبح بالوصف الذى لأجله شبه الغرّة به أخص ، وهو فيه أظهر وأبلغ ، والتفاوت بينهما كالتفاوت بين خافية الغراب والقار وبين مايشبه بهما . فالجواب أن الأمر وإن كان كذلك فإن تشبيه غرة الفرس بالصبح حيث ذكرت لم يقع من جهة المبالغة فى وصفها بالضياء والانبساط وفرط التلألؤ ، وإنما قصد أمر آخر وهو وقوع منير فى مظلم ، وحصول بياض فى سواد ؛ ثم البياض صغير قليل بالإضافة إلى السواد ، وأنت تجد هذا التشبيه (٢) على هذا الحد فى الأصل ، فإذا عكست فقلت كأن الصبح عند ظهور أوله فى الليل غرة فى فرس أدهم لم تقع فى مناقضة ، كما أنك لوشبهت الصبح فى الظلام بعلم بياض (٣) على ديباج أسود لم تخرج عن الصواب ، وعلى نحو من ذلك قول ابن المعتز (٤) :

(١) بالكسر المداد الذى يكتب به. قال على بن الجهم :

وليلة كحلت بالنقس مقلتها   ألقت قناع الدجى عن كل أخدود
قد كاد يغرقنى أمواج ظلمتها   لولا اقتباس سنا وجه ابن داود

(٢) الصواب « الشبه » أى وجه الشبه .

(٣) الصواب «أبيض» .

(٤) قبله :

قالوا تبصر قلت كيف وإنما   أريد الهوى حتى ألذ وأنعما
ويأخذ لحظ العين ممن أحبه   شفاء وألقى زائراً ومسلما
ولو كنت ممن يتقى الناس فى الهوى   لكان تقى ربى أعف وأكرما

نخلت الدجى والفجر قد مد خيطه رداء موشى بالكواكب مُعلما

فالعلم فى هذا الرداء هو الفجر بلا شبهة . وله وهو صريح ما أردت [١]

والليل كالحلة السوداء لاح به من الصباح طراز غير مرقوم [٢] :

وإن كان التفاوت فى المقدار بين الصبح والطراز فى الامتداد والانبساط شديداً . وكذلك تشبيه الشمس بالمرآة المجلوة وبالدينار الخارج من السكة كما قال ابن المعتز [٣] :

وكأن الشمس المنيرة دينا رٌ جلته حدائق الضرّاب

حسن مقبول وإن عظم التفاوت بين نور الشمس ونور المرآة والدينار أو [٤] الجرم لأنك لم تضع التشبيه على مجرد النور والائتلاق وإنما قصدت إلى مستدير يتلألأ ويلمع ثم خصرص فى جلس اللون يوجد فى المرآة المجلوّة والدينار المتخلص من حمى السكة كما يوجد فى الشمس . فأما مقدار النور وإنه زائد أو ناقص ، ومتناه أو متقاصر ، وللجرم [٥] أعظيم هو أم صغير ؟

---

(١) من قصيدة مطلعها :

الآن سرّت فؤادى مقلة الريم واهتز كالغصن فى ميل وتقويم

الآن ناجى بوحى الحب عاشقه واستعجل اللحظ فى ود وتسليم

قد بتّ ألثمه والليل حارسنا حتى بدا الصبح مبيض المقاديم

(٢) به : أى فيه ، وضميره لليل .

(٣) يمدح الشرب فى الصحو ويذمه فى المطر وقبله :

أنا لا أشتهى سماء كبطن الـ ـعير والشرب تحتها فى خراب

بين سقف قد صار منخل ماء وجـدار ماق وتل تراب

وبيوت يوقّع الوكف فيهـ ـن وإيقاعه بغير صواب

إنما أشتهى الصبوح على وجـ ـه سماء مصقولة الجلباب

ونسيم من الصبـا يتمشى فوق روض ند جديد الشباب

(٤) الصواب الواو : أى بين الجرمين جرم الشمس وجرمى المرآة والدينار .

(٥) الصواب: والجرم .

فلم تتعرض له ، ويستقيم لك العكس فى هذا كله نحو أن تشبه المرآة بالشمس وكذلك لو قلت فى الدينار كأنه شمس أو قلت كأن الدنانير المنثورة شموس صغار ، لم تتعد [١] .

وجملة القول أنه متى لم يقصد ضرب من المبالغة فى إثبات الصفة للشىء والقصد إلى إيهام فى الناقص أنه كالزائد واقتصر على الجمع بين الشيئين فى مطلق الصورة والشكل واللون أو جمع وصفين على وجه يوجد فى الفرع على حد [٢] ، ويوجد هو أو قريب منه فى الأصل ، فإن العكس يستقيم فى التشبيه ومتى أريد شىء من ذلك لم يستقم .

وقد يقصد [٣] الشاعر على عادة التخييل أن يوهم فى الشىء هو قاصر عن نظيره فى الصفة أنه زائد عليه فى استحقاقها واستيجاب أن يُجعل أصلا فيها ، فيصح على موجب دعواه وشوقه إلى أن يجعل الفرع أصلا ، وإن كنا إذا رجعنا إلى التحقيق لم نجد الأمر يستقيم على ظاهر مايضع اللفظ عليه ، ومثاله قول محمد بن وهيب [٤] :

---

(١) الصواب لم تبعد .

(٢) صحة العبارة على حدّ يوجد هو أو قريب منه .

(٣) هذا استثناء من قوله وإنما يمتنع القلب لسبب يعرض فى البين .

(٤) هو محمد بن وهيب الحميرى البغدادى شاعر الحسن بن سهل أولا وبوساطته اتصل بالمأمون وانقطع إليه حتى مات وكان متشيعاً وله مراث فى آل البيت — والبيت من قصيدة فى مدح المأمون مطلعها :

العذر إن أنصفت متضح ... وشهود حبك أدمع سفح
وإذا تكلمت العيون على ... إعجامها فالسرّ مفتضح
فضحت ضميرك عن ودائعه ... إنّ الجفون نواطق فصح

إلى أن قال :

ربما أبيت معانق قمر ... للحسن فيه مخايل تضح =

وبدا الصباح كأن غرته   وجه الخليفة حين يُمتدح

فهذا على أنه جعل وجه الخليفة كأنه أعرف وأشهر وأتم وأكمل فى النور والضياء من الصباح فاستقام له بحكم هذه النية أن يجعل الصباح فرعاً ووجه الخليفة أصلا .

واعلم أن هذه الدعوى وإن كنت تراها تشبه قولهم : لا يُدرى أوجهه أنور أم الصبح [١] ؟ وغرته أضوأ أم البدر ؟ وقولهم إذا أفرطوا : نور الصباح يخفى فى ضوء وجهه ، أو نور الشمس مسروق من جبينه [٢] ، وما جرى فى هـذا الأسلوب من وجوه الإغراق والمبالغة ، فإن فى الطريقة الأولى خِلابة وشيئاً من السحر . وهو أنه كان [٣] يستكثر للصباح أن يشبهه [٤] بوجه الخليفة ويوهم أنه قد احتشد له واجتهد فى طلب تشبيه يفهم به أمره . وجهته الساحرة أنه يوقع المبالغة فى نفسك من حيث لا تشعر ، ويفيدكها من غير أن يظهر ادعاؤه لها ، لأنه وضع كلامه وضع من يقيس على أصل متفق عليه ويزجى الخبر عن أمر مسلم لا حاجة فيه إلى دعوى ، ولا إشفاق من خلاف مخالف وإنكار منكر وتجهم [٥] معترض وتهكم قائل «لم» و «من أين لك ذلك» ؟ والمعانى إذا وردت على النفس هذا المورد كان لها ضرب

= نشر الجمال على محاسنه   بدعا وأذهب همه الفرح

ما زال يلثمنى مراشفه   ويعلى الإبريق والقدح

حتى استردّ الليل خلعته   وبدا خلال سواده وضح

(١) هذا ما يسميه المتأخرون تجاهل العارف .

(٢) الصواب من نور جبينه .

(٣) الصواب كأنه .

(٤) أى بما يفهم منه تساويهما كما فى طريق التشكيك .

(٥) تجهم له وتجهمه قابله بوجه كريه .

من السرور خاص ، وحدث بها نوع من الفرح عجيب ، فكانت كالنعمة لم تكدرها المنة ، والصنيعة لم ينغصها اعتداد المصطنع لها .

وفى هذا الموضع [١] تشبيه [٢] بالنكتة التى ذكرتها فى التجنيس لأنك فى الموضعين تنال الربح فى صورة رأس المال ، وترى الفائدة قد ملأت يدك ، من حيث حسبتها قد جازتك وأضلتك وتجد على الجملة الوجود من حيث توهمت العدم .

ولطيفة أخرى [٣] وهى أن من شأن المدح إذا ورد على العاقل أن يقفه بين أمرين يصعب الجمع بينهما وتوفية حقهما . معرفة حق المادح على ما استشهد له من تزيينه وقصده من تضخيم شأنه فى عيون الناس بالإصغاء إليه والارتياح له ، والدلالة بالبشر والطلاقة على حسن موقعه عنده ؛ وملكِ النفس حتى لا يقلبها [٤] السرور عليه [٥] ويخرج بها إلى العجب المذموم وإلى أن يقول « أنا » فيقع فى صفة الكبر من حيث لا يشعر ، ويظهر عليه من أمارته ما يذم لأجله ويحقر ، فما كبر أحد فى نفسه إلا أغان [٦] الكبر عقله ، وفسخ عقده [٧] من أجله . وهذا موقف تزل فيه الأقدام بل تخف عنده الحلوم ، حتى لا يسلم من جزع النفس هناك إلا أفراد الرجال ، وإلا من أدام التوفيق صحبته ، ومن أين ذلك وأنى ؟ . فإذا كان المدح على

(١) بيان لفضل التشبيهات المقلوبة .
(٢) الصواب شبه .
(٣) أى فى هذا البيت .
(٤) الصواب يغلبها .
(٥) الصواب حذفها .
(٦) غين على قلبه تفشته الشهوة أو غطى عليه ومثله أغين وأغانه .
(٧) العقد العهد .

صورة قوله «وجه الخليفة حين يمتدح» خف عنه الشطر من تكاليف هذه الخصلة .

وإذ قد تبين كيف يكون جعل الفرع أصلا والأصل فرعاً فى التشبيه الصريح فارجع إلى التمثيل وانظر هل تجيء فيه هذه الطريقة على هذه السعة والقوة ثم تأمل ما حمل من التمثيل عليها كيف حكمه وهل هو مساو لما رأيت فى التشبيه الصريح [1] ، وحاذ حذوه على التحقيق ؟ أم الحال على خلاف ذلك ؟ . والمثال فيما جاء من التمثيل مردوداً فيه الفرع إلى موضع الأصل والأصل إلى محل الفرع قوله [2] :

وكأن النجوم بين دجاه سنن لاح بينهن ابتداع [3]

وذلك أن تشبيه السنن بالنجوم تمثيل والشبه عقلى وكذلك تشبيه خلافها من البدعة والضلالة بالظلمة ، ثم إنه عكس فشبه النجوم بالسنن كما يفعل فيما مضى من المشاهدات . إلا إنا نعلم أنه لايجرى مجرى قولنا كأن النجوم مصابيح تارة ، وكأن المصابيح نجوم أخرى . ولايجرى مجرى قولك ، كأن

---

(١) أى ما كان الوجه حسيا .

(٢) أى على بن محمد أبى القاسم القاضى التنوخى المتوفى سنة ٣٤٢ كان من أعيان العلماء ولى قضاء البصرة والأهواز وكان فى جملة الفقهاء والقضاة الذين ينادمون الوزير المهلبى ويجتمعون عنده فى الأسبوع ليلتين على اطلاح الحشمة والتبسط فى القصف والخلاعة كذا فى يتيمة الدهر .

(٣) وقبله :

رب ليل قطعته كصدود وفراق ما كان فيه وداع
موحش كالثقيل تقذى به العـين وتأبى حديثه الأسماع

وبعده : مشرقات كأنهن حجاب تقطع الخصم والظلام انقطاع
وكأن السماء خيمة وشى وكأن الجوزاء فيها شراع

السيوف [١] برق تنعق ، وكأن البروق سيوف تُسَلُّ من أغمادها فتبرق ، ونظائر ذلك فيما مضى ، وذلك أن الوصف هناك لايختلف من حيث الجلس والحقيقة وتجده العين فى الموضعين وليس هو فى هذا مشاهداً محسوساً وفى الآخر معقولا متصوراً بالقلب ممتنعاً فيه الإحساس . فأنت تجد فى السيوف لمعاناً على هيئة مخصوصة من الاستطالة وسرعة الحركة تجده بعينه أو قريباً منه فى البروق . وكذلك تجد فى المداهن من الدر حشوهن عقيق من الشكل واللون والصورة ماتجده فى النرجس حتى يتطرق أن يشتبه الحال فى الشىء من خلل [٢] فيظن أن أحدهما الآخر فلو أن رجلا رأى من بعيد بريق سيوف تنتضى من الغمود لم يبعد أن يغلط فيحسب أن بروقا انعقت وما لم يقع فيه الغلط كان حاله قريبا مما يجوز وقوع الغلط فيه . ومحال أن يكون الأمر كذلك فى التمثيل لأن السنن ليست بشىء يترامى [٣] فى العين فيشتبه بالنجوم ، ولا ههنا وصف من الأوصاف المشاهدة يجمع السنن والنجوم ، وإنما يقصد بالتشبيه فى هذا الضرب ماتقدم من الأحكام المتأولة من طريق المقتضى فلما كانت الضلالة والبدعة وكل ماهو جهل تجعل صاحبها فى حكم من يمشى فى الظلمة فلا يهتدى إلى الطريق ولا يفصل الشىء من غيره حتى يتردى فى مهواة ويعثر على عدو قاتل وآفة [٤] مهلكة لزم من ذلك أن تشبه بالظلمة . ولزم على عكس ذلك أن تشبه السنة والهدى والشريعة وكل ماهو علم بالنور .

---

(١) الصواب بروق تنعق والعقيقة من البرق ما يبق فى السحاب من شعاعه وبه تشبه السيوف فتسمى عقائق كما تقدم .

(٢) خطأ .

(٣) تراءى لى وترأى أى تصدى لى لأراه .

(٤) الصواب أو آفة .

وإذا كان الأمر كذلك علمت أن طريقة العكس لاتجىء فى التمثيل على حدها فى التشبيه الصريح وأنها إذا سلكت فيه كان مبنيا على ضرب من التأول والتخيل يخرج عن الظاهر خروجا ويبعد عنه بعداً شديداً . فالتأويل فى البيت إنه لما شاع وتعورف وشهر وصف السُّنة ونحوها بالبياض والإشراق، والبدعة بخلاف ذلك كما قال النبى صلى الله عليه وسلم : « أتيتكم بالحنيفية البيضاء ليلها كنهارها » وقيل هذه حجة بيضاء، وقيل للشبهة وكل ماليس بحق إنه مظلم، وقيل سواد الكفر وظلمة الجهل، يخيل [١] أن السنن كلها جنس من الأجناس التى لها إشراق ونور وابيضاض فى العين، وأن البدعة نوع من الأنواع وأن [٢] لها فضل اختصاص بسواد اللون فصار تشبيه النجوم بين الدجى بالسنن بين الابتداع على قياس تشبيههم النجوم فى الظلام ببياض الشيب [٣] فى سواد الشباب أو بالأنوار وائتلاقها بين النبات الشديد الخضرة . فهذا ههنا كأنه ينظر إلى طريقة قوله : « وبدا الصباح كأن غرته » فى بناء التشبيه على تأويل هو غير الظاهر إلا أن التأويل هناك أنه جعل فى وجه الخليفة زيادة من النور والضياء يبلغ بها حال الصباح أويزيد والتأويل ههنا إنه خيّل ماليس بمتلون كأنه متلون ثم بنى على ذلك .

ومن هذا الباب قول الآخر : [٤]

---

(١) الصواب تخيل .

(٢) الصواب التى .

(٣) كقول أبى نواس :

لما تبدى الصبح من حجابه   كطلعة الأشمط من جلبابه
هجنا بكلب طالما هجنا به   ينتسف المقود من كلابه

(٤) تقدم أنه أبو طالب الرقى .

ولقد ذكرتك والزمان (١) كأنه ... يوم النوى وفؤاد من لم يعشق

لما كانت الأوقات التى تحدث فيها المكاره توصف بالسواد فيقال: اسودّ النهار فى عينى وأظلمت الدنيا علىّ ، جعل يوم النوى كأنه أعرف وأشهر بالسواد من الظلام فشبه (٢) به ثم عطف عليه فؤاد من لم يعشق تظرُّفا وإتماما للصفة وذلك أن الغزِل يدعى القسوة على من لم يعرف العشق والقلبُ القاسى يوصف بشدّة السواد فصار هذا القلب عنده أصلا فى الكدرة والسواد فقاس عليه . وعلى ذلك قول العامة : ليل كقلب المنافق أو الكافر إلا أن فى هذا شوبا من الحقيقة من حيث يتصور فى القلب أصل السواد ثم يدعى الإفراط ، ولا يدعى فى البدعة نفس السواد لأنها ليس مما يتلون ، لأن اللون من صفات الجسم ، فالذى يساويه فى الشبه المساواة الثابتة (٣) قولهم : أظلم من الكفر - كما قال ابن العميد فى كتاب (٤) يداعب فيه ويظهر التظلم من هلال الصوم ويدعو على القمر فقال « وأرغب إلى الله تعالى فى أن يقرب على القمر دوره ، وينقص مسافة فلكه ، ثم قال بعد فصل « ويسمعنى النعرة (٥) فى قفا شهر رمضان ويعرض علىّ هلاله أخفى من

---

(١) الصواب الظلام بدليل ما بعده فى كلام المصنف .
(٢) الأنسب فشبهه .
(٣) الصواب « التامة » .
(٤) إلى أبى العلاء السروى واحد طبرستان أدبا وفضلا ونثرا ونظما وكانت بينه وبين ابن العميد مساجلات ومكاتبات كتب به يتأفف من طول شهر رمضان وشدة حرّه وأول الرسالة «كتابى إليك جعلنى الله فداك وأنا فى كد وتعب منذ فارقت شعبان وفى جهد ونصب من شهر رمضان وفى العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر من ألم الجوع ووقع الصوم ، إلى أن قال « ومنو بأيام تحاكى ظلّ الرمح طولا وليالى كإبهام القطاة قصرا ونوم كلا ولا قلة ، إلى أن قال « وأرغب الخ ... »
(٥) النعرة الصوت ويريد الصيحة والعويل عليه .

السحر [١] ، وأظلم من الكفر » .

وإن تأولت فى قوله : « سنن لاح بينهن ابتداع » أنه أراد معنى قولهم إن سواد الظلام يزيد النجوم حسنا وبهاء كان له مذهب . وذلك أنه لما كان وقوف العاقل ، على بطلان الباطل ، واطلاعه على عوار البدعة ، وخَرْقه الستر عن فضيحة الشبهة [٢] ، يزيد الحق نبلا فى نفسه ، وحسنا فى مرآة عقله ، جعل هذا الأصل من المعقول مثالا للشاهد المبصر هناك ، إلا أنه على ذلك لايخرج من أن يكون خارجا عن الظاهر أن يمثل المعقول فى ذلك بالمحسوس كما فعل البحترى فى قوله [٣] :

وقد زادها إفراطَ حسنٍ جوارُها خلائق أصفار من المجد خُيَّبِ
وحسن درارىّ النجوم بأن تُرى طوالع فى داج من الليل غيهب

فبك مع هذا الوجه حاجة إلى مثل مامضى من تنزيل السنة والبدعة منزلة ما يقبل اللون ويكون له فى رأى العين منظر المشرق المتبسم ، والأسود

---

(١) الصواب السرّ .

(٢) الإضافة بيانية .

(٣) من قصيدة يمدح الفتح بن خاقان وضمير : وزادها يرجع إلى « أخلاق » فى البيت قبله و « أصفار » صفة لموصوف محذوف أى قوم أصفار قبلهما :

غرائب أخلاق هى الروض جاده ملث العزالى ذو رباب وهيدب

أخذ هذا المعنى من بشار فى قوله :

وكان جوارى الحىّ ما دمت فيهم قباحاً فلما غبت صرن ملاحاً

وأخذها المتنبي فقال :

ونذمهم وبهم عرفنا فضله وبضدها تتميز الأشياء

ومطلع القصيدة :

بنا أنت من مجفوة لم تعتب ومعذورة فى هجرها لم تؤنب
ونازحة والدّار منها قريبة وما قرب ثاو فى الديار مغيب

الأقتم (١)، حتى يراد أن لون هذا يزيد فى بريق ذاك وبهائه ، وحسنه وجماله ، وفى القطعة التى هذا البيت منها غيرها (٢) مما مذهبه المذهب الأول وهو :

رُبَّ ليل قطعته كالصدود (٣) وفراق ما كان فيه وداع

موحش كالثقيل تقذى به العيـ ـن وتأبى حديثه الأسماع

وكأن النجوم ... البيت وبعده :

مشرقات كأنهن حجاج يقطع الخصم والظلامَ انقطاع

ومما حقه أن يعد فى هذا الباب قول القائل :

كأن انتضاء البدر من تحت غيمه نجاء من البأساء بعد وقوع (٤)

وذلك أن العادة أن يشبه المتخلص من البأساء بالبدر الذى ينحسر عنه الغمام والشبه بين البأساء والغمام والظلماء من طريق العقل لا من طريق الحس وأوضح منه فى هذا قول ابن طباطبا (٥) :

---

(١) الأقتم الذى تعلوه القتمة بالتحريك وهى السواد .

(٢) الصواب غيره والقطعة فى وصف الليل والنجوم .

(٣) الصواب كصدود .

(٤) وقبله :

وبت أراعى كوكبا بعد كوكب أوان أفول حائن وطلوع

إذا سار تا سير واحد خلت بعضها إلى بعضها مشدودة بنسوع

كأن موشى الجون عند اكتمالها جلود أقاع أو نزيع دروع

وبعده . كأن سهيلا والنجوم وراءه يعارضها راع وراء قطيع

وقد لاحت الشعرى العبور كأنها تقلب طرف بالدموع هموع

(٥) هو أبو الحسن بن طباطبا واسمه محمد بن أحمد بن ابراهيم ينتهى نسبه إلى على كرم الله وجهه توفى بأصفهان سنة ٣٢٢ هجرية ولقب بطباطبا لأنه كان يبدل القاف طاء أو لأنه أعطى دراعة فقال لا طباطبا يريد قباقبا فبقى هذا لقبا عليه ؛ وهو شاعر مفلق وعالم محقق مذكور بالفطنة وصفاء القريحة وله مصنفات منها عيار الشعر وتهذيب الطبع . وكتاب العروض لم يسبق إلى مثله

صحوٌ وغيم وضياء وظُلَم مثل سرور شابهُ عارضُ غم [١]

ومن حد ما يقع فى هذا الباب قول التنوخى فى قطعة وهى قوله :

أما ترى البرد قد وافت عساكره وعسكر الحر كيف انصاع منطلقا
فالأرض تحت ضريب الثلج تحسبها قد ألبست حُبُكا أوغُشِّيت ورِقا [٢]
فانهض بنار إلى فحم كأنهما فى العين ظلم وإنصاف قد اتفقا
جاءت ونحن كقلب الصب حين سلا برداً فصرنا كقلب الصب إذ عشقا

المقصود فانهض بنار إلى فحم فإنه لما كان يقال فى الحق إنه منير واضح لائح فتستعار له أوصاف الأجسام المنيرة وفى الظلم خلاف ذلك تخيلهما شيئين لهما ابيضاض واسوداد وإنارة وإظلام فشبه النار والفحم بهما .

ومن هذا الباب قول ابن بابك :

وأرض كأخلاق الكريم قطعتها وقد كَحَل الليلُ السِّماك فأبصرا

لما كانت الأخلاق توصف بالسعة والضيق وكثر ذلك واستمر توهمه حقيقة فقابل بين سعة الأرض التى هى سعة حقيقة وأخلاق الكريم . ومثله قول أبى طالب المأمونى [٣] :

---

(١) فى بعض الكتب رواية القطعة هكذا .

ويوم رحب ذى ضمير متهم مثل سرور شابه عارض هم
صحو وغيم وضياء وظلم كأنه مستعبد قد ابتسم

إلى أن قال فى وصف المحبوب :

تفاحه وقف على لثم وشم ورمانه وقف على هصر وضم
يا طيبه يوما تولى وانصرم وجوده من قصر مثل العدم

(٢) الحبك هنا الدروع والضريب هنا بمعنى المضروب أى المقيم الثابت أى أنها تحت الثلج الثابت كأنها دروع فى التبلور واللمعان .

(٣) هو أبو طالب عبد السلام بن الحسين من أولاد أمير المؤمنين المأمون =

وفلاً كآمال يضيق بها الفتى لا تصدق الأوهام فيها قيلا
أقريتها بشِملة تقرى الفـلا عَنَقًا وتقريها الفلاة نحولا (١)

قاس الفلا فى السعة وهى حقيقة فيها على الآمال وهى إذا وصفت بالسعة كان مجازا بلا شبهة، ولكن لما كان يقال: آمال طوال وآمال لا نهاية لها واتسعت آماله وأشباه ذلك صارت هذه الأوصاف كأنها موجودة فيها من طريق الحس والعيان. وعلى ذكر الأمل فمن لطيف ما جاء فى التشبيه به على هذا الحد وإن لم يكن فى معنى السعة والامتداد، ولكن فى الظلمة والاسوداد، قول ابن طباطبا:

رب ليل كأنه أملى فيـ ك وقد رحت عنك بالحرمان
جُبْتُه والنجوم تنعَش فى الأفـق وتطرِفن كالعيون الزوانى (٢)
هاربا من ظلام فعلك فى نحـ و ضياء الفتى الأغر الهِجان (٣)

لما كان يقال فى الأمر لا يرجى له نجاح: قد أظلم علينا هذا الأمر وهذا أمر فيه ظلمة، ثم أراد أن يبالغ فى التباس وجه النجح عليه فى أمله

= شريف نفس وأدب وبراعة وفضل وأرب مدح الصاحب فأكرم مثواه حتى دبت عقارب السعاية عليه ففارق الرى وقدم نيسابور ومنها إلى بخارى وأعطى من الأرزاق ما يناسب مقامه وكان يسمو بهمته إلى الخلافة ويمنى نفسه قصد بغداد فى جيوش تنضم إليه من خراسان ولكن المنية اقتطعته دون الأمنية ومات ولم يبلغ الأربعين سنة ٣٨٣ هـ.

(١) الشملة بكسر الشين والميم وتشديد اللام الناقة السريعة والإقراء طلب القرى والضيافة وقرى الضيف قرى وقراه تقريه ضيفه وقرى البلاد طافها والعنق سير فسيح واسع للإبل.

(٢) جبته قطعته ونعش طرفه رفعه لينظر، وطرفت العين من باب ضرب أطبق أحد جفنيه على الآخر والصواب الروانى لا الزوانى.

(٣) الهجان الخيار من كل شىء ورجل هجان كريم الحسب.

تخيل كأن أمله شخص شديد السواد فقاس ليله به كأنه يقول : تفكرت فيما أعلمه من الأشياء السود فرأيت صورة أملي فيك زائدة على جميعها فى شدة السواد فجعلته قياساً فى ظلمة ليلى الذى جبته .

ومن الباب وهو حسن قول ابن المعتز :

لا تخلطوا الدوشاب فى قدح بصفاء ماء طيب البرد [١]

لا تجمعوا بالله ويحكم غلظ الوعيد ورقة الوعد

لما كان يقال : أغلظ له القول ، ويوصف الجافى وكل من أساء وقال ما يكره بالغلظ ، ويوصف كلام المحسن ومن يعمد إلى الجميل باللطافة - جعل الوعيد والوعد أصلا فى الصفتين وقاس عليهما ، فأما قول الآخر :

شربت على سلامة فتكين [٢] شراباً صفوه صفو اليقين

فهو على الحقيقة لا يدخل فى تشبيه الحقيقة بالمجاز لأن الصفاء خلوص الشيء وخلوه من شيء يغيره عن صفته إلا أنه من حيث يقع فى الأكثر لما له بريق وبصيص كان كأنه حقيقة فى المحسوسات ومجاز فى المعقولات . وأما قولهم : هواء أرق من تشاكى الأحباب ، فمن الباب لأن الرقة فى الهواء

(١) الدوشاب من الأشربة المبغوضة لديهم ومن ثم نهى عن خلطه بالماء البارد ضنا به .

(٢) صوابه أفتكين وهو أبو منصور أفتكين غلام تركى كان مولى لمعز الدولة ابن بويه عم عضد الدولة تولى دمشق من معز الدولة ثم خرج على العزيز العبيدى الفاطمى صاحب مصر وقصده بنفسه والتقى جيشاهما فانكسر أفتكين وهرب لكنه أخذ أسيراً إلى العزيز الفاطمى وفى عنقه حبل فأطلقه وأحسن إليه وأقام عنده أسيرا حتى مات فى رجب سنة ٣٧٢ وقد نهاه قبل ذلك عضد الدولة عن حرب ملك مصر وكتب إليه بكلمات متشابهة فى الخط ، غرك عزك فصار قصار ذلك ذلك فاخش فاحش فعلك فعلك بهذى تهدا ، ولم ينقطها ولم يشكلها .

حقيقة ، وفى التشاكى مجاز . وهكذا قول أبى [١] نواس فى خلاعته « حتى هى فى رقة دينى » لأن الرقة من صفات الأجسام فهى فى الدين مجاز .

ومما كأنه [٢] يدخل فى هذا الجلس قول المتنبى [٣] :

يترشفن من فمى رشفات هن فيه أحلى من التوحيد [٤]

وأبعد مايكون الشاعر من التوفيق إذا دعته شهوة الإغراب إلى أن يستعير للهزل [٥] والعبث من الجد ويتغزل بهذا الجاس [٦] .

---

(١) من أبيات هى .

اسقنى يابن أذين من سلاف الزرجون
اسقنى حتى ترى بى جنة غير جنون
قهوة غيب عنها .. ناظرا ريب المنون
عتقت فى الدن حتى هى فى رقة دينى

(٢) لأن التشبيه فيه ضمنى غير صريح .

(٣) من قصيدة قالها فى صباه أولها :

كم قتيل كما قتلت شهيد ببياض الطلى وورد الخدود
وعيون المها ولا كعيون فتكت بالمتيم المعمود

وقبله : راميات بأسهم ريشها الهد ب تشق القلوب قبل الجلود

(٤) رشفت الريق وترشفته إذا مصصته وقال ابن جنى ويروى هن فيه حلاوة التوحيد وقال ابن القطاع أفعل فى مثل هذا يدل على المقاربة والمشابهة ولا يفيد تفضيلا وقال بعضهم التوحيد نوع من التمر جيد ينتج بالعراق .

(٥) كقول أبى نواس :

اسقنيها ابن أدهما واتخذنى لك ابنما
اسقنيها سلافة سبقت خلق آدما
فهى كانت ولم يكن ماخلا الأرض والسما
رأت الدهر ناشئاً وكبيراً مهرما

وقوله أيضا : يا أحمد المرتجى فى كل نائبة قم سيدى نعص جبار السموات

(٦) كقول الآخر : ولو أن مابى جوى وصبابة على جمل لم يدخل النار كافر

وبما هو حسن جميل من هذا الباب قول الصاحب كتب به إلى القاضى أبى الحسن روى عن القاضى أنه قال انصرفت عن دار الصاحب قبيل العيد فجاءنى رسوله بعطر الفطر ومعه (١) فيها هذان البيتان :

يأيها القاضى الذى نفسى له ... مع قرب عهد لقائه مشتاقة

أهديت عطراً مثل طيب ثنائه ... فكأنما أهـدى له أخلاقه

وكون هذا التشبيه مما نحن فيه من الترجيح (٢) أوضح مايكون فليس يخاف أن العادة أن يشبه الثناء بالعطر ونحوه ويشتق منه (٣) وقد عكس كما ترى وذلك على ادعاء أن ثناءه أحق بصفة العطر وطيبه من العطر وأخص به وأنه قد صار أصلا حتى إذا قيس نوع العطر عليه فقد بولغ فى صفته بالطيب ، وجعل له فى الشرف والفضل على جلسه أوفر نصيب .

وإذ قد عرفت الطريقة فى جعل الفرع أصلا فى التمثيل فارجع وقابل بينه وبين التشبيه الظاهر تعلم أن حاله فى الحقيقة مخالفة للحال ثَمّ . وذلك أنك لاتحتاج فى تشبيه البروق بالسيوف والسيوف بالبروق إلى تأويل أكثر من أن العين تؤدى إليك من حيث الشكل واللون وكيفية اللمعان صورة خاصة تجدها فى كل واحد من الشيئين على الحقيقة ولايمكننا أن نقول إن الثريا شبهت باللجام المفضض وبعنقود الكرم المنور وبالوشاح المفصل لتأويل كذا ، بل ليس بأكثر من أن أنجم الثريا لونها لون الفضة ثم إن أجرامها فى الصغر قريبة من تلك الأطراف المركبة على سيور اللجام ، ثم إنها فى الاجتماع والافتراق على مقدار قريب من مواقع تلك الأطراف ،

(١) وفى رواية بخطه .

(٢) الصواب حذفها .

(٣) فى العبارة حذف والأصل فيما يظهر ويشتق له منه وصف فيقال ثناء عاطر .

وكذا القول فى العنقود فإن تلك الأنوار مشاكلة [١] فى البياض وفى أنها ليست متضامة تضام التلاصق ولا هى شديدة التباين حتى يبعد الفصل بين بعضها وبعض ، بل مقاديرها فى القرب والبعد على صفة قريبة مما يتراءى فى العين من مواقع تلك الأنجم . وإذا كان مدار الأمر على أن العين تصف من هذا ماتصف من ذاك لم يكن تشبيه اللجام المفضض بالثريا إلا كتشبيه الثريا به . والحكم على أحدهما بأنه فرع أو أصل يتعلق بقصد المتكلم فما بدأ به فى الذكر فقد جعله فرعاً وجعل الآخر أصلا ، وليس كذلك قولنا : له خلق كالمسك ، وهو فى دنوه بعطائه ، وبعده بعزه وعلائه ، كالبدر فى ارتفاعه ، مع نزول شعاعه [٢] لأن كون الخلق فرعاً والمسك أصلا أمر واجب من حيث كان المعلوم من طريق الإحساس والعيان متقدماً على المعلوم من طريق الروية وهاجس الفكر .

وحكم هذا فى أن الفرع لايخرج عن كونه فرعاً على الحقيقة حكم ماطريق التشبيه فيه المبالغة من المشاهدات والمحسوسات كقولك : هو كحلك [٣] الغراب فى السواد لما هو دونه فيه وقولك فى الشيء من الفواكه مثلا : هو كالعسل ، فكما لايصح أن يعكس فيشبه حلك الغراب بما هو دونه فى السواد والعسل بما لايساويه فى صدق الحلاوة كذلك لايصح أن تقول : هذا مسك كخلق فلان ، إلا على ماقدمت من التخييل . ألا ترى أنه كلام لايقوله إلا من يريد مدح المذكور . فأما أن يكون القصد بيان حال المسك على حد قصدك أن تبين حال الشيء المشبه بحلك الغراب فى السواد

---

(١) الصواب متشاكلة .
(٢) هذا كشرح لبيتى البحترى (دان على أيدى العفاة) الخ . . .
(٣) حلك الغراب بالتحريك حنكه وقيل سواده .

والمشبه بالعسل فى الحلاوة فما لا يكون ، كيف ولولا سبق المعرفة من طريق الحس بحال المسك ثم جريان العرف بما جرى من تشبيه الأخلاق به واستعارة الطيب لها منه لم يتصور هذا الذى تريد تخييله من أنا نبالغ فى وصف المسك بالطيب تشبيهاً بخلق الممدوح وعلى ذلك قولهم : « كأنما سرق المسك عَرفه من خلقك ، والعسل حلاوته من لفظك » هو مبنى على العرف السابق من تشبيه الخلق بالمسك واللفظ بالعسل . ولو لم يتقدم ذلك ولم يتعارف ولم يستقر فى العادات لم يعقل لهذا النحو من الكلام معنى ، لأن كل مبالغة ومجاز فلا بدّ من أن يكون له استناد إلى حقيقة .

وإذا ثبتت هذه الفروق والمقابلات بين التشبيه الصريح الواقع فى العيان وما يدركه الحس وبين التمثيل الذى هو تشبيه من طريق العقل والمقاييس[1] التى تجمع بين الشيئين فى حكم تقتضيه الصفة المحسوسة لا فى نفس الصفة كما بيلت لك فى أول قول ابتدأته فى الفرق بين التشبيه الصريح وبين التمثيل من أنك تشبه اللفظ بالعسل على أنك تجمع بينهما فى حكم توجبه الحلاوة دون الحلاوة نفسها - فههنا لطيفة أخرى تعطيك للتمثيل مثالا من طريق المشاهدة وذاك أنك بالتمثيل فى حكم من يرى صورة واحدة إلا أنه يراها تارة فى المرآة وتارة على ظاهر الأمر . وأما فى التشبيه الصريح فإنك ترى صورتين على الحقيقة .

يبين ذلك أنا لو فرضنا أن تزول عن أوهامنا ونفوسنا صور الأجسام فى القرب والبعد وغيرهما من الأوصاف الخاصة بالأشياء المحسوسة لم يمكنا تخيل شىء من تلك الأوصاف فى الأشياء المعقولة ، فلا[2] يتصور معنى

---

(١) عطف عليه للبيان والإيضاح .

(٢) حل لبيتى البحترى دان على أيدى العفاة إلخ

كون الرجل بعيداً من حيث العزة والسلطان : قريباً من حيث الجود والإحسان ، حتى يخطر ببالك ، وتطمح بفكرك ، إلى صورة البدر وبعد جرمه عنك ، وقرب نوره منك ، وليس كذلك الحال فى الشيئين يشبه أحدهما الآخر من جهة اللون والصورة والقدر ؛ فإنك لا تفتقر فى معرفة كون [١] النرجس وخرطه واستدارته وتوسط أحمره لأبيضه إلى تشبيهه بمداهن در حشوهن عقيق ، كيف وهو شىء تعرضه عليك العين وتضعه فى قليل [٢] المشاهدة ، وإنما يزيدك التشبيه صورة ثانية مثل هذه التى معك ويجتلبها لكن من مكان بعيد حتى تراهما معا وتجدهما جميعا . وأما فى الأولى فإنك لا تجد فى الفرع نفس ما فى الأصل من الصفة وجنسه وحقيقته ، ولا يحضرك تمثيل أوصاف الأصل على التعيين والتحقيق وإنما يخيل إليك أنه يحضرك ذلك ، فإنه يعطيك من الممدوح بدراً ثانيا فصار [٣] وزان أن المرآة تخيل إليك أن فيها شخصاً ثانيا على صورة ما هى مقابلة له ، ومتى ارتفعت المقابلة ذهب عنك ما كنت تتخيله فلا تجد إلى وجوده سبيلا ، ولا تستطيع له تحصيلا ، لا جملة ولا تفصيلا .

فصـــــل

« الفرق بين الاستعارة [٤] والتمثيل »

اعلم أن من المقاصد التى تقع العناية بها أن نبين حال الاستعارة مع

---

(١) الصواب لون .

(٢) الصواب قلبك .

(٣) أي التمثيل .

(٤) الاستعارة التى يعنيها هى الاستعارة المفردة إذ من رأيه كما تقدم أن الاستعارة التمثيلية التى أثبتها القوم من فروع التمثيل .

التمثيل أهى هو على الإطلاق حتى لا فرق بين العبارتين أم حدها غير حده، إلا أنها تتضمنه وتتصل به، فيجب أن نفرد جملة من القول فى حالها مع التمثيل.

قد مضى فى الاستعارة أن حدها أن يكون للفظ اللغوى أصل ثم ينقل عن ذلك الأصل على الشرط المتقدم. وهذا الحد لا يجىء فى معنى التمثيل الذى تقدم (١) من أن الأصل فى كونه مثلا وتمثيلا هو التشبيه المنتزع من مجموع أمور، والذى لا يحصله لك إلا جملة من الكلام أو أكثر، لأنك (٢) قد تجد الألفاظ فى الجمل التى يعقد منها جارية على أصولها وحقائقها فى اللغة.

وإذا كان الأمر كذلك بان أن الاستعارة يجب أن تفيد حكماً زائداً على المراد بالتمثيل إذ لو كان مرادنا بالاستعارة هو المراد بالتمثيل لوجب أن يصح إطلاقها فى كل شىء يقال فيه إنه تمثيل ومثل. والقول فيها أنها دلالة على حكم نبت للفظ وهو نقله عن الأصل اللغوى وإجراؤه على مالم يوضع له. ثم إن هذا النقل يكون فى الغالب (٣) من أجل شبه بين ما نقل إليه وما نقل عنه.

وبيان ذلك ما مضى من أنك تقول رأيت أسداً - تريد رجلا شبيها به فى الشجاعة، وظبية - تريد امرأة شبيهة بالظبية فالتشبيه ليس هو الاستعارة ولكن الاستعارة كانت من أجل التشبيه وهو كالغرض فيها، أو كالعلة والسبب فى فعلها. فإن قلت كيف تكون الاستعارة من أجل التشبيه والتشبيه يكون ولا استعارة؟ وذلك إذا جئت بحرفه الظاهر فقلت: زيد

---

(١) أى فى قوله إن المثل الحقيق والتشبيه الذى هو أولى الخ...

(٢) علة لقوله لا يجىء.

(٣) بناء على ماتقدم له من تقسيم الاستعارة إلى مفيدة وغير مفيدة.

كالأسد . فالجواب أن الأمر كما قلت ولكن التشبيه يحصل بالاستعارة على وجه خاص وهو المبالغة فقولى « من أجل التشبيه » أردت من أجل التشبيه على هذا الشرط . وكما أن التشبيه الكائن على وجه المبالغة غرض فيها وعلة ، كذلك الاختصار والإيجاز غرض من أغراضها . ألا ترى أنك تفيد بالاسم الواحد الموصوف والصفة والتشبيه والمبالغة لأنك تفيد بقولك « رأيت أسداً » أنك رأيت شجاعا شبيها بالأسد وأن شبهه به فى الشجاعة على أتم ما يكون وأبلغه حتى إنه لا ينقص عن الأسد فيها . وإذا ثبت ذلك فكما لا يصح أن يقال إن الاستعارة هى الاختصار والإيجاز على الحقيقة وإن حقيقتها وحقيقتهما واحدة ، ولكن يقال إن الاختصار والإيجاز يحصلان بها ، أو هما غرضان فيها ، ومن جملة ما دعا إلى فعلها ، كذلك حكم التشبيه معها . فإذا ثبت أنها ليست التشبيه على الحقيقة كذلك لا تكون التمثيل على الحقيقة ، لأن التمثيل تشبيه إلا أنه تشبيه خاص ، فكل تمثيل تشبيه وليس كل تشبيه تمثيلا .

وإذ قد تقرر هذه الجملة فإذا كان الشبه بين المستعار منه والمستعار له من المحسوس والغرائز والطباع وما يجرى مجراها من الأوصاف المعروفة كان حقها أن يقال إنها تتضمن التشبيه ولا يقال إن فيها تمثيلا وضرب مثل وإذا كان الشبه عقليا جاز إطلاق التمثيل فيها وأن يقال ضرب الاسم مثلا لكذا كقولنا ضرب النور مثلا للقرآن ، والحياة مثلا للعلم . فقد حصلنا من هذه الجملة على أن المستعير يعمد إلى نقل اللفظ عن أصله فى اللغة إلى غيره ويجوز به مكانه الأصلى إلى مكان آخر لأجل الأغراض التى ذكرنا من التشبيه والمبالغة والاختصار . والضارب للمثل لا يفعل ذلك ولا يقصده ولكنه

يقصد إلى تقرير الشبه بين الشيئين من الوجه الذى مضى . ثم إن وقع فى أثناء ما يعقد به المثل من الجملة والجملتين والثلاث لفظة منقولة عن أصلها فذاك شىء لم يعتمده من جهة المثل الذى هو ضاربه . وهكذا كل متعاط لتشبيه صريح [1] لايكون نقل اللفظ من شأنه ولا من مقتضى غرضه ، فإذا قلت : زيد كالأسد ، وهذا الخبر كالشمس فى الشهرة : وله رأى كالسيف فى المضاء ، لم يكن منك نقل للفظ عن موضوعه . ولو كان الأمر على خلاف ذلك لوجب ألا يكون فى الدنيا تشبيه إلا وهو مجاز ، وهذا محال لأن التشبيه معنى من المعانى وله حروف وأسماء تدل عليه فإذا صرح بذكر ماهو موضوع للدلالة عليه كان الكلام حقيقة كالحكم فى سائر المعانى فاعرفه .

واعلم أن اللفظة المستعارة لاتخلو من أن تكون اسماً أو فعلا ، فإذا كانت اسماً كان اسم جنس أو صفة ، فإذا كان اسم جنس فإنك تراه فى أكثر الأحوال التى تنقل فيها محتملا متكفئاً [2] بين أن يكون للأصل وبين أن يكون للفرع الذى من شأنه أن ينقل إليه . فإذا قلت رأيت أسداً ، صلح هذا الكلام لأن تريد به أنك رأيت واحداً من جنس السبع المعلوم وجاز أن تريد أنك رأيت شجاعاً باسلا شديد الجرأة وإنما يفصل لك أحد الغرضين من الآخر شاهد الحال [3] وما يتصل به من الكلام من قبل وبعد . وإن كان فعلا أو صفة كان فيهما هذا الاحتمال فى بعض الأحوال ، وذلك إذا أسندت الفعل وأجريت الصفة على اسم مبهم يقع على ما يكون أصلا فى

(١) يعنى به ما قابل الاستعارة لاما عناه فيما سبق من جعله مقابلا للتمثيل .

(٢) المتكفىء فى الأصل المتمايل إلى الأمام كما تتكفأ السفينة فى جريها ويراد به هنا الصالح للأمرين على السواء .

(٣) المناسب أو بدل الواو ليكون إشارة إلى القرينتين الحالية والمقالية .

تلك الصفة وذاك الفعل وما يكون فرعاً فيهما نحو أن تقول : أنار لى منير ، فهذا الكلام يحتمل أن يكون « أنار » و « منير » فيه واقعين على الحقيقة بأن يُعنى بالشيء بعض الأجسام ذوات النور . وأن يكونا واقعين على المجاز بأن تريد بالشيء نوعاً من العلم والرأى وما أشبه ذلك من المعانى التى لا يصح وجود النور فيها حقيقة وإنما توصف به على سبيل التشبيه . وفى الفعل والصفة شيء آخر وهو أنك كأنك تدعى معنى اللفظ المستعار [1] له . فإذا قلت : قد أنارت حجته ، وهذه حجة منيرة ، فقد ادعيت للحجة النور ولذلك تجيء فتضيفه إليه كما تضاف المعانى التى يشتق منها الفعل والصفة إلى الفاعل والموصوف [2] فتقول : نور هذه الحجة جلا بصرى وشرح صدرى ، كما تقول : نور الشمس . والمثل لا يوجب شيئاً من هذه الأحكام فلا هو يقتضى تردد اللفظ بين احتمال شيئين ولا أن يدعى معناه للشيء ولكنه يدع اللفظ مستقراً على أصله .

وإذ قد ثبت هذا الأصل فاعلم أن ههنا أصلا آخر يبنى عليه وهو أن الاستعارة وإن كانت تعتمد التشبيه والتمثيل [3] وكان التشبيه يقتضى شيئين مشبهاً ومشبهاً به وكذلك التمثيل لأنه كما عرفت تشبيه إلا أنه عقلى - فإن الاستعارة من شأنها أن تسقط ذكر المشبه من البين وتطرحه وتدعى له الاسم الموضوع للمشبه به كما مضى من قولك : رأيت أسداً تريد رجلا شجاعاً ووردت بحراً زاخراً تريد رجلا كثير الجود فائض الكف ، وأبديت نوراً

---

(١) الصواب المستعار له إلا إذا قيل إنه متعلق بتدعى والضمير يعود إلى الشيء الذى أسند إليه الفعل وأجريت عليه الصفة .

(٢) أى الحقيقيين .

(٣) الأظهر أو بدليل ما بعده .

تريد علماً، وما شاكل ذلك. فالاسم الذى هو المشبه غير مذكور بوجه من الوجوه كما ترى. وقد نقلت الحديث إلى اسم المشبه به لقصدك أن تبالغ فيه فتضع اللفظ بحيث تخيل أن معك نفس الأسد والبحر والنور كى تقوى أمر المشابهة وتشدده ويكون لها هذا الصنيع حيث يقع الاسم المستعار فاعلا أو مفعولا أو مجروراً بحرف الجر أو مضافاً إليه، فالفاعل كقولك: بدا لى أسد، وانبرى لى ليث، وبدا نور، وظهرت شمس ساطعة، وفاض لى بالمواهب بحر، وكقوله [١]:

وفى الجيرة الغادين من بطن وَجْرَة [٢] غـــزال كحيل المقلتين ربيب

والمفعول كما ذكرت من قولك رأيت أسداً. والمجرور نحو قولك لاعار إن فر من أسد يزأر، والمضاف إليه كقوله [٣]:

يابن الكواكب من أئمة هاشم والرُّجّح الأحساب والأحلام

وإذا جاوزت هذه الأحوال كان اسم المشبه مذكوراً وكان مبتدأ واسم المشبه به واقعاً فى موضع الخبر، كقولك زيد أسد، أو على هـذا الحد.

---

(١) نسبه فى الأمالى نقلا عن الرياشى لأعرابى وقيل إنه للأحوص الأنصارى من شعراء العصر الأموى وبعده:

فلا تحسبي أن الغريب الذى نأى ولـكن من تنأين عنه غريب

(٢) وجرة موضع بين مكة والبصرة.

(٣) هو أبو تمام من قصيدة يهنئ بها الواثق ويعزيه فى أبيه المعتصم ومطلعها:

ما للدموع تروم كل مرام والجفن ثاكل هجعة ومنام
يا تربة المعصوم تربك مودع ماء الحياة وقاتل الإعدام

وقبله

لله أى حياة انبعثت لنا يوم الخميس وبعد أى حمام
أودى بخير إمام اضطربت له شعب الرجال وقام خير إمام
تلك الرزية لا رزية مثلها والقسم ليس كسائر الأقسام

وهل يستحق الاسم فى هذه الحالة أن يوصف بالاستعارة أم لا ؟ فيه شبهة وكلام سيأتيك إن شاء الله تعالى .

وإذ قد عرفت [١] هذه الجملة فينبغى أن تعلم أنه ليس كل شىء يجىء مشبهاً به بكاف أو بإضافة « مثل » إليه يجوز أن تسلط عليه الاستعارة وينفذ حكمها فيه حتى تنقله عن صاحبه وتدعيه للمشبه على حد قولك . أبديت نوراً ، تريد علماً ، وسللت سيفاً صارماً ، تريد رأياً نافذاً . وإنما يجوز ذلك إذا كان الشبه بين الشيئين مما يقرب مأخذه ويسهل متناوله ، ويكون فى الحال دليل عليه وفى العرف شاهد له حتى يمكن المخاطب إذا أطلقت له الإسم أن يعرف الغرض ويعلم ما أردت فكل شىء كان من الضرب الأول الذى ذكرت أنك تكتفى فيه بإطلاق الإسم ، داخلا عليه حرف التشبيه نحو قولهم . هو كالأسد ، فإنك إذا أدخلت عليه حكم الاستعارة وجدت فى دليل الحال وفى العرف ما يبين غرضك ، إذ يعلم إذا قلت رأيت أسداً - وأنت تريد الممدوح - أنك قصدت وصفه بالشجاعة ، وإذا قلت طلعت شمس - وأنت تريد امرأة - عُلم بأنك [٢] تريد وصفها بالحسن وإن أردت الممدوح علم أنك تقصد وصفه بالنباهة والشرف .

فأما إذا كان [٣] من الضرب الثانى لا سبيل إلى معرفة المقصود من

---

(١) هذا تقييد لما فهم مما سبق من أن الاستعارة من شأنها أن تسقط المشبه إلى آخره إذ يفهم منه التعميم وأن كل تشبيه يمكن تحويله إلى استعارة .

(٢) المناسب أنك بحذف الباء إلا إذا ضمن معنى تعلق كقول الحماسى :

واعلم بأن الضيف يو … ما سوف يحمد أو يلوم

(٣) اسم كان يعود إلى الشىء ومن الضرب الثانى خبرها وجملة الخ لا سبيل . . . جملة حالية من الضمير المستكن فى الخبر أو سقطت كلمة (الذى) من الجملة .

الشبه فيه إلا بعد ذكر الجمل التى يعقد بها التمثيل فإن الاستعارة لا تدخله لأن وجه الشبه إذا كان غامضاً لم يجز أن تقتسر الاسم وتغصب عليه موضعه وتنقله إلى غير ما هو أهله من غير أن يكون معك شاهد ، ينبئ عن الشبه فلو حاولت فى قوله . «فإنك كالليل الذى هو مدركى» أن تعامل الليل معاملة الأسد فى قولك . رأيت أسداً - أعنى أن تسقط ذكر الممدوح من البين - لم تجد له مذهباً فى الكلام ولا صادفت طريقة توصلك إليه ، لأنك لا تخلو من أحد أمرين إما أن تحذف الصفة وتقتصر على ذكر الليل مجرداً فتقول . إن فررت أظلنى الليل . وهذا محال لأنه ليس فى الليل دليل على النكتة التى قصدها من أنه لا يفوته وإن أبعد فى الهرب ، وصار إلى أقصى الأرض ، لسعة ملكه وطول يده ، وأن له فى جميع الآفاق عاملا وصاحب حبس ومطيعاً لأوامره ، يرد الهارب عليه ، ويسوقه إليه ، وغاية ما يتأتى فى ذلك أنه يريد إن هرب عنه أظلمت عليه الدنيا وتحير ولم يهتد فصار كمن يحصل فى ظلمة الليل ، وهذا شىء خارج عن الغرض ، وكلامنا على أن تستعير الاسم لتؤدى به التشبيه الذى قصد فى البيت ولم أرد أنه لا تمكن استعارته على معنى مّا ولا يصلح فى غرض من الأغراض ؛ وإن لم تحذف الصفة وجدت طريق الاستعارة فيه يؤدى إلى تعسف إذ لو قلت . إن فررت منك وجدت ليلا يدركنى وإن ظننت أن المنتأى واسع والمهرب بعيد - قلت ما لا تقبله الطباع ، وسلكت طريقة مجهولة لأن العرف لم يجر بأن تجعل الممدوح ليلا هكذا .

فأما قولهم إن التشبيه بالليل يتضمن الدلالة على سخطه فإنه لا يفسح فى أن يجرى اسم الليل على الممدوح جرى الأسد والشمس ونحوهما ، وإنما تصلح

استعارة الليل لمن يقصد وصفه بالسواد والظلمة ؛ كما قال ابن طباطبا :

« بعثت معى قطعا من الليل مظلماً »

يعنى زنجياً قد أنفذه المخاطب معه حين انصرف عنه إلى منزله ، هذا ـ ويماثله كلما [١] وجدت ما إن رمت فيه طريقة الاستعارة لم تجد [٢] فيه هذا القدر من التمحل والتكلف أيضا ، وهو كقول النبى صلى الله عليه وسلم « الناس كابل مائة لا تجد فيها راحلة » قل الآن من أى جهة تصل إلى الاستعارة ههنا ، وبأى ذريعة تتذرع إليها ؟ هل تقدر أن تقول رأيت إبلا مائة لا تجد فيها راحلة ، فى معنى رأيت ناساً والإبل المائة التى لا تجد فيها راحلة تريد الناس ، كما قلت رأيت أسداً ، على معنى رجلا كالأسد وأطلقت [٣] عليه الأسد على معنى الذى هو الأسد [٤] ؟ وكذا قول النبى صلى الله عليه وسلم : « مثل المؤمن كمثل النخلة أو مثل الخامة » [٥] لا تستطيع أن تتعاطى الاستعارة فى شىء منه فتقول رأيت نخلة أو خامة على معنى رأيت مؤمنا . إن من رام مثل هذا كان كما قال صاحب الكتاب ملغزاً تاركا لكلام الناس الذى يسبق إلى أفئدتهم . وقد قدمت طرفاً من هذا الفصل فيما مضى ولكننى

---

(١) الصواب أن نفصل (ما) من كل وتكون كل فاعل يماثل وما نكرة موصوفة وظرف وجدت الأولى محذوف تقديره فيه وما الثانية مفعول وجدت وهى نكرة موصوفة بجملتى الشرط والجواب ويصح أن تكون ما الثانية فاعل يماثل وتكون « كلما وجدت » اعتراضية وبعد فهى عبارة ركيكة .

(٢) الصواب وجدت بدليل ما بعده من قوله ملغزا وقوله تاركا كلام الناس .

(٣) الصواب وأطلقت .

(٤) الصواب كالأسد .

(٥) الخامة الغضة الرطبة من النبات ولفظ الحديث مثل المؤمن مثل الخامة من الزرع تميلها الريح مرة هكذا ومرة هكذا ونحوه قول الطرماح :

إنما نحن مثل خامة زرع فمتى يأن يأت محتصده

أعدته ههنا لاتصاله بما نريد ذكره.

فقد ظهر أنه ليس كل شيء يجيء فيه التشبيه الصريح بذكر الكاف ونحوها يستقيم نقل الكلام فيه إلى طريقة الاستعارة وإسقاط ذكر المشبه جملة والاقتصار على المشبه به. وبقي أن يتعرف الحكم في الحالة الأخرى [١] وهي التي يكون كل واحد من المشبه والمشبه به مذكوراً فيها نحو: زيد أسد ووجدته أسداً، هل تساوق [٢] صريح التشبيه حتى يجوز في كل شيئين قصد تشبيه أحدهما بالآخر أن تحذف الكاف من الثاني وتجعله خبراً عن الأول أو بمنزلة الخبر؟ والقول [٣] في ذلك أن التشبيه إذا كان صريحاً بالكاف و «مثل» كان الأعرف الأشهر في المشبه به أن يكون معرفة كقولك: هو كالأسد وهو كالشمس وهو كالبحر وكليث العرين وكالصبح وكالنجم وما شاكل ذلك، ولا يكاد يجيء نكرة مجيئاً يرتضى، نحو هو كأسد وكبحر وكغيث، إلا أن يخصص بصفة نحو كبحر زاخر، فإذا جعلت الاسم المجرور بالكاف معرباً بالإعراب الذي يستحقه الخبر من الرفع والنصب كان كلا الأمرين - التعريف والتنكير - فيه حسناً جميلا. تقول زيد الأسد والشمس والبحر، وزيد أسد وشمس وبدر وبحر.

وإذ قد عرفت [٤] هذا فارجع إلى نحو:

---

(١) وهي الحال التي يكون الطرفان فيها موجودين في الكلام على جهة التشبيه البليغ.

(٢) تساوقت الغنم تزاحمت في السير.

(٣) يؤخذ من هذا أنهما يتساوقان تعريفا ولا يتساوقان تنكيرا.

(٤) فيه بيان الفرق بين التشبيه الذي لا تأول فيه وما فيه التأول من جهة المعنى عند تحويلهما إلى تشبيه بليغ وبعبارة أخرى إن المشبه إذا كان مفردا ساغ تحويله إلى تشبيه بليغ وإلا لا يمكن كما في التمثيل المركب.

« فإنك كالليل الذى هو مدركى »

واعلم أنه قد يجوز فيه أن تحذف الكاف وتجعل المجرور (الليل) خبراً فتقول : فإنك الليل الذى هو مدركى . أو أنت الليل الذى هو مدركى . وتقول فى قول النبى صلى الله عليه وسلم « مثل المؤمن مثل الخامة من الزرع » المؤمن الخامة من الزرع . وفى قوله عليه الصلاة والسلام « الناس كإبل مائة » الناس إبل مائة . ويكون تقديره على أنك قدرت مضافاً محذوفاً على حد (واسئل القرية) تجعل الأصل فإنك مثل الليل ثم تحذف مثلا .

والنكتة فى الفرق [١] بين هذا الضرب الذى لابد للمجرور بالكاف ونحوها من وصفه بجملة من الكلام أو نحوها وبين الضرب الأول الذى هو نحو زيد كالأسد ، أنك إذا حذفت الكاف هناك فقلت : زيد الأسد فالقصد أن تبالغ فى التشبيه فتجعل المذكور كأنه الأسد وتشير إلى مثل مايحصل لك من المعنى إذا حذفت ذكر المشبه أصلا فقلت : رأيت أسداً أو الأسد فأما فى نحو « فإنك كالليل الذى هو مدركى » فلا يجوز أن تقصد جعل الممدوح الليل ولكنك تنوى أنك أردت أن تقول : فإنك مثل الليل ثم حذفت المضاف من اللفظ وأبقيت المعنى على حاله إذا لم تحذف . وأما هناك فإنه وإن كان يقال أيضاً إن الأصل زيد مثل الأسد ثم تحذف ، فليس الحذف فيه على هذا الحد بل على أنه جعل كأن لم يكن لقصد المبالغة . ألا تراهم يقولون جعله الأسد وبعيد أن تقول جعله الليل لأن القصد لم يقع إلى وصف فى الليل كالظلمة ونحوها وإنما قصد الحكم الذى له من تعميمه الآفاق وامتناع أن يصير الإنسان إلى مكان لايدركه الليل فيه .

---

(١) وهذا ما فهم من قوله ويكون تقديره الخ ...

وإن أردت أن تزداد علماً بأن الأمر كذلك أعنى أن ههنا مايصلح فيه التشبيه الظاهر ولا تصلح فيه المبالغة وجعل الأول الثانى فاعمد إلى [١] ماتجد الاسم الذى افتتح به المثل فيه غير محتمل لضرب من التشبيه إذا أفرد وقطع عن الكلام بعده كقوله تعالى (إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء) الآية لوقلت : إنما الحياة الدنيا ماء أنزلناه من السماء أو الماء ينزل من السماء فتخضر منه الارض ، لم يكن للكلام وجه ، غير أن تقدر حذف «مثل» نحو إنما الحياة الدنيا مثل ماء ينزل من السماء فيكون كيت وكيت ، إذ لا يتصور بين الحياة الدنيا والماء شبه يصح قصده وقد أفرد كما قد يتخيل فى البيت أنه قصد تشبيه الممدوح بالليل فى السخط . وهذا موضع فى الجملة مشكل ولا يمكن القطع فيه بحكم على التفصيل ، ولكن لاسبيل إلى جحد أنك تجد الاسم فى الكثير وقد يوضع موضعا فى التشبيه بالكاف لو حاولت أن تخرجه فى ذلك الموضع بعينه إلى حد الاستعارة [٢] والمبالغة ، وجعل هذا ذاك ، لم ينقد لك كالنكرة التى هى «ماء» فى الآية وفى الآى الاخر نحو قوله تعالى : (أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق) ولوقلت : هم صيب ولا تضمر مثلا إلبتة على حد «هو أسد» لم يجز لأنه لامعنى لجعلهم صيبا فى هذا الموضع ، وإن كان لايمتنع أن يقع صيب فى موضع آخر ليس من هذا الغرض فى شىء استعارة [٣] ومبالغة كقولك ؛ فاض صيب منه تريد جوده ، وهو صيب يفيض ، تريد يتدفق فى الجود - فلسنا نقول إن هاهنا اسم جنس واسما صفة لايصلح للاستعارة فى حال من الأحوال .

---

(١) أى إلى تركيب .
(٢) الصواب أو المبالغة بدليل ما بعده :
(٣) الصواب أو مبالغة .

وهذا شَعب من القول [١] يحتاج إلى كلام أكثر من هـذا ويدخل فيه مسائل ولـكن استقصاءه يقطع عن الغرض . فإن قلت فلا بد من أصل يرجع إليه فى الفرق بين مايحسن أن يصرف وجهه إلى الاستعارة [٢] والمبالغة وما لا يحسن ذلك فيه ، ولا يجيبك المعنى إليه ، بل يصد بوجهه عنك متى أردته عليه . فالجواب أنه لا يمـكن أن يقال فيـه قول قاطع . ولـكن ههنا نـكتة يجب الاعتماد عليها ، والنظر إليها ، وهى أن الشبه إذا كان وصفا معروفا فى الشىء قد جرى العرف بأن يشبه من أجله به ، وتعورف كونه أصلا فيه يقاس عليه ، كالنور والحسن فى الشمس أو الاشتهار والظهور وأنها لاتخفى فيها [٣] أيضا وكالطيب فى المسك والحلاوة فى العسل والمرارة فى الصاب والشجاعة فى الأسد والفيض فى البحر والغيث والمضاء والقطع والحدة فى السيف والنفاذ فى السنان وسرعة المرور فى السهم وسرعة الحركة فى شعلة النار وما شاكل ذلك من الأوصاف التى لكل وصف منها جنس هو أصل فيه ، ومقدم فى معانيه ـ فاستعارة الاسم للشىء على معنى ذلك الشبه تجىء سهلة منقادة ، وتقع مألوفة معتادة ، وذلك أن هذه الأوصاف من هذه الأسماء قد تعورف [٤] كونها أصولا فيها وأنها أخص ماتوجد فيه بها ، فكل أحد يعلم أن أخص المنيرات [٥] بالنور الشمس ، فإذا أطلقت ودلت الحال على التشبيه لم يخف المراد . ولو أنك أردت من الشمس الاستدارة ، لم يجز

---

(١) أى قبيلة وطائفة .
(٢) الصواب أو المبالغة .
(٣) فيها مرتبط بالاشتهار والظهور .
(٤) أى تعورف كون الأسماء أصولا فى هذه الأوصاف .
(٥) المناسب النيرات أى الكواكب .

أن تدل عليه بالاستعارة ، ولكن إن أردتها من الفلك جاز ، فإن قصدتها من الكرة كان أبين لأن الاستدارة من الكرة أشهر وصف فيها . ومتى صلحت الاستعارة فى شىء فالمبالغة فيه أصلح ، وطريقها أوضح ، ولسان الحال بها أفصح ، أعنى أنك إذا قلت : « يابن الكواكب من أئمة هاشم » و « يابن الليوث الغر » فأجريت الاسم على المشبه إجراءه على أصله الذى وضع له . وادعيته له كان قولك : هم الكواكب وهم الليوث ، أوهم كواكب وليوث ، أحرى أن تقوله ، وأخف مؤنة على السامع فى وقوع العلم له به .

واعلم أن المعنى فى المبالغة ـ وتفسيرنا لها بقولنا جعل هذا ذاك وجعله الأسد وادعى أنه الأسد حقيقة ـ أن المشبه الشىء بالشىء من شأنه أن ينظر إلى الوصف الذى يجمع بين الشيئين وينفى عن نفسه الفكر فيما سواه جملة ، فإذا شبه بالأسد ألقى صورة الشجاعة بين عينيه ، وألقى ماعداها فلم ينظر إليه ، فإن هو قال : زيد كالأسد كان قد أثبت له حظا ظاهراً فى الشجاعة ولم يخرج عن الاقتصاد ، وإذا قال هو الأسد ، تناهى فى الدعوى إما قريبا من المحق لفرط بسالة الرجل ، وإما متجوزاً (١) فى القول لجعله بحيث لاتنقص شجاعته عن شجاعة الأسد ولايعدم منها شيئا . وإذا كان بحكم التشبيه وبأنه مقصوده من ذكر الأسد فى حكم من يعتقد أن الاسم لم يوضع على ذلك السبع إلا للشجاعة التى فيه ، وأن ماعداها من صورته وسائر صفاته عيال عليها وتبع لها فى استحقاقه هذا الاسم ، ثم أثبت لهذا الذى يشبهه به تلك الشجاعة بعينها حتى لا اختلاف ولا تفاوت فقد (٢) جعل الأسد له لامحالة لأن قولنا « هو هو » على معنيين

---

(١) متوسعا فيه .

(٢) جواب قوله وإذا كان بحكم التشبيه الخ ...

(أحدهما) أن يكون للشيء اسمان يعرفه المخاطب بأحدهما دون الآخر فإذا ذكر باسمه الآخر توهم أن معك شيئين ، فإذا قلت : زيد هو أبو عبد الله ، عرفت أن هذا الذى تذكر الآن هو الذى عرفه بأبى عبد الله .

و (الثانى) أن يراد تحقيق التشابه بين الشيئين وتكميله لهما ، ونفى الاختلاف والتفاوت عنهما ، فيقال « هو هو » أى لا يمكن الفرق بينهما لأن الفرق يقع إذا اختص أحدهما بصفة لا تكون فى الآخر . وهذا المعنى الثانى فرع على الأول وذلك أن المتشابهين التشابه التام لما كان يحسب أحدهما الآخر ويتوهم الرائى لهما فى حالين أنه رأى شيئا واحداً صاروا إذا حققوا التشبيه بين الشيئين يقولون « هو هو » والمشبه إذا وقف وهمه [1] كما عرفتك على الشجاعة دون سائر الأمور ثم لم يثبت بين شجاعة صاحبه وشجاعة الأسد فرقا فقد صار إلى معنى قولنا « هو هو » بلا شبهة .

وإذا تقررت هذه الجملة فقولنا « فإنك كالليل الذى هو مدركى » إن حاولت فيه طريقة المبالغة فقلت : فإنك الليل الذى هو مدركى - لزمك لا محالة أن تعمد إلى صفة من أجلها تجعله الليل كالشجاعة التى من أجلها جعلت الرجل الأسد . فإن قلت تلك الصفة الظلمة وأنه قصد شدة سخطه وراعى حال المسخوط عليه ، وتوهم أن الدنيا تظلم فى عينيه حسب [2] الحال فى المستوحش الشديد الوحشة كما قال [3] :

---

(١) الصواب همه .

(٢) الذى فى القاموس استعماله مجرورا بالياء وهو بفتح السين وسكونها ومعناه العدد والقدر .

(٣) هو أبو الطيب يمدح أبا القاسم طاهر بن الحسين العلوى بمصر وهو مطلع القصيدة :

أعيدوا صباحى فهو عند الكواعب   وردوا رقادى فهو لحظ الحبائب =

« أعيدوا صباحى فهو عند الكواعب » قيل لك هذا التقدير إن استجزناه وعملنا عليه فانا نحتمله والكلام على ظاهره ، وحرف التشبيه مذكور داخل على الليل كما تراه فى البيت ، فأما وأنت تريد المبالغة فلا يجىء لك ذلك ، لأن الصفات المذكورة لا يواجه بها الممدوحون ، ولا تستعار الأسماء الدالة عليها لهم إلا بعد أن تتدارك وتقرن إليها أضدادها من الأوصاف المحبوبة كقوله : « أنت الصاب والعسل » ولا تقول وأنت مادح : أنت الصابُ ، وتسكت ، وحتى إن الحاذق لا يرضى بهذا الاحتراز وحده حتى يزيد ويحتال فى دفع ما يغشى النفس من الكراهة بإطلاق الصفة التى ليست من الصفات المحبوبة فيصل بالكلام ما يخرج به إلى نوع من المدح كقول المتنبي[1] .

حسن فى وجوه[2] أعدائه أقبح من ضيفه رأته السوام

بدأ فجعله حسنا على الإطلاق ثم أراد أن يجعله قبيحا فى عيون أعدائه على العادة فى مدح الرجل بأن عدوه يكرهه فلم يقنعه ما سبق من تمهيده[3] وتقدم من احترازه فى تلافى ما يجنيه إطلاق صفة القبح حتى وصل به هذه الزيادة من المدح وهى كراهة سوامه لرؤية أضيافه وحتى حصل ذكر القبح مغموراً بين حسنين ، فصار كما يقول المنجمون : يقع النحس مضغوطا بين سعدين فيبطل فعله وينمحق أثره . وقد عرفت ما جناه التهاون بهذا النحو

= فإن نهارى ليلة مدلهمة على مقلة من فقدكم فى غياهب
بعيدة ما بين الجفون كأنما عقدتم أعالى كل جفن بحاجب

(١) يمدح على بن أحمد المزنى الخراسانى وقد تقدم والسوام والسائمة الإبل الراعية وجمع السائم والسائمة سوائم .

(٢) رواية الديوان فى عيون أعدائه .

(٣) بقوله حسن على الإطلاق .

من الاحتراز على أبي تمام حتى صار ما ينعى عليه منه أبلغ شيء في بسط لسان القادح فيه والمنكر لفضله ، وأخصر حجة للمتعصب عليه ، وذلك أنه لم يبال في كثير من مخاطبات الممدوح بتحسين ظاهر اللفظ واقتصر على صميم التشبيه وأطلق اسم الجنس الخسيس كإطلاق الشريف النبيه كقوله [1] :

فإذا ما أردت كنت رشاء   وإذا ما أردت كنت قليبا [2]

فصك وجه الممدوح كما ترى بأنه رشاء وقليب ولم يحتشم أن قال [3] :

ما زال يهذى بالمكارم والعلى   حتى ظننا أنه محموم

فجعله يهذى وجعل عليه الحمى ، وظن أنه إذا حصل له المبالغة في إثبات المكارم له وجعلها مستبدة بأفكاره وخواطره حتى لا يصدر عنه غيرها ، فلا ضير أن يتلقاه بمثل هذا الخطاب الجافي ، والمدح المتنافي ، فكذلك

(١) من قصيدة يمدح بها أبا سعيد محمد بن يوسف الثغري ومطلعها :

من سجايا الطلول ألا تجيبا   فصواب من مقلتي أن تصوبا
فاسألنها واجعل بكاك جوابا   تجد الدمع سائلا ومجيبا

إلى أن قال :

لو رأى الله أن في الشيب خيرا   جاورته الأبرار في الخلد شيبا
كل يوم تبدى صروف الليالي   خلقا من أبي سعيد غريبا

ثم قال :

أنضرت أيكتي عطاياك حتى   صار ساقا عودي وكان قضيبا
ممطرا لي بالجاه والمال ما أل   قاك إلا مستوهبا أو وهوبا

(٢) الرشاء حبل الدلو ، والقليب البئر .

(٣) يمدح أبا الحسين محمد بن الهيثم بن شبابة من القواد ومطلعها :

أسقى طلولهم أجش هزيم   وغدت عليهم نضرة ونعيم

وقبله :

لمحمد بن الهيثم بن شبابة   مجد إلى جنب السماء مقيم
لله كف محمد وولادها   بالبذل إذ بعض الأكف عقيم
غيث حوى كرم الطبائع دهره   والغيث يكرم مرة ويلوم

أنت هذه قصتك ، وهذه قضيتك ، فى اقتراحك علينا أن نسلك بالليل فى البيت طريق المبالغة على تأويل السخط .

(فإن قلت) أفترى أن تأبى هذا التقدير [١] فى البيت أيضا حتى يُقْصر التشبيهُ على ما تفيده الجملة الجارية فى صلة الذى ؟ (قلت) فإن ذلك الوجهُ فيما أظنه فقد جاء فى الخبر عن النبى صلى الله عليه وسلم «ليدخلنَّ هذا الدينُ ما دخل عليه الليل» فكما تجرد المعنى للحكم الذى هو الليل من الوصول إلى كل مكان ، ولم يكن لاعتبار ما اعتبروه من شبه ظلمته وجه كذلك يجوز أن يتجرد فى البيت له ويكون ما ادعوه من الإشارة بظلمة الليل إلى إدراكه له ساخطاً ضرباً من التعمق والتطلب لما لعل الشاعر لم يقصده . وأحسن ما يمكن أن ينتصر به لهذا التقدير أن يقال : إن النهار بمنزلة الليل فى وصوله إلى كل مكان فما من موضع من الأرض إلا ويدركه [٢] كل واحد منهما فكما أن الكائن فى النهار لا يمكنه أن يصير إلى مكان لا يكون به ليل كذلك الكائن فى الليل لا يجد موضعا لا يلحقه فيه نهار ، فاختصاصه الليل دليل على أنه قد روَّى فى نفسه فلما علم أن حالة إدراكه وقد هرب منه حالة سخط رأى التمثيل بالليل أولى ، ويمكن أن يزاد فى نصرته بقوله [٣] :

نعمة كالشمس لما طلعت بثت الإشراق فى كل بلد

وذاك أنه قصد ههنا نفس ماقصده النابغة فى تعميم الأقطار والوصول

---

(١) وهو معنى السخط مضموما إلى معنى الإدراك .

(٢) لايجيز النحويون هذا إذ الجملة فى مثل هذه الحال يجب فيها حذف الواو .

(٣) هو العباس بن الأحنف بن الأسود ينتهى نسبه إلى بنى حنيفه من بكر بن وائل وهو من أحذق الناس وأشعرهم وأوسعهم كلاما وخاطرا ولزم فنا واحدا فأحسن فيه وما هجا ولا مدح ولا تكسب بشعره .

إلى كل مكان ، إلا أن النعمة لما كانت تسر وتؤنس أخذ المثل لها من الشمس ، ولو أنه ضرب المثل لوصول النعمة إلى أقاصى البلاد ؛ وانتشارها فى العباد : بالليل ووصوله إلى كل بلد ، وبلوغه كل أحد ، لكان قد أخطأ خطأ فاحشا إلا أن هذا وإن كان يجىء مستوياً فى الموازنة ففرق بين ما تكره من الشبه وما تحب ، لأن الصفة المحبوبة إذا اتصلت بالغرض من التشبيه نالت من العناية بها والمحافظة عليها قريباً مما يناله الغرض نفسه . وأما ماليس بمحبوب فيحسن أن تعرض عنها صفحاً وتدع الفكر فيها جانباً .

وأما تركه أن يمثل بالنهار وإن كان بمنزلة الليل فيما أراده فيمكن أن يجاب عنه بأن هذا الخطاب من النابغة كان بالنهار لامحالة ، وإذا كان يكلمه وهو فى النهار بعُدَ أن يضرب المثل بإدراك النهار له ، وكان الظاهر أن يمثل بإدراك الليل الذى إقباله منتظر ، وطريانه [1] على النهار متوقع ، فكأنه قال وهو فى صدر النهار أو آخره : لو سرت عنك ، لم أجد مكاناً يقينى الطلب منك ، ولكان إدراكك لى وإن بعدت واجباً كإدراك هذا الليل المقبل فى عقب نهارى هذا إياى ؛ ووصوله إلى أى موضع بلغت من الأرض .

وههنا شىء آخر وهو أن تشبيه النعمة فى البيت بالشمس وإن كان من حيث الغرض الخاص وهو الدلالة على العموم فكان الشبه الآخر من كونها مؤنسة للقلوب وملبسة العالم البهجة والبهاء كما تفعل الشمس حاصلا على سبيل العرض وبضرب من التطفل ، فإن تجريد التشبيه لهذا الوجه الذى هو الآن تابع وجعله أصلا ومقصوداً على الانفراد مألوف معروف كقولنا : نعمتك شمس طالعة ، وليس كذلك الحكم فى الليل ، لأن تجريده لوصف الممدوح

---

(١) مصدر طرأ : الطرو ، ولا يوجد فى القاموس هذا المصدر .

بالسخط مستكره حتى لو قلت : أنت فى حال السخط ليل وفى الرضى نهار فطفقت هكذا تجعله ليلا بسخطه ، لم يحسن ، وإنما الواجب أن يقول : النهار ليل على من يغضب عليه ، والليل نهار لمن يرضى عنه ، وزمان عدوك ليل كله ، وأوقات وليك نهار كلها ، كما قال [١] :

أيامنا مصقولة أطرافها   بك والليالى كلها أسحار

وقد يقول الرجل لمحبوبه : أنت ليلى ونهارى . أى بك تضيء الدنيا وتظلم ، فإذا رضيت فدهرى نهار ، وإذا غضبت فليل ، كما تقول : أنت دائى ودوائى وبرئى وسقامى ولا تكاد تجد أحداً يقول « أنت ليل » على معنى أن سخطك تظلم به الدنيا ، لأن هذه العبارة بالذم وبالوصف بالظلمة وسواد الجلد وتجهم الوجه أخص ، وبأن يراد بها أخلق ، وهذا المعنى منها إلى القلب أسبق ، فاعرفه .

فصـــل

اعلم أنك تجد الاسم وقد وقع من نظم الكلام الموقع الذى يقتضى كونه مستعاراً ثم لا يكون مستعاراً ، وذاك لأن التشبيه المقصود منوط به مع غيره ، وليس له شبه ينفرد به ، على ماقدمت لك من أن الشبه يجيء منتزعا من مجموع جملة من الكلام فمن ذلك قول داود [٢] بن على حين خطب

(١) هو أبو تمام يمدح أبا سعيد الثغرى ومطلعها :

لا أنت أنت ولا الديار ديار   خف الهوى وتولت الأوطار

وقبله : وأرى الرياض حواملا ومطافلا   مذ كنت فينا والسحاب عشار

(٢) هو داود بن على بن عبد الله بن العباس لم يرث البلاغة عن كلالة لكنه كما قيل :

أبوك معم فى البلاغة مخول   وجدك وثاب الجرائم فى الخطب =

فقال [١] :

شكراً شكراً إنا والله ماخرجنا لنحفر فيكم نهراً ، ولا لنبنى فيكم قصراً أظن عدو الله أن لن نظفر به؟ أرخىَ له فى زمامه ، حتى عثر فى فضل خطامه ، فالآن عاد الأمر فى نصابه ، وطلعت الشمس من مطلعها ، والآن قد أخذ القوس باريها ، وعاد النبل إلى النزعة ، ورجع الأمر إلى مستقره فى أهل بيت الرأفة والرحمة [٢] .

فقوله : الآن أخذ القوس باريها ـ وإن كان القوس يقع كناية عن الخلافة والبارى عن المستحق لها ـ فإنه لايجوز أن يقال إن القوس مستعار للخلافة على حد استعارة النور والشمس لأجل أنه لايتصور أن يخرج للخلافة شبه من القوس على الانفراد وأن يقال « هى قوس » كما يقال « هى نور وشمس » وإنما الشبه مؤلف بحال [٣] الخلافة مع القائم بها ومن حال القوس مع الذى براها ، وهو أن البارى للقوس أعرف بخيرها وشرها وأهدى إلى توتيرها وتصريفها إذ كان العامل لها فكذلك الكائن على الأوصاف المعتبرة فى الإمامة والجامع لها يكون أهدى إلى توفية الخلافة وأعرف بما

= ولاه ابن أخيه السفاح الكوفة وسوادها ثم نقله إلى المدينة ومكة والنجف واليمامة وتوفى بالمدينه قبل أن يستفحل شرره فى الدولة سنة ١٣٣ .

(١) روى الطبرى وغيره من المؤرخين أن أبا العباس السفاح بعد أن انتهى من خطبته يوم البيعة وكان متوعكا صعد عمه داود فقام دونه على مراقى المنبر بثلاث درجات وخطب خطبته المشهورة الحمد لله شكرا الخ ...

(٢) الخطام ككتاب ما يوضع فى مخطم البعير أى أنفه ليقتاد به ، والنزعة بالتحريك الرماة للنبل . جمع نازع وفى المثل صار الأمر إلى النزعة أي عاد إلى أهل الأناة والسياسة .

(٣) الصواب من حال .

يحفظ مصارفها عن الخلل ، وأن يراعى فى سياسة الخلق بالأمر والنهى التى هى المقصود منها ترتيباً ووزناً تقع به الأفعال مواقعها من الصواب ، كما أن العارف بالقوس يراعى فى تسوية جوانبها ، وإقامة وترها ، وكيفية نزعتها (١) ووضع السهم الموضع الخاص منها مايوجب فى سهامه أن تصيب الأغراض وتُقرطِس (٢) فى الأهداف ، وتقع فى المقاتل ، وتصيب شاكلة (٣) الرّمىّ (٤) :

وهكذا قول القائل وقد سمع كلاما حسنا من رجل دميم : «عسل طيب فى ظرف سوء» ليس (عسل) ههنا على حده فى قولك : ألفاظه عسل ، لأجل أنه لم يقصد إلى بيان حال اللفظ الحسن وتشبيهه بالعسل ، فى هذا الكلام الحسن من المتكلم المشنوء فى منظره ، وإنما قصد إلى قياس اجتماع فضل المخبَر ، مع نقص المنظر ، بالشبه المؤلف من العسل والظرف ، ألا ترى أن الذى يقابل الرجل هو «ظرف سوء» وظرف سوء لا يصلح تشبيه الرجل به على الانفراد ؛ لأن الدمامة لا تعطيه صفة الظرف من حيث هى دمامة مالم يتقدم شىء يشبه مافى الظرف من الكلام الحسن أو الخلق الجميل ، أو سائر المعانى التى تجعل الأشخاص أوعية لها .

فمن حقك أن تحافظ على هذا الأصل وهو أن الشبه إذا كان موجوداً

---

(١) الصواب نزعها .

(٢) تصيب القرطاس وهو الهدف .

(٣) الشاكلة من الفرس الجلد بين عرض الخاصرة والثفنة وهى موصل الفخذين فى الساقين من باطنهما .

(٤) الرمية الصيد المرمى ذكرا كان أو أنثى ولا تستعمل إلا بالتاء فانظر كيف ساغ للمؤلف أن يستعملها بدونها .

فى الشىء على الانفراد من غير أن تكون نتيجة بينه وبين شىء آخر - فالاسم مستعار لما أخذ الشبه [١] منه كالنور للعلم ، والظلمة للجهل ؛ والشمس للوجه الجميل أو الرجل النبيه الجليل . وإذا لم تكن نسبة الشبه إلى الشىء على الانفراد وكان مركباً من حاله مع غيره فليس الاسم بمستعار ولكن مجموع الكلام مثل .

واعلم أن هذه الأمور التى قصدت البحث عنها أمور كأنها معروفة مجهولة . وذلك أنها معروفة على الجملة لا ينكر بيانها فى نفوس العارفين ذوق الكلام والمتمهرين [٢] فى فصل جيده من رديئه ، ومجهولة من حيث لم تتفق فيها أوضاع تجرى مجرى القوانين التى يرجع إليها فتستخرج منها العلل فى حسن ما استحسن ، وقبح ما استهجن ، حتى تُعلم علم اليقين غير الموهوم ، وتضبط ضبط المزموم المخطوم [٣] ، ولعل الملال إن عرض لك ، أو النشاط إن فتر عنك ، قلت ما الحاجة إلى كل هذه الإطالة وإنما يكفى أن يقال : الاستعارة مثل كذا ثم تعقد كلمات ، وتنشد أبيات ، وهكذا يكفينا المؤنة فى التشبيه والتمثيل يسير من القول . فإنك [٤] تعلم أن قائلا لو قال ، الخبر مثل قولنا : زيد منطلق . ورضى به وقنع ولم تطالبه نفسه بأن يعرف حدا للخبر إذا عرفه تميز فى نفسه من سائر الكلام حتى يمكنه أن يعلم أن ههنا كلاما لفظه لفظ

---

(١) الصواب الشبه له منه .

(٢) تمهر الرجل حذق كمهر .

(٣) المزموم ما شدّ بالزمام أى المقود والمخطوم ما وضع على خطمه أي أنفه الخطام ليقتاد .

(٤) خبره ماسيأتى من قوله كان قد أساء الاختيار الخ

الخبر وليس هو بخبر ولكنه دعاء كقولنا : رحمة الله عليه ، وغفر الله له .
ولم يجد فى نفسه طلباً لأن يعرف أن الخبر هل ينقسم أو لا ينقسم ، وأن أول أمره فى القسمة أنه ينقسم إلى جملة من الفعل والفاعل ، وجملة من مبتدأ وخبر ، وأن ماعدا هذا من الكلام لا يأتلف ، نعم ، ولم يجب أن يعلم أن هذه الجملة يدخل عليها حروف بعضها يؤكد كونها خبراً وبعضها يحدث فيها معانى تخرج بها عن الخبرية واحتمال الصدق والكذب . وهكذا يقول إذا قيل له « الاسم مثل زيد وعمرو » : اكتفيتُ ولا أحتاج إلى وصف أو حد يميزه من الفعل والحرف أو حد لهما إذا عرفتهما عرفت أن ماخالفهما هو الاسم على طريقة الكتاب ويقول : لا أحتاج إلى أن أعرف أن الاسم ينقسم فيكون متمكناً أو غير متمكن ، والمتمكن يكون منصرفاً وغير منصرف ، ولا إلى أن أعلم شرح غير المنصرف والأسباب التسعة التى يقف هذا الحكم على اجتماع سببين منها أو تكرر [1] سبب فى الاسم ولا أنه ينقسم إلى المعرفة والنكرة ، وأن النكرة ماعم شيئين فأكثر ، وما أريد به واحد من الجنس لا بعينه ، والمعرفة ما أريد به واحد بعينه أو جنس بعينه على الإطلاق ، ولا إلى أن أعلم شيئاً من الانقسامات التى تجىء فى الاسم - كان قد أساء الاختيار وأسرف فى دعوى الاستغناء عما هو محتاج إليه إن أراد هذا النوع من العلم .

ولئن كان الذى يتكلف شرحه لا يزيد على مؤدى ثلاثة أسماء وهى التمثيل والتشبيه والاستعارة فإن ذلك يستدعى جملا من القول يصعب استقصاؤها

(١) أى قيامه مقام سببين منها .

وشعباً من الكلام لاتستبين لأول النظر أنحاؤها، إذ[1] قولنا «شيء» يحتوى على ثلاثة أحرف ولكنك إذا مددت يداً إلى القسمة ، وأخذت فى بيان ماتحويه هذه اللفظة ، احتجت إلى أن تقرأ أوراقاً لاتحصى ، وتتجشم من المشقة والنظر والتفكير ماليس بالقليل النزر (والجزء الذى لايتجزأ) يفوت العينَ ويدق عن البصر ، والكلام عليه يملأ أجلاداً عظيمة الحجم . فهذا مثلك إن أنكرت ماعنيتُ به من هذا التتبع . ورأيته من البحث ، وآثرتَه من تجشم الفكرة ، وسومها أن تدخل فى جوانب هذه المسائل وزواياها ، وتستثير كوامنها وخفاياها ، فإن كنتَ ممن رضى لنفسه أن يكون هذا مثله وههنا محله ، فصب كيف شئت ، وقل ماهويت ، وثق بأن الزمان عونك على ماابتغيت ، وشاهدك فيما ادعيت ، وأنك واجد من يصوب رأيك ويحسن مذهبك ، ويخاصم عنك ، ويعادى المخالف لك .

فصل

« فى الأخذ والسرقة ومافى ذلك من التعليل ، وضروب الحقيقة والتخييل[2] »

﴿ القسم العقلى ﴾

اعلم أن الحكم على الشاعر بأنه أخذ من غيره وسرق ، واقتدى بمن تقدم وسبق . لايخلو من أن يكون فى المعنى صريحاً أو فى صيغة تتعلق بالعبارة . ويجب أن نتكلم أولا على المعانى ، وهى تنقسم أولا قسمين عقلى وتخييلى ، وكل واحد منهما يتنوع . فالذى هو العقلى على أنواع .

---

(١) هذا تعليل لمحذوف يقدر بنحو قولنا فكم من شيء قليل يحتاج إلى كثير من الإيضاح إذ قولنا شيء الخ ...

(٢) المناسب أن يكون هذا العنوان هكذا (فى الأخذ والسرقة وضروب الحقيقة والتخييل ومافى ذلك من التعليل .

أولها [١] عقلى صحيح، مجراه فى الشعر والكتابة، والبيان والخطابة، مجرى الأدلة التى تستنبطها العقلاء، والفوائد التى تثيرها الحكماء، ولذلك تجد الأكثر من هذا الجنس منتزعاً من أحاديث النبى صلى الله عليه وسلم وكلام الصحابة رضى الله عنهم ومنقولا من آثار السلف الذين شأنهم الصدق، وقصدهم الحق، أو ترى له أصلا فى الأمثال القديمة والحكم المأثورة عن القدماء. فقوله [٢]:

وما الحسب الموروث لادر دره ... بمحتسب إلا بآخر مكتسب

ونظائره كقوله [٣]:

إنى وإن كنت ابن سيد عامر ... وفى السر منها والصريح المهذب [٤]

فما سودتنى عامر عن وراثة ... أبى الله أن أسمو بأم ولا أب

معنى [٥] صريح محض يشهد له العقل بالصحة، ويعطيه من نفسه أكرم

---

(١) لم يذكر بقية الأنواع بعد. وقد استوفى ذلك فى دلائل الإعجاز

(٢) أى ابن الرومى من أبيات أولها:

ولا تتكل إلا على ما فعلته ... ولا تحسبن المجد يورث بالنسب

فليس يسود المرء إلا بنفسه ... وإن عد آباء كراما ذوى حسب

وبعده: إذا العود لم يثمر وإن كان شعبة ... من المثمرات اعتده الناس فى الحطب

وأنت لعمرى شعبة من ذوى العلى ... فلا ترض أن تعتد من أوضع الشعب

(٣) هو عامر بن الطفيل بن مالك بن ربيعة بن عامر شاعر مخضرم وفارس مذكور وكان يلقب محبرا لحسن شعره مات مشركا ومطلعها:

تقول ابنة العمرى مالك بعد ما ... أراك صحيحا كالسليم المعذب

فقلت لها همى الذى تعلمينه ... من الثأر فى حي زبيد وأرحب

إن أغز زبيدا أغز قوما أعزة ... ومركبهم فى الحى من خير مركب

وإن أغز حي خثعم فدماؤهم ... شفاء وخير الثأر للمتأوب

فما أدرك الأوتار مثل محقق ... بأجرد طاو كالعسيب المشذب

وأسمر خطى وأبيض باتر ... وزغف دلاص كالغدير المثوب

سلاح امرئ قد يعلم الناس أنه ... طلوب لغارات الرجال مطلب

(٤) السر محض النسب وأفضله ... (٥) خبر قوله فقوله.

النسبة وتتفق العقلاء على الأخذ به ، والحكم بموجبه ، فى كل جيل وأمة ، ويوجد له أصل فى كل لسان ولغة ، وأعلى مناسبة وأنورها ، وأجلها وأفخرها ، قول الله تعالى : (إن أكرمكم عند الله أتقاكم) وقول النبى صلى الله عليه وسلم « من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه » وقوله عليه السلام « يا بنى هاشم لا تجيئنى الناس بالأعمال وتجيئونى [١] بالأنساب » ، وذلك أنه لو كانت القضية [٢] على ظاهر يغتر به الجاهل ويعتمده المنقوص لأدى ذلك إلى إبطال النسب أيضا وإحالة التكثر به ، والرجوع إلى شرفه ، فإن الأول لو عدم الفضائل المكتسبة ، والمساعى الشريفة ولم يبن من أهل زمانه بأفعال تؤثر ، ومناقب تدون وتسطر ، لما كان أولا ، ولكان العلم من أمره مجهلا ولما تصور افتخار الثانى بالانتماء إليه ، وتعويله فى المفاضلة عليه ، ولكان لا يتصور فرق بين أن يقول هذا أبى ، ومنه نسبى ، وبين أن ينسب إلى الطين ، الذى هو أصل الخلق أجمعين ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « كلكم لآدم وآدم من التراب » وقال محمد بن الربيع الموصلى [٣] :

الناس فى صورة التشبيه أكفاء ... أبوهم آدم والأم حـــواء
فإن يكن لهم فى أصلهم شرف ... يفاخرون به فالطين والماء
ما الفضل إلا لأهل العلم إنهم ... على الهدى لمن استهدى أدلاء
ووزن كل امرئ ما كان يحسنه [٤] ... والجاهلون لأهل العلم أعداء

فهذا كما ترى باب من المعانى التى تجمع فيها النظائر وتذكر الأبيات الدالة

---

(١) الواو واو المعيه ولذا نصب الفعل بعدها .
(٢) يريد بها الحكم الذى يرجحه الجهلاء وهو أن العبرة بالإنساب لا بالأعمال .
(٣) من شعراء صدر الدولة العباسية .
(٤) اقتبسه من قول على كرم الله وجهه قيمة كل امرئ ما يحسنه .

عليها فإنها تتلاقى وتتناظر ، وتتشابه وتتشاكل ، ومكانه من العقل ماظهر لك واستبان ، ووضح واستنار ، وكذلك قوله [١] :

« وكل امرئ يولى الجميل محبب »

صريح معنى ليس للشعر فى جوهره وذاته نصيب ، وإنما له مايلبسه من اللفظ ويكسوه من العبارة وكيفية التأدية ، من الاختصار وخلافه ، والكشف أو ضده . وأصله قول النبي صلى الله عليه وسلم : « جبلت القلوب على حب من أحسن إليها » [٢] بل قول الله عز وجل (ادفع بالتى هى أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم) .

وكذا قوله [٣] :

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى حتى يراق على جـــوانبه الدم

---

(١) هو المتنبي وتمامه (وكل مكان ينبت العز طيب) وهو من قصيدة يمدح بها كافورا أولها :

أغالب فيك الشوق والشوق أغلب وأعجب من ذا الهجر والوصل أعجب

(٢) نظم هذا المعنى أبو الفتح البستى فقال :

أحسن إلى الناس تستعبد قلوبهم فطالما استعبد الإنسان إحسان

(٣) أى المتنبي من قصيدة يهجو بها إبراهيم بن الأعرج بن كيغلغ وقد طلب إليه أن يمدحه فأبى واعتل لذلك بعلل لم يتقبلها ومطلعها :

لهوى النفوس سريرة لا تعلم عرضا نظرت وخلت أنى أسلم

إلى أن قال :

يحمى ابن كيغلغ الطريق وعرسه مابين رجليها الطريق الأعظم

وقد أخذ المتنبى معنى بيته من قول أبى تمام .

وأخافكم كى تغمدوا أسيافكم إن الدم المغبر يحرسه الدم

وأصله من قول النابغة :

تعدو الذئاب على من لا كلاب له وتتقى صولة المستنفر الحامى

معنى معقول لم يزل العقلاء يقضون بصحته ، ويرى العارفون بالسياسة الأخذ بسلته ، وبه جاءت أوامر [١] الله سبحانه ، وعليه جرت الأحكام الشرعية ، والسنن النبوية ، وبه استقام لأهل الدين دينهم ، وانتفى عنهم أذى من يفتنهم ويضرهم ، إذ كان موضوع الجبلة على ألا تخلو الدنيا من الطغاة الماردين ، والغواة المعاندين ، الذين لا يعون الحكمة فتردعهم ، ولا يتصورون الرشد فيكفهم النصح ويمنعهم ، ولا يحسون بنقائص الغي والضلال ، وما في الجور والظلم من الضعة والخبال ، فيجدوا لذلك مس ألم يحبسهم على الأمر ، ويقف بهم عند الزجر ، بل كانوا كالبهائم والسباع لا يوجعهم إلا ما يخرق الأبشار [٢] من حد الحديد ، وسطو البأس الشديد ، فلو لم تطبع لأمثالهم السيوف ، ولم تطلق فيهم الحتوف ، لما استقام دين ولا دنيا ، ولا نال أهل الشرف ما نالوه من الرتبة العليا ، فلا يطيب الشرب من منهل لم تُنف عنه الأقذاء ، ولا تقر الروح في بدن لم تدفع عنه الأدواء ، وكذلك قوله [٣]

إذا أنت أكرمت الكريم ملكته وإن أنت أكرمت اللئيم تمردا
ووضع الندى في موضع السيف بالعلى مضر كوضع السيف في موضع الندى

﴿ القسم التخييلي [٤] ﴾

وأما القسم التخييلي فهو الذي لا يمكن أن يقال إنه صدق وإن ما أثبته

---

(١) كقوله تعالى (ولكم في القصاص حياة)

(٢) الأبشار جمع بشر وهو جمع بشرة فهو جمع الجمع .

(٣) هو المتنبي من قصيدة في سيف الدولة مطلعها :

لكل امرئ من دهره ما تعودا وعادات سيف الدولة الطعن في العدا

وأخذ معنى بيتيه من قول الخزيمي :

أرى الحلم في بعض المواطن ذلة وفي بعضها عزا يسود صاحبه

(٤) هو ما سماه المتأخرون حسن التعليل .

ثابت ، وما نفاه منفى ، وهو مفتنُّ المذاهب ، كثير المسالك ، لايكاد يحصر إلا تقريباً [1] ، ولا يحاط به تقسيما وتبويباً ، ثم إنه يجيء طبقات ، ويأتى على درجات ، فمنه مايجيء مصنوعاً قد تلطف فيه واستعين عليه بالرفق والحذق ، حتى أعطى شبهاً من الحق ، وغشى رونقاً من الصدق ، باحتجاج بخيّل ، وقياس يُصنع فيه ويُعمل ، ومثاله قول أبى تمام [2] :

لا تنكرى عطل الكريم من الغنى   فالسيل حرب للمكان العالى

فهذا قد خيل إلى السامع أن الكريم [3] إذا كان موصوفاً بالعلو والرفعة فى قدره ؛ وكان الغنى كالغيث فى حاجة الخلق إليه وعظم نفعه ، وجب بالقياس أن ينزل عن الكريم ، نزول ذلك السيل عن الطود العظيم ، ومعلوم أنه قياس تخييل وإيهام ، لاتحصيل وإحكام ، فالعلة فى أن السيل لايستقر على الأمكنة العالية أن الماء سيال لايثبت إلا إذا حصل فى موضع له جوانب تدفعه عن الانصباب ، وتمنعه عن الانسياب ، وليس فى الكريم والمال ، شيء من هذه الخلال .

وأقوى من هذا فى أن يظن حقا وصدقاً وهو على التخييل قوله [4] :

الشيب كره وكره أن يفارقنى   أعجب بشيء على البغضاء مودود

(١) جعله المتأخرون أربعة أقسام .

(٢) يمدح الحسن بن رجاء من قصيدة مطلعها :

يكفى وغاك فإننى لك قالى   ليست هوادى عزمتى بتوالى

وبعده : وتنظرى خبب الركاب ينصها   محى القريض إلى مميت المال

(٣) صوابه إذ .

(٤) هو مسلم بن الوليد وقيل بشار بن برد وبعده :

يمضى الشباب فيأتى بعده خلف   والشيب يذهب مفقودا بمفقود

وفى رواية أخرى للبيت :

الشيب كره وكره أن أفارقه   فاعجب بشيء على البغضاء مودود

هو من حيث الظاهر صدق وحقيقة لأن الإنسان لايعجبه أن يدركه الشيب فإذا هو أدركه كره أن يفارقه فتراه لذلك ينكره ويكرهه ، على أن إرادته أن يدوم له ، إلا أنك إذا رجعت إلى التحقيق كانت الكراهة والبغضاء لاحقة للشيب على الحقيقة ، فأما كونه مراداً ومودوداً فتخيل فيه وليس بالحق والصدق ، بل المودود الحياة والبقاء ، إلا أنه لما كانت العادة جارية بأن فى زوال رؤية الإنسان للشيب زواله عن الدنيا وخروجه منها وكان العيش فيها محبباً إلى النفوس صارت محبته لما لا يبقى له[1] حتى يبقى الشيب كأنها محبة للشيب .

ومن ذلك صنيعهم إذا أرادوا تفضيل شىء أو نقصه ، أو مدحه أو ذمه فتعلقوا ببعض مايشاركه فى أوصاف ليست هى سبب الفضيلة والنقيصة ، وظواهر أمور لاتصحح ما قصدوه من التهجين والتزيين على الحقيقة ، كما تراه فى باب الشيب والشباب كقول البحترى[2] :

وبياض البازىّ أصدق حسناً إن تأملت من سواد الغراب[3]

وليس إذا كان البياض فى البازى آنق فى العين وأخلق بالحسن من السواد فى الغراب ، وجب لذلك ألا يذم الشيب ولا تنفر منه طباع ذوى الألباب ، لأنه ليس الذنب كله لتحول الصبغ وتبدل اللون ، ولا أتت

---

(١) أى للحياة التى لا تبقى له إلا إذا بقى الشيب قاله الأستاذ الإمام .

(٢) من قصيدة يمدح بها اسماعيل بن شهاب ومطلعها :

ما على الركب من وقوف الركاب فى مناقى الصبا ورسم التصابى

وقبله عيرتنى المشيب وهى بدته فى عذارى بالصد والاجتناب

لا تريه عارا فما هو بالشيـ ـب ولكنه جلاء الشباب

(٣) البازى هنا بتشديد الياء ضرورة وهى مما أخذه أبو العلاء فى شرحه عبث الوليد عليه واعتل له بأن العرب أحيانا تنسب الشىء إلى نفسه .

الغوانى ما أتت من الصد والإعراض لمجرد البياض ، فإنهن يرينه فى قُباطى[1] مصر فيأنسن ، وفى أنوار الروض وأوراق النرجس الغضّ فلا يَعْبِسْن ، فما أنكرن ابيضاض شعر الفتى لنفس اللون وذاته ، بل لذهاب بهجاته ، وإدباره فى حياته ، وإنك لترى الصفرة الخالصة فى أوراق الأشجار المتناثرة عند الخريف وإقبال الشتاء وهبوب الشمال فتكرهها وتنفر منها ، وتراها بعينها فى إقبال الربيع فى الزهر المتفتق ، وفيما ياشمه[2] ويَشيه[3] من الديباج الموثق ، فتجد نفسك على خلاف تلك القضية ، وتمتلئ من الأريحيّة ، ذاك لأنك رأيت اللون حيث النماء والزيادة ، والحياة المستفادة ، وحيث أبشرتْ أرواح الرياحين وبَشرت[4] أنواع التحاسين[5] ورأيته فى الوقت الآخر حين ولّت السعود ، وأقشر[6] العود ، وذهبت البشاشة والبشر ، وجاء العبوس والعسر - هذا ولو عدم البازى فضيلة أنه جارح وأنه من عتيق[7] الطير لم تجد لبياضه الحسن الذى تراه ، ولم يكن للمحتج به على من ينكر الشيب ويذمه ما تراه من الاستظهار[8] ، كما أنه لولا ما يهدى إليك المسك

---

(١) القباطى بالضم جمع قبطية وهى ثياب من كتان تنسج بمصر وهى منسوبة نسبة غير قياسية إلى القبط بالكسر كالدهرى والسهلى ، وقد تكسر القاف على القياس

(٢) يغشه أى يحدثه .

(٣) من الوشى والمراد به ما يزينه من الأنوار والأزهار التى تشبه الديباج .

(٤) صوابه أبشرت من قوله أبشرت الأرض إذا أخرجت بشرتها أى ما ظهر من نباتها .

(٥) جمع تحسين اسم مبنى على تفعيل يقال ما أبدع تحاسين الطاوس وتراپينه .

(٦) أى تحسن وتغير لونه لعدم الرى .

(٧) الصواب عتاق الطير وهى جوارحها .

(٨) استظهر به استعان .

من رياء التى تتطلع إليها الأرواح ، وتهش لها النفوس وترتاح ، لضعفت حجة المتعلق به فى تفضيل الشباب . وكما لم تكن العلة فى كراهة الشيب بياضه ولم يكن هو الذى غض عنه الأبصار ، ومنحه العيب والإنكار ، كذلك لم يحسن سواد الشعر فى العيون لكونه سواداً فقط ، بل لأنك رأيت رونق الشباب ونضارته، وبهجته وطلاوته ، ورأيت بريقه وبصيصه يعدانك الإقبال ، ويريانك الاقتبال [1] ؛ ويحضرانك الثقة بالبقاء ، ويبعدان عنك الخوف من الفناء ، وإنك لترى الرجل وقد طعن فى السن وشعره لم يبيض ولكنه على ذاك قد عدم إبهاجه [2] الذى كان ، وعاد لا يزين كما زان ، [3] وظهر فيه من الكمود والجمود ما يريكه غير محمود .

وهكذا قوله [4] :

والصارم المصقول أحسنُ حالة　　　يوم الوغى من صارم لم يصقل

احتجاج على فضيلة الشيب وأنه أحسن منظراً من جهة التعلق باللون وإشارة إلى أن السواد كالصدإ على صفحة السيف . فكما أن السيف إذا صقل وجلى وأزيل عنه الصدأ ونقى كان أبهى وأحسن وأعجب إلى الرائى وفى عينه أزين ؛ كذلك يجب أن يكون حكم الشعر فى انجلاء صدأ السواد عنه ، وظهور

---

(١) هو استئناف الأمر وتجدده واقتبل الرجل صار كيسا بعد أن كان أحمق .
(٢) أبهجت الأرض حسن نباتها .
(٣) أى لا تظهر فيه زينة كما زان نفسه .
(٤) القائل خالد الكاتب كما فى زهر الآداب أو أبو دلف العجلى كما فى الأمالى وقبله

نظرت إلى بعين من لم يعدل　　　لما تمكن طرفها من مقتلى
فظللت أطلب وصلها بتملق　　　والشيب يغمزها بالا تفعلى
لما رأت وضح المشيب بعارضى　　　صدت صدود مجانب متحمل

بياض الصقال فيه ، وقد ترك أن يفكر فيما عدا ذلك من المعانى التى يكره لها الشيب ، ويناط بها العيب .

وعلى هذا موضوع الشعر والخطابة أن يجعلوا اجتماع الشيئين فى وصف علة الحكم يريدونه وإن لم يكن فى المعقول ، ومقتضيات العقول . ولا يؤخذ الشاعر بأن يصحح كون ما جعله أصلا وعلة كما ادعاه فيما يبرم أو ينقض من قضية ، وأن يأتى على ما صيره قاعدة وأساسا ببينة عقلية ، بل تسلم مقدمته التى اعتمدها بينة ، كتسليمنا أن عائب الشيب لم ينكر منه إلا لونه ، وتناسينا سائر المعانى التى لها كره ومن أجلها عيب . وكذلك[1] قول البحترى[2] :

كلفتمونا حدود منطقكم ... فى الشعر يكفى عن صدقه كذبه[3]

---

(١) الصواب ولذلك قال .

(٢) من حديث ذلك أن البحترى مدح أبا العباس بن بسطام من رؤساء الكتاب بقصيدة مطلعها .

من قائل للزمان ما أرب ... فى خلق منه قد بدا عجبه
يعطى امرؤ حظه بلا سبب ... ويحرم الحظ محصد سببه

فقال عبيد الله بن عبد الله بن طاهر قصيدة طويلة ينقض فيها بعض أحكامه وآرائه ويطالبه بالدليل على مدعاه أولها :

أجد هذا القال أم لعبه ... أم صدق ما قيل فيه أم كذبه
لشد ما بين الزمان لنا ... يا صاح ما قصده وما أربه

فأجابه البحترى بقصيدة يرد عليه بها مطلعها :

لا الدهر مستنفد ولا عجبه ... يسومنا الخسف كله نوبه
نال الرضى مادح وممتدح ... فقل لهذا الأمير ما غضبه
مكثرا يبتغى تسهضمنا ... بذى اليمينين كاذبا لقبه

إلى أن قال :

والعقل من صنعة وتجربة ... شكلان مولوده ومكتسبه

(٣) وفى رواية والشعر يكفى عن صدقه كذبه وبعد البيت : =

أراد كلفتمونا أن تجرى مقاييس الشعر على حدود المنطق ، ونأخذ نفوسنا فيه بالقول المحقق ، حتى لا ندعى إلا ما يقوم عليه من العقل برهان يقطع به ، ويلجئ إلى موجبه (مع أن الشعر يكفى فيه التخييل ، والذهاب بالنفس إلى ما ترتاح إليه من التعليل) ولا شك أنه إلى هذا النحو قصد ، وإياه عمد إذ يبعد أن يريد بالكذب إعطاء الممدوح حظا من الفضل والسؤدد ليس له ، ويبلغه [1] بالصفة حظا من التعظيم يجاوز به من الإكثار محله ، لأن هذا الكذب لا يبين بالحجج المنطقية ، والقوانين العقلية ، وإنما يكذب فيه القائل بالرجوع إلى حال المذكور واختباره فيما وصف به ، والكشف عن قدره وخسته ، ورفعته أو ضعته ، ومعرفة محله ومرتبته .

وكذلك قول من قال : « خير [2] الشعر أكذبه » فهذا مراده لأن الشعر لا يكتسب من حيث هو شعر فضلا ونقصاً وانحطاطا وارتفاعاً بأن ينحل الوضيع من الرفعة ما هو منه عار ، أو يصف الشريف بنقص وعار ، فكم جواد بخله الشعر وبخيل سخاه ؛ وشجاع وسمه بالجبن وجبان ساوى به الليث ، وذى ضعة أوطأه قمة [3] العيوق [4] وغبي قضى له بالفهم . وطائش ادعى له طبيعة الحكم [5] ، ثم لم يعتبر ذلك فى الشعر نفسه حيث تنتقد دنانيره ، وتنشر ديابيجه ، ويُفتَق [6] مسكه فيضوع أريجه .

= والشعر لمح تكفى إشارته وليس بالهذر طولت خطبه
ولم يكن ذو القروح يلهج بالـ ـمنطق ما نوعه وما سببه

(١) الصواب وتبليغه .
(٢) وفى روايه أعذب الشعر .
(٣) قمة الشيء بالكسر أعلاه .
(٤) العيوق نجم أحمر مضيء فى طرف المجرة الأيمن يتلو الثريا .
(٥) الحكمة . (٦) فتق المسك أدخل عليه شيئا يستخرج به رائحته .

وأما من قال فى معارضة هذا القول « خير الشعر أصدقه كما قال : [١]

وإن أحسن بيت أنت قائله ... بيت يقال إذا أنشدته صدقا

فقد يجوز أن يراد به أن خير الشعر مادل على حكمة يقبلها العقل ، وأدب يجب به الفضل ، وموعظة تروض جماح الهوى ، وتبعث على التقوى ، وتبين موضع القبح والحسن فى الأفعال ، وتفصل بين المحمود والمذموم من الخصال ، وقد ينحى [٢] بها نحو الصدق فى مدح الرجال ، كما قيل : كان زهير لا يمدح الرجل إلا بما فيه [٣] . والأول أولى لأنهما قولان يتعارضان فى اختيار نوعى الشعر . فمن قال « خيره أصدقه » كان ترك الإغراق والمبالغة والتجوز إلى التحقيق والتصحيح ، واعتماد ما يجرى من العقل على أصل صحيح ، أحب إليه وآثر عنده ، إذ كان ثمره أحلى ، وأثره أبقى ، وفائدته أظهر ، وحاصله أكثر ، ومن قال « أكذبه » ذهب إلى أن الصنعة إنما يمد باعها وينشر شعاعها ؛ ويتسع ميدانها ، وتتفرع أفنانها ، حيث يعتمد الاتساع والتخييل ، ويدعى الحقيقة فيما أصله التقريب والتمثيل ، وحيث يقصد التلطف

(١) هو حسان كما فى العمدة أو زهير بن أبى سلمى كما فى العقد وبعده :

وإنما الشعر لب المرء يعرضه ... على المجالس إن كيسا وإن حمقا

ومثله لشيطان الشعراء دعبل بن على الخزاعى .

سأقضى ببيت يحمد الناس أمره ... ويكثر من أهل الروايات حامله
يموت ردىء الشعر من قبل أهله ... وجيده يبقى وإن مات قائله

ومثله لمعبد البارقى :

الشعر لب المرء يعرضه ... والقول مثل مواقع النبل
منها المقصر عن رميته ... ونوافذ يذهبن بالخصل

(٢) الصواب به .

(٣) كمدحه لهرم بن سنان وسنان بن أبى حارثة قال بنو تميم لسلامة بن جندل مجدنا بشعرك قال افعلوا حتى أقول .

والتأويل ، ويذهب بالقول مذهب المبالغة والإغراق فى المدح والذم والوصف والبث [١] والفخر والمباهاة وسائر المقاصد والأغراض ، وهناك يجد الشاعر سبيلا إلى أن يبدع ويزيد ، ويبدئ فى اختراع الصور ويعيد ، ويصادف مضطرباً [٢] كيف شاء واسعاً ، ومدداً من المعانى متتابعاً ، ويكون كالمغترف من غدير لا ينقطع ، والمستخرج من معدن لا ينتهى .

وأما القبيل الأول فهو فيه كالمقصور المدانى قيدُه [٣] ، والذى لا تتسع كيف شاء يده وأيده [٤] ثم هو فى الأكثر يورد على السامعين معانى معروفة وصوراً مشهورة ، ويتصرف فى أصول هى وإن كانت شريفة فإنها كالجواهر تحفظ أعدادها ، ولا يرجى ازديادها ، وكالأعيان الجامدة التى لا تنمى [٥] ولا تزيد ، ولا تربح ولا تفيد ، وكالحسناء العقيم . والشجرة الرائعة لا تمتع بجنى كريم .

هذا ونحوه يمكن أن يتعلق فى نصرة التخييل وتفضيله ، والعقل بعد على تفضيل القبيل الأول وتقديمه ، وتفخيم قدره وتعظيمه ، وما كان العقل ناصره ، والتحقيق شاهده ، فهو العزيز جانبه ، المنيع مناكبه ، وقد قيل : الباطل مخصوم وإن قضىَ له ، والحق مفلج وإن قضى عليه [٦] هذا ومن سلم أن المعانى المعرقة فى الصدق ، المستخرجة من معدن الحق ، فى حكم الجامد

---

(١) أشد الحزن .
(٢) مجالا واسعا .
(٣) دانى القيد مداناة ضيقه .
(٤) القوة .
(٥) نمى ينمى أفصح من نما ينمو بمعنى زاد .
(٦) المفلج الفائز الظافر يقال فلج وأفلج على خصمه إذا انتصر .

الذى لاينمى ، والمحصور الذى لايزيد ؟

وإن أردت أن تعرف بطلان هذه الدعوى فانظر إلى قول أبى فراس[1] :

وكنا كالسهام إذا أصابت مراميها فراميها أصابا

ألست تراه عقليا عريقاً فى نسبه ، معترفاً بقوة سببه ، وهو على ذلك من فرائد أبى فراس التى هو أبو عذرها[2] ، والسابق إلى إثارة سرها .

واعلم أن الاستعارة لا تدخل فى قبيل التخييل لأن المستعير لا يقصد إلى إثبات معنى اللفظة المستعارة وإنما يعمد إلى إثبات شبه هناك فلا يكون مخبره على خلاف خبره . وكيف يعرض الشك فى أن لا مدخل للاستعارة فى هذا الفن وهى كثيرة فى التنزيل على مالا يخفى كقوله عز وجل : ﴿واشتعل الرأس شيبا﴾ ثم لا شبهة فى أن ليس المعنى على إثبات الاشتعال ، ظاهراً وإنما المراد إثبات شبهه . وكذلك قول النبى صلى الله عليه وسلم : « المؤمن

---

(١) كان لسيف الدولة وقائع كثيرة مع من خرج عليه من العرب ثم تجمعت عشائرهم وحاربوه فجهز لهم جيشا عرمرما أبلى فيه أبو فراس بلاء عظيما حتى انتصر فقال يصف الحال .

أبت عبراته إلا انسكابا ونار ضلوعه إلا التهابا
وماقصرت عن تسآل ربع ولكنى سألت فلن أجابا

إلى أن قال قبله :

ولما ثار سيف الدين ثرنا كما هيجت آسادا غضابا
أسنته إذا لاقى طعانا صوارمه إذا لاقى ضرابا
دعانا والأسنة مشرعات فكنا عند دعوته الجوابا

قال الثعالبى وهذا أحسن ما قيل فى معناه .

(٢) يقال هو أبو عذر هذا الكلام أى هو أول من اخترعه ويقال ما أنت بذى عذر هذا الكلام أى لست بأول من اقتضبه ، والعذر هنا بالضم أصله العذرة وهى البكارة بحذف التاء .

مرآة المؤمن » ليس على إثبات المرآة من حيث الجسم الصقيل ؛ لكن من حيث الشبه المعقول ، وهو كونها سببا للعلم بما لولاها لم يعلم ، لأن ذلك العلم طريقة الرؤية ، ولا سبيل إلى أن يرى الإنسان وجهه إلا بالمرآة وما جرى مجراها من الأجسام الصقيلة فقد جمع بين المؤمن والمرآة فى صفة معقولة ، وهى أن المؤمن ينصح أخاه ويريه الحسن من القبيح كما ترى المرآة الناظر فيها ما يكون بوجهه من الحسن وخلافه . وكذا قوله صلى الله عليه وسلم : « إياكم وخضراء الدمن » معلوم أن ليس القصد إثبات معنى ظاهر اللفظين ، ولكن الشبه الحاصل من مجموعهما ، وذلك حسن الظاهر ، مع خبث الأصل .

وإذا كان هذا كذلك بان منه أيضاً أن لك مع لزوم الصدق والثبوت على محض الحق الميدان الفسيح ، والمجال الواسع ، وأن ليس الأمر على ما ظنه ناصر الإغراق والتخييل الخارج على أن يكون الخبر على خلاف المخبر من أنه إنما يتسع المقال ويفتن، وتكثر موارد الصنعة ويغزر ينبوعها، وتكثر أغصانها وتتشعب فروعها ، إذا بسط من عنان الدعوى ، فادعى ما لا يصح دعواه ، وأثبت ما ينفيه العقل ويأباه :

وجملة الحديث الذى [١] أريده بالتخييل ههنا ما يثبت فيه الشاعر أمراً هو غير ثابت أصلا ، ويدعى دعوى لا طريق إلى تحصيلها ، ويقول قولا يخدع فيه نفسه ويريها ما لا ترى . أما الاستعارة فإن سبيلها سبيل الكلام المحذوف [٢] فى أنك إذا رجعت إلى أصله وجدت [٣] قائله وهو يثبت

---

(١) المناسب أن الذى الخ ..

(٢) يريد به الموجز وهو استعمال للجاحظ فى كتبه .

(٣) وجد هنا بمعنى صادف فلا تحتاج إلى مفعول ثان إلا إذا جعلنا جملة الحال سدت مسده كما فى قول الحماسى (وأمسى وهو عريان) .

أمراً عقليا صحيحاً ويدعى دعوى لها شبح فى العقل . وستمر بك ضروب من التخييل هى أظهر أمراً فى البعد عن الحقيقة تكشف وجهه فى أنه خداع للعقل وضرب من التزويق ، فتزداد استبانة الغرض بهذا الفصل ، وأزيدك حينئذ إن شاء الله كلاما فى الفرق بين مايدخل فى حيز قولهم : خير الشعر أكذبه . وبين ما لا يدخل فيه مما يشاركه فى أنه اتساع وتجوز فاعرفه [١]

وكيف دار الأمر فإنهم لم يقولوا : خير الشعر أكذبه وهم يريدون كلاما غفلا ساذجا يكذب فيه صاحبه ويفرط نحو أن يصف الحارس بأوصاف الخليفة ، ويقول للبائس المسكين : إنك أمير العراقين ، ولكن ما فيه صنعة يتعمل لها ، وتدقيق فى المعانى يحتاج معه إلى فطنة لطيفة ، وفهم ثاقب ، وغوص شديد ، والله الموفق للصواب .

وأعود إلى ما كنت فيه من الفصل بين المعنى الحقيق وغير الحقيق .

واعلم أن ما شأنه التخييل أمره فى عظم شجرته ، إذ [٢] تؤمّل نسبه ، وعرفت شعوبه وشعبه ، ـ على ما أشرت إليه قبل ـ لا يكاد تجىء فيه قسمة تستوعبه ، وتفصيل يستغرقه ، وإنما الطريق فيه أن يتتبع الشىء بعد الشىء ويجمع ما يحصره الاستقراء . فالذى بدأت به من دعوى أصل وعلة فى حكم من الأحكام هما كذلك ماتركت المضايقة ؛ وأخذ بالمسامحة ، ونظر إلى الظاهر ، ولم ينقّر عن السرائر ، وهو النمط العدل والنمرقة الوسطى ، وهو شىء تراه [٣] كثيراً بالآداب والحكم البريئة من الكذب . ومن الأمثلة

---

(١) زاد هذه المسألة إيضاحا فى دلائل الإعجاز .
(٢) الصواب إذا .
(٣) الصواب أشبه كثيرا .

فيه قول أبي تمام (١) :

إن ريب الزمان يُحسن أن يـ ـدى الرزايا إلى ذوى الأحساب
فلهذا يجف بعـــد اهتزاز قبل روض الوهاد روضُ الروابى

وكذا قوله (٢) يذكر الممدوح قد زاده مع بعده عنه وغيبته فى العطايا على الحاضرين عنده اللازمين خدمته :

لزموا مركز الندى وذراه وعدتنا عن مثل ذاك العوادى
غير أن الربى إلى سبل الإنو اء أدنى والحظ حظ الوهاد

لم يقصد من الربى إلى العلو ولكن إلى الدنو فقط ، وكذلك لم يرد بذكر الوهاد الضعة والتسفل والهبوط كما أشار إليه فى قوله :

« والسيل حرب للمكان العالى »

---

(١) من قصيدة يرثى محمد بن الفضل الحميرى مطلعها :

ريب دهر أصم دون العتاب مرصد بالأوجال والأوصاب
جف در الدنيا فقد أصبحت تكتال أرواحنا بغير حساب

(٢) من قصيدة يمدح أبا عبد الله أحمد بن أبي دؤاد أولها :

سعدت غربة النوى بسعاد فهى طوع الاتهام والأنجاد
فارقتنا فللمدامـــع أنوا ء سوار على الخدود عواد

إلى أن قال :

شاب رأسى وما رأيت مشيب الر أس إلا من فضل شيب الفؤاد
وكذاك القلوب فى كل بؤس ونعيم طلائع الأجساد

ثم قال مخاطبا :

كان فى الأجفلى وفى النقرى عر فك نضرَ الهموم نضر الوجاد
ومن الحظ فى العلى خضرة المه روف فى الجمع منه والأفراد
كنت عن غرسه بعيدا فأدنـــتنى إليه يداك عند الجداد
ساعة لو تشاء بالنصف فيها لمنحت البطاء خصل الجياد

وإنما أراد أن الوهاد ليس لها قرب الربى من فيض الأنواء ثم إنها تتجاوز الربى التى هى دانية قريبة إليها إلى الوهاد التى ليس لها ذلك القرب .

ومن هذا النمط فى أنه تخييل شبيه بالحقيقة لاعتدال أمره وأن ماتعلق به من العلة موجود على ظاهر ما ادعى قوله :(١)

ليس الحجاب بمقص عنك لى أملا إن السماء تُرَجّى حين تحتجب

فاستتار السماء بالغيم هو سبب رجاء الغيث الذى يعد فى مجرى العادة جوداً منها ، ونعمة صادرة عنها ، كما قال ابن المعتز :

ماترى نعمة السماء على الأر ض وشكر الرياض للأمطار (٢)

وهذا نوع آخر وهو دعواهم فى الوصف هو خلقة فى الشىء وطبيعة أواجب على الجملة من حيث هو - أن ذلك الوصف حصل له من الممدوح ومنه استفاده . وأصل هذا التشبيه ثم يتزايد فيبلغ هذا الحد ولهم فيه عبارات منها قولهم . إن الشمس تستعير منه النور وتستفيده ، أو تتعلم منه الإشراق وتكتسب منه الإضاءة . وألطف من ذلك أن يقال : تسرق وإن نورها مسروق

---

(١) هو أبو تمام يعاتب أبا دلف أو عبد الله بن طاهر ومطلعها :

صبرا على المطل ما لم يتله الكذب فللخطوب إذا سامحتها عقب

على المقادير لوم إن منيت به من عاذل وعلى السعى والطلب

يأيها الملك النائى بعزته وجوده لمرجى جوده كثب

(٢) هو على حذف همزة الاستفهام والأصل أما ترى وهو استفهام تقريرى وقبله :

اسقنى الراح فى شباب النهار وانف همى بالخندريس العقار

قد تولت زهر النجوم وقد بشـ ـر بالصبح طائر الأسحار

وبعده وغناء الطيور كل صباح وانفتاح الأشجار بالأنوار

فكأن الربيع يجلو عروسا وكأنا من قطره فى نثار

من الممدوح وكذلك يقال المسك يسرق من عرفه ، وإن طيبه مسترق منه ومن أخلاقه . قال ابن بابك [(١)] :

ألا يارياض الحزن من أبرق الحمى نسيمك مسروق ووصفك منتحل
حكيت أبا سعد فنشرك نشره ولكن له صدق الهوى ولك الملل

(ونوع آخر) وهو أن يدعى فى الصفة الثابتة للشىء إنه [(٢)] إنما كان لعلة يضعها الشاعر ويختلقها إما لأمر يرجع إلى تعظيم الممدوح أو تعظيم أمر من الأمور فمن الغريب فى ذلك معنى بيت فارسى ترجمته :

لو لم تكن نية الجوزاء خدمته لما رأيت عليها عقد منتطق

فهذا ليس من جنس ما مضى أعنى ما أصله التشبيه ثم أريد التناهى فى المبالغة والإغراق والإغراب . ويدخل فى هذا الفن قول المتنبي [(٣)] :

لم يحك نائلك السحاب وإنما حُمَّت به فصبيبها الرحضاء

لأنه وإن كان أصله التشبيه من حيث يشبه الجواد بالغيث فإنه وضع

---

(١) يمدح أبا سعد بن خلف الهمذانى من أدباء القرن الرابع وكان واسع المعرفة جم الفضل والأدب ، ونظيره ما كتب به الصاحب بن عباد إلى أبى هاشم العلوى وقد أهدى إليه فى طبق من فضة عطر العيد .

زارك نازلا برواقـك يستنبط الإشراق من إشراقك
فاقبل من الطيب الذى أهديته مايسرق العطار من أخلاقك
والظرف يوجب أخذه مع ظرفه فأضف به طبقا إلى أطباقك

(٢) الصواب أنها إنما كانت الخ ...

(٣) يمدح أبا على هرون بن عبد العزيز الأوراجى الكاتب المتوفى سنة ٣٤٤ من قصيدة مطلعها :

أمن أزديارك فى الدجى الرقباء إذ حيث كنت من الظلام ضياء

وبيت الكتاب مأخوذ من قول أبى نواس :

إن السحاب لتستحى إذا نظرت إلى نداك فقاسته بما فيها

المعنى وضعاً وصوره فى صورة خرج معها إلى مالا أصل له فى التشبيه فهو كالواقع بين الضربين . وقريب منه فى أن أصله التشبيه ثم باعده بالصنعة فى تشبيهه وخلع عنه صورته خلعاً قوله [١] :

وما ريح الرياض لها ولكن   كساها دفنهم فى الترب طيباً

ومن لطيف هذا النوع قول أبى العباس الضبى [٢] :

لاتركنن إلى الفـــرا   ق وإن سكنت إلى العناق [٣]

فالشمس عند غـــروبها   تصفر من فرق الفراق

أدعى لتعظيم الفراق أن مايرى من الصفرة فى الشمس حين يرق نورها بدنوها من الأرض [٤] إنما هو لأنها تفارق الأفق الذى كانت فيه أو الناس الذين طلعت عليهم ، وأنِسَت بهم وأنسوا بها وسرتهم رؤيتها .

(ونوع آخر) منه قول الآخر :

قضيب الكرم نقطعه فتبكى [٥]   ولا تبكى وقد قَطَع الحبيب

---

(١) هو المتنبى يمدح على بن مكرم التميمى ومطلعها :

ضروب الناس عشاق ضروبا   فأعذرهم أشفهم حبيبا

وقبله: ألست ابن الألى سعدوا وسادوا   ولم يلدوا امرأ إلا نجيبا

(٢) هو أبو العباس أحمد بن إبراهيم الضبى وهو تلميذ الصاحب وجذوة من ناره ومن نظمه البديع قوله :

إذا الثريا اعترضت   عند طلوع الفجر

حسبتها لامعـــة   سنبلة من در

(٣) الرواية الصحيحة للبيت كما فى اليتيمة :

لاتركنن إلى الفرا   ق فإنه مر المذاق

(٤) على حسب النظر .

(٥) الصواب فيبكى ، والقضيب من الكرم إذا قطع ينقط الماء من حيث قطع وهو ماعبر عنه ببكاء شجر الكرم .

وهو منسوب إلى إنشاد الشبلى [١] ويقال أيضاً أن أبا العباس أخذ معناه فى بيته من قول بعض الصوفية ، وقيل له لِمَ تصفر الشمس عند الغروب فقال من حذر الفراق .

ومن لطيف هذا الجنس قول الصولى [٢] :

الريح تحسدنى علي ك ولم أخلها فى العدا
لما هممت بقبلة ردت على الوجه الردا

وذلك أن الريح إذا كان وجهها نحو الوجه فواجب فى طباعها أن ترد الرداء عليه ، وأن تلفَّ من طرفيه ، وقد ادعى أن ذلك منها لحسدها وغَيرة لمحبوبه . وهى من أجل مافى نفسها ، تحول بينه وبين أن ينال من وجهها ، وفى هذه الطريقة قوله . [٣]

وحاربنى فيه ريب الزمان كأن الزمان له عاشق

إلا أنه لم يضع علة ومعلولا من طريق النص على شىء بل أثبت محاربة

---

(١) هو أبو بكر دلف بن جحدر من أئمة الصوفية وتلميذ الجنيد توفى سنه ٣٣٤ .

(٢) نسبهما فى اليتيمة إلى أبى القاسم عمر بن عبد الله الهرندى رواية عن الأمير أبى الفضل عبيد الله بن أحمد الميكالى .

(٣) هو محمد بن وهيب الحميرى من أبيات أولها :

يدل على أنه عاشق من الدمع مستشهد ناطق
ولى مالك أنا عبد له مقر بأنى له وامق
إذا سموت إلى وصله تعرض لى دونه عائق

وقد أخذ البحترى معنى البيت فقال :

قد فرق البين المفرق بيننا عشق النوى لربيب ذاك الربرب

وأبو الطيب فقال :

ملام النوى فى ظلمها غاية الظلم لعل بها مثل الذى بى من السقم

وسيأتى بعد قليل .

من الزمان فى معنى الحبيب ثم جعل دليلا عليها جواز أن يكون شريكا فى عشقه . وإذا حققنا لم يجب لأجل أن جعل العشق علة للمحاربة وجمع بين الزمان والريح فى ادعاء العداوة لهما أن يتناسب البيتان من طريق الخصوص والتفصيل وذاك أن الكلام فى وضع الشاعر للأمر الواجب علة غير معقول كونها علةً لذلك الأمر . وكون العشق علة للمعاداة فى المحبوب ، معقول معروف غير بدع ولا منكر . فإذا بدأ فادعى أن الزمان يعاديه ويحاربه فيه فقد أعطاك أن ذلك لمثل هذه العلة . وليس إذا ردت الريح الرداء فقد وجب أن يكون ذلك لعلة الحسد أو لغيرها لأن رد الرداء شأنها فاعرفه ، فإن من حكم المحصل ألا ينظر فى تلاقى المعانى وتناظرها إلى جُمْل الأمور ، وإلى الإطلاق والعموم ، بل ينبغى أن يدقق النظر فى ذلك ويراعى التناسب من طريق الخصوص والتفاصيل . فأنت فى نحو بيت ابن وهيب - وحاربنى الخ - تدعى صفة غير ثابتة إذا هى ثبتت اقتضت مثل العلة التى ذكرها . وفى نحو بيت الريح تذكر صفة ثابتة حاصلة على الحقيقة ثم تدعى لها علة من عند نفسك وضعاً واختراعاً . وهكذا قول المتنبي [1] :

ملامى النوى فى ظلمها غاية الظلم　　　لعل بها مثل الذى بى من السقم

فلو لم تغر لم تزو عنى لقاءكم　　　ولو لم تردكم لم تكن فيكم خصمى

الدعوى فى إثبات الخصومة وجعل النوى كالشيء الذى يعقل ويميز ويريد ويختار ، وحديث الغيرة والمشاركة فى هوى الحبيب يثبت بثبوت ذلك من غير أن يفتقر منك إلى وضع اختراع .

---

(١) يمدح الحسن بن إسحق التنوخى وهما مطلع القصيدة ورواية الديوان ملام النوى .

ومما يلحق بالفن الذى بدأت به قوله [١] :

بنفسى ما يشكوه من راح طرفه [٢] ونرجسه مما دها حسنه ورد
أراقت دمى عمداً محاسن وجهه فأضحى وفى عينيه آثاره تبدو

لأنه قد أتى بحمرة العين وهى تعرض لها من حيث هى عين ممثلة ، وأتى بإراقة الدم فى صورة العلة ، وهو يعلم أنها مخترعة موضوعة فليس ثم إراقة دم . وأصل هذا قول ابن المعتز : [٣]

قالوا اشتكت عينه فقلت لهم من كثرة القتل نالها الوصب
حمرتها من دماء من قتلت والدم فى النصل شاهد عجب

وبين هذا الجنس وبين نحو « الريح تحسدنى » فرق [٤] وذلك أن لك هناك فعلا هو ثابت واجب فى الريح وهو رد الرداء على الوجه ثم أحببت أن تتطرف [٥] فادعيت لذلك الفعل علة من عند نفسك . وأما ههنا فنظرت

---

(١) هو أبو الفرج الببغاء عبد الواحد بن نصر المخزومى من شعراء سيف الدولة وهو من أهل نصيبين توفى حوالى سنة ٣٩٠ وبعدهما :

غدت عينه كالخد حتى كأنما سقى عينه من ماء توريده الخد
لئن أصبحت رمداء مقلة مالكى لقد طالما استشفت بها مقل رمد

(٢) الظاهر إعراب طرفه بالإضافة إلى الراح أى طرفه الذى هو كالراح فى التأثير فى القلوب ونرجسه ورد مبتدأ وخبر ومما دهاها حال مقدمة على ورد إلا إذا أعربت الجملة الحالية سادة مسد الخبر كما فى قوله :

توهمها طرفى فأصبح خدها وفيه مكان الوهم من نظرى أثر
وصافحها كفى فآلم كفها فمن مس كفى فى أناملها عقر

(٣) أو ابن الرومى أو أبى عثمان الناجم .

(٤) فى هذا الفرق خفاء إذ لا يظهر هذا مع ما قبله وهو ما صرح به فى قوله « أتى به فى صورة العلة » .

(٥) الصواب تتظرف إذ ليس فى معانى تطرف ما يناسب ما هنا .

إلى صفة موجودة فتأولت فيها أنها صارت إلى المين من غيرها وليست هى من شأنها أن تكون فى العين ، فليس معك هنا إلا معنى واحد . وأما هناك فعندك معنيان أحدهما موجود معلوم ، والآخر مدعى موهوم ، فاعرفه .

ومما يشبه هذا الفن الذى هو تأول فى الصفة فقط من غير أن يكون معلول وعلة ماتراه من تأولهم فى الأمراض والحميات أنها ليست بأمراض ولكنها فطن ثاقبة وأذهان متوقدة وعزمات كقوله (١) :

وحوشيت أن تضرَى بجسمك علة ... ألا أنها تلك العزوم الثواقب

وقال ابن بابك (٢) :

فترت وماوجدت أبا العلاء ... سوى فرط التوقد والذكاء

ولكشاجم بقوله فى على بن سليمان الأخفش (٣) :

---

(١) هو أبو ابراهيم اسماعيل بن أحمد الشاشى العامرى أحد من شرفهم خدمة الصاحب ورفعتهم سدته وهذا البيت من قصيدة فى شكاية الإخوان وفيها ذكر مرض الصاحب ومطلعها .

سرينا إلى العليا فقيل كواكب ... وثرنا إلى الجلى فقيل قواضب
وفاضت لنا فوق السنين نوافل ... فما شك محل أنهن سحائب

إلى أن قال :

فديناك يا كهف البرية ما الذى ... أعار المعالى سقمك المتناوب
عليها من الإشفاق ثوب كآبة ... وخطب يدانيه الضنى متقارب
وفى كل دار للأرامل ضجة ... بأدعية ضوضاؤها متجاوب
ولو شئت تأديب الليالى فعلته ... فلم بر منها فى جنابك خارب
ولم تقرب الحمى حماك ولم يكن ... لسورتها فى سورة المجد سارب

(٢) يخاطب أبا العلاء السروى وكان قديم الصحبة للصاحب مختصا به ومن ندمائه وممن يأنس بهم ويكاتبهم نثرا ونظما .

(٣) هو الأخفش الأصغر المتوفى سنة ٣١٥ ومطلعها :

يا على بن سليمان يا معـ ... ـدن العلم وينبوع الأدب

ولقـــد أخطأ قوم زعموا | أنها من فضل برد فى العصب
هو ذاك الذهن أذكى ناره | والمزاجُ المفرط الحر التهب

ولا يكون قول المتنبي (١) :

ومنازل الحمى الجسوم فقل لنا | ماعذرها فى تركها خيراتها
أعجبتها شرفاً فطال وقوفها | لتأمل الأعضاء لا لأذاتها

من هذا فى شيء بأكثر من أن كلا القولين فى ذكر الحمى وفى تطييب النفس عنها . فهو اشتراك فى العرض والجنس فأما فى عمود المعنى وصورته الخاصة فلا ، لأن المتنبي لم ينكر أن مايجده الممدوح حمى كما أنكره الآخر ولكنه كأنه سأل نفسه كيف اجترأت الحمى على الممدوح مع جلالته وهيبته ؟ أم كيف جاز أن يقصد شيء إلى أذاه مع كرمه ونبله ؟ وأن المحبة من النفوس مقصورة عليه ؟ فتمحل لذلك جواباً ، ووضع للحمى فيما فعلته من الأذى عذراً ، وهو تصريح ما اقتصر فيه على التعجب فى قوله (٢) :

أيدرى ما أرابك من يريب | وهل ترقى إلى الفلك الخطوب

= بأبى أنت وأمى والذى | أشتهى من كل شيء وأحب
أكسبت شكواك قلبى علة | ما أراه قبلها قط اكتسب
أنت لم تعتل لكن العلى | والندى اعتلا وذا شيء عجب
وبعده : ولقـد قلت لإسحق وإسحـ | ـق بالأوجاع أدرى وأطب
كيف لا تخبر أعضاء فتى | كل عضو منه فيه ألف قلب

(١) يمدح أبا أيوب أحمد بن عمران ويعوده ومطلعها :

سرب محاسنه حرمت ذواتها | دانى الصفات بعيد موصوفاتها

إلى أن قال :

لا تعذل المرض الذى بك شائق | أنت الرجال وشائق علاتها
فإذا نوت سفرا إليه سبقتها | فأضفت قبل مصافها حالاتها

(٢) وقد تشكى سيف الدولة من دمل .

وجسمك فوق همة كل داء فقرب أقلها منه عجيب

إلا أن ذلك الإبهام [1] ، أحسن من هذا البيان ، وذلك التعجب موقوفا غير مجاب ، أولى بالإعجاب ، وليس كل زيادة تفلح ، وكل استقصاء يملح .

ومن واضح هذا النوع وجيده قول ابن المعتز :

صدت شرير وأزمعت هجرى وصغت ضمائرها إلى الغدر [2]

قالت كبرت وشبت قلت لها هـــذا غبار وقائع الدهر

ألا تراه أنكر أن يكون الذى بدا به شيباً ، ورأى الاعتصام بالجحد أخصر طريقاً إلى نفى العيب وقطع الخصومة ، ولم يسلك الطريقة العامية فيثبت المشيب ، ثم يمنع العائب أن يعيب ، ويريه الخطأ فى عيبه به ، ويلزمه المناقضة فى مذهبه ، كنحو ما مضى أعنى كقول البحترى : « وبياض البازى » وهكذا إذا تأولوا فى الشيب إنه ليس بابيضاض الشعر الكائن فى مجرى العادة وموضوع الخلقة ، ولكنه نور العقل والأدب قد انتشر ، وبان من وجهه وظهر ، كقول الطائى الكبير [3] :

ولا يروعك إيماض القتير به فإن ذاك ابتسام الرأى والأدب [4]

---

(١) الصواب الإبهام .

(٢) يكثر فى الديوان اسم محبوبة له تسمى شرة كقوله :

قف خليلى نسأل لشرة دارا أو محلا منها خلاء قفارا

وقوله : يا وجه شرة يا أخا البدر أرضيت بالإعراض والهجر

فيكون ما هنا: تصغيره .

(٣) يمدح الحسن بن سهل من قصيدة مطلعها :

أبدت أسى أن رأتنى مخلس القصب وآل ما كان من عجب إلى عجب

إلى أن قال :

فأصغرى أن شيبا لاح بى حدثا وأكبرى أننى فى المهد لم أشب

(٤) فى رواية الديوان فلا يؤرقك إيماض القتير والقتير الشيب .

ويبغى أن (١) باب التشبيهات قد حظىَ من هـذه الطريقة بضرب من السحر لاتأتى الصفة على غرابته ، ولايبلغ البيان كنه ماناله من اللطف والظرف ، فإنه قد بلغ حدا يبزُّ المعروف فى طباع الغزل ، ويلهى الثكلان وينفث فى عُقَد الوحشة ، وينشد ماضل عنك من المسرة ويشهد للشعر بما يطيل لسانه فى الفخر ، ويبين جملة ماللبيان من القدرة والقدر ، فمن ذلك قول ابن الرومى (٢) :

خجلت خدود الورد من تفضيله ... خجلا توردها عليـــه شاهد
لم يُخجل الورد المورد لونه ... إلا وناحله الفضيلة عاند (٣)
للنرجس الفضل المبين وإن أبى ... آب وحاد عن الطريقة حائد
فصل القضية أن هـذا قائد ... زهر الرياض وأن هـذا طارد
شتان بين اثنين هذا موعِد ... بِتسلُّب الدنيا وهـذا واعد (٤)
ينهى النديم عن القبيح بلحظه ... وعلى المدامة والسماع مساعد
اطلب بعقلك (٥) فى الملاح سميه ... أبداً فإنك لا محالة واجد
والورد إن فكرت فرد فى اسمه ... ما فى الملاح له سمىٌّ واحد
هذى النجوم هى التى ربتهما ... بحيا السحاب كما يربى الوالد

---

(١) فى العبارة سقط والأصل وينبغى أن تعلم أن باب الخ ...
(٢) فى الأمالى وزهر الآداب والمختارات للبارودى هذه القطعة بترتيب غير ماهنا .
(٣) عاند اسم فاعل من عند إذا مال عن الطريق .
(٤) يقال تسلبت المرأة إذا لبست السلاب وهى ثياب الحداد السود أى إن النرجس المفضل عنده يظهر فى أول الربيع فتتلوه الأزهار والرياحين والورد المفضول يظهر آخر الربيع فيتوعد الرياحين بسلب بهجتها حيث يذهب فى أثره زهر الرياض فالنرجس كالقائد والورد كالطارد .
(٥) رواية الأمالى اطلب بعيشك .

فانظر [١] إلى الأخوين من أدناهما   شبهاً بوالده فذاك الماجد
أين الخدود [٢] من العيون نفاسة   ورياسة لولا القياس الفاسد

وترتيب الصنعة فى القطعة أنه عمل أولا على قلب طرف التشبيه كما مضى فى فصل التشبيهات ، فشبه حمرة الورد بحمرة الخجل ، ثم تناسى ذلك وخدع عنه نفسه وحملها على أن تعتقد أنه خجل على الحقيقة ، ثم لما اطمأن ذلك فى قلبه واستحكمت صورته ، طلب لذلك الخجل علة فجعل علته أن فُضِّل على النرجس ووضع فى منزلة ليس يرى نفسه أهلا لها ؛ فصار يثوب [٣] من ذلك ويتخوف عيب العائب وغميزة المستهزئ ، ويجد مايجد من مُدح مدحة يظهر الكذب فيها ، ويفرط حتى تصير كالهزء بمن قُصد بها . ثم زادته الفطنة الثاقبة والطبع المثمر فى سحر البيان ، مارأيت من وضع حجاج فى شأن النرجس وجهة استحقاقه الفضل على الورد فجاء بحسن وإحسان لاتكاد تجد مثله إلا له .

ومما هو خليق أن يوضع فى منزلة هذه القطعة ، ويلحق بها فى لطف الصنعة ، قول أبى هلال العسكرى [٤] :

زعم البنفسج أنه كعذاره   حسناً فسلوا من قفاه لسانه

---

(١) رواية الأمالى فتأمل الاثنين .
(٢) رواية الأمالى أين العيون من الخدود .
(٣) يرجع الى نفسه .
(٤) فى غلام نبت عذاره وقبله :

ومعذر قال الإله لوجهه   كن فتنة للعالمين فكانه

ولابن المعتز فى تشبيه العذار :

قضيب من الريحان شابه لونه   إذا مابدا للعين لون الزمرد
فشبهته لما تأملت حسنه   عذار تبدى فى عوارض أمرد

لم يظلموا فى الحكم إذ مثلوا به　　فلشد ما رفع البنفسج شانه [١]

وقد اتفق للمتأخرين من المحدثين فى هذا الفن نكت ولطف [٢] وبدع وظرائف [٣] لا يستكثر لها الكثير من الثناء ، ولا يضيق مكانها من الفضل عن سعة الإطراء ، فمن ذلك قول ابن نباتة [٤] فى صفة الفرس :

وأدهم يستمد الليـــل منه　　وتطلع بين عينيــه الثريا

سرى خلف الصباح يطير مشيا　　ويطوى خلفه الأفلاك طيا

فلما خاف وشْكَ الفوت منه　　تشبث بالقـــوائم والمحيا

وأحسن من هذا وأحكم صنعة قوله فى قطعة أخرى [٥] :

فكأنما لطم الصباح جبينه　　فاقتص منه وخاض فى أحشائه [٦]

وأول القطعة [٧] :

قد جاءنا الطرف الذى أهديته　　هاديه يعقد أرضه بسمائه [٨]

---

(١) مثل به من باب نصر أى نكل به .

(٢) الصواب لطائف لأنه لا يوجد مفرد هو لطفة ويؤيده ما بعده .

(٣) المناسب طرائف بالطاء لأن الظرف خاص بالعقل .

(٤) هو ابن نباتة السعدى فى وصف فرس أهداه إياه سيف الدولة .

(٥) هما فى وصف فرس أغر محجل حمله عليه سيف الدولة .

(٦) يريد أن غرته إنما هى أثر من لطمة الصباح على جبينه وتحجيله إنما هو من خوض قوائمه الاربع فى أحشاء الصباح .

(٧) ليس هذا بأولها بل أولها قوله :

يأيها الملك الذى أخلاقه　　من خلقه ورواؤه من رائه

أى إنه فى خلقه وخلقه كأنه كون نفسه وخلقها كما يجب من الكمال .

(٨) الطرف بالكسر الكريم من الخيل والهادى العنق ويعقد يصل وهو يبالغ فى وصفه بالطول .

أولاية وليتنا فبعثته رمحا سبيب العرف عقد لوائه [1]

نختال منه على أغرّ محجل ماء الدياجى قطرة من مائه

فكأنما لطم الصباح جبينه فاقتص منه وخاض فى أحشائه

متمهلا والبرق من أسمائه متبرقعا والحسن من أكفائه

ما كانت النيران تُكمن حرها لو كان للنيران بعض ذكائه

لا تعلق الألحاظ فى أعطافه إلا إذا كفكفت من غلوائه

لا يكمل الطَّرف المحاسن كلها حتى يكون الطَّرف من أسرائه [2]

وممـا له فى هذا التفضيل الفضل الظاهر لحسن الإبداع مع السلامة من التكلف قوله [3] :

وماء على الرضراض يجرى كأنه صفائح تبر قد سبكن جداولا [4]

كأن بها من شدة الجرى جِنة وقد ألبستهن الرياح سلاسلا

---

(١) السبيب الخصلة من الشعر والعرف شعر رقبة الفرس الذى ينبت فى محدبها جعل شعره على العنق كأنه راية على رمح ،

(٢) يريد أن الجواد الكريم لا يكمل محاسنه إلا إذا أسر طرف الناظر إليه .

(٣) هو أبو سعيد الرستمى محمد بن الحسن من سروات أصفهان وأهل البيوتات وكان الصاحب يقدمه على أكثر ندمائه قالها فى وصف دار بناها الصاحب بأصفهان وقد عرض كثير من الشعراء لوصفها وتهنئته بسكناها ومطلعها :

نصبن لحبات القلوب حبائلا عشية حل الحاجبات حبائلا

قال فى اليتيمة ومنها فى وصف الماء الجارى وهو أحسن ما سمعت على كثرته :

هواء كأيام الهوى فرط رقة وقد فقد العشاق فيها العواذلا

وماء على الرضراض يجرى كأنه صفائح تبر قد سبكن جداولا

كأن بها من شدة الجرى جنة فقد ألبستهن الرياح سلاسلا

ولو أصبحت دارا لك الأرض كلـها لضاقت بمن ينتاب دارك آملا

(٤) الرضراض مادق من الحصى .

وإنما ساعده التوفيق ، من حيث وطئ له من قبل الطريق ، فسبق العرف بتشبيه الحبك على صفحات الغدران بحلق الدروع فتدرج من ذلك إلى أن جعلها سلاسل كما فعل ابن المعتز فى قوله [١] :

وأنهار ماء كالسلاسل فُجِّرت لِتُرْضع أولاد الرياحين والزهر

ثم أتم الحذق بأن جعل للماء صفة تقتضى أن يسلسل وقرّب مأخذ ما حاول عليه فإن شدة الحركة وفرط سرعتها من صفات الجنون كما أن التمهل فيها والتأنى من أوصاف العقل .

ومن هذا الجنس قول ابن المعتز فى السيف فى أبيات قالها فى الموفق [٢] وهى :

وفارس أغمد فى جُنة يقطع السيف إذا ماورد [٣]
كأنه ماء عليه جرى حتى إذا ماغاب فيه جمد
فى كفه عضب إذا هزه حسبته من خوفه يرتعد

---

(١) يمدح أباه أو المعتضد ويهنئه بقصيدة مطلعها :

سلمت أمير المؤمنين على الدهر ولا زلت فينا باقيا واسع العمر
حللت الثريا خير دار ومنزل فلا زال معمورا وبورك من قصر
فليس له فيما بنى الناس مشبه ولا ما بناه الجن فى سالف الدهر

إلى أن قال :

ترى الطير فى أغصانهن هواتفا تنقل من وكر لهن إلى وكر
وبنيان دارقد علت شرفاته كصف نساء قد تربعن فى الأزر

(٢) هو طلحة بن المتوكل أخو الخليفة أحمد بن المعتمد بالله كان ولى العهد لأخيه المعتمد من سنة ٢٦١ لكن المنية عاجلته قبل وفاة المعتمد وكان شجاعا ماهرا أبلى البلاء الحسن فى حرب الزنوج حتى قتل رئيسهم وكان مستبدا برأيه فى المملكة حسن الأثر فيها .

(٣) الظاهر تقطع إلا إذا أرجع الضمير إلى الغمد المفهوم من أغمد ويؤيده ما بعده ، يصف فارساً اشتمل عليه الحديد وعمته الدروع فإذا ورد عليه السيف ثلمه فلا ينفذ فيه .

فقد أراد أن يخترع لهزة السيف علة ، فجعلها رعدة تناله من خوف الممدوح وهيبته، ويشبه أن يكون ابن بابك نظر إلى هذا البيت وعلق [١] منه الرعدة فى قوله :

فإن عجمتنى نيوب الخطوب   وأوهى الزمان قوى مُنّتى [٢]
فما اضطرب السيف من خيفة   ولا أرعد الرمح من قرة [٣]

إلا أنه ذهب بها فى أسلوب آخر وقصد إلى أن يقول : إن كون حركات الرمح فى ظاهر حركة المرتعد لا يوجب أن يكون ذلك من ألم عارض وكأنه عكس القضية فأبى أن تكون صفة المرتعد فى الرمح للعلل التى لمثلها تكون فى الحيوان وأما ابن المعتز فحقق كونها فى السيف على حقيقة العلة التى لها تكون فى الحيوان فاعرفه وقد أعاد هذا الارتعاد على الجملة التى وصفت لك فقال :

قالوا طواه حزنه فانحنى   فقلت والشك عدو اليقين [٤]
ماهيف [٥] النرجس من صبوة   ولا الضنى فى صفرة الياسمين

---

(١) أى أخذ واقتبس .

(٢) عجمه كنصره عضه ليختبر صلابته والنيوب جمع ناب والمنة القوة كأن المنة حبل ذو طاقات .

(٣) القرة بالكسر ما يأخذ المرء من البرد. وأرعد ارتعد أصابته الرعدة .

(٤) أولها :ـ

ردّت على اللوم ظلامة   ويحك لا أغلب بالعاذلين
هل يحبس النفس على جسمها   جار هزيل وابن بنت سمين
قد أقبلت تعذلنى باطلا   وانصرفت عن وجه حق مبين
لا أحمل البخل إلى حفرتى   ليأكلنى البخل مع الآكلين
قالوا طواه الخ ...

(٥) هيف كيبس وهاف هيفا ضمر بطنه ورقت خاصرته فهو أهيف وهى هيفاء .

ولا ارتعاد السيف من قِرة ولا انعطاف الرمح من فرط لين

ومما حقه أن يكون طرازاً فى هذا النوع قول البحترى [١] :

يتعثرن فى النحور وفى الأو جه سكراً لما شربن الدماء

جعل فعل الطاعن بالرماح تعثراً منها كما جعل ابن المعتز تحريكه للسيف وهزه له ارتعاداً ثم طلب للتعثر علة كما طلب هو للارتعاد فاعرفه .

ومن هذا الباب قول علية [٢] :

وكأن السماء صاهرت الأ رض فصار النثار [٣] من كافور

---

(١) يمدح محمد بن يوسف وقد انتصر على الروم فى وقعة كانت بينهما ومطلعها :

يا أخا الأزد ما حفظت الاخاء لمحب ولا رعيت الوفاء
عذلا يترك الحنين أنينا فى هوى يترك الدموع دماء

إلى أن قال :

كيف تثنى على ابن يوسف لا كـ يف سما مجده ففات الثناء
جاد حتى أفنى السؤال فلما باد منا السؤال جاد ابتداء

ثم قال :

أحسن الله فى ثوابك عن ثغـ ر مضاع أحسنت فيه البلاء
كان مستضعفا فقر ومحرو ما فأجدى ومظلما فأضاء

ثم قال :

فى نواحى برجان إذ أنكروا التسـ بيح حتى توهموه غناء
حيث لم تورد السيوف على خمـ س ولم تحرق الرماح ظماء

يتعثرن الخ ...

(٢) فى اليتيمة إنه للصاحب بن عباد وقد أخذ هذا من قول ابن المعتز :

وكأن الربيع يجلو عروسا وكأنا من قطره فى نثار

وقبله أقبل الثلج فانبسط للسرور ولشرب الكبير بعد الصغير
أقبل الجو فى غلائل نور وتهادى بلؤلؤ منثور

(٣) يريد بالنثار الثلج .

وقول أبي تمام [١] :

كأن السحاب الغر غيبن تحتها حبيباً فما ترقى لهن مدامع

وقال السرى [٢] يصف الهلال :

جاءك شهر السرور شوال وغال شهر الصيام مغتال

ثم قال :

كأنه قيد فضة حرج فُضَّ عن الصائمين فاختالوا

كل واحد من هؤلاء خدع نفسه عن التشبيه وغالطها وأوهم أن الذى جرى العرف بأن يؤخذ منه الشبه قد حضر وحصل بحضرتهم على الحقيقة ولم يقتصر على دعوى حصوله حتى يصيب [٣] له علة وأقام عليه شاهداً . فأثبت علبة زفافاً بين السماء والأرض ، وجعل أبو تمام للسحاب حبيباً قد غيب فى التراب . وادعى السرى أن الصائمين كانوا فى قيد وأنه كان حرجاً فلما فض عنهم انكسر بنصفين [٤] أو اتسع فصار على شكل الهلال . والفرق بين بيت السرى وبيتى الطائيين أن تشبيه الثلج بالكافور معتاد عامى جار على الألسن وجعل القطر الذى ينزل من السحاب دموعاً ووصف السحاب والسماء بأنها تبكى كذلك ، فأما تشبيه الهلال بالقيد فغير معتاد نفسه [٥]

---

(١) يصف قومه ويفتخر بهم ومطلعها :

ألا صنع البين الذى هو صانع فإن تك مجزاعا فما الدهر جازع
هو الربع من أسماء والعام رابع له بلوى خبت فهل أنت رابع
ألا إن صدرى من بلائى بلاقع عشية شاقتنى الديار البلاقع

(٢) هو السرى الرفاء وقد تقدم ترجمته وبعدهما :

أما رأيت الهلال يرمقه قوم لهم أن رأوه إهلال

(٣) المناسب حتى أصاب .

(٤) الصواب نصفين .

(٥) توكيد للضمير فى معتاد بلا فصل وهو قليل .

إلا أن نظيره معتاد ومعناه من حيث الصورة موجود . وأعنى بالنظير مامضى من تشبيه الهلال بالسوار المنفصم كما قال (١) :

حاكيا نصف سوار من نضار يتوقد

وكما قال السرى نفسه (٢) :

ولاح لنا الهلال كشطر طوق على لبات زرقاء اللباس

إلا أنه ساذج لاتعليل فيه يجب من أجله أن يكون سواراً أو طوقا فاعرفه

ورأيت بعضهم ذكر بيت السرى الذى هو : « كأنه قيد فضة حرج » مع أبيات شعر جمعه إليها وأنشد قطعة ابن الحجاج (٣) :

يا صاحب البيت الذى قدمات فيه الضيف جوعا
مالى أرى فلك الرغيـ ف لديك مشترفا رفيعا (٤)
كالبـدر لانرجو إلى وقت المساء له طلوعا

---

(١) هو ابن المعتز .

(٢) فى وصف الهلال وقبله :

ألا عد لى بباطية وكاس وزع همى بإبريق وطاس
وذاكرنى بشعر أبى فراس على روض كشعر أبى نواس
وغيم مرهفات البرق فيه عوار والرياض بها كواس
وقد سلت جيوش الفطر فيه على شهر الصيام سيوف باس

(٣) هو أبو عبد الله الحسين بن أحمد بن الحجاج البغدادى شاعر ماجن خليع كان متشيعا لأهل البيت ومن حديث الأبيات أنه حضر دعوة فأخر رب البيت الطعام فأنشدها وفى اليتيمة بعد البيت الأول :

حصلتنا حتى نموت بدائنا عطشا وجوعا

وحينما رأى صاحب الدار يذهب ويجئ قال :

يا ذاهبا فى داره جائيا لغير ما معنى ولا فائده
قد جن أضيافك من جوعهم فاقرأ عليهم سورة المائده

(٤) الفلك المستدير من كل شىء والمشترف من اشترف إذا انتصب .

قال إنه شبه الرغيف بالبدر لعلتين . إحداهما الاستدارة والثانى [1] طلوعه مساء قال : وخير التشبيه ماجمع معنيين كقول ابن الرومى :

يا شبيه البدر فى الحسـ ـن وفى بعد المنال
جُد فقد تنفجر الصـ ـخرة بالماء الزلال

وأنشد أيضا لإبراهيم بن المهدى [2]

ورحمت أفراخا كأفراخ القطا وحنين والهة كقوس النازع

ثم قال : ومثله قول السرى • كأنه قيد فضة حرج •

وهو لايشبه ماذكره إلا أن يذهب إلى حديث أنه أفاد شكل الهلال بالقيد المفضوض ولونه بالفضة ، فأما إن قصد النكتة التى هى موضع الإغراب فلا يستقيم الجمع بينه وبين ما أنشد لأن شيئا من تلك الأبيات لايتضمن تعليلا ، وليس فيها أكثر من ضم شبه إلى شبه كالحنين والانحناء من القوس والاستدارة والطلوع مساء من البدر ، وليس أحد المعنيين بعلة للآخر ،

---

(١) الصواب والثانية .

(٢) خرج على المأمون وهو ببغداد والمأمون بخراسان وبويع له بالخلافة وأقام على ذلك نحو سنتين ثم قدم المأمون إليها فخاف واختفى حتى عفا عنه فى قصص طويلة فقال يمدحه :

يا خير من وصلت يمانية به بعد الرسول لآيس ولطامع
وأبر من عبد الإله على الهدى نفسا وأقوله بحق صادع

ثم قال بعده :

ما إن عصيتك والغواة تمدنى أسبابها إلا بنية طائع
كم من يد لك لم تحدثنى بها نفسى إذا آلت إلى مطامعى
أسديتها عفوا إلى هنيئة فشكرت مصطنعا لأكرم صانع

وقبله : وعفوت عمن لم يكن عن مثله عفو ولم يشفع إليك بشافع
إلا الغلو عن العقوبة بعد ما ظفرت يداك بمستكين خاضع

كيف ولا حاجة بواحد من الشبهين المذكورين إلى تصحيح غيره له .

ومما هو نظير لبيت السرى وعلى طريقه قول ابن المعتز :

سقانى وقد سُلَّ سيف الصبا ح والليل من خوفه قد هرب (١)

لم يقنع ههنا بالتشبيه الظاهر والقول المرسل كما اقتصر فى قوله (٢) :

حتى بدا الصباح من نقاب كما بدا للمُنْصُل من قراب

وقوله :

أما الظلام لحين رق قميصه وأرى بياض الصبح كالسيف الصدى (٣)

ولكنه أحب أن يحقق دعواه أن هناك سيفا مسلولا ، ويجعل نفسه كأنها لاتعلم أن ههنا تشبيها ، وأن القصد إلى لون البياض فى الشكل المستطيل فتوصل إلى ذلك بأن جعل الظلام كالعدو المنهزم الذى سل السيف فى قفاه

(١) من قطعة أولها :

وحلو الدلال مليح الغضب يشوب مواعيده بالكذب
قصير الوفاء لأحبابه فهم من تلونه فى لعب

وبعده: عقارا إذا ما جلتها السقا ة ألبسها الماء تاج الحبب
فأصلح بينى وبين الزما ن وأبدلنى بالهموم الطرب
وما العيش إلا لمستهتر تظل عواذله فى شغب

(٢) من أرجوزة أولها :

قد أغتدى والليل كالغراب راخى القناع حالك الإهاب
ملق السدول مغلق الأبواب حتى بدا الصبح من الحجاب

وبعده: بكلبة سريعة الوثاب تنساب مثل الأرقم المنساب
فكم وكم من جرد وثاب قد قصمته بشبا الأنياب
ومنعته جولة الذهاب

(٣) قبله :

قم يا نديمى من منامك واقعد حان الصباح ومقلتى لم ترقد

فهو يهرب مخافة أن يضرب به .

ومثل هذا فى أن جعل الليل يخاف الصبح لا فى الصنعة التى أنا فى سياقها قوله :

سبقنا إليها الصبح وهو مقنع　　　كمين وقلب الليل منه على حذر

وقد أخذ الخالدى [١] بيته الأول أخذاً فقال :

والصبح قد جردت صوارمه　　　والليل قد هم منه بالهرب

وهذه قطعة [٢] لابن المعتز بيت منها هو المقصود :

وانظر إلى دنيا ربيع أقبلت　　　مثل البغى تتوجت [٣] لزناة

جاءتك زائرة كعام أول　　　وتلبست وتعطرت بلبات

وإذا [٤] تعرّى الصبح من كافوره　　　نطقت صنوف طيورها بلغات

والورد يضحك من نواظر نرجس　　　قذيت وآذان حيها بممات [٥]

هذا البيت الأخير هو المراد ، وذلك أن الضحك فى الورد وكل ريحان

---

(١) هو أبو عثمان سعيد بن هاشم الموصلى من شعراء سيف الدولة نسبة إلى (خالد بلد بالموصل) من قصيدة مطلعها :

أدن من الدن فداك أبى　　　واشرب وسق الكبير وانتخب

أما ترى الطل كيف يلمع فى　　　عيون نور تدعو إلى الطرب

فى كل عين للطل لؤلؤة　　　كدمعة فى جفون منتحب

وبعده :

والجو فى حلة ممسكة　　　قد كتبتها البروق بالذهب

(٢) قد تقدّم مطلعها وهو .

بدّلت من ليل كظل حصاة　　　ليلا كظل الرمح غير موات

(٣) الصواب تبرجت .

(٤) هو محرّف وأصله تفرى .

(٥) قذيت دخل فيها القذى شبه النرجس أدركها الجفاف والتصوح بالعيون يصيبها القذى

ونور يتفتح مشهور معروف ، وقد قاله فى هذا البيت وجعل الورد كأنه يعقل ويميز فهو يشمت بالنرجس لانقضاء مدته ، وإدبار دولته ، وبدو أمارات الفناء فيه ، وأعاد هذا الضحك من الورد فقال :

ضحــك الورد فى قفا المنثور　　واسترحنا من رعدة المقرور (١)

أراد إقبال الصيف وحر الهواء ألا تراه قال بعده :

واستطبنا المقيل فى برد ظل　　وشممنا الريحان بالكافور (٢)

فالرحيل الرحيل ياعسكر اللـ　　ـذات عن كل روضة وغدير

فهذا من شأن الورد الذى عابه به ابن الرومى فى قوله :

فصل القضية أن هذا قائد　　زهر الرياض وأن هذا طارد

وقد جعله ابن المعتز لهذا الطرد ضاحكا ضحك من استولى وظفر ، وابتز غيره ولاية الزمان واستبد بها .

ومما يشوب الضحك فيه شىء من التعليل قوله أيضاً :

مات الهوى منى وضاع شبابى　　وقضيت من لذاته آرابى

وإذا أردت تصابيا فى مجلس　　فالشيب يضحك بى مع الأحباب

لا شك أن لهذا الضحك زيادة معنى على الضحك فى نحو قول دِعبل (٣) .

« ضحك المشيب برأسه فبكى »

---

(١) ويسمى المنثور الرومى والخيرى قيل هو الآزريون وقيل غيره وهو زهر مختلف الألوان منه الأصفر الذهبى وهو أحسنه ومنه البنفسجى والأكحل والملمع ببياض إلى غير ذلك ومما قيل فى وصفه .

مذ قيل للمنثور إن الورد قد　　وافى على الأزهار وهو أمير

بسمت ثغور الأقحوان مسرة　　لقدومه وتلون المنثور

(٢) أراد أن وقت الزهر قد انقضى فاستبدل الورق الأخضر بالزهر الأبيض فالباء فى الكافور للبدل .

(٣) هو دعبل بن على الخزاعى كان هجاء خبيث اللسان لم يسلم منه أحد وكان =

وما تلك الزيادة إلا أنه جعل المشيب يضحك ضحك المتعجب من تعاطى الرجل ما لا يليق به ، وتكلفه الشيء ليس هو من أهله ، وفى ذلك ما ذكرت من إخفاء صورة التشبيه ، وأخذ النفس بتناسيه ، وهكذا قوله :

لما رأونا فى خميـــس يلتهب ‏ ‏ ‏ فى شارق يضحك من غير عجب[1]
كأنه صب على الأرض ذهب ‏ ‏ ‏ وقد بدت أسيافنا من القُرُب
حتى تكون لمناياهم سبب ‏ ‏ ‏ نرفل فى الحديد والأرض تجب[2]
وحن شريان ونبع فاصطخب ‏ ‏ ‏ تترسوا من القتال بالهرب[3]

المقصود قوله : « يضحك من غير عجب » وذاك أن نفيه العلة إشارة إلى أنه من جنس ما يعلل ، وإنه ضحك قطعاً وحقيقة . ألا ترى أنك لو رجعت إلى صريح التشبيه فقلت : هيئته فى تلألؤه كهيئة الضاحك ثم قلت : من غير عجب - قلت قولا غير مقبول . واعلم أنك إن عددت قول بعض العرب[4] .

ونثرة تهزأ بالنصال ‏ ‏ ‏ كأن فيها حدق الهلال

الهلال الحية ههنا واللام للجنس فى هذا القبيل - لم يكن لك ذلك .

= من الشطار المتلصصين توفى سنة ٢٤٦ وكان صديق البحترى وأبى تمام ومطلع القصيدة :

أين الشعاب وأية سلكا ‏ ‏ ‏ لا أين يطلب ضل بل هلكا
لا تعجبي يا سلم من رجل ‏ ‏ ‏ ضحك المشيب برأسه فبكى
يا سلم ما بالشيب منقصة ‏ ‏ ‏ لا سوقة يبـــق ولا ملكا
يا ليت شعرى كيف لومكما ‏ ‏ ‏ يا صاحبي إذا دمى سفكا
لا تأخذا بظلامتى أحدا ‏ ‏ ‏ قلبي وطرفى فى دمى اشتركا

(١) الشارق الشمس .

(٢) تجب تضطرب .

(٣) الشريان والنبع نوعان من الشجر تصنع منهما القسى وحن القضيب صوت عند ليه .

(٤) يصف درعا والنثرة والنثلة الدرع الواسعة والهلال الحية أو الذكر منها .

فصـــل

وهذا نوع آخر فى التعليل

وهو أن يكون للمعنى من المعانى والفعل من الأفعال علة مشهورة من طريق العادات والطباع ثم يجىء الشاعر فيمنع أن يكون لتلك العلة المعروفة ويضع له علة أخرى . مثاله قول المتنبي (١) :

مابه قتل أعاديه ولكن يتقى إخلاف ماترجو الذئاب

الذى يتعارفه الناس أن الرجل إذا قتل أعاديه فلإرادته هلاكهم وأن يدفع مضارهم عن نفسه ، وليسلم ملكه ويصفو من منازعاتهم ، وقد ادعى المتنبي كما ترى أن العلة فى قتل هذا الممدوح لأعدائه غير ذلك .

واعلم أن هذا لايكون حتى يكون فى استئناف هذه العلة المدعاة فائدة شريفة فيما يتصل بالممدوح أو يكون لها تأثير فى الذم كقصد المتنبي ههنا فى أن يبالغ فى وصفه بالسخاء والجود وأن طبيعة الكرم قد غلبت عليه ومحبته أن يصدق رجاء الراجين وأن يجنبهم الخيبة فى آمالهم قد بلغت به هذا الحد فلما علم أنه إذا غدا للحرب غدت الذئاب تتوقع أن يتسع عليها الرزق ويخصب لها الوقت من قتلى عداه كره أن يُخلفها ، وأن يخيب رجاءها ولا يسعفها ، وفيه نوع آخر من المدح وهو أنه يهزم العدا ويكسرهم كسراً لايطمعون بعده فى المعاودة فيستغنى بذلك عن قتلهم وإراقة دمائهم ، وأنه ليس ممن يسرف فى القتل طاعة للغيظ والحنق ، ولايعفو إذا قدر ، ومايشبه

---

(١) يمدح بدر بن عمار من قصيدة مطلعها :

إنما بدر بن عمار سحاب هطل فيه ثواب وعقاب

إنما بدر عطايا ورزايا ومنايا وطعان وضراب

مايجيل الطرف الا حمدته جهدها الأيدى وذمته الرقاب

هذه الأوصاف الحميدة فاعرفه .

ومن الغريب فى هذا الجلس على تعمق فيه قول أبى طالب المأمونى [١] فى قصيدة يمدح بها بعض الوزراء [٢] ببخارى :

مغرم بالثناء صبّ بكسب المـ ... ـجد يهتز للسماح ارتياحا

لايذوق الإغفاء إلا رجاء ... أن يرى طيف مستميح رواحا

وكأنه شرط الرواح على معنى أن العفاة والراجين إنما يحضرونه فى صدر النهار على عادة السلاطين فإذا كان الرواح ونحوه من الأوقات التى ليست من أوقات الإذن قلّوا فهو يشتاق إليهم فينام ليأنس برؤية طيفهم . والإفراط فى التعمق ربما أخل بالمعنى من حيث يراد تأكيده به ألا ترى أن هذا الكلام قد يوهم [٣] أنه يحتج [٤] له أنه ممن لايرغب كل واحد فى أخذ عطائه

(١) هو أبو طالب المأمونى المتوفى سنة ٣٨٣ وقد تقدمت ترجمته .
(٢) هو أبو نصر بن أبى زيد وكان وزير الدولة السامانية ببخارى وكان قد بنى دارا عظيمة وانتقل إليها عند تقلده الوزارة حوالى سنة ٣٨٠ ومطلعها :

قد وجدنا خطى الكلام فساحا ... فجعلنا النسيب امتداحا

وأفضنا ما فى الصدور ففاض المـ ... ـدح قبل النسيب فيك انفساحا

وعمدنا إلى علاك فصغنا ... لصدور القريض منها وشاحا

وصدعنا فى أوجه الشعر من بيـ ... ـض مساعيك بالندى أوضاحا

إلى أن قال :

أحمدت رتبة الوزارة من أحـ ... ـمد نارا تجرى القنا والصفاحا

فلو أن الممالك استنطقت فيـ ... ـه لقامت بذكره مداحا

وبعدها :

يا أبا نصر الذى نصر المـ ... ـلك فأنسى المنصور والسفاحا

(٣) هذا يندفع بقوله رواحا أى بعد أن غدا عليه فأخذ من عطائه أول النهار .
(٤) الصواب حذف أنه يحتج له .

وأنه ليس فى طبقة من قيل فيه [١]

عطاؤك زينٌ لامرئٍ إن أصبته بخـــير وما كل العطاء يزين

ومما يدفع عنه الاعتراض ويوجب قلة الاحتفال به (أى بالاعتراض) أن الشاعر يهمه أبداً إثبات ممدوحه جواداً أو تواقاً إلى السؤّال فرحا بهم ، وأن يبرئه من عبوس البخل ، وقطوب المتكلف فى البذل [٢] ، الذى يقاتل نفسه عن ماله حتى يقال جواد ومن يهوى الثناء والثراء معاً ولا يتمكن فى نفسه معنى أبى تمام [٣] :

ولم يجتمع شرق وغرب لقاصد ولا المجد فى كف امرئٍ والدراهم

فهو يسرع إلى استماع المدائح ، ولا يبطىء عن صلة المادح ، نعم فإذا سلم للشاعر هذا الغرض لم يفكر فى خطرات الظنون . وقد يجوز بشىء من الوهم الذى ذكرته على قول المتنبى [٤] :

---

(١) هو لأمية بن أبى الصلت فى عبد الله بن جدعان .
وبعده : وليس بعار بامرئ بذل وجهه إليك كما بعض العطاء يشين

(٢) الصواب للبذل .

(٣) يمدح أحمد بن دؤاد من قصيدة مطلعها :

ألم يأن أن ترو الظماء الحوائم وأن ينظم الشمل المبدد ناظم
لئن أرقأ الدمع العيون وقد جرى لقد رويت منه خدود نواعم

إلى أن قال :

ينال الفتى من عيشه وهو جاهل ويكدى الفتى فى دهره وهو عالم
ولو كانت الأقسام تجرى على الحجا هلكن إذاً من جهلهن البهائم
جزى الله كفاملؤها من سعادة سعت فى هلاك المال والمال نائم

وبعدهما :

ولم أر كالمعروف تدعى حقوقه مغارم فى الأقوام وهى مغانم

(٤) يمدح أبا سهل سعد بن عبد الله الشريف الحسينى ومطلعها :

يعطى المبشر بالقصاد قبلهم ... كمن يبشره بالماء عطشانا

وهذا شىء عرض ولاستقصائه موضع آخر إن وفق الله .

وأصل بيت الطيف المستميح من نحو قوله (١) :

وإنى لأستغشى وما بى نعسة ... لعل خيالا منك يلقى خياليا (٢)

وهذا الأصل غير بعيد أن يكون أيضاً من باب ما استؤنف له علة غير معروفة إلا أنه لايبلغ فى القوة ذلك المبلغ فى الغرابة والبعد من العادة وذلك أنه قد يتصور أن يريد المغرم المتيم إذا بعد عهده بحبيبه أن يراه فى المنام وإذا أراد ذلك جاز أن يريد النوم له خاصة فاعرفه .

ومما يلحق بهذا الفصل قوله (٣) :

رحل العزاء برحلتى فكأننى ... أتبعته الأنفاس للتشييع

وذلك أنه علل تصعد الأنفاس من صدره بهذه العلة الغريبة وترك

= قد علم البين منا البين أجفانا ... تدمى وألف فى ذا القلب أحزانا

إلى أن قال :

ذاك الجواد وإن قل الجواد له ... ذاك الشجاع وإن لم يرض أقرانا

تخاله من ذكاء القلب محتميا ... ومن تكرمه والبشر نشوانا

(١) من أبيات للمجنون ومطلعها :

تذكرت ليلى والسنين الخواليا ... وما كنت فى عهد المحب ناسيا

وبعده : وأخرج من بين البيوت لعلنى ... أحدث عنك النفس فى السر خاليا

أصبرا ولما تمض لى غير ليلة ... رويد الهوى حتى يغب لياليا

أرى الدهر والأيام تفنى وتنقضى ... وحبك ما يزداد إلا تماديا

(٢) استغشى ثوبه وبثوبه إذا تغطى به والمراد أنه يطلب النوم .

(٣) من أبيات للمتنبى قالها فى صباه وأولها وهو قبله :

شوقى إليك نفى لذيذ هجوعى ... فارقتنى فأقام بين ضلوعى

أو ماوجدتم فى الصراة ملوحة ... مما أرقرق فى الفرات دموعى

ما زلت أحذر من وداعك جاهدا ... حتى اغتدى أسفى على التوديع

ما هو المعلوم المشهور من السبب والعلة فيه وهو التحسر والتأسف .

والمعنى رحل عنى العزاء بارتحالى عنكم أى عنده ومعه أو به أو بسببه ، فكأنه لما كان محل الصبر الصدر وكانت الأنفاس تصعد منه أيضاً صار العزاء و تنفس الصُّعَداء كأنهما نزيلان ورفيقان ، فلما رحل ذاك كان حق هذا أن يشيعه قضاء لحق الصحبة .

ومما يلاحظ هذا النوع ويجرى فى مسلكه وينتظم فى سلكه قول ابن المعتز :

عاقبت عينى بالدمع والسهر إذ غار قلبي عليك من بصرى
واحتملت ذاك وهى رابحة فيك وفازت بلذة النظر

وذاك أن العادة فى دمع العين وسهرها أن يكون السبب فيه إعراض الحبيب . أو اعتراض الرقيب ، ونحو ذلك من الأسباب الموجبة للاكتئاب ، وقد ترك ذلك كله كما ترى ، وادعى أن العلة ماذكره من غيرة القلب منه على الحبيب وإيثاره أن يتفرد برؤيته ، وأنه بطاعة القلب وامتثال رسمه رام للعين عقوبة فجعل ذاك أن أبكاها ، ومنعها النوم وحماها وله أيضاً فى عقوبة العين بالدمع والسهر من قصيدة أولها :

قل لأحلى العباد شكلا وقدًّا أَبِجِدٍّ ذا الهجرُ أم ليس جِدًّا
ما بذا كانت المنى حدثتنى لهفَ نفسى أراك قد خنت وُدا
ما ترى فى متيم بك صب خاضع لايرى من الذل بدا
إن زنَتْ[(١)] عينه بغيرك فاضربـ ـها بطول السهاد والدمع حدا

قد جعل البكاء والسهاد عقوبة على ذنب أثبته للعين كما فعل فى البيت

---

(١) وشبيه به قول القائل :

إنسانة فتانة بدر الدجى منها خجل
إذا زنت عينى بها فبالدموع تغتسل

الأول إلا أن صورة الذنب ههنا غير صورته هناك فالذنب ههنا نظرها إلى غير الحبيب واستجازتها من ذلك ماهو محرم محظور ، والذنب هناك نظرها إلى الحبيب نفسه ، ومزاحمتها القلب فى رؤيته . وغيرة القلب من العين سبب العقوبة هناك ، فأما ههنا فالغيرة كائنة بين الحبيب وبين شخص آخر فاعرفه .

ولا شبهة فى قصور البيت الثانى عن الأول وأن للأول عليه فضلا كبيراً ، وذلك بأن جعل بعضه يغار من بعض ، وجعل الخصومة فى الحبيب بين عينيه وقلبه ، وهو تمام الظَرف واللطف . فأما الغيرة فى البيت الآخر فعلى مايكون أبداً .

هذا ولفظ «زنت» وإن كان مايتلوها من إحكام الصنعة يحسنها، وورودها فى الخبر «العين تزنى» يؤنس بها فليست تدع ماهو حكمها من إدخال نفرة على النفس.

وإن أردت أن ترى هذا المعنى بهذه الصنعة فى أعجب صورة وأظرفها فانظر إلى قول القائل :

أتتنى تؤنبنى بالبكا   فأهلا بها وبتأنيبها
تقول وفى قولها حشمة   أتبكى بعين ترانى بها
فقلت إذا[1] استحسنتْ غيركم   أمرت الدموع بتأديبها

أعطاك بلفظة التأديب ، حسن اللبيب ، فى صيانة اللفظ عما يحوج إلى الاعتذار ، ويؤدى إلى النفار ، إلا أن الأستاذية تعد ظاهرة فى بيت ابن المعتز . وليس كل فضيلة تبدو مع البديهة ، بل تعقب النظر والروية ، وبأن يفكر فى أول الحديث وآخره . وأنت تعلم أنه لايكون أبلغ فى الذى أراد من تعظيم شأن الذنب من ذكر الحد وأن ذلك لايتم إلا بلفظة «زنت» .

(١) الصواب إذ وفيه من الحشمة ما ليس فى قوله :

إذا زنت عينى بها   فبالدموع تغتسل

ومن هذه الجهة (١) يلحق الضيم كثيراً من شأنه وطريقه طريق أبى تمام ولم يكن من المطبوعين وموضع البسط فى ذلك غير هـذا فغرضى الآن أن أريك أنواعاً من التخييل ، وأضع شبه القوانين ليستعان بها على ما يراد من التفصيل والتبيين .

فصـــل

﴿فى تخييل . بغير تعليل﴾

وهذا نوع آخر من التخييل وهو يرجع إلى ما مضى من تناسى التشبيه وصرف النفس عن توهمه ، إلا أن مامضى معلل . بيان ذلك أنهم يستعيرون الصفة المحسوسة من صفات الأشخاص للأوصاف المعقولة ، تراهم كأنهم قد وجدوا تلك الصفة بعينها ، وأدركوها بأعينهم على حقيقتها ، وكأن حديث الاستعارة والقياس لم يجر منهم على بال ، ولم يروه ولا طيف خيال ، ومثاله استعارتهم العلو لزيادة الرجل على غيره من الفضل والقدر والسلطان ، ثم وضعهم الكلام وضع من يذكر علوا من طريق المكان ، ألا ترى إلى قول أبى تمام (٢) :

---

(١) وهى إدخال الصنعة حتى يتساهلوا فى مجيئهم ببعض الألفاظ المستهجنة .

(٢) من قصيدة يرثى بها خالد بن يزيد الشيبانى ومطلعها .

نعـــاء إلى كل حى نعاء   فتى العرب اختط ربع الفناء
أصبنا جميعا بسهم النصال   فهلا أصبنا بسهم العلاء
ألا أيها الموت فجعتنا   بماء الحياة وماء الحياء

إلى أن قال مخاطبا ولده أبا جعفر :

أبا جعفر ليعرك الزمان   عزاء ويكسك ثوب البقاء
فقد مات جدك جد الملوك   ونجم أبيك حديث الضياء

ويصعد حتى يظن الجهول   بأن له حاجة فى السماء

فلولا قصده أن يدنى التشبيه ويرفعه بجهده ، ويصمم على إنكاره وجحده ، بجعله صاعداً فى السماء من حيث المسافة الكائنة [١] ، لما كان لهذا الكلام وجه . ومن أبلغ ما يكون فى هذا المعنى قول ابن الرومى :

أعلم الناس بالنجوم بنو نو   بختَ علماً لم يأتهم بالحساب [٢]
بل بأن شاهدوا السماء سموّاً   بترق فى المكرمات الصعاب
مبلغاً لم يكن ليبلغه الطا   لب إلا بتلكم الأسباب

وأعاده فى موضع آخر فزاد الدعوى قوة ومر فيها مرور من يقول صدقاً ، ويذكر حقاً .

يا آل نوبخت لاعدمتكم   ولا تبدلت بعدكم بدلا
إن صح علم النجوم كان لكم   حقاً إذا ماسواكم انتحلا
كم عالم فيكم وليس بأن   قاس ولكن بأن رقى فعلا
أعلاكم فى السماء بجدكم   فلستم تجهلون ماجهلا

= فما زال يقرع تلك العلى   مع النجم مرتديا بالعماء
والعماء السحاب .

(١) الصواب المكانية .

(٢) بنو نوبخت أسرة فارسية عريقة فى الأدب والنسب ولهم معرفة جمة بالنجوم وكثير من علوم الأوائل ورأسهم نوبخت كان منجما فاضلا صحب المنصور فلما احدودب منه الظهر قال له المنصور أحضر ولدك ليقوم مقامك فسير إليه ولده أبا سهل فكان فى خدمة المنصور حتى مات ومنهم عبد الله بن سهل بن الفضل بن نوبخت كان فى عهد المأمون وكان ذا منزلة لديه ومنهم الفضل وكان من أصحاب المقالات والبارعين فى علم الكلام فولاه المأمون القيام بخزانة كتب الحكمة وفى هذا العهد فقل كثيرا من كتب الحكمة الفارسية إلى العربية .

شافهتم البدر بالسؤال عن الأ ... أمر إلى أن بلغتمُ زحلا

وهذا (١) الحكم إذا استعاروا اسم الشيء بعينه من نحو شمس أو بدر أو بحر أو أسد فإنهم يبلغون به هذا الحد ويصوغون الكلام صياغات تقضى بأن لا تشبيه هناك ولا استعارة . ومثاله قوله : (٢)

قامت تظللنى من الشمس ... نفس أعز علىّ من نفسى

قامت تظللنى ومن عجب ... شمس تظللنى من الشمس

فلولا أنه أنسى نفسه أن ههنا استعارة ومجازاً من القول وعمل على دعوى شمس على الحقيقة لما كان لهذا التعجب معنى ، فليس ببدع ولا منكر أن يظلل إنسان حسن الوجه إنساناً ويقيه وهجاً بشخصه . وهكذا قول البحترى : (٣)

طلعت لهم وقت الشروق فعاينوا ... سنا الشمس من أفق ووجهك من أفق

---

(١) الصواب وهكذا .

(٢) هو ابن العميد قالها وقد قام على رأسه غلام جميل يظلله من الشمس وقيل هى لرزق الله بن عبد الوهاب التميمى الواعظ فى ولده أبى العباس وبعد البيتين :

لما رأيت الشمس بارزة ... سترت عين الشمس بالخمس

ثم استعنت على التى اختلست ... منى الفؤاد بآية الكرسى

وقال ياقوت فى معجم الأدباء كان أبو إسحق الصابى واقفا بين يدى عضد الدولة وعلى رأسه غلام تركى جميل فكان يظلله من الشمس فقال للصابى هل قلت شيئا ياابراهيم فقال البيتين .

(٣) يمدح المتوكل وكان قد قصد إلى جهة حمص وأخمد فتنة كانت هناك وعفا عن الخارجين عليه ومطلعها :

أما والذى أعطاك فضلا وبسطة ... على كل حى واصطفاك على الخلق

لقد سستنا بالعدل والبذل منعما ... وعدت علينا بالأناة وبالرفق

وإنا نرى سيما النبى محمد ... وسنته فى وجهك الضاحك الطلق

وقد علمت تلك العمامة أنها ... تلاث على تلك النجابة والعتق

تداركت بالإحسان حمصا وأهلها ... وقد قارفوا فعل الإساءة والخرق

وما عاينوا شمسين قبلهما التقى ضياؤهما وَفقاً من الغرب والشرق [١]

معلوم أن القصد أن يخرج السامعين إلى التعجب لرؤية مالم يروه قط ولم تجر العادة به ولن يتم للتعجب معناه الذى عناه ولا تظهر صورته على وضعها الخاص حتى يجترئ على الدعوى جراءة من لا يتوقف ولا يخشى إنكار منكر ولا يحفل بتكذيب الظاهر له ويسوم النفس - شاءت أم أبت - تصوُّرَ شمس ثابتة [٢] طلعت من حيث تغرب الشمس فالتقتا وَفقاً ، وصار غرب تلك القديمة لهذه المتجددة شرقاً ، ومدار هذا النوع الغالب فى التعجب وهو والى أمره ، وصانع سحره وصاحب سره ، وتراه أبداً وقد أفضى بك إلى خِلابة لم تكن عندك ، وبرز لك فى صورة ما حسبتها تظهر لك ، ألا ترى أن صورة قوله «شمس تظللنى من الشمس» غير صورة قوله «وما عاينوا شمسين» وإن اتفق الشعران فى أنهما يتعجبان من وجود الشىء على خلاف ما يعقل ويعرف .

وهكذا قول المتنبى [٣] :

كَبُرت حول ديارهم لما بدت منها الشموس وليس فيها المشرق

---

(١) وفقا أى متوافقين يقال أتيته وفق طلعت الشمس .

(٢) الصواب ثانية .

(٣) يمدح أبا شجاع محمد بن أوس ومطلعها :

أرق على أرق ومثلى يأرق وجوى يزيد وعبرة تترقرق

جهد الصبابة أن تكون كما أرى عين مسهدة وقلب يخفق

إلى أن قال :

أما بنو أوس بن معن بن الرضا فأعز من تحدى إليه الأينق

وبعده : وعجبت من أرض سحاب أكفهم من فوقها وصخورها لا تورق

له صورة غير صورة الأولين . وكذا قوله (١) :

ولم أر قبلى من مشى البدر نحوه ولا رجلا قامت تعانقه الأسد

تعرض (٢) تلك الصور كلها والاشتراك بينها عامى لا يدخل فى السرقة، إذ لا اتفاق بأكثر من أن أثبت الشىء فى جميع ذلك على خلاف ما يعرفه الناس . فأما إذا جئت إلى خصوص ما يخرج به عن المتعارف فلا اتفاق ولا تناسب ، لأن مكان الأعجوبة مرة أن تظلل الشمس من الشمس وأخرى أن ترى الشمس مثلا لها تطلع من الغرب عند طلوعها من الشرق ، وثالثة أن ترى الشموس طالعة من ديارهم . وعلى هذا الحد (٣) قوله :

• ولم أر قبلى من مشى البدر نحوه •

العجب من أن يمشى البدر إلى آدمى وتعانق الأسد رجلا .

واعلم أن فى هذا النوع مذهبا هو كأنه عكس مذهب التعجب ونقيضه وهو لطيف جداً . وذلك أن تنظر إلى خاصية ومعنى دقيق يكون فى المشبه به ثم تثبت تلك الخاصية وذلك المعنى للمشبه وتتوصل بذلك إلى إيهام أن التشبيه قد خرج من البين ، وزال عن الوهم والعين ، أحسن توصل وألطفه ،

---

(١) أى المتنبى يمدح محمد بن سيار بن مكرم التميمى :

أقل فعالى بله أكثره مجد وذا الجد فيه نلت أو لم أنل جد

سأطلب حقى بالقنا ومشايخ كأنهمو من طول ما التثموا مرد

إلى أن قال :

ويمتحنى بمن سوى ابن محمد أياد له عندى يضيق لها عند

ثم قال :

فلما رآنى مقبلا هز نفسه إلى حسام كل صفح له حد

ولم أر قبلى من مشى البحر نحوه ولا رجلا قامت تعانقه الأسد

(٢) أى تبدو وتظهر .

(٣) أى العجب المتفق فى الأصل المختلف فى الشكل والصورة .

ويقام منه شبه الحجة على أن لا تشبيه ولا مجاز ، ومثاله قوله :[١]

لا تعجبوا من بلى غلالته   قد زر أزراره على القمر

قد عمد كما ترى إلى شيء هو خاصية فى طبيعة القمر وأمر غريب من تأثيره ثم جعل يرى أن قوما أنكروا بلى الكتان بسرعة ، وأنه قد أخذ ينهاهم عن التعجب من ذلك ويقول : أما ترونه قد زر أزراره على القمر ، والقمر من شأنه أن يسرع بلى الكتّان . وغرضه بهذا كله أن يعلم أن لاشك ولا مرية فى أن المعاملة مع القمر نفسه ، وأن الحديث عنه بعينه ، وليس فى البين شيء من غيره ، وأن التشبيه قد نسى وأنسى ، وصار كما يقول الشيخ أبو على فيما يتعلق به الطرف[٢] : إنه شريعة منسوخة . وهذا موضع فى غاية اللطف لا يبين إلا إذا كان المتصفح للكلام حساسا يعرف وحى طبع الشعر ، وخفى حركته التى هى كالهمس ، وكمسرى النفس فى النفس ، وإن أردت أن تظهر لك صحة عزيمتهم فى هذا النحو على إخفاء التشبيه ومحو صورته من الوهم ، فأبرز صفحة التشبيه واكشف عن وجهه وقل : « لا تعجبوا من بلى غلالته فقد زَرَّ أزراره على من حسنهُ حسنُ القمر » ، ثم انظر هل ترى إلا كلاما فاتراً ، ومعنى نازلا ؟ واخبُر نفسك هل تجد ما كنت تجده من الأريحية ! وانظر فى أعين السامعين هل ترى ما كنت تراه من ترجمة عن المسرة ودلالة على الإعجاب ؟ ومن أين ذلك وأنى ؟ - وأنت بإظهار التشبيه

---

(١) هو أبو الحسن بن طباطبا وقد سبقت ترجمته وأولها :

يا قمرا ثوبه ورامقه   منه حذار البلى على خطر
يا من حكى الماء فرط رقته   وقلبه فى قساوة الحجر
ياليت حظى كحظ ثوبك من   جسمك يا واحدا من البشر

(٢) الصواب الظرف .

تبطل على نفسك ما له وُضع البيت من الاحتجاج على وجوب البلى فى الغلالة، والمنع من العجب فيه بتقرير الدلالة ؟

وقد قال آخر [١] فى هذا المعنى بعينه إلا أن لفظه لا ينبىء عن القوة التى لهذا البيت فى دعوى القمر وهو قوله :

ترى الثياب من الكتان يلمحها نور من البدر أحياناً فيبليها
فكيف تنكر أن تبلى معاجرها والبدر فى كل وقت طالع فيها [٢]

ومما ينظر إلى قوله :

« قد زَرّ أزراره على القمر »

فى أنه بلغ فى دعواه فى المجاز حقيقة مبلغ الاحتجاج به كما يحتج بالحقيقة قول العباس بن الأحنف :

هى الشمس مسكنها فى السماء فعز الفؤاد عزاء جميلا [٣]
فلن تستطيع إليها الصعود ولن تستطيع إليك النزولا

صورة هذا الكلام ونُصبته [٤] والقالب الذى فيه أفرغ يقتضى أن التشبيه

---

(١) هو وجيه الدولة أبو المطاع ذو القرنين بن أبى المظفر بن ناصد الدولة بن حمدان التغلبى وكان شاعرا ظريفا جيد الابتكار حسن السبك وصل إلى مصر فى أيام الظاهر بن الحاكم العبيدى الفاطمى فقلده ولاية الإسكندرية وأعمالها فأقام بها سنة ثم رجع إلى دمشق وتوفى سنة ٤٢٨ وهذان البيتان فى جارية له كانت تبلى معاجرها بسرعة .

(٢) جمع معجر كمنبر ثوب تعتجر به المرأة أى تشده على رأسها .

(٣) قبلهما :

لعمرى لقد جلبت نظرتى إليك على بلاء جميلا
فياويح من كلفت نفسه بمن لا يطيق إليه سبيلا

(٤) السارية والعمود الذى عليه يقوم البيت .

لم يجر فى خلده وأنه معه كما يقال « لست منه وليس منى » وأن الأمر فى ذلك قد بلغ مبلغاً لاحاجة معه إلى إقامة دليل وتصحيح دعوى بل هو فى الصحة والصدق بحيث تصحح به دعوى ثابتة [1] . ألا تراه كأنه يقول للنفس ماوجه الطمع فى الوصول وقد علمتِ أن حديثك مع الشمس ومسكن الشمس السماء ؟ أفلا تراه قد جعل كونها الشمس حجة على نفسه يصدِفها بها عن أن ترجو الوصول إليها ويلجئها إلى العزاء ، وردّها فى ذلك إلى مالا تشك فيه وهو مستقر ثابت كما تقول « أو ماعلمت ذلك » و « أليس قد علمت » ؟ ويَبين لك هذا التفسير والتقرير فضلَ بيان بأن تقابل هذا البيت بقول الآخر [2] :

فقلت لأصحابى هى الشمس ضوءها   قريب ولكن فى تناولها بعد

وتتأمل أمر التشبيه فيه فإنك تجده على خلاف ما وصفت لك وذلك أنه لم يجعل كونها الشمس حجة على ماذكر بعدُ من قرب شخصها ومثالها فى العين مع بعد منالها ، بل قال « هى الشمس » كذا قولا مرسلا يومىء فيه بل

(١) الصواب ثانية .

(٢) هو محمد بن أبى عيينة بن المهلب بن أبى صفرة وقيل أنه لابنه أبى عيينة بن محمد وهو شاعر ظريف غزل من شعراء الدولة العباسية كان يسكن البصرة وكان يتولى مدينة الرى لأبى جعفر المنصور ثم حبسه وغرمه ومن حديث البيت أنه كان يهوى فاطمة بنت عمر بن حفص بن قبيصة أخى المهلب وكانت نبيلة شريفة وكان أهلها يخافون أن يذكرها تصريحا ، إلى أنه كان يخاف زوجها عيسى بن سليمن بن عم المنصور فكان يقول الشعر فى جارية لها تسمى دنيا وكانت قيمة دارها ووالية شئونها ومن شعره فيها قوله .

أرى عهدها كالورد ليس بدائم   ولا خير فيما لا يدوم له عهد
وعهدى لها كالآس حسنا وبهجة   له نضرة تبقى إذا ما انقضى الورد
وبعده وإنى لمن تهدى إليه لحاسد   جرى طائرى نحسا وطائره سعد

يفصح بالتشبيه ولم يرد أن يقول : لاتعجبوا أن تقرب وتبعد بعد أن علمتم أنها الشمس . حتى كأنه يقول : ماوجه شككم فى ذلك ، ولم يشك عاقل فى أن الشمس كذلك ؟ كما أراد العباس أن يقول كيف الطمع فى الوصول إليها مع علمك بأنها الشمس وأن الشمس مسكنها السماء ؟ فبيت ابن أبى عيينة فى أن لم ينصرف عن التشبيه جملة ولم يبرز فى صورة الجاحد له والمتبرئ منه كبيت بشار الذى صرح فيه بالتشبيه وهو :

أو كبدر السماء غير قريب حين يوفى والضوء فيه اقتراب

وكبيت المتنبى (١) :

كأنها الشمس يُعيي كفَّ قابضه شعاعُها ويراه الطرف مقتربا

فإن قلت : فهذا من قولك يؤدى إلى أن يكون الغرض من ذكر الشمس بيان حال المرأة فى القرب من وجه والبعد من وجه آخر دون المبالغة فى وصفها بالحسن وإشراق الوجه وهو خلاف المعتاد لأن الذى يسبق إلى القلوب أو يقصد من نحو قولنا : هى كالشمس أو هى شمس ـ الجمالُ والحسن والبهاء فالجواب أن الأمر وإن كان على ما قلت فإنه فى نحو هذه الأحوال التى يقصد فيها إلى بيان أمر غير الحسن يصير (٢) كالشىء الذى يعقل من طريق العرف وعلى سبيل التتبع ، فأما أن يكون الغرض الذى له وضع

---

(١) من قصيدة يمدح بها المغيث بن على بن بشر العجلى ومطلعها :

دمع جرى فقضى فى الربع ما وجبا لأهله وشفا أنى ولا كربا

إلى أن قال :

هام الفؤاد بأعرابية سكنت بيتا من القلب لم تمدد له طنبا
مظلومة القد فى تشبيهها غصنا مظلومة الريق فى تشبيهها ضربا
بيضاء تطمع فيما تحت حلتها وعز ذلك مطلوبا إذا طلبا

(٢) الصواب يصير الحسن كالشىء الخ .

الكلام فلا . وإذا تأملت قوله :

« فقلت لأصحابى هى الشمس ضوءها »

وقول بشار : « أو كبدر السماء » وقول المتنبي « كأنها الشمس » علمت أنهم جعلوا جل غرضهم أن يصيبوا لها شبها فى كونها قريبة بعيدة . فأما حديث الحسن فدخل فى القصد على الحد الذى مضى وهو القياس أيضاً فى قوله [(١)]

نعمة كالشمس لما طلعت بثت الإشراق فى كل بلد

فكما أن هذا لم يضع كلامه لجعل النعمة كالشمس فى الضياء والإشراق ولكنها عمت [(٢)] كما تعم الشمس بإشراقها ، كذلك لم يضع هؤلاء أبياتهم على أن يجعلوا المرأة كالشمس والبدر فى الحسن ونور الوجه بل أموا نحو المعنى الآخر ؛ ثم حصل هذا لهم من غير أن احتاجوا فيه إلى تجشم . وإذا كان الأمر كذلك فلم يقل إن النعمة إنما عمت لأنها شمس ولكن أراك لعمومها وشمولها قياساً ، وتحرى أن يكون ذلك القياس من شىء شريف له بالنعمة شبه من جهة أوصافه الخاصة فاختار الشمس . وكذلك [(٣)] لم يرد ابن أبى عيينة أن يقول إنها إنما دنت ونأت لأنها شمس أو لأنها الشمس بل قاس أمرها فى ذلك كما عرفتك : وأما العباس فإنه قال إنها إنما كانت بحيث لا تنال ووجب اليأس من الوصول إليها لأجل أنها الشمس فاعرفه فرقاً واضحاً .

---

(١) هو العباس بن الأحنف ، أخذ معناه البحترى فقال :

عطاء كضوء الشمس عم فمغرب يكون سواء فى سناه ومشرق

وأبو الطيب فقال :

كالبدر من حيث التفت رأيته يهدى إلى عينيك نورا ثاقبا

(٢) الصواب ولكنها لأنها عمت .

(٣) هذا مرتبط بالفرق بين بيت ابن أبى عيينة وبيتى العباس .

ومما هو على طريقة بيت العباس فى الاحتجاج وإن خالفه فيما أذكره لك قول الصابى [١] فى بعض [٢] الوزراء يهنئه بالتخلص من الاستتار :

صح أن الوزير بدر منير إذ توارى كما توارى البدور
غاب لا غاب ثم عاد كما كا ن على الأفق طالعا يستنير
لا تسلنى عن الوزير فقد بيّـ ـنتُ بالوصف أنه سابور [٣]
لا خلا منه صدر دَست [٤] إذا ما قرّ فيه تقرّ منه الصدور

فهو كما تراه يحتج أن لا مجاز فى البين فإن ذكر البدر وتسمية الممدوح به حقيقة واحتجاجه صريح لقوله صح أنه كذلك . وأما احتجاج العباس وصاحبه فى قوله :

* قد زر أزراره على القمر *

فعلى طريق الفحوى . فهذا وجه الموافقة . وأما وجه المخالفة فهو أنهما

---

(١) هو أبو اسحق ابراهيم بن هلال الحرانى الصابى الكاتب المشهور فى عصر بنى بويه توفى سنة ٤٤٨ ﻫ .

(٢) هو سابور بن أرد شير بن بابك وزير أبى نصر بهاء الدوله بن عضد الدولة ابن بويه الديلمى وكان من ذوى الكفايات مقصودا من الأدباء وكان له ببغداد دار علم يحج إليها الطلاب وإليها يشير أبو العلاء فى قوله :

وغنت لنا فى دار سابور قينة من الورق مطراب الأصائل مهياب

وكان قد صرف عن الوزارة ثم أعيد إليها فكتب إليه أبو إسحق مهنئا :

قد كنت طلقت الوزارة بعد ما زلت بها قدم وساء صنيعها
فغدت لغيرك تستحيل ضرورة كيما يحل إلى ذراك رجوعها
فالآن عادت ثم آلت حلفة ألا يبيت سواك وهو ضجيعها

توفى سابور سنة ٤١٦ وتوفى مخدومه بهاء الدولة سنة ٤٥٢ بأرجان

(٣) معرب شاه بور أى ملك .

(٤) الدست المجلس والنوبة فى الغلبة كما يقال فى الشطرنج ونحوه الدست لى والدست على

ادَّعيا الشمس والقمر بأنفسهما وادعى الصابئ بدراً لا البدر على الإطلاق.

ومن ادّعاء الشمس على الإطلاق قول بشار:

بعثت بذكرها شعرى وقدمت الهوى شركا
فلمـــا شاقها قولى وشب الحب فاحتنكا[1]
أتتنى الشمس زائرة ولم تك تبرح الفلكا
وجدت العيش فى سعدى وكان العيش قد هلكا

فقوله: «ولم تك تبرح الفلكا» يريك أنه ادعى الشمس نفسها.

وقال أشجع[2] يرثى الرشيد فبدأ بالتعريف ثم نكّر فخلط إحدى الطريقتين بالأخرى وذلك قوله:

غربت بالمشرق الشمـ سُ فقل للعين تدمع
مارأينـــا قط شمساً غربت من حيث تطلع

فقوله: «غربت بالمشرق الشمس» على حد قول بشار: «أتتنى الشمس زائرة» فى أنه خيّل إليك شمس السماء. وقوله بعد: «مارأينا قط شمساً» يُفتّر[3] أمر هذا التخييل ويميل بك إلى أن تكون الشمس فى قوله: «غربت بالمشرق الشمس» غير شمس السماء أعنى غير مدَّعَى أنها هى وذلك مما يضطرب عليه المعنى ويقلق لأنه إذا لم يدّع الشمس نفسها لم يجب أن تكون جهة خراسان شرقا لها وإذا لم يجب ذلك لم يحصل ما أراده من الغرابة

---

(١) استولى عليه.

(٢) هو أبو الوليد أشجع بن عمرو السلمى نشأ باليمامة ثم قدم البصرة ثم خرج إلى الرقة والرشيد بها ومدح البرامكة وبخاصة جعفر فوصله بالرشيد ومدحه فأثرى وحسنت حاله، وفى الطبرى نسبة البيتين إلى أبى الشيص الخزاعى الأزدى عم دعبل وهو من أوصف الناس للشراب وأمدحهم للملوك.

(٣) يفتر من التفتير أى يجعله فاترا.

فى غروبها من حيث تطلع . وأظن الوجه فيه أن تتأول تنكيره للشمس فى الثانى على قولهم : خرجنا فى شمس حارة . يريدون فى يوم كان للشمس فيه حرارة وفضل توقد ، فيصير كأنه قال : ما عهدنا يوماً غربت فيه الشمس من حيث تطلع وهوت فى جانب المشرق . وكثيراً مايتفق فى كلام الناس ما يوهم ضرباً من التنكير فى الشمس كقولهم : « شمس صيفية » وكقوله [١] :

« والله لاطلعت شمس ولا غربت »

ولا فرق بين هذا وبين قول المتنبي [٢] :

لم يُر قَرنُ الشمس فى شرقه ... فشكت الأنفس فى غربهِ [٣]

ويجىء التنكير فى القمر والهلال على هذا الحد فنه قول بشار :

أملى لا تأت فى قمر ... بحديث واتق الدَّرَعا [٤]

وتوّق الطيب ليلتنا ... إنه واش إذا سطعا

فهذا بمعنى : لاتأت فى وقت قد طلع فيه القمر . وهكذا قول عمر بن أبى ربيعة [٥] :

---

(١) قال فى الموقف فى فضل أبى بكر قال عليه السلام لأبى الدرداء « والله ماطلعت شمس ولا غربت بعد النبيين والمرسلين على رجل أفضل من أبى بكر » .

(٢) يعزى أبا شجاع عضد الدولة بعمته ومطلعها :

آخر ما الملك معزى به ... هذا الذى أثر فى قلبه

لا جزعاً بل أنفا شابه ... أن يقدر الدهر على غصبه

إلى أن قال : لو فكر العاشق فى منتهى ... حسن الذى يسبيه لم يسبه

وبعده : يموت راعى الضأن فى جهله ... ميتة جالينوس فى طبه

(٣) أى لم ير الشروق مقرونا بالشك فى الغروب بل من رأى الشمس شارقة أيقن بغروبها .

(٤) الدرع كصرد ثلاث ليال تلى البيض سميت بذلك لاسوداد أوائلها وابيضاض سائرها .

(٥) من قصيدته المشهورة :

=

وغاب قُمير كنت أرجو رجوعه ... وروح رُعيان ونوّم سُمّر [١]

ظاهره يوهم أنه كقولك : جاءنى رجل ، وليس كذلك فى الحقيقة لأن الاسم لا يكون نكرة حتى يعم شيئين أو أكثر وليس هنا شيئان يعمهما اسم القمر [٢] وهكذا قول أبى العتاهية [٣] :

تسر إذا نظرت إلى هلال ... ونقصك إذ نظرت إلى الهلال

ليس المنكر غير المعرف ، على أن للهلال فى هذا التنكير فضل تمكن ليس للقمر [٤] ألا تراه قد جمع فى قوله تعالى . (يسألونك عن الأهلة) ولم

= أمن آل نعم أنت غاد فبكر ... غداة غد أم رائح فمهجر
بحاجة نفس لم تقل فى جوابها ... فتبلغ عذرا والمقالة تعذر
تهيم إلى نعم فلا الشمل جامع ... ولا الحبل موصول ولا القلب مقصر
وقبله فلما فقدت الصوت منهم وأطفئت ... مصابيح شبت بالعشاء وأنور
وبعده ونفضت عنى النوم أقبلت مشية الـ ... حباب وركنى خشية القوم أزور
فحييتها إذ فجأتها فتولهت ... وكادت بمكنون التحية تبهر

(١) روح الرعيان : ردوا إبلهم إلى المراح والسمر جمع سامر وهو المحادث ليلا .

(٢) أى على حسب ما يرى الناس بأبصارهم وإن كان الفلكيون أثبتوا بالمنظارات المكبرة أن فى السماء أقمارا متعددة .

(٣) تقدمت ترجمته والبيت من قطعة أولها :

نعى نفسى إلى مر الليالى ... تصرفهن حالا بعد حال
فمالى لست مشغولا بنفسى ... ومالى لا أخاف الموت مالى
لقد أيقنت أنى غير باق ... ولكنى أرانى لا أبالى

ومنها فى سلم الخاسر الشاعر :

تعالى الله يا سلم بن عمرو ... أذل الحرص أعناق الرجال
هب الدنيا تعاد إليك عفوا ... أليس مصير ذاك إلى الزوال
تسر إذا نظرت الخ ... ...

(٤) أى إن الهلال أشد قبولا للتنكير من القمر .

يجمع القمر على هذا الحد .

ومن لطيف هذا التنكير قول البحترى [١] :

وبدرين أنضيناهما بعد ثالث أكلناه بالإيجاف حتى تمحقا

ومما أتى مستكرهاً نابياً يتظلم منه المعنى وينكره قول أبى تمام [٢] :

قريب الندى نائى المحل كأنه هلال قريب النور ناء منازله

سبب الاستكراه وأن المعنى ينبو عنه أنه يوهم بظاهره أن ههنا أهلة ليس لها هذا الحكم أعنى أنه يتناءى مكانه ويدنو نوره ، وذلك محال ، فالذى يستقيم عليه الكلام أن يؤتى به معرفاً على حده فى بيت البحترى [٣] :

كالبدر أفرط فى العلو وضوءه للعصبة السارين جد قريب

فإن قلت أقطع وأستأنف فأقول « كأنه هلال » وأسكت ثم أبتدئ

---

(١) من قصيدة يمدح يوسف بن محمد الثغرى مطلعها :

لأوشك شعب الحى أن يتفرقا فيدمى الجوى أو يرجع الحب أولقا

أما إن فى ذاك النقى لأوانسا تثنى أعاليهن لينا على النقا

وقبله :

وطيف سرى حتى تناول فتيـــة سروا يلبسون الليل حتى تمزقا

وبرد خريف قـــد لبسنا جديده فـــلم ننصرف حتى نزعناه مخلقا

(٢) من قصيدة يمدح بها المعتصم مطلعها :

أجل أيها الربع الذى خف أهله لقد أدركت فيك النوى ماتحاوله

وقفت وأحشائى منازل للأسى به وهو قفر قــد تعفت منازله

وقبله: يمن أبى إسحق طالت يد الهوى وقامت قناه الملك واشتد كاهله

هو البحر من أى النواحى أتيته فلجته المعروف والجود ساحله

تعود بسط الكف حتى لو انه ثناها لقبض لم تطعه أنامله

ولو لم يكن فى كفه غير روحه لجاد بها فليتق الله سائله

(٣) من قصيدة يمدح بها ابن نوبخت وقد تقدمت .

وآخذ فى الحديث عن شأن الهلال بقولى « قريب النور ناء منازله » أمكنك [1] ولكنك تعلم مايشكوه إليه [2] المعنى من نبو اللفظ وسوء ملاءمة العبارة. واستقصاء هذا الموضع يقطع عن الغرض وحقه أن يفرد له فصل.

• • •

وأعود إلى حديث المجاز وإخفائه ودعوى الحقيقة وحمل النفس على تخيلها. فما يدخل فى هـذا الفن ويجب أن يوازن بينه وبين مامضى قول سعيد بن حميد [3]:

وعد البـدر بالزيارة ليـلا ... فإذا ما وفى قضيت نذورى

قلت سيدى ولِم تؤثر الا ... يل على بهجة النهار المنير ؟

قال لى لا أحب تغيير رسمى ... هكذا الرسم فى طلوع البدور

وقالوا وله فى ضده :

قلت زورى فأرسلت ... أنا آتيك سُحْـرَه [4]

قلت فالليل كان أخـ ... فى وأدنى مسره

فأجابت بحجـــة ... زادت القلب حسره

---

(١) جواب فإن قلت.

(٢) صوابه إليك.

(٣) الكاتب التسترى النصرانى ويكنى أبا عثمان ولد ونشأ ببغداد وكان كاتبا مجيدا وشاعرا بليغا حسن الكلام لكنه كان قليل الاختراع كثير الإغارة على من سبقه تولى رياسة ديوان الرسائل أيام المستعين وله أيضا فى هذا المعنى :

قلت للبدر حين أعتب زرنى ... وأشمت الوصل بالقلى والتجافى

قال إنى مع العشاء سآتى ... فانتظرنى ولا تخف من خلافى

قلت ياسيدى فزرنى نهارا ... فهو أدنى لقربه والائتلاف

قال لا أستطيع تغيير رسمى ... إنما البـدر فى الظلام يوافى

(٤) السحرة : السحر الأعلى.

أنا شمس وإنما تطلع الشمس بكره

وينبغي أن تعلم أن هذه القطعة ضد الأولى من حيث اختار النهار وقتا للزيارة فى تلك والليل فى هذه فأما من حيث يختلف جوهر الشعر ويتفق خصوصا من حيث ينظر الآن فمثل وشبيه ؛ وليس بضد ولا نقيض .

ثم اعلم أنا إن وازنا بين هاتين القطعتين وبين ماتقدم من بيت العباس « هى الشمس مسكنها فى السماء » وما هو فى صورته وجدناهما أمراً بين أمرين - بين ادعاء البدر والشمس أنفسهما ، وبين إثبات بدر ثان وشمس ثانية ، ورأينا الشاعر قد شاب فى ذلك الإنكار بالاعتراف ، وصادفت صورة المجاز تُعرِض عنك مرة وتعرض لك أخرى . فقوله « البدر » بالتعريف مع قوله « لا أحب تغيير رسمى » وتركه أن يقول (رسم مثلى) يخيل إليك البدر نفسه ، وقوله « فى طلوع البدور » بالجمع دون أن يفرد فيقول « هكذا الرسم فى طلوع البدور » يلتفت بك إلى بدر ثان ويعطيك الاعتراف بالمجاز على وجه . وهكذا القول فى القطعة الثانية لأن قولك [1] « أنا شمس » بالتنكير اعتراف بشمس ثانية أو كالاعتراف .

ومما يدل دلالة واضحة على دعوى الحقيقة ولا يستقيم إلا عليها قول المتنبي [2] :

---

(١) الصواب قوله .

(٢) يمدح عبد الواحد بن العباس بن أبى الأصبع الكاتب ومطلعها :

أركائب الأحباب إن الأدمعا ... تطس الخدود كما تطسن اليرمعا

فاعرفن من حملت عليكن النوى ... وامشين هونا فى الأزمة خضعا

إلى أن قال :

سفرت وبرقعها الحياء بصفرة ... سترت محاسنها ولم تك برقعا

فكأنها والدمع يقطر فوقها ... ذهب بسمطي لؤلؤ قد رصعا

=

واستقبلت قمر السماء بوجهها　　فأرتنى القمرين فى وقت معاً

أراد فأرتنى الشمس والقمر ثم غلب اسم القمر كقول الفرزدق [(١)]

أخذنا بآفاق السماء عليكم　　لنا قمراها والنجوم الطوالع

لولا تخيل أنها الشمس نفسها لم يكن لتغليب اسم القمر والتعريف بالألف واللام معنى . وكذلك لولا ضبطه نفسه حتى لايجرى المجاز والتشبيه فى وهمه لكان قوله «فى وقت معاً» لغواً من القول فليس بعجيب أن يتراءى لك وجه غادة حسناء فى وقت طلوع القمر وتوسطه السماء ، وهذا أظهر من أن يخفى . وأما تشبيه أبى الفتح لهذا البيت بقول القائل [(٢)]

وإذا الغزالة فى السماء ترفعت　　وبدا النهار لوقته يترجل [(٣)]

أبدت لوجه الشمس وجهاً مثله　　تلقى السماء بمثـــل ماتستقبل

فتشبيه على الجملة ومن حيث أصل المعنى وصورته فى المعقول فأما الصورة الخاصة التى تحدث له بالصنعة فلم يعرض لها .

ومما له طبقة عالية فى هذا القبيل وشكل يدل على شدة الشكيمة وعلو

= كشفت ثلاث ذوائب من شعرها　　فى ليلة فأرت ليالى أربعا

وبيت الكتاب من جيد شعر المتنبى وهو مما يتغنى به لجودة سبكه وحسن رصفه وخفة لفظه .

(١) من قصيدة أولها :

منا الذى اختير الرجال سماحة　　وجودا إذا هب الرياح الزعازع

(٢) هو أبو نواس وقد أخذ معناهما من سلم بن عمرو الخاسر .

أقبلن فى رأد الضحىّ بنا　　يسترن وجه الشمس بالشمس

ومثله لأبى دلف :

طلعت والشمس طالعة　　من رأى شمسين فى بلد

(٣) رجلت الشمس ارتفعت وترجل النهار ارتفع .

المأخذ قول الفرزدق [١] .

أبي أحمد الغيثين صعصعة الذى   متى تخلف الجوزاء والدّلو يُمطر
أجار بنات الوائدين ومن يُجِر   على الموت تعلم أنه غير مُخْفَر [٢]

أفلا تراه كيف ادعى لأبيه اسم الغيث ادعاء من سلم له ذلك ومن لا يخطر بباله أنه مجاز فيه ومتناول له من طريق التشبيه وحتى كأن الأمر فى هذه الشهرة بحيث يقال : أى الغيثين أجود ؟ فيقال صعصعة ، وحتى بلغ تمكن ذلك فى العرف إلى أن يتوقف السامع عند إطلاق الاسم ، فإذا قيل أتاك الغيث لم تعلم أيراد صعصعة أم المطر .

وإن أردت أن تعرف مقدار ماله من القوة فى هذا التخييل وأن مصدره مصدر الشىء المتعارف الذى لا حاجة به إلى مقدمة يبنى عليها نحو أن تبدأ فتقول : أبى نظير الغيث وثان له وغيث ثان ، ثم تقول : وهو خير الغيثين لأنه لا يختلف [٣] إذا اختلفت الأنواء فانظر إلى موقع الاسم فإنك تراه واقعاً موقعاً لا سبيل لك فيه إلى حل عقد التثنية وتفريق المذكورين بالاسم وذلك أن (أفعل) لا تصح إضافته

---

(١) هما مطلع قصيدة له فى الفخر وبعدهما :

على حين لا تحيا البنات وإذ هم   عكوف على الأصنام حول المدور
أنا ابن الذى ردّ المنية فضله   فما حسب دافعت عنه بمعور
ومذعورة فى جنح ليل أتت به   تعالج ريحا ليلها غير مقمر
فقالت أجرنى ما ولدت فإننى   أتيتك من هزل الحمولة مقتر

إلى أن قال :

أنا ابن عقال وابن ليلى وغالب   وفكاك أغلال الأسير المكفر

(٢) رواية الأغانى يعلم بالبناء للمفعول والمخفر مزيل الخفارة من خفره إذا حماه ومنعه وكان جده مشهورا فى الجاهلية بشراء البنات اللاتى يراد وأدهن لتخليصهن من الموت .

(٣) الصواب لأنه لا يخلف إذا أخلفت الأنواء .

إلى اسمين معطوف أحدهما على الآخر فلا يقال : جاءنى أفضل زيد وعمرو ، ولا أنى أعلم بكر وخالد عندى . بل ليس إلا أن تضيف إلى اسم مثنى أو مجموع فى نفسه نحو أفضل الرجلين وأفضل الرجال وذلك أن أفعل التفضيل بعض ما يضاف إليه أبداً فحقه أن يضاف إلى اسم يحويه وغيره .

وإذا كان الأمر كذلك علمت أن اللفظ بالتشبيه والخروج عن صريح جعل اللفظ للحقيقة متعذر عليك إذ لا يمكنك أن تقول . أبى أحمد الغيث والثانى له والشبيه به ، ولا شيئاً من هذا النحو ، لأنك تقع بذلك فى إضافة أفعل إلى اسمين معطوف أحدهما على الآخر .

وإذ قد عرفت هذا فانظر إلى قول الآخر : (١)

قد قحط الناس فى زمانهم ... حتى إذا جئت جئت بالدِّرَر (٢)

غيثان فى ساعة لنا اتفقا ... فمرحبا بالأمير والمطر

فإنك تراه لا يبلغ هذه المنزلة وذلك أنه كلام من يثبته الآن غيثاً ولا يدعى فيه عرفا جارياً وأمراً مشهوراً متعارفاً يعلم كل واحد منه ما يعلمه . وليس بمتعذر أن يقول : غيث وثان للغيث اتفقا (٣) . أو يقول : الأمير ثانى الغيث والغيث اتفقا . فقد حصل من هذا الباب أن الاسم المستعار كلما كان قدمه أثبت فى مكانه وكان موضعه من الكلام أضن به وأشد محاماة

---

(١) هو الحكوك بن دعبل الخزاعى وقيل هو لرجل بزار ومن حديثه أن عبد الله بن طاهر قدم إلى نيسابور سنة ٢١٥ وهو والى خراسان من قبل المأمون وكان المطر قد انقطع فقحط أهلها وأجدبوا ، فما أقبل عبد الله إلا وقد جادهم الغيث وأخصبوا فقام إليه بزار من حانوته وأنشده البيتان

(٢) قحط من باب علم والدرر بالكسر جمع درة كسدرة السحاب .

(٣) أى فيجوز حل عقد التثنية .

عليه وأمنع لك من أن تتركه وترجع إلى الظاهر وتصرح بالتشبيه فأمر التخييل فيه أقوى ، ودعوى المتكلم له أظهر وأتم .

واعلم أن قول البحترى . [1]

غيثان إن جدب تتابع أقبلا ... وهما ربيع مؤمـــل وخريفه

لا يكون مما نحن بصدده فى شىء لأن كل واحد من الغيثين فى هذا البيت مجاز لأنه أراد أن يشبه كل واحد من الممدوحين بالغيث : والذى نحن بصدده هو أن يضم المجاز إلى الحقيقة فى عقد التثنية ولكن إن ضممت إليه [2] قوله [3] .

---

(١) يمدح الفتح بن خاقان وابنه ومطلعها :

شرخ الشباب أخو الصبا وأليفه ... والشيب تزجية الهوى وخفوفه

وأراك تعجب من صبابة مغرم ... أسيان طال على الديار وقوفه

إلى أن قال :

قـــل للأمير وأى مجد ما التقت ... من فوق أبنية الأمير سقوفه

أما السماح فإن أفضل خلة ... نالتـــه أنك صنوه وحليفه

وقبله :

لم يأت جودك سابقا فى سؤدد ... إلا وجاهك للعفاة رديفه

(٢) أى إلى ما نحن فيه .

(٣) يمدح الفتح بن خاقان ويذكر مبارزته للأسد ومطلعها :

أجدك ما ينفك يسرى لزينبا ... خيال إذا آب الظلام تأوبا

سرى من أعالى الشام يجلبه الكرى ... هبوب نسيم الروض تجلبه الصبا

إلى أن قال :

وقد جربوا بالأمس منك عزيمة ... فضلت بها السيف الحسام المجربا

غداة لقيت الليث والليث مخدر ... يحدد نابأ للقاء ومخلبا

وقبله : شهدت لقد أنصفته يوم تنبرى ... له مصلتا عضبا من البيض مقبضا

وبعده: هزبر مشى يلقى هزبرا وأغلب ... من القوم يغشى باسل الوجه أغلبا

فلم أر ضِرغامين أصدق منكما عراكا إذا الهيَّابة النِّكس كذَّبا[1]

كان لك ذلك لأن أحد الضرغامين حقيقة والآخر مجاز .

فإن قلت فههنا شيء يردك إلى ما أبيته من بقاء حكم التشبيه فى جعله إياه الغيث وذلك أن تقدير الحقيقة فى المجاز إنما يتصور فى نحو بيت البحترى : « فلم أر ضرغامين » من حيث عمد إلى واحد من الأسود ثم جعل الممدوح أسداً على الحقيقة قد قارنه وضامه ولا سبيل للفرزدق إلى ذلك لأن الذى يقرنه إلى أبيه هو الغيث على الإطلاق . وإذا كان الغيث على الإطلاق لم يبق شيء يستحق هذا الاسم إلا ويدخل تحته[2] وإذا كان كذلك حصل منه ألا يكون أبو الفرزدق غيثاً على الحقيقة . فالجواب أن مذهب ذلك ليس على ما تتوهمه ولكن على أصل فى التشبيه وهو أن يقصد إلى المعنى الذى من أجله يشبه الفرع بالأصل كالشجاعة فى الأسد والمضاء فى السيف وينحّى سائر الأوصاف جانبا وذلك المعنى فى الغيث هو النفع العام . وإذا قدر هذا التقدير صار جنس الغيث كأنه عين واحدة[3] وشيء واحد وإذا عاد بك الأمر إلى أن تتصوره تصور العين الواحدة دون الجنس كان ضم أبى الفرزدق إليه بمنزلة ضمك إلى الشمس رجلا أو امرأة تريد أن تبالغ

---

(١) الهيابة كثير الخوف والنكس الرذل وكذب جبن .

(٢) أى لجميع أفراد الغيث دخل فى لفظه فأبو الفرزدق خارج عنه بالضرورة فتى ذكره ثانى الغيث علم أنه مجاز لأنه ليس لنا غيثان ، بل لا غيث إلا واحد شامل لجميع أفراده وليس منها أبو الفرزدق قاله الأستاذ الإمام .

(٣) أى مشخصة لا عموم فيها ، وذلك أنك لاحظت الغيث فى جميع أفراده جملة واحدة ونظرت إليها نظرك إلى الشيء الواحد ثم شبهت به أبا الفرزدق وضممته إليه ؛ قاله الأستاذ الإمام .

فى وصفهما بأوصاف الشمس وتنزيلهما منزلتها كما تجده فى نحو قوله : (١)

فليت طلعة الشمسين غائبة　　　وليت غائبة الشمسين لم تغب

فصل

﴿فى الفرق بين التشبيه والاستعارة﴾

إن الاسم إذا قصد إجراؤه على غير ما هو لمشابهة بينهما كان ذلك على ما مضى من الوجهين :

(أحدهما) أن يسقط ذكر المشبه من البين حتى لا يعلم من ظاهر الحال (٢) أنك أردته وذلك أن تقول «عنت لنا ظبية»، وأنت تريد امرأة «ووردنا بحراً»، وأنت تريد الممدوح، فأنت فى هذا النحو من الكلام إنما تعرف أن المتكلم لم يرد ما الاسم موضوع له فى أصل اللغة بدليل الحال أو إفصاح المقال بعد السؤال أو بفحوى (٣) الكلام

---

(١) هو المتنبى يرثى أخت سيف الدولة ويعزيه فيها وقد توفيت بميافاقين بالجزيرة سنة ٣٥٢ وورد الخبر إليه وهو بحلب ومطلعها :

يا أخت خير أخ يا بنت خير أب　　　كناية بهما عن أشرف النسب

ومنها : طوى الجزيرة حتى جاءنى خبر　　　فزعت فيه بآمالى إلى الكذب

حتى إذا لم يدع لى صدقه أملا　　　شرقت بالدمع حتى كاد يشرق بى

إلى أن قال :

أرى العراق طويل الليل مذ نعيت　　　فكيف ليل فتى الفتيان فى حلب

فإن تكن خلقت أنثى لقد خلقت　　　كريمة غير أنثى العقل والحسب

وبعده :

وليت عين التى آب النهار بها　　　فداء عين التى زالت ولم تؤب

(٢) أى من أول وهلة بمجرد ذكره .

(٣) فحوى الكلام لغة معناه ومذهبه ويقصد بها هنا القرينة المقالية وهو خلاف اصطلاح الاصوليين إذ هى عندهم مايستفاد من معنى لفظ ذكر مع المجاز يمنع من إرادة ما وضع له الكلام .

وما يتلوه من الأوصاف . مثال ذلك أنك إذا سمعت قوله :

ترنح الشَرب واغتالت حلومهم ... شمس تَرَجَّلُ فيهم ثم ترتحل [١]

استدللت بذكر الشرب واغتيال الحلوم والارتحال أنه أراد قَيْنَةً [٢] ولو قال ترجلت شمس ولم يذكر شيئاً غيره من أحوال الآدميين لم يعقل قط أنه أراد امرأة إلا بإخبار مستأنف أو شاهد آخر من الشواهد .

ولذلك تجد الشيء يلتبس منه حتى على أهل المعرفة كما روى أن عدى ابن حاتم اشتبه عليه المراد بلفظ الخيط فى قوله تعالى ﴿حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود﴾ وحمله على ظاهره فقد روى أنه قال لما نزلت هذه الآية أخذت عقالا أسود وعقالا أبيض فوضعتهما تحت وسادتى فنظرت فلم أتبين ، فذكرت ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فقال : « إن وسادك لطويل عريض إنما هو الليل والنهار [٣] »

(وثانيهما) أن يذكر كل واحد من المشبه والمشبه به فتقول : زيد أسد وهند بدر ، وهذا الرجل الذى تراه سيف صارم على أعدائك . وقد كنت ذكرت فيما تقدم أن فى إطلاق الاستعارة على هذا الضرب الثانى بعض الشبهة ووعدتك بكلام يجىء فى ذلك وهذا موضعه .

اعلم أن الوجه الذى يقتضيه القياس وعليه يدل كلام القاضى فى الوساطة ألا تطلق الاستعارة على نحو قولنا « زيد أسد وهند بدر » ولكن تقول

---

(١) الشرب جماعة الشاربين وترجلت الشمس ارتفعت والمراد إظهورها وسطوع ضوئها .

(٢) القينة المغنية :

(٣) لا يكنى عن البله بطول الوساد بل يكنى عن ذلك بعرضها ، ورواية الصحيحين ليس فيها ذكر الطول ونصها « إن وسادك لعريض »

هو تشبيه فإذا قال . هو أسد ، لم تقل استعار له اسم الأسد ولكن تقول شبهه بالأسد ، وتقول فى الأول إنه استعارة لا تتوقف فيه ولا تتحاشى البتة وإن قلت فى القسم الأول إنه تشبيه كنت مصيباً من حيث تخبر عما فى نفس المتكلم وعن أصل الغرض ، وإن أردت تمام البيان قلت أراد أن يشبه المرأة بالظبية فاستعار لها اسمها مبالغة . فإن قلت فكذلك فقل فى قولك « زيد أسد » إنه أراد تشبيهه بالأسد فأجرى اسمه عليه ألا ترى أنك ذكرته بلفظ التنكير فقلت : زيد أسد ، كما تقول زيد واحد من الأسود ، فما الفرق بيّن الحالين وقد جرى الاسم فى كل واحد منهما على المشبه ؟

فالجواب أن الفرق بين وهو أنك عزلت فى القسم الأول الاسم الأصلى عنه وأطرحته وجعلته كأن ليس باسم له وجعلت الثانى هو الواقع عليه والمتناول له فصار قصدك التشبيه أمراً مطويا فى نفسك مكنونا فى ضميرك وصار فى ظاهر الحال وصورة الكلام وقضيته كأنه الشىء الذى وضع له الاسم فى اللغة وتصور أن تعلّقه الوهمُ كذلك . وليس كذلك القسم الثانى لأنك قد صرحت فيه بالمشبه وذكرك له صريحاً يأبى أن تتوهم كونه من جنس المشبه به . وإذا سمع السامع قولك « زيد أسد » وهذا الرجل سيف صارم على الأعداء » استحال أن يظن وقد صرحت له بذكر زيد - أنك قصدت أسداً وسيفاً ، وأكثر ما يمكن أن يدعى تخيله فى هذا أن يقع فى نفسه من قولك : زيد أسد ، حال الأسد فى جراءته وإقدامه وبطشه فأما أن يقع فى وهمه أنه رجل وأسد معاً بالصورة والشخص فمحال .

ولما كان كذلك كان قصد التشبيه من هذا النحو بيناً لائحا وكائنا من مقتضى الكلام وواجبا من حيث موضوعه حتى إن لم يحمل عليه كان محالا فالشىء الواحد لا يكون رجلا وأسداً وإنما يكون رجلا وبصفة الأسد فيما

يرجع إلى غرائز النفوس والأخلاق أو خصوص فى الهيئة كالكراهة فى الوجه ، وليس كذلك الأول لأنه يحتمل الحمل على الظاهر على الصحة فلست بممنوع من أن تقول : عنّت لنا ظبية وأنت تريد الحيوان ، وطلعت شمس وأنت تريد الشمس ، كقولك طلعت اليوم شمس حارة وكذلك تقول هززت على الأعداء سيفا ، وأنت تريد السيف ، كما تقوله وأنت تريد رجلا باسلا استعنت به ، أو رأيا ماضيا وفقت فيه ، وأصبت به من العدو فأرهبته وأثرت فيه .

وإذا كان الأمر كذلك وجب أن يفصل بين القسمين فيسمى الأول استعارة على الإطلاق ويقال فى الثانى إنه تشبيه ، فأما تسمية الأول تشبيها فغير ممنوع ولا غريب إلا أنه على أنك تخبر عن الغرض وتنبئ عن مضمون الحال ، فأما أن يكون موضوع الكلام وظاهره موجبا له صريحا فلا ، فإن قلت : فكذلك قولك « هو أسد » ليس فى ظاهره تشبيه لأن التشبيه يحصل بذكر الكاف أو « مثل » أو نحوهما - فالجواب أن الأمر وإن كان كذلك فإن موضوعه من حيث الصورة يوجب قصدك التشبيه لاستحالة أن يكون له معنى وهو على ظاهره وله مثال من طريق العادة وهو أن مثل الاسم مثل الهيئة التى يستدل بها على الأجناس كزى الملوك وزى السوقة ، فكما أنك لو خلعت من الرجل أثواب السوقة ونفيت عنه كل شىء يختص بالسوقة وألبسته زى الملوك فأبديته للناس فى صورة الملوك حتى يتوهموه ملكا وحتى لايصلوا إلى معرفة حاله إلا بإخبار أو اختبار واستدلال غير الظاهر - كنت قد أعرته هيئة الملك وزيه على الحقيقة ، ولو أنك ألقيت عليه بعض مايلبسه الملك من غير أن تعريه من المعانى التى تدل على كونه سوقة لم تكن قد أعرته بالحقيقة هيئة الملك لأن المقصود من هيئة الملك أن يحصل بها المهابة فى النفس

وأن يتوهم العظمة ، ولايحصل ذلك مع وجود الأوصاف الدالة على أن الرجل سوقة .

افرض هذه الموازنة فى الشىء الواحد كالثوب الواحد يعاره الرجل فيلبسه على ثوبه أو منفرداً وإنما اعتبر الهيئة وهى تحصل بمجموع أشياء وذلك أن الهيئة هى التى يشبه حالها حال الاسم لأن الهيئة تخص جنساً كما أن الاسم كذلك ، والثوب على الإطلاق لايفعل ذلك إلا بخصائص تقترن به وتراعى معه ، فإذا كان السامع قولك « زيد أسد » لايتوهم أنك قصدت أسداً على الحقيقة لم يكن الاسم قد لحقه ولم تكن قد أعرته إياه إعارة صحيحة ، كما أنك لم تعر الرجل هيئة الملك حين لم تزل عنه مايعلم به أنه ليس بملك

هذا - وإذا تأملنا حقيقة الاستعارة فى اللغة والعادة كان فى ذلك أيضاً بيان لصحة هذه الطريقة ووجوب الفرق بين القسمين ، وذلك أن من شرط المستعار أن يحصّل للمستعير منافعه على الحد الذى يحصل للمالك ؛ فإن كان ثوبا لبسه . وإن كان أداة استعملها فى الشىء تصلح له ، حتى إن الرائى إذا رآه معه لم تنفصل حاله عنده من حال ماهو ملك يد ليس بعارية وإنما يفضله المالك فى أن له أن يتلف الشىء جملة أو يدخل التلف على بعض أجزائه قصداً وليس للمستعير ذلك ، ومعلوم أن ماهو كالمنفعة من الاسم أن يوجب ذكره القصد إلى الشىء فى نفسه ، فإذا قلت « زيد » علم أنك أردت أن تخبر عن الشخص المعلوم ، وإذا قلت « لقيت أسداً » علم أنك علقت اللقاء بواحد من هذا الجنس ، وإذا كان الأمر كذلك ثم وجدنا الاسم فى قولك : « عنت ظبية » يعقل من إطلاقه أنك قصدت الجنس المعلوم ولا يعلم أنك قصدت امرأة ، فقد وقع من المرأة فى هذا الكلام موقعه من ذلك الحيوان على الصحة فكان ذلك بمنزلة أن المستعير ينتفع بالمستعار

انتفاع مالكه فيلبسه لبسه ، ويتجمل به تجمله ، ويكون مكانه عنده مكان الشيء المملوك ، حتى يعتقد من ينظر إلى الظاهر أنه له.

ولما وجدنا الاسم فى قولك « زيد أسد » لايقع من زيد ذلك الموقع من حيث إن ذكره باسمه يمنع من أن يصير الاسم مطلقا عليه ومتناولا له على حد تناوله ما وضع له ، وزان ذلك : وزان أن يضع الرجل عند الرجل ثوبا ويمنعه أن يلبسه أو بمنزلة أن تطرح عليه طرف ثوب كان عليك فلا يكون ذلك عارية صحيحة لأنك لم تدخله فى جملته ، ولم تعطه صورة ما يختص به ويصير إليه ويخفى كونه لك دونه ، فاعرفه .

* * *

وههنا فصل آخر من طريق موضوع الكلام يبين وجوب الفرق بين القسمين ، وهو أن الحالة التى يختلف فى الاسم إذا وقع فيها أيسمى استعارة أم لايسمى - هى الحالة التى يكون الاسم فيها خبر مبتدإ أو متنزلا [(١)] منزلته أعنى أن يكون خبر كان [(٢)] ومفعولا ثانيا لباب علمت ، لأن هذه الأبواب كلها أصلها مبتدأ وخبر ، [(٣)] ويكون حالا لأن الحال عندهم زيادة فى الخبر فحكمها حكم الخبر فيما قصدته ههنا ، خصوصا والاسم إذا وقع فى هذه المواضع فأنت واضع كلامك لإثبات معناه وإن أدخلت النفى على كلامك تعلق النفى بمعناه .

تفسير هذه الجملة أنك إذا قلت « زيد منطلق » فقد وضعت كلامك لإثبات الانطلاق لزيد . ولو نفيت فقلت « مازيد منطلقا » كنت نفيت

---

(١) الصواب منزلا .
(٢) الصواب أو .
(٣) الصواب أو .

الانطلاق عن زيد وكذلك «كان زيد منطلقا . وعلمت زيداً منطلقا ، ورأيت زيداً منطلقا . » أنت فى ذلك كله واضع كلامك ومزج له لتثبيت الانطلاق لزيد ، ولو خولفت فيه انصرف الخلاف إلى ثبوته . وإذا كان الأمر كذلك فأنت إذا قلت : زيد أسد : ورأيت [١] أسداً ، فقد جعلت اسم المشبه به خبراً عن المشبه . والاسم إذا كان خبراً عن الشيء كان خبراً عنه إما لإثبات وصف هو مشتق منه لذلك الشيء كالانطلاق فى قولك «زيد منطلق » أو إثبات جنسية هو موضوع لها كقولك : هذا رجل . فإذا امتنع فى قولنا « زيد أسد » أن تثبت الجنسية لزيد على الحقيقة كان لإثبات شبه من الجنس له ، وإذا كنا إنما نثبت شبه الجنس فقد اجتلبنا الاسم لنحدث به التشبيه الآن ونقرره وندخله فى حيز الحصول والثبوت ، وإذا [٢] كان كذلك كان خليقا بأن نسميه تشبيها إذا كان إنما جاء ليفيده ويوجبه .

وأما الحالة الأخرى التى قلنا إن الاسم فيها يكون استعارة من غير خلاف فهى حالة إذا وقع الاسم فيها لم يكن الاسم [٣] مجتلبا لإثبات معناه للشيء ولا الكلام موضوعا لذلك لأن هذا حكم لا يكون إلا إذا كان الاسم فى منزلة الخبر من المبتدأ . فأما إذا لم يكن وكان مبتدأ بنفسه أو فاعلا أو مفعولا أو مضافا إليه فأنت واضع كلامك لإثبات أمر آخر غير ما هو معنى الاسم .

بيان ذلك أنك إذا قلت : جاءنى أسد ورأيت أسداً ومررت بأسد ، فقد وضعت الكلام لإثبات المجيء واقعا من الأسد ، والرؤية والمرور

---

(١) الصواب رأيت زيداً أسد .
(٢) الصواب إذ .
(٣) الصواب حذفه .

واقعين منك عليه . وكذلك إن قلت : الأسد مقبل ، فالكلام موضوع لإثبات الإقبال للأسد لا لإثبات معنى الأسد . وإذا كان الأمر كذلك ثم قلت : عنت لنا ظبية وهززت سيفا صارما على الأعداء - وأنت تعنى بالظبية امرأة وبالسيف رجلا ، لم يكن ذكرك للاسمين فى كلامك هذا لإثبات الشبه المقصود الآن . وكيف يتصور أن يقصد إلى إثبات الشبه منهما لشىء وأنت لم تذكر قبلهما شيئا ينصرف إثبات الشبه إليه ، وإنما يثبت الشبه من طريق الرجوع إلى الحال والبحث عن خبىء فى نفس المتكلم وإذا كان كذلك بان أن الاسم فى قولك : زيد أسد — مقصود به إيقاع التشبيه فى الحال وإيجابه .

وأما فى قولك . عنت لنا ظبية ، وسللت سيفا على العدو ، فوُضع الاسم هكذا انتهازاً (١) واقتضابا على المقصود وادعاء أنه من الجنس الذى وضع له الاسم فى أصل اللغة . وإذا افترقا هذا الافتراق وجب أن يفرق بينهما فى الاصطلاح والعبارة كما أنا نفصل بين الخبر والصفة فى العبارة لاختلاف الحكم فيهما بأن الخبر إثبات فى الوقت للمعنى ، والصفة تبيين وتوضيح وتخصيص بأمر قد ثبت واستقر وعرف ، فكما لم نرض لاتفاق الغرض فى الخبر والصفة على الجملة واشتراكهما إذا قلت «زيد ظريف وجاءنى زيد الظريف» فى التباس (٢) زيد فى الظرف واكتسائه له أن نجعلهما فى الوضع الأصطلاحى شيئاً واحداً ولا نفرق بتسميتنا هذا خبرا وذاك صفة ، كذلك ينبغى ألا يدعونا اتفاق قولنا : جاءنى أسد : وهززت سيفاً صارما ، وقولنا :

---

(١) انتهز الصيد : بادره .

(٢) الذى فى القاموس تلبس بالأمر وبالثوب : اختلط ، والطعام باليد : التزق ، فالمصدر إذاً التلبس لا التباس إذ هو مصدر التبس أى اشتبه .

زيد أسد وسيف صارم - فى نطاق التشبيه - إلى التسوية بينهما وترك الفرق من طريق العبارة ، بل وجب أن نفرق فنسمى ذاك استعارة وهذا تشبيهاً فإن أبيت إلا أن تطلق الاستعارة على هذا القسم الثانى فينبغى أن تعلم أن إطلاقها لا يجوز فى كل موضع يحسن دخول حرف التشبيه عليه بسهولة وذلك نحو قولك : هو الأسد وهو شمس النهار ، وهو البدر حسنا وبهجة ، والقضيب عَطفاً[1] وهكذا كل موضع ذكر فيه المشبه به بلفظ التعريف .

فإن قلت «هو بحر وهو ليث ووجدته بحراً» ، وأردت أن تقول إنه استعارة كنت أعذرَ وأشبه بأن تكون على جانب من القياس ، ومتشبثاً بطرف من الصواب ، وذلك أن الاسم قد خرج بالتنكير عن أن يحسن إدخال حرف التشبيه عليه ، فلو قلت هو كأسد وهو كبحر ، كان كلاما نازلا غير مقبول كما يكون قولك هو كالأسد ، إلا أنه وإن كان لا تحسن فيه الكاف فإنه يحسن فيه «كأن» ، كقولك : كأنه أسد ، أو ما يجرى مجرى «كأن» فى نحو «تحسبه أسداً وتخاله سيفاً» ، فإن غمض[2] مكان الكاف وكأن بأن يوصف الاسم الذى فيه التشبيه بصفة لا تكون فى ذلك الجنس وأمر خاص غريب فقيل : هو بحر من البلاغة ، وهو بدر يسكن الأرض ، وهو شمس لا تغيب . وكقوله[3] :

شمس تألَّقُ والفراق غروبها عنا وبدر والصدود كسوفه

فهو أقرب إلى أن تسميه استعارة لأنه قد غمض تقدير حرف التشبيه فيه إذ لا تصل إلى الكاف حتى تبطل بنية الكلام وتبدل صورته فتقول : هو

---

(١) العطف ، بالفتح : التثنى .

(٢) غمض من باب نصر وضرب غمضاً وغموضاً خفى .

(٣) هو البحترى يمدح الفتح بن خاقان وقد تقدم ذكر مطلعها .

كالشمس المتألقة إلا أن فراقها هو الغروب وكالبدر إلا أن صدوده الكسوف.

وقد يكون فى الصفات التى تجىء فى هذا النحو والصلات التى توصل بها مايختل [١] به تقدير التشبيه فيقرب حينئذ من القبيل الذى تطلق عليه الاستعارة من بعض الوجوه وذلك مثل قوله [٢] :

أسد دم الأسد الهزبر خضابه موت فريص الموت منه ترعد [٣]

لا سبيل لك إلى أن تقول هو كالأسد وهو كالموت لما يكون فى ذلك من التناقض لأنك إذا قلت هو كالأسد فقد شبهته بجنس السبع المعروف ومحال أن تجعله محمولا [٤] فى الشبه على هذا الجنس أولا ثم تجعل دم الهزبر الذى هو أقوى الجنس خضاب يده ، لأن حملك له عليه فى الشبه دليل على أنه دونه ، وقولك بعد «دم الهزبر من الأسود خضابه» دليل على أنه فوقها . وكذلك محال أن تشبهه بالموت المعروف ثم تجعله يخافه ، وترتعد منه أكتافه وكذا قوله [٥] :

---

(١) يظهر أن الأصل مايحيل تقدير التشبيه .

(٢) هو المتنبى يمدح شجاع بن محمد الطائى المنبجى ومطلعها :

اليوم عهدكم فأين الموعد هيهات ليس ليوم عهدكم غد

الموت أقرب مخلبا من بينكم والعيش أبعد منكم لا تبعدوا

إلى أن قال :

أبرحت يامرض الجفون بممرض مرض الطبيب له وعيد العود

فله بنو عبد العزيز بن الرضا ولكل ركب عيسهم والفدفد

وقبله :

فى شأنه ولسانه وبنانه وجنانه عجب لمن يتفقد

(٣) الفريص : جمع فريصة وهى لحمة بين الثدى والكتف ترعد عند الفزع .

(٤) ملحقا به .

(٥) هو البحترى يمدح الفتح بن خاقان ومطلعها : =

سحاب عدانى سيله وهو مسبل   وبحر عدانى فيضه وهو مفعم
وبدر أضاء الأرض شرقا ومغربا   وموضع رحلى منه أسود مظلم

إن رجعت فيه إلى التشبيه الساذج فقلت هو كالبدر ثم جئت تقول: أضاء الأرض شرقاً ومغربا وموضع رحلى مظلم لم يضىء به، وكنت كأنك تجعل البدر المعروف يلبس الأرض الضياء ويمنعه رحلك وذلك محال، وإنما أردت أن تثبت من الممدوح بدراً مفرداً له هذه الخاصة العجيبة التى لم تعرف للبدر، وهذا إنما يأتى بكلام بعيد من هذا النظم، وهو أن يقال هل سمعت بأن البدر يطلع فى أفق ثم يمنع ضوءه موضعا من المواضع التى هى معرضة له وكائنة فى مقابلته حتى ترى الأرض الفضاء قد أضاءت بنوره وفيما بينها قدر رحل مظلم يتجافى عنه ضوءه؟ ومعلوم بُعد هذا من طريقة البيت فهذا النحو موضوع على تخييل أنه زاد فى جنس البدر واحد له حكم وخاصة لم تعرف. وإذا كان الأمر كذلك صار كلامك موضوعا لا لإثبات الشبه بينه وبين البدر ولكن لإثبات الصفة فى واحد متجدد حادث من جنس البدر لم تعرف تلك الصفة للبدر فيصير بمنزلة قولك: زيد رجل يقرى الضيوف ويفعل كيت وكيت. فلا يكون قصدك إثبات الصفة التى ذكرتها له فإذا خرج الاسم الذى يتعلق به التشبيه من أن يكون مقصوداً بالإثبات تبين أنه خارج عن الأصل الذى تقدم من كون الاسم لإثبات

= على أى أمر مشكل أتلوم   أقيم فأثوى أم أهم فأعزم
ولو أنصفتنى «سر من راء» لم أكن   إلى العيس من إيطانها أتظلم

ثم قال:

وما منع الفتح بن خاقان نيله   ولكنها الأقدار تعطى وتحرم

[وبعده: أأشكو نداه بعد ما وسع الورى   ومن ذا يذم الغيث إلا مذمم]

الشبه . فالبحترى فى قوله : «وبدر أضاء الأرض» قد بنى كلامه على أن كون الممدوح بدراً أمر قد استقر وثبت وإنما يعمل فى إثبات الصفة الغريبة والحالة التى هى موضع التعجب . وكما يمتنع دخول الكاف فى هذا النحو كذلك يمتنع دخول «كأن وتحسب وتخال» فلو قلت : كأنه بدر أضاء الأرض شرقا ومغربا وموضع رحلى منه مظلم» كان خلفاً(١) من القول . وكذلك إن قلت «تحسبه بدراً أضاء الأرض ورحلى منه مظلم» كان كالأول فى الضعف . ووجه بعده من القبول بين، وهو أن «كأن وحسبت وخلت وظننت» تدخل إذا كان الخبر والمفعول الثانى أمراً معقولا ثابتاً فى الجملة(٢) إلا أنه فى كونه متعلقاً بما هو اسم كأن أو المفعول الأول من حسبت مشكوك فيه كقولنا «كأن زيداً منطلق» أو مجاز يقصد به خلاف ظاهره نحو «كأن زيداً أسد» فالأول على الجملة ثابت معروف والغريب هو كون زيد إياه ومن جنسه ، والنكرة فى نحو هذه الأبيات موصوفة بأوصاف تدل على أنك تخبر بظهور شىء لا يعرف ولا يتصوّر . وإذا كان كذلك كان إدخال «كأن وحسبت» عليه كالقياس على المجهول :

وتأمل هذه النكتة فإنه يضعف ثانياً إطلاق الاستعارة على هذا النحو أيضاً لأن موضوع الاستعارة كيف دارت القضية على التشبيه وإذا بان بما ذكرت أن هذا الجنس إذا قلبت عن سره ونقرت عن خبيئه فحصوله أنك تدعى حدوث شىء هو من الجنس المذكور إلا أنه اختص بصفة غريبة وخاصية بعيدة لم يكن يتوهم جوازها على ذلك الجنس كأنك تقول : ما كنا

---

(١) هو الردىء منه .
(٢) جاء بها لإدخال التشبيهات الوهمية والخيالية .

نعلم أن ههنا بدراً هذه صفته - كان تقدير التشبيه فيه نقضاً لهذا الغرض ، لأنه لامعنى لقولك أشبهه ببدر حدث خلاف البدور ما كان يعرف .

وهذا موضع لطيف جداً لا تنتصف منه إلا باستعانة الطبع عليه ، ولا يمكن توفية الكشف فيه حقه بالعبارة لدقة مسلكه ، ويتصل به أن فى الاستعارة الصحيحة ما لا يحسن دخول كلم التشبيه عليه وذلك إذا قوى الشبه بين الأصل والفرع حتى يتمكن الفرع فى النفس بمداخلة ذلك الأصل والاتحاد به وكونه إياه وذلك فى نحو النور إذا استعير للعلم والإيمان والظلمة للكفر والجهل ، فهذا النحو لتمكنه وقوة شبهه ومتانة سببه قد صار كأنه حقيقة ولا يحسن لذلك أن تقول فى العلم : كأنه نور ، وفى الجهل كأنه ظلمة ، ولا تكاد تقول للرجل فى هذا الجنس «كأنك قد أوقعتنى فى ظلمة» بل تقول : أوقعتنى فى ظلمة . وكذلك الأكثر على الألسن والأسبق إلى القلوب أن تقول : فهمت المسئلة فانشرح صدرى وحصل فى قلبى نور ، ولا تقول : كأن نوراً حصل فى قلبى ، ولكن إذا تجاوزت هذا النوع إلى نحو قولك : سللت منه سيفاً على الأعداء ، وجدت «كأن» حسنة هناك كثيراً كقولك : بعثته إلى العدو فكأنى سللت سيفاً ، وكذلك فى نحو : زيد أسد «كأن زيداً أسد» وهكذا يتدرج الحكم فيه حتى كلما كان مكان الشبه بين الشيئين أخفى وأغمض وأبعد من العرف كان الإتيان بكلمة التشبيه أبين وأحسن وأكثر فى الاستعمال .

ومما يجب أن تجعله على ذكر منك أبداً وفيه البيان الشافى أن بين القسمين تبايناً شديداً أعنى بين قولك : زيد أسد ، وقولك : رأيت أسداً . وهو ماقدمته لك من أنك قد تجد الشىء يصلح فى نحو : زيد أسد ، حيث يذكر المشبه باسمه أولا ثم يجرى اسم المشبه به عليه ولا يصلح فى القسم

الآخر الذى لايذكر فيه المشبه أصلا وتطرحه . ومن الأمثلة البينة فى ذلك قول أبى تمام (١) :

وكان المطل فى بدء وعود دخانا للصنيعة وهى نار (٢)

قد شبه المطل بالدخان والصنيعة بالنار ولكنه صرح بذكر المشبه وأوقع المشبه به خبراً عنه وهو كلام مستقيم . ولو سلكت به طريقة مايسقط فيه ذكر المشبه فقلت مثلا « أقبستنى ناراً لها دخان » كان ساقطا . ولو قلت « أقبستنى نوراً أضاء أفقى به » تريد علما ، كان حسنا حسنه إذا قلت « علمك نور فى أفق » والسبب فى ذلك أن اطراح ذكر المشبه والاقتصار على الاسم المشبه به وتنزيله منزلته وإعطاءه الخلافة على المقصود إنما يصح إذا تقرر الشبه بين المقصود وبين ماتستعير اسمه له وتستنيبه (٣) فى الدلالة وقد تقرر فى العرف الشبه بين النور والعلم وظهر واشتهر ، كما تقرر الشبه بين المرأة والظبية ، وبينها وبين الشمس ، ولم يتقرر فى العرف شبه بين الصنيعة والنار وإنما هو شىء يضعه الآن أبو تمام ويتمحله ويعمل فى تصويره فلا بد له

---

(١) من قصيدة يمدح أبا الحسين محمد بن الهيثم بن شبابه ويستنجزه وعده وكان قد مدحه وأخر صلته ومطلعها :

نوار فى صواحبها نوار كما فاجاك سرب أو صوار
تكذب حاسد فنأت قلوب أطاعت واشيا ونأت ديار

إلى أن قال :

نؤم أبا الحسين وكان قدما فتى أعمار موعده قصار
له خلق نهى القرآن عنه وذاك عطاؤه السرف البذار

وقبله : رأيت صنائعا معكت فأمست ذبائح والمطال لها شفار
نسيب البخل مذ كانا وإلا يكن نسب فبينهما جوار

(٢) رواية الديوان للمصراع الأول هكذا (وكان المدح فى عود وبدء)

(٣) الصواب فتستنيبه .

من ذكر المشبه والمشبه به جميعا حتى يعقل عنه مايريده وبين الغرض الذى يقصده ، وإلا كان بمنزلة من يريد إعلام السامع أن عنده رجلا هو مثل زيد فى العلم مثلا فيقول له « عندى زيد » ويسومه أن يعقل من كلامه أنه أراد أن يقول عندى رجل مثل زيد أو غيره من المعانى وذلك تكليف علم الغيب ؛ فاعرف هذا الأصل وتبينه فإنك تزداد به بصيرة فى وجوب الفرق بين الضربين وذلك أنهما لو كانا يجريان مجرى واحداً فى حقيقة الاستعارة لوجب أن يستويا فى القضية حتى إذا استقام وضع الاسم فى أحدهما استقام وضعه فى الآخر فاعرفه .

فإن قلت : فما تقول فى نحو قولهم لقيت به أسداً ورأيت به ليثا ؛ فإنه [1] مما ولا وجه لتسميته استعارة ، ألا تراهم قالوا : لئن لقيتَ فلانا ليلقينك منه الأسد ، فأتوا به معرفة على حده إذا قالوا : احذر الأسد . وقد جاء على هذه الطريقة مالا يتصور فيه التشبيه فيظن أنه استعارة وهو قوله عز وجل ﴿لهم فيها دار الخلد﴾ والمعنى والله أعلم أن النار هى دار الخلد وأنت تعلم أن لامعنى ههنا لأن يقال إن النار شبهت بدار الخلد إذ ليس المعنى على تشبيه النار بشىء يسمى دار الخلد كما تقول فى زيد : إنه مثل الأسد . ثم تقول : هو الأسد وإنما هو كقولك : النار منزلهم ومسكنهم ، نعوذ بالله منها . وكذا قوله [2] :

(١) جواب فإن قلت .

(٢) هو أعشى باهلة عامر بن الحرث أحد بنى عامر بن عوف من قيس عيلان من قصيدة عدتها ٣٤ بيتا يرثى بها أخاه المنتشر بن وهب وكان من الفرسان الرؤساء قتله بنو الحرث بن كعب وقطعوه إربا إربا برجل منهم كان فعل معه مثل ذلك ومطلعها :

إنى أتتنى لسان لاأسر بها من علو لاعجب منها ولا سخر

« يأبى الظلامة منه النوفلُ الزفر[1] »

المعنى على أنه النوفل الزفر ، وليس النوفل الزفر باسم لجنس غير جنس الممدوح كالأسد فيقال إنه شبه الممدوح به وإنما هو صفة كقولك هو الشجاع وهو السيد وهو النهاض بأعباء السيادة . وكذا قوله[2] :

يا خير من يركب المطى ولا   يشرب كأسا بكف من بخلا

لا يتصور فيه التشبيه وإنما المعنى أنه ليس ببخيل .

هذا وإنما يتصور الحكم على الاسم بالاستعارة إذا جرى بوجه على

فظلت مكتئبا حيران أندبه   وكنت أحذره لو ينفع الحذر
فجاشت النفس لما جاء جمعهم   وراكب جاء من تثليث معتمر
يأتى على الناس لا يلوى على أحد   حتى التقينا وكانت دوننا مضر

إلى أن قال :

أخو رغائب يعطيها ويسألها   يأبى الظلامة منه النوفل الزفر

(١) الزفر : الجمل ، ويضرب مثلا للرجل فيقال : إنه لزفر : أى حمال للأثقال والنوفل من قولهم : إنه لذو فضل ونوافل ، وفى اللسان : الزفر السيد وأنشد البيت ثم قال : لأنه يزدفر بالأموال فى الحمالات مطيقا لها وقوله « منه » مؤكدة للكلام كما قال تعالى (يغفر لكم من ذنوبكم) والمعنى يأبى الظلامة لأنه النوفل الزفر .

(٢) هو أعشى قيس يمدح سلامة ذا فائش وكان قد أقام ببابه مدى طويلا حتى وصل إليه وأنشده قصيدته التى مطلعها :

إن محلا وإن مرتحلا   وإن فى السفر إذ مضوا مهلا
استأثر الله بالوفاء وبالعدل   وولى الملامة الرجلا
والأرض حمالة لما حمل الله   وما إن يرد ما فعلا
يوما تراها كشبه أردية العصب   ويوما أديمها نغلا
والشعر قلدته سلامة ذا   فائش والشىء حيثما جعلا

فقال صدقت « الشىء حيثما جعل » ، وأمر لى بمائة من الإبل وكسانى حللا وأعطانى كرشا مدبوغة مملوءة عنبراً وقال لى : إياك أن تخدع عما فيها ، قال فأتيت الحيرة فبعتها بثلثمائة ناقة حمراء .

ما يدعى أنه مستعار له والاسم فى قولك لقيت به أسداً ولقينى منه الأسد لا يتصور جريه على المذكور بوجه لأنه ليس بخبر عنه ولا صفة له ولا حال وإنما هو بنفسه مفعول لقيت وفاعل لقينى ولو جاز أن يجرى الاسم هاهنا مجرى الاستعارة المتناولة المستعار له لوجب أن يقول [1] فى قوله [2]

حتى إذا جن الظلام واختلط   جاءوا بمذق هل رأيت الذئب قط [3]

« إنه استعار اسم الذئب للمذق » وذلك بين الفساد . وكذا نحو قوله [4] :

نبئت أن أبا قابوس أوعدنى   ولا قرار على زأر من الأسد [5]

لا يكون استعارة وإن كنت تجد من يفهم البيت قد يقول : أراد بالأسد النعمان أو شبهه بالأسد . لأن ذلك بيان للغرض . فأما القضية الصحيحة وما يقع فى نفس العارف ويوحيه نقد الصيرف فإن الأسد واقع على حقيقته حتى كأنه قال : ولا قرار على زأر هذا الأسد - وأشار إلى الأسد خارجا من عرينه ، مهدداً موعداً بزئيره . وأى وجه للشك فى ذلك وهو يؤدى إلى أن يكون الكلام على حد قولك ولا قرار على زأر من هو كالأسد ؟

---

(١) الصواب يقال   (٢) قال فى الكامل : العرب تختصر التشبيه وربما أو مأت به إيماء قال أحد الرجاز وأظنه العجاج وأول الرجز :

بتنا بحسان ومعزاه تئط   ما زلت أسعى بينهم وألتبط
حتى إذا جن الظلام واختلط   جاءوا بمذق هل رأيت الذئب قط
تلحس أذنيه وحينا تمتخط   فى سمن منه كثير وأقط

وفى البيان :

بتنا بحسان ومعزاه تئط   فى سمن حم وتمر وأقط
حتى إذا جاء الظلام ينكشط   جاءوا بمذق هل رأيت الذئب قط

(٣) المذق : من مذق اللبن والشراب أى مزجه .

(٤) هو النابغة الذبيانى فى اعتذارياته للنعمان .

(٥) زأر الأسد من بابى فتح وضرب ، وقد شبه وعيده بزئير الأسد .

وفيه من العى والفجاجة شىء غير قليل [١]

هذا - ومن حق غالط غلط فى نحو ما ذكرت على قلة عذره ألا يغلط فى قول الفرزدق [٢] :

قياما ينظرون إلى سعيد ... كأنهم يرون به هلالا

ولا يتوهم أن « هلالا » استعارة لسعيد لأن الحكم على الاسم بالاستعارة مع وجود التشبيه الصريح محال جار مجرى أن يكون كل اسم دخل عليه كاف التشبيه مستعاراً . وإذا لم يغلط فى هذا فالباقى بمنزلته فاعرفه .

فصل

﴿ فى الاتفاق فى الأخذ والسرقة . والاستمداد والاستعانة ﴾

اعلم أن الشاعرين إذا اتفقا لم يخل ذلك من أن يكون فى الغرض على الجملة والعموم أو فى وجه الدلالة على الغرض . والاشتراك فى الغرض على العموم أن يقصد كل واحد منهما وصف ممدوحه بالشجاعة والسخاء ،

---

(١) الفج - بالكسر الذى لم ينضج من الفاكهة والفجاجة حال الفاكهة ونحوها قبل النضج .

(٢) يمدح سعيد بن العاص والى المدينة وكان الفرزدق قد عرض بزياد بن أبيه فى قصيدة هجا بها بنى الفقيم فطلبه زياد ليقتله فهرب إلى المدينة ونزل على سعيد وعنده الحطيئة فلما مثل بين يديه أنشده قصيدة منها قبل البيت :

إليك فررت منك ومن زياد ... ولم أحسب دمى لكما حلالا
فإن يكن الهجاء أحل قتلى ... فقد قلنا لشاتكم وقالا
ترى الغر السوابق من قريش ... إذا ما الأمر بالحدثان غالا
قياما ينظرون إلى سعيد ... كأنهم يرون به هلالا
ضروب للقوانس غير هد ... إذا خطرت مسومة رعالا

فقال الحطيئة هذا والله الشعر أيها الأمير لا ما نعلل به منذ اليوم .

أو حسن الوجه والبهاء ، أو وصف فرسه بالسرعة أو ماجرى هذا المجرى .
وأما وجه الدلالة على الغرض فهو أن يذكر مايستدل به على إثباته له الشجاعة والسخاء مثلا وذلك ينقسم أقساما منها التشبيه بما يوجد هذا الوصف فيه على الوجه البليغ والغاية البعيدة كالتشبيه بالأسد وبالبحر فى البأس والجود وبالبدر والشمس فى الحسن والبهاء والإنارة والإشراق ومنها ذكر هيئات تدل على الصفة من حيث كانت لاتكون إلا فيمن له الصفة كوصف الرجل فى حال الحرب بالابتسام وسكون الجوارح وقلة الفكر كقوله (١)

كأن دنانيراً على قسماتهم ... وإن كان قد شف الوجوه لقاء (٢)

وكذلك الجواد يوصف بالتهلل (٣) عند ورود العفاة والارتياح لرؤية

---

(١) هو محرز بن المكعبر الضبي الشاعر الجاهلي وقيل هى لأبيه المكعبر حريث ابن عفوط ، ومن حديث ذلك أنه نزل ببنى عدى بن جندب من بلعنبر فأغار على إبله بنو عمرو بن كلاب فاستغاث ببنى عدى فوعدوه ولم يفوا له فاستغاث بمخارق ومساحق ابنى شهاب المازنى فردّا عليه إبله فقال :

وأبلغ عديا حيث شطت بها النوى ... فليس لدهر الطالبين فناء
كسالى إذا لاقيتهم غير منطق ... يلهى به المحروب وهو عناء
أخبر من لاقيت أن قد وفيتم ... ولو شئت قال المخبرون أساءوا
لهم ريثة تعلو صريمة أمرهم ... وللأمر يوما راحة فقضاء
وإنى لأرجوكم على بطء سعيكم ... كما فى بطون الحاملات رجاء
فهلا سعيتم سعى عصبة مازن ... وهل كفلائى فى الوفاء سواء

وبعده:

لهم أذرع باد نواشر لحمها ... وبعض الرجال فى الحروب غثاء

(٢) القسمات: الوجوه ، يريد أنها تشرق عند الحرب ، وشفه الهم والمرض أوهنه .

(٣) كبيت زهير فى هرم بن سنان :

تراه إذا ما جئته متهللا ... كأنك تعطيه الذى أنت سائله

المجتدين (١) والبخيل بالعبوس (٢) والقطوب وقلة البشر مع سعة ذات اليد ومساعدة الدهر .

وأما الاتفاق فى عموم الغرض فما (٣) لايكون الاشتراك فيه داخلا فى الأخذ والسرقة والاستمداد والاستعانة ، لاترى من به حس يدعى ذلك ويأبى الحكم بأنه لايدخل فى باب الأخذ ، وإنما يقع الغلط (٤) من بعض من لايحسن التحصيل ولا ينعم التأمل فيما يؤدى الى ذلك حتى يدعى عليه فى المحاجة أنه بما قاله قد دخل فى حكم من يجعل أحد الشاعرين عيالا على الآخر فى تصور معنى الشجاعة وأنها مما يمدح به ، وأن الجهل مما يذم به ، فأما أن يقوله صريحا ويرتكبه قصداً فلا .

---

(١) العفاة طلاب الفضل والمجد .

(٢) كقول بشار :

ولا تبخلا بخل ابن قذعة إنه ... مخافة أن يرجى نداه حزين

(٣) الصواب فمما .

(٤) كما زعم ابن طاهر أن أبا تمام سرق قوله من قصيدة يرثى بها محمد بن حميد

ألم تمت يا شقيق الجود من زمن ... فقال لى لم يمت من لم يمت كرمه

من قول كلثوم العتابى :

ردت صنائعه إليه حياته ... فكأنه من نشرها منشور

وكما زعموا أن أبا تمام أخذ قوله من قصيدة يمدح خالد بن يزيد الشيبانى :

همة تنطح النجوم وجد ... آلف للحضيض فهو حضيض

من قول أعرابى :

همته قد علت وقدرته ... فى اللحد بين الثرى مع الكفن

وأنه أخذ قوله :

فلعل عبرة ساعة أذريتها ... تشفيك من إرباب وجد محول

من قول ذى الرمة :

لعل انحدار الدمع يعقب راحة ... من الوجد أو يشفى نجى البلابل

وأما الاتفاق فى وجه الدلالة على الغرض فيجب أن ينظر فيه فإن كان مما اشترك الناس فى معرفته وكان مستقرا فى العقول والعادات فإن حكم ذلك وإن كان خصوص المعنى حكم العموم الذى تقدم ذكره

من ذلك التشبيه بالأسد فى الشجاعة ، وبالبحر فى السخاء ، وبالبدر فى النور والبهاء ، وبالصبح فى الظهور والجلاء ، ونفى الالتباس عنه والخفاء

وكذلك قياس الواحد فى خصلة من الخصال على المذكور بذلك والمشهور به والمشار إليه سواء كان ذلك ممن حضرك فى زمانك أو كان ممن سبق فى الأزمنة الماضية والقرون الخالية ، لأن هذا مما لا يختص بمعرفته قوم دون قوم ، ولا يحتاج فى العلم به إلى روية واستنباط وتدبر وتأمل ، وإنما هو فى حكم الغرائز المركوزة فى النفوس ، والقضايا التى وضع العلم بها فى القلوب .

وإن كان مما ينتهى إليه المتكلم بنظر وتدبر ، وينا له بطلب واجتهاد ، ولم يكن كالأول فى حضوره إياه وكونه فى حكم ما يقابله [1] الذى لا معاناة عليه فيه ولا حاجة به إلى المحاولة والمزاولة والقياس والمباحثة والاستنباط والاستثارة ، بل كان من دونه حجاب يحتاج إلى خرقه بالنظر ، وعليه كِمٌّ يفتقر إلى شقه بالتفكر [2] وكان دراً فى قعر بحر لا بد له من تكلف الغوص عليه ، وممتنعاً فى شاهق لا يناله إلا بتجشم الصعود إليه ، وكامناً كالنار فى الزند لا يظهر حتى يقتدحه ، ومشابكا لغيره كعروق الذهب التى لا تبدى صفحتها بالهوينى بل تنال بالحفر عنها ، وبعرق الجبين فى طلب التمكن منها ، — نعم إذا كان هذا شأنه ، وههنا مكانه ، وبهذا الشرط يكون إمكانه ، فهو الذى

(١) أى بمنزلة ما هو تجاهه يقابله بوجهه لا يحجبه عنه شىء . قاله الأستاذ الإمام .
(٢) الكم بالكسر الغلاف الذى يحيط بالثمر والزهر .

يجوز أن يدعى فيه الاختصاص والسبق والتقدم والأولية ، وأن يجعل فيه سلف وخلف ومفيد ومستفيد ، وأن يقضى بين القائلين فيه بالتفاضل والتباين ، وأن أحدهما فيه أكمل من الآخر وأن الثانى زاد على الأول (١) ونقص عنه ، وترقى إلى غاية أبعد ، من غايته ، أو انحط إلى منزلة هى دون منزلته .

واعلم أن ذلك الأول وهو المشترك العامى ، والظاهر الجلى ، والذى قلت إن التفاضل لا يدخله ، والتفاوت لا يصح فيه ، إنما يكون كذلك منه ما كان (٢) صريحا ظاهراً لم تلحقهُ صنعة ، وساذجا لم يعمل فيه نقش ، فأما إذا ركب عليه معنى ووصل به لطيفة ، ودُخل إليه من باب الكناية والتعريض ، والرمز والتلويح فقد صار بما غُيِّر من طريقته ، واستؤنف من صورته ، واستُجد له من المعرض (٣) ، وكسى من ذلك التعرض ، (٤) داخلا فى قبيل الخاص الذى يملك بالفكرة والتعمل ، ويتوصل إليه بالتدبر والتأمل ، وذلك كقولهم وهم يريدون التشبيه « سلبن الظباء العيون » كقول بعض (٥) العرب .

---

(١) الصواب أو نقص .

(٢) منه ما كان صريحا الصواب ما كان منه صريحا .

(٣) المعرض كمنبر تجلى به العروس .

(٤) الأخذ فى السير يمينا وشمالا لصعوبة الطريق وهو بدل من اسم الإشارة ونائب الفاعل يعود إلى المعنى المشترك ومفعول كسا الثانى محذوف والمعنى إنه اكتسى كسوة جديدة بذلك المنحى الخاص الذى فعله الشاعر فيه .

(٥) هو عبيد الراعى من قصيدة مطلعها :

ألم تسأل بعاربة الديارا عن الحى المفارق أين سارا

سلبن ظباء ذى نَفْر طُـلاها ونُجْل الأعين البقر الصُّوارا (١)

وكقوله (٢) :

إن السحاب لتستحي إذا نظرت إلى نداك فقاسته بما فيها

وكقوله (٣) :

لم تلق هذا الوجه شمس نهارها إلا بوجه ليس فيه حياء

وكقوله (٤) :

واهتز فى درع الندى فتحركت حركاتِ غصن البانة المتأود

---

(١) الطلا بالضم جمع طلية وهى الأعناق ونجل الأعين من إضافة الصفة إلى الموصوف والصوار بالضم والكسر القطيع من بقر الوحش .

(٢) هو أبو نواس من قصيدة يمدح بها العباس بن الفضل بن الربيع ومطلعها :

الدار أطبق أحراس على فيها واعتاقها صمم عن صوت داعيها

إلى أن قال قبله :

إلى أبى الفضل عباس وليس إلى هذا ولا ذا دعت نفس دواعيها

وبعده: حتى تهم باقلاع فيمنعها خوف من السخط من إجلال منشيها

(٣) هو المتنبي يمدح هرون بن عبد العزيز الأوراجى ومطلعها :

أمن ازديارك فى الدجى الرقباء إذ حيث كنت من الظلام ضياء

والصواب فى رواية البيت شمس نهارنا لأن سياق الحديث فى الممدوح .

(٤) هو البحترى يمدح يوسف بن محمد الثغرى من قصيدة مطلعها :

أصبى الأصائل أن برقة منشد تشكو اختلافك بالهبوب السرمد

لاتنبعى عرصاتها إن الهوى ملق على تلك الرسوم الهمد

إلى أن قال :

مالى رأيت الناس من مستحسن قبح السؤال وسائل مسترفد

كرم الأمير ابن الأمير فأقبل المـ جدى عليه وهو عاف مجتد

ورمى العدو فلم يقصر سهمه حتى تحصحص فى رمىّ مقصد

ورواية البيت :

فاهتز فى ورق الندى فتحيرت حركات غصن البانة المتأود

وكقوله (١) :

فأقصيت من قرب إلى ذى مهابة — أقابل بدر الأفق حين أقابله
إلى مسرف فى الجود لو أن حاتما — لديه لأمسى حاتم وهو عاذله

فهذا كله فى أصله ومغزاه وحقيقة معناه تشبيه ولكن كنى لك عنه وخُودِعت فيه وأتيت به من طريق الخِلابة فى مسلك السحر ومذهب التخييل ؛ فصار لذلك غريب الشكل بديع الفن منيع الجانب ، لا يدين لكل أحد ، يأبى العطف لا يدين به إلا للمروى (٢) المجتهد ، وإذا حققت النظر فالخصوص الذى تراه ، والحالة التى تراها تنفى (٣) الاشتراك وتأباه ، إنما هما من أجل أنهم جعلوا التشبيه مدلولا عليه بأمر آخر ليس هو من قبيل الظاهر المعروف ، بل هو فى حد لحن (٤) القول والتعمية اللذين يتعمد فيهما إلى إخفاء المقصود حتى يصير المعلوم اضطراراً يعرف امتحانا واختبارا ، كقوله

---

(١) هو البحترى من قصيدة يمدح الفتح ويذكر دخوله وسلامه عليه وقد قيل عنها إنها أجود ما للمحدثين فى المهابة ومطلعها :

هب الدار ردت رجع ما أنت قائله — وأبدى الجواب الربع عما تسائله
أفى ذاك برء من جوى أنهك الحشا — توقده واستغزر الدمع جائله

إلى أن قال :

ولما حضرنا سدة الإذن أخرت — رجال عن الباب الذى أنا داخله
فأفضيت من قرب إلى ذى مهابة ... — أقابل بدر الأفق حين أقابله
إلى مسرف فى الجود لو أن حاتما — لديه لأمسى حاتما وهو عاذله
بدا لى محمود السجية شمرت — سرابيله عنه وطالت حمائله
كما انتصب الرمح الردينى ثقفت — أنابيبه للطعن واهتز عامله

(٢) روى فى الأمر نظر وفكر .

(٣) جملة تنفى الاشتراك مفعول ثان لتراها وقوله إنما هما خبر قوله فالخصوص فالضمير فى أنهم جعلوا التشبيه يعود إلى الشعراء الذين روى أبياتهم قاله الأستاذ الإمام.

(٤) بالتحريك مصدر لحن له من باب فرح إذا قال له قولا يفهمه ويخفى على غيره .

مررت بباب[1] هندَ فكلٌّ متى فلا والله ما نطقت بحرف

فكما يوهمك باتفاق اللفظ أنه أراد الكلام ، وأن الميم موصولة باللام كذلك المشبِّه إذا قال : «سرقن الظباء العيون» فقد أوهم أن ثم سرقة وأن العيون منقولة إليها من الظباء ، وإن كنت تعلم إذا نظرت أنه يريد أن يقول : إن عيونها كعيون الظباء فى الحسن والهيئة وفترة النظر .

وكذلك يوهمك بقوله «إن السحاب لتستحيي» أن السحاب حى يعرف ويعقل، وأنه يقيس فيضه بفيض كف الممدوح فيخزى ويخجل ، فالاحتفال والصنعة فى التصويرات التى تروق السامعين وتروعهم ، والتخيلات التى تهز الممدوحين وتحركهم ، وتفعل فعلا شبيها بما يقع فى نفس الناظر إلى التصاوير التى يشكلها الحذاق بالتخطيط والنقش ، أو بالنحت والنقر ، فكما أن تلك تعجب وتخلب ، وتروق وتونق ، وتدخل النفس من مشاهدتها ، حالة غريبة لم تكن قبل رؤيتها ، ويغشاها ضرب من الفتنة لا ينكر مكانه ، ولا يخفى شانه

فقد عرفت قضية الأصنام وما عليه أصحابها من الافتتان بها والإعظام لها ، كذلك حكم الشعر فيما يصنعه من الصور ، ويشكله من البدع ، ويوقعه فى النفوس من المعانى التى يتوهم بها الجامد الصامت ، فى صورة الحى الناطق ، والموات الأخرس ، فى قضية الفصيح المعرب ، والمبين المميز ؛ والمعدوم المفقود فى حكم الموجود المشاهد كما قدمت القول عليه فى باب التمثيل حتى يكسب الدنىّ رفعة ، والغامض القدرِ نباهة .

وعلى العكس يغضّ من شرف الشريف ، ويطأ من قدر ذى العزة المنيف ، ويظلم الفضل ويتهضمه ، ويخدش وجه الجمال ويتخونه[2] ،

---

(١) لعل أصل البيت مررت بدار هند الخ لتكون التورية أظهر .

(٢) تخونه تنقصه .

ويعطى الشبهة سلطان الحجة ، ويرد الحجة إلى صيغة الشبهة ، ويصنع من المادة الخسيسة بدْعا يغلو فى القيمة ويعلو ، ويفعل من قلب الجواهر وتبديل الطبائع ، ماترى به الكيميا ، وقد صحت ، ودعوى الإكسير وقد وضحت ، إلا أنها روحانية تتلبس بالأوهام والأفهام ، دون الأجسام والأجرام ، ولذلك قال : (١)

يرى حكمة ما فيه وهو فكاهة ويقضى بما يقضى به وهو ظالم

وقال : (٢)

عليم بإبدال الحروف وقامع لكل خطيب يقمع الحق باطله

وقال ابن سكرة (٣) فأحسن :

---

(١) هو أبو تمام فى وصف الشعر وتقدمت القصيدة التى منها هذا البيت وقبله :

ولم ير كالمعروف تدعى حقوقه مغارم للأقوام وهى مغانم
ولا كالعلى ما لم ير الشعر بينها فكالأرض غفلا ليس فيها معالم
وما هو إلا القول يسرى فيغتدى له غرر فى أوجه ومواسم

(٢) هو أبو الطروق الضبى فى وصف لثغة محمدبن شبيب وكان يغالب نفسه حتى يخرج الراء من مخرجها بعد أن كاد ينطق بها غينا ، وقيل أنه لشاعر من المعتزله يمدح واصل بن عطاء باطالته الخطب وإجادته فيها وقوة بيانه واجتذابه الراء على كثرة ترددها فى الكلام ، ومما قيل فى واصل :

ويجعل البر قمحا فى تصرفه وخالف الراء حتى احتال للشعر
ولم يطق مطر والقول يعجله فعاد بالغيث إشفاقا من المطر

(٣) هو أبو الحسين محمد بن عبد الله الهاشمى البغدادى من أولاد على بن المهدى ابن المنصور كان شاعرا متصرفا واسع الباع وكان يقال إن زمانا جاد بابن سكرة وابن حجاج لسخى والأبيات من قطعة يهجو بها بعض الرؤساء وأولها وهو قبله :

تهت علينا ولست فينا ولى عهد ولا خليفه
فته وزد ما على جار يقطع عنى ولا وظيفه
ولا تقل ليس فى عيب قد تقذف الحرة العفيفه =

والشعر نار بلا دخان ‏ ‏ ‏ وللقوافى رقى لطيفه
لو هُجى المسك وهو أهل ‏ ‏ ‏ لكل مدح لصار جيفه
كم معتل فى المحل سام ‏ ‏ ‏ هوت به أحرف خفيفه

وقد عرفت ما كان سبيله من أمر القبيلة (١) الذين كانوا يعيرون بأنف الناقة حين قال الحطيئة (٢)

قوم هم الأنف والأذناب غيرهم ‏ ‏ ‏ ومن يسوى بأنف الناقة الذنبا

فنفى العار ، ووضح الافتخار ، وجعل ما كان نقصاً وشينا ، فضلا وزينا ، وما كان لقباً ونبزاً يسوء السمع شرفا وعزا يرفع الطرف ، وما ذاك إلا بحسن الانتزاع ، ولطف القريحة الصناع ، والذهن الناقد فى دقائق الإحسان والإبداع ، كما كساهم الجمال من حيث كانوا عروا منه ، وأثبتهم فى نصاب الفضل من حيث نُفوا عنه ، فلرب أنف سليم قد وضع الشعر عليه حده فجدعه ، واسم رفيع قلب معناه حتى حط به صاحبه ووضعه ، كما قال : (٣)

---

(١) هم بنو قريع .

(٢) من قصيدة يمدح بها بغيض بن عامر بن شماس بن لأى بن جعفر وهو الملقب بأنف الناقة بن قريع من تميم ، ولقب بأنف الناقة لأن قريعا أباه نحر جزوراً وقسمه بين نسائه فبعثت جعفراً أمه وقد قسم الجزور ولم يبق منه إلا الرأس فقال شأنك بهذا فأدخل يده فى الأنف وجعل يجرّها ومن هذا كان اللقب ومطلع القصيدة :

طافت أمامة بالركبان آونة ‏ ‏ ‏ ياحسنه من قوام عاد منتقبا

إلى أن قال قبله :

سيرى أمام فإن الأكثرين حصى ‏ ‏ ‏ والاطيبين إذا ماينسبون أبا
قوم إذا عقدوا عقداً لجارهم ‏ ‏ ‏ شدّوا العناج وشدوا فوقه الكربا

(٣) هو ابن الرومى فى سعد النوشرى .

ياحاجب الوزراء إنك عندهم سعد ولكن أنت سعد الذابح [١]

ومن العجيب فى ذلك قول القائل فى كَثير بن أحمد: [٢]

لو علم الله فيه خيراً ما قال «لا خير فى كثير»

فانظرى من أىّ مدخل دخل عليه، وكيف بالهوينى أهدى البلاء إليه، وكثير هذا هو الذى يقول فيه الصاحب [٣]: «ومثل كثير فى الزمان قليل» فقد صار الاسم الواحد وسيلة إلى الهدم والبناء، والمدح والهجاء، وذريعة إلى التزيين والتهجين.

ومن عجيب ما اتفق فى هذا الباب قول ابن المعتز فى ذمّ القمر واجترائه بقدرة البيان على تقبيحه وهو الأصل والمثل وعليه الاعتماد والمعوّل فى تحسين كل حسن، وتزيين كل مزين، وأول ما يقع فى النفوس، إذا أريد المبالغة فى الوصف بالجمال، والبلوغ فيه غاية الكمال، فيقال وجه كأنه القمر وكأنه فلقة قمر [٤]. ذلك لثقته بأن هذا القول إذا شاء سحر، وقلب الصور، وأنه لا يهاب أن يخرق الإجماع، ويسحر العقول ويقتسر الطباع، وهو:

---

(١) سعد الذابح كوكبان متقاربان غير نيرين بينهما فى رأى العين قيد ذراع سمى أحدهما ذابحا لأن معه كوكبا صغيرا غامضا يكاد يلزق به وكأنه مكب عليه يذبحه والعرب تزعم أن هذا الكوكب الصغير هو شاته التى يذبحها وهو من منازل القمر وكأنه يريد منه الغدر.

(٢) هو أبو منصور كثير بن أحمد من وزراء آل بويه ومن قضاتها.

(٣) فى مرثية له وقبله:

يقولون لى أودى كثير بن أحمد وذلك رزء فى الأنام جليل
فقلت دعونى والعلا نبكه معا ومثل كثير فى الزمان قليل

(٤) الفلقة بالفتح نصف الشيء المفلوق كالنواة، وبالكسر القطعة من الشيء.

يا سارق الأنوار من شمس الضحى　　يا مثكلى طيب[1] الكرى ومُنَغصى
أمّا ضياء الشمس فيـك فناقص　　وأرى حرارة نارها لم تنقص
لم يظفر التشبيه منـك بطائل　　متسلخ بهقا كلون الأبرص

وقد علم أنه ليس فى الدنيا مثلة أخزى وأشنع ، ونكال أبلغ وأفظع ، ومنظر أحق بأن يملأ النفوس إنكاراً ، وتنزعج القلوب استفظاعا له واستنكاراً ، ويُغرى الألسنة بالاستعاذة من سوء القضاء ، ودرك الشقاء ، من أن يصلب المقتول ويشبح فى الجذع[2] ثم قد ترى مرثية أبى الحسن[3] لابن بقية[4] حين صلب وما صنع فيها من السحر حتى قلب جملة مايستنكر من أحوال المصلوب إلى خلافها ، وتأول فيها تأويلات أراك فيها وبها مايقضى[5] منه العجب :

علـوٌّ فى الحياة وفى الممات　　بحق أنت إحـدى المعجزات

---

(١) كما يزعم بعض الناس أن النوم فى القمر يورث الأرق وضعف الجسد .
(٢) أى يثبت عليه منتصبا ممدود اليدين .
(٣) هو أبو الحسن محمد بن عمران الأنبارى أحد العدول ببغداد .
(٤) هو أبو الطاهر محمد بن بقية الملقب نصير الدولة وزير عز الدولة بن معز الدولة ابن بويه المتوفى سنة ٣٦٢ ومن حديث ذلك أن واشيا وشى به لعز الدولة فقبض عليه وسمل عينه فلزم بيته ولما تم الملك لعضد الدولة ابن عم عز الدولة وكانت قد بلغته أمور أحفظته عليه طلبه وألقاه تحت الفيلة ولما قتل صلبه فرثاه أبو الحسن بتلك القصيدة الغراء وكتبها فى عدة رقاع ألقاها فى شوارع بغداد فوصل خبرها إلى عضد الدولة فتمنى أن يكون هو المصلوب دونه ، وما زال مصلوبا حتى توفى عضد الدولة سنة ٣٧٢ فأنزل عن الخشبة ، ودفن وقد كان عضد الدولة غضب على أبى الحسن لمرثيته ثم عفا عنه وخلع عليه فرسا وبدرة مال .
(٥) الظاهر ينقضى بمعنى يفنى .

كأن الناس حولك حين قاموا ... وفود نداك أيام الصِّلات (١)
كأنك قائم فيهم خطيباً ... وكلهم قيام للصلاة
مددت يديك نحوهم احتفاء ... كمدهما إليهم بالهبات
ولما ضاق بطن الأرض عن أن ... يضم علاك من بعد الممات
أصاروا الجو قبرك واستنابوا ... عن الأكفان ثوب السافيات
لعُظْمِك فى النفوس تبيت ترعى ... بحراس وحفاظ ثقات
وتُشعل عندك النيران ليلا ... كذلك كنت أيام الحياة (٢)
ركبتَ مطية من قبلُ (٣) زيدٌ ... علاها فى السنين الماضيات
وتلك فضيلة فيها تأس ... تباعد عنك تعيير العداة
أسأتَ (٤) إلى الحوادث فاستثارت ... فأنت قتيل ثأر النائبات
ولو أنى قدَرت على قيامى ... بفرضك والحقوق الواجبات
ملأت الأرض من نظم القوافى ... ونحت بها خلال النائحات

---

(١) أخذه من قول ابن المعتز :

وصلوا عليه خاشعين كأنه ... وفود وقوف للسلام عليه

(٢) أى كما كنت توقد النيران للضيافة كما هى عادة أجواد العرب إذ يوقدونها ليلا ليهتدى بها الضيفان.

(٣) هو زيد بن على زين العابدين بن الحسين ظهر فى أيام هشام بن عبد الملك فبعث إليه يوسف بن عمر الثقفى جيشاً فهزمه وقتل وصلب بالكوفة وفى ذلك يقول بعض شعراء بنى أمية :

صلبنا لكم زيدا على جذع نخلة ... ولم نر مهديا على الجذع يصلب
وقستم بعثمان عليا سفاهة ... وعثمان خير من على وأطيب

(٤) أخذه من قول ابن الرومى :

لم يظلم الدهر أن توالت ... فيكم مصيباته دراكا
كنتم تجيرون من يعادى ... منه فعادا كم لذاكا

ولكنى أصبّر عنك نفسى   مخافة أن أعد من الجناة
وما لك تربة فأقول تسقى   لأنك نصب هطل الهاطلات
عليك تحية الرحمن تترى   برحمات غواد رائحات

ومما هو من هذا الباب إلا أنه مع ذلك احتجاج عقلى صحيح قول المتنبى (١) :

وما التأنيث لاسم الشمس عيب   ولا التذكير فخر للهلال

فحق هذا أن يكون عنوان هذا الجنس وفى صدر صحيفته، وطرازاً لديباجته، لأنه دفع للنقص وإبطال له، من حيث يشهد العقل للحجة التى نطق بها بالصحة، وذلك أن الصفات الشريفة شريفة بأنفسها وليس شرفها من حيث الموصوف. وكيف والأوصاف سبب التفاضل بين الموصوفات فكان الموصوف شريفاً أو غير شريف من حيث الصفة ولم تكن شريفة أو خسيسة من حيث الموصوف. وإذا كان الأمر كذلك وجب ألا يعترض على الصفات الشريفة بشىء إن كان نقصاً فهو فى خارج منها، وفيما لايرجع إليها أنفسها ولا حقيقتها، وذلك الخارج ههنا هو كون الشخص على صورة دون صورة. وإذا كان كذلك كان الأمر فقدار ضرر التأنيث إذا وجد فى الخلقة على الأوصاف الشريفة مقداره إذا وجد فى الاسم الموضوع للشىء الشريف، لأنه فى أن لا تأثير له من طريق العقل فى تلك الأوصاف فى الحالين على صورة واحدة؛ لأن الفضائل التى بها فضل الرجل على المرأة لم تكن فضائل لأنها قارنت صورة التذكير وخلقته ولا أوجبت ما أوجبت من التعظيم لاقترانها بهذه الخلقة دون تلك، بل إنما أوجبته لأنفسها ومن حيث هى، كما أن الشىء لم يكن

(١) تقدم أن ذكرنا أنه من قصيدة يرثى بها والدة سيف الدولة .

شريفاً أو غير شريف من حيث أنث اسمه أو ذكر ، بل يثبت الشرف وغير الشرف للمسميات من حيث أنفسها وأوصافها ، لا من حيث أسماؤها ، لاستحالة أن يتعدى من لفظ هو صوت مسموع نقص أو فضل إلى ما جعل علامة له فاعرفه .

واعلم أن هذا هو الصحيح فى تفسير هذا البيت والطريقة المستقيمة فى الموازنة بين تأنيث الخلقة وتأنيث الاسم ، لا أن يقال إن المعنى أن المرأة إذا كانت فى كمال الرجل من حيث العقل والفضل وسائر الخلال الممدوحة كانت من حيث المعنى رجلا وإن عدت فى الظاهر امرأة ، لأجل أنه يفسد من وجهين : أحدهما أنه قال « ولا التذكير فخر للهلال » ومعلوم أنه لا يريد أن يقول : إن الهلال وإن ذكر فى لفظه فهو مؤنث فى المعنى ، لفساد ذلك ، ولأجل أنه إن كان يريد أن يضرب تأنيث اسم الشمس مثلا لتأنيث المؤنثة على معنى أنها فى المعنى رجل ، وأن يثبت لها تذكيرا ، فأى معنى لأن يعود فيُنحِى على التذكير ويغض منه ويقول : إنه ليس بفخر للهلال ؟ هذا بين التناقض .

فصـــــل

فى حدى الحقيقة والمجاز

واعلم أن كل واحد من وصفى المجاز والحقيقة إذا كان الموصوف به المفرد غير حده إذا كان موصوفا به الجملة : وإنا نحدهما فى المفرد :

كل كلمة أريد بها ما وقعت له فى وضع واضع - وإن شئت قلت : فى مواضعة - وقوعاً لا يستند فيه إلى غيره فهى حقيقة . وهذه عبارة تنتظم الوضع الأول وما تأخر عنه كلغة تحدث فى قبيلة من العرب أو فى جميع العرب أو فى

جميع الناس مثلا أو تحدث اليوم . ويدخل فيها الأعلام منقولة كانت كزيد وعمرو أو مرتجلة كغطفان . وكل كلمة استؤنف بها على الجملة مواضعة أو ادّعى الاستئناف فيها .

وإنما اشترطت هذا كله لأن وصف اللفظة بأنها حقيقة أو مجاز حكم فيها من حيث إن لها دلالة على الجملة لا من حيث هى عربية أو فارسية أو سابقة فى الوضع أو محدثة مولدة ، فمن حق الحد أن يكون بحيث يجرى فى جميع الألفاظ الدالة . ونظير هذا نظير أن تضع حدا للاسم والصفة فى أنك تضعه بحيث لو اعتبرت به لغة غير العرب وجدته يجرى فيها جريانه فى العربية ، لأنك تحد من جهة لا اختصاص لها بلغة دون لغة . ألا ترى أن حدك الخبر بأنه « ما احتمل الصدق والكذب » مما لا يخص لسانا دون لسان . ونظائر ذلك كثيرة وهو أحد ما غفل عنه الناس ودخل عليهم اللبس فيه حتى ظنوا أنه ليس لهذا العلم قوانين عقلية ، وأن مسائله كلها مشبهة باللغة فى كونها اصطلاحا يتوهم عليها النقل والتبديل . ولقد فحش غلطهم فيه ، وليس هذا موضع القول فى ذلك .

وإن أردت أن تمتحن هذا الحد فانظر إلى قولك « الأسد » تريد به السبع فإنك تراه يؤدى جميع شرائطه لأنك قد أردت به ما يعلم أنه وقع له فى وضع واضع اللغة . وكذلك تعلم أنه غير مستند فى هذا الوقوع إلى شىء غير السبع أى لا يحتاج أن يتصور له أصل أداه إلى السبع من أجل التباس بينهما وملاحظة . وهكذا الحكم إذا كانت الكلمة حادثة ولو وضعت اليوم متى كان وضعها كذلك . وكذلك الأعلام . وذلك أنى قلت : « ما وقعت له فى وضع واضع أو مواضعة » على التنكير ولم أقل فى وضع الواضع الذى

ابتدأ اللغة أو فى المواضعة اللغوية فيتوهم أن الأعلام أو غيرها مما تأخر وضعه عن أصل اللغة يخرج عنه . ومعلوم أن الرجل يواضع قومه فى اسم ابنه فإذا سماه زيداً فحاله الآن فيه كحال واضع اللغة حين جعله مصدراً لزاد يزيد وسبق واضع اللغة فى وضعه للمصدر المعلوم لا يقدح فى اعتبارنا لأنه يقع عند تسميته به ابنه وقوعا باتا ولا تستند حاله هذه إلى السابق من حاله بوجه من الوجوه .

وأما المجاز فكل كلمة أريد بها غير ما وقعت له فى وضع واضعها لملاحظة بين الثانى والأول فهو مجاز . وإن شئت قلت : كل كلمة جُزت بها ما وقعت له فى وضع الواضع إلى مالم توضع له من غير أن تستأنف فيها وضعاً لملاحظة بين ما تجوز بها إليه وبين أصلها الذى وضعت له فى وضع واضعها فهى مجاز . ومعنى الملاحظة هو أنها تستند فى الجملة إلى غير هذا الذى تريده بها الآن إلا أن هذا الاستناد يقوى ويضعف . بيانه ما مضى من أنك إذا قلت : رأيت أسداً ، تريد رجلا شبيهاً بالأسد لم يشتبه عليك الأمر فى حاجة الثانى إلى الأول إذ لا يتصور أن يقع الأسد للرجل على هذا المعنى الذى أردته على التشبيه على حد المبالغة وإيهام أن معنى من الأسد حصل فيه إلا بعد أن تجعل كونه اسماً للسبع إزاء عينيك . فهذا إسناداً [1] تعلمه ضرورة ، ولو حاولت دفعه عن وهمك حاولت محالا فتى عقل فرع من غير أصل ومشبه من غير مشبه به ؟ وكل ما طريقه التشبيه فهذا سبيله ، أعنى كل اسم جرى على الشىء الاستعارة فالإسناد [2] فيه قائم ضرورة .

---

(١) صوابه استناد .
(٢) صوابه فالاستناد .

وأما ماعدا ذلك فلا يقوى استناده هـذه القوة حتى لو حاول محاول أن ينكره أمكنه فى ظاهر الحال ، ولم يلزمه به خروج إلى المحال ، وذلك كاليد للنعمة ، لو تكلفت متكلف فزعم أنه وضع مستأنف أو فى حكم لغة مفردة لم يمكن دفعه إلا برفق وباعتبار خفى وهو ما قدمت من أنا رأيناهم لايوقعون هذه اللفظة على ما ليس بينه وبين هذه الجارحة التباس واختصاص.

ودليل آخر وهو أن اليد لاتكاد تقع للنعمة إلا وفى الكلام إشارة إلى مصدر تلك النعمة وإلى المولِى لها ، ولا تصلح حيث تراد النعمة مجردة من إضافة لها إلى المنعِم أو تلويح به . بيان ذلك أن تقول اتسعت النعمة فى البلد ، ولا تقول اتسعت اليد فى البلد ، وتقول أقتنى نعمة ، ولا تقول اقتنى يداً . وأمثال ذلك تكثر اذا تأملت . وإنما يقال : جلّت يده عندى ، وكثرت أيادى لدى . فتعلم أن الأصل صنائع يده وفوائده الصادرة عن يده وآثار يده ، ومحال أن تكون اليد اسما للنعمة هكذا على الإطلاق ثم لا تقع موقع النعمة . لو جاز ذلك لجاز أن يكون المترجم للنعمة باسم لها فى لغة أخرى واضعا اسمها من تلك اللغة فى مواضع لاتقع النعمة فيها من لغة العرب وذلك محال .

ونظير هذا قولهم فى صفة راعى الإبل : إن له عليها أصبعا ، أى أثراً حسنا ، وأنشدوا [1] :

---

(١) للراعى عبيد بن حصين بن معاوية النمرى من شعراء بنى أمية ولقب بالراعى لكثرة وصفه الإبل وقيل بل لبيت قاله :

لها أمرها حتى إذا ما تبوأت   لأخفافها مرعى تبوأ مضجعا

وهو ممن دخل المفاضلة بين جرير والفرزدق ففضحه جرير ومن حديث البيت أن الراعى جاور بنى سعد بن زيد مناة فلم يرض جوارهم فقال :

بنى وابش إنا هوينا جواركم   وما جمعتنا نيـة قبلها معا =

ضعيف العصا بادى العروق ترى له   عليها إذا ما أجدب الناس إصبعاً

وأنشد شيخنا رحمه الله مع هذا البيت قول الآخر :

« صُلب العصا بالضرب قد دمّاها » أى جعلها كالدمى[1] فى الحسن. وكأن قوله « صلب العصا » وإن كان ضد قول الآخر « ضعيف العصا » فإنهما يرجعان إلى غرض واحد وهو حسن الرِّعْية والعمل بما يصلحها ويحسن أثره عليها ؛ فأراد الأول بجعله ضعيف العصا أنه رفيق بها مشفق عليها لا يقصد من حمل العصا أن يوجعها بالضرب من غير فائدة ، فهو يتخير ما لان من العِصى. وأراد الثانى أنه جيد الضبط لها عارف بسياستها فى الرعى ، يزجرها عن المراعى التى لا تحمد ، ويتوخى بها ما تسمن عليه ، ويتضمن أيضاً أنه يمنعها عن التشرد والتبدد ، وأنها لما عرفت من شدة شكيمته وقوة عزيمته تنساق وتستوثق فى الجهة التى يريدها من غير أن يجدد لها فى كل حال ضرباً

وقال آخر[2] :   « صُلب العصا جاف عن التغزل »

فهذا لم يبين ما بينه الآخر

= خليطين من حيين شتى تجاورا   جميعا وكانا بالتفرق أضيعا
أرى أهل ليلى لا يبالى أسيرهم   على حالة المحزون أن يتصدعا

إلى أن قال فى وصف الراعى ضعيف العصا الخ.

(١) فى اللسان دمى الراعى الماشية جعلها كالدمى وأنشد لأبى العلاء بن سليمان فى الإبل من رجز أوله :

صلب العصا برعيه دمّاها   يود أن الله قد أفناها
إذا أرادت رشدا أغواها

وقوله بالضرب قد دماها فيه تورية لطيفة.

(٢) هو من أرجوزة أبى النجم التى أولها :

الحمد لله العلى الأجلل   أعطى فلم يبخل ولم يبخل

وهو كناية عن صلابة الرجل وجفائه.

وأعود إلى الغرض :

فأنت الآن لاتشك أن الإصبع مشار بها إلى إصبع اليد وأن وقوعها بمعنى الأثر الحسن ليس على أنه وضع مستأنف فى إحدى اللغتين ألا تراهم لايقولون : رأيت أصابع الدار ، بمعنى آثار الدار ، وله إصبع حسنة وإصبع قبيحة ، على معنى أثر حسن وأثر قبيح ، ونحو ذلك . وإنما أرادوا أن يقولوا له عليها أثر حذق ، فدلوا عليه بالإصبع لأن الأعمال الدقيقة لها اختصاص بالأصابع وما من حذق فى عمل يد إلا وهو مستفاد من حسن تصريف الأصابع واللطف فى رفعها ووضعها كما يعلم فى الخط والنقش وكل عمل دقيق وعلى ذلك قالوا فى تفسير قوله عز وجل : (بلى قادرين على أن نسوى بنانه) أى نجعلها كخف البعير فلا تتمكن من الأعمال اللطيفة ، فكما علمت ملاحظة الإصبع لأصلها وامتناع أن تكون مستأنفة بأنك رأيتها لايصح استعمالها حيث يراد الأثر على الإطلاق ولا يقصد الإشارة إلى حذق فى الصنعة وأن تجعل أثر الإصبع إصبعاً كذلك ينبغى أن تعلم ذلك فى اليد لقيام هذه العلة فيها أعنى إن لم تجعل أثر اليد يداً لم تقع للنعمة مجردة من هذه الإشارات وحيث لايتصور ذلك كقولنا : اقتنى نعمة فاعرفه .

ويشبه هذا فى أن عبر عن أثر اليد والإصبع باسمهما وضعهم الخاتم موضع الختم كقولهم : عليه خاتم الملك وعليه طابع من الكرم والمحصول أثر الخاتم والطابع قال :

وقلن حرام قد أحل بربنا ... وتترك أموال عليها الخواتم

وكذا قول الآخر :

إذا فضت خواتمها وفكت ... يقال لها دم الودج الذبيح [1]

(١) الكلام فى وصف الخمر .

وأما تقدير الشيخ أبي على فى هذين البيتين حذف المضاف وتأويله على معنى « وتترك أموال عليها نقش الخواتم » « وإذا فض ختم خواتمها » فبيان لما يقتضيه الكلام فى أصله دون أن يكون الأمر على خلاف ماذكرت من جعل أثر الخاتم خاتماً . وأنت إذا نظرت إلى الشعر من جهته الخاصة به وذقته بالحاسة المهيأة لمعرفة طعمه لم تشك فى أن الأمر على ما أشرت لك إليه ويدل على أن المضاف قد وقع فى المنسأة [1] وصار كالشريعة المنسوخة تأنيث الفعل فى قوله « إذا فضت خواتمها » ولو كان حكمه باقياً لذكرت الفعل كما تذكره مع الإظهار [2] ولاستقصاء هذا موضع آخر .

وينظر إلى هذا المكان قولهم « ضربته سوطا » لأنهم عبروا عن الضربة التى هى واقعة بالسوط باسمه وجعلوا أثر السوط سوطا ، ويعلم على ذلك أن تفسيرهم له بقولهم إن المعنى ضربته ضربة بسوط بيان لما كان عليه الكلام فى أصله وأن ذلك قد نسى ونسخ وجعل كأن لم يكن فاعرفه .

وأما إذا أريد باليد القدرة فهى إذن أحن إلى موضعها الذى بدئت منه وأضبث [3] بأصلها لأنك لاتكاد تجدها تراد [4] معها القدرة إلا والكلام مثل [5] صريح ومعنى القدرة منتزع من اليد مع غيرها أو هناك تلويح بالمثل ، فمن الصريح قولهم : فلان طويل اليد يراد فضل القدرة ، فأنت لو وضعت القدرة ههنا فى موضع اليد أحلت كما أنك لوحاولت فى قول

(١) الصواب للنساة .

(٢) يريد إظهار المضاف المحذوف الذى هو نقش .

(٣) من ضبث بالشىء قبض عليه قبضا شديدا .

(٤) الصواب منها .

(٥) هذا تساهل فى التعبير فإن الكلام كناية أو مجاز مرسل فى اليد فالمراد به مايقابل الحقيقة .

النبي صلى الله عليه وسلم - وقد قالت له نساؤه صلى الله عليه وسلم : أيتنا أسرع لحاقا بك يارسول الله ؟ فقال « أطولكن يداً » يريد السخاء والجود وبسط اليد بالبذل ، أن تضع موضع اليد شيئاً مما أريد بهذا الكلام خرجت عن المعقول ، وذلك أن الشبه [1] مأخوذ من مجموع الطول واليد مضافا ذلك إلى هذه . وطلبه من اليد وحدها طاب [2] الشيء على غير وجهه .

ومن الظاهر فى كون الشبه مأخوذاً مابين اليد وغيرها قوله تعالى : (ياأيها الذين آمنوا لاتقدموا بين يدى الله ورسوله) المعنى على أنهم أمروا باتباع الأمر فلما كان المتقدم بين يدى الرجل خارجاً عن صفة المتابع له ضرب له جملة هذا الكلام مثلا للاتباع فى الأمر ، فصار النهى عن التقدم متعلقاً باليد نهياً عن ترك الاتباع . فهذا مما لايخفى على ذى عقل أنه لاتكون فيه اليد بانفرادها عبارة عن شيء كما يتوهم أنها عبارة عن النعمة ومتناولة لها كالوضع المستأنف حتى كأن لو [3] لم تكن قط اسم جارحة وهكذا قول النبي صلى الله عليه وسلم « المؤمنون تتكافأ دماؤهم ، ويسعى بذمتهم أدناهم ، وهم يد على من سواهم » المعنى وإن كان على قولك وهم عون على من سواهم ؛ فلا تقول إن اليد بمعنى العون حقيقة بل المعنى إن مثلهم مع كثرتهم فى وجوب الاتفاق بينهم مثل اليد الواحدة فكما لايتصور أن يخذل بعض أجزاء اليد بعضاً وأن تختلف بها الجهة فى التصرف كذلك سبيل المؤمنين فى تعاضدهم على المشركين ، لأن كلمة التوحيد جامعة لهم ، فلذلك كانوا كنفس واحدة ، فهذا كله مما يعترف لك كل أحد فيه بأن اليد على انفرادها لاتقع على شيء

(١) يريد به العلاقة والمناسبة . (٢) طلب للشيء من غير وجهه .

(٣) الصواب حذفها .

فيتوهم لها نقل من معنى إلى معنى على حد وضع الاسم واستئنافه .

فأما ماتكون اليد فيه للقدرة على سبيل التلويح بالمثل دون التصريح حتى ترى كثيراً من الناس يطلق القول أنها بمعنى القدرة ويجريها مجرى اللفظ يقع لمعنيين فكقوله تعالى : (والسموات مطويات بيمينه) تراهم يطلقون أن اليمين بمعنى القدرة ويصلون إليه قول الشماخ [(١)] :

إذا ما راية رفعت لمجد تلقاها عرابة باليمين

كما فعل أبو العباس فى الكامل فإنه أنشد البيت ثم قال: قال أصحاب المعانى معناه بالقوة ، وقالوا مثل ذلك فى قوله تعالى : (والسموات مطويات بيمينه) وهذا منهم تفسير على الجملة ، وقصد إلى نفى الجارحة بسرعة ، خوفاً على السامع من خطرات تقع للجهال وأهل التشبيه ، جل الله وتعالى عن شبه المخلوقين ، ولم يقصدوا إلى بيان الطريقة والجهة التى منها يحصل على القدرة والقوة . وإذا تأملت علمت أنه على طريقة المثل ، وكما أنا نعلم فى صدر هذه الآية

---

(١) هو أبو سعيد معقل بن ضرار الغطفانى جاهلى إسلامى من أوصف الشعراء للقوس والحمر ، ومن حديثه أنه صحب عرابة بن أوس الأنصارى فى سفر إلى المدينة فسأله عرابة عن وجهته فقال أريد المدينة لأمتار لأهلى فأعطاه عرابة الجوائز السنية فمدحه بقصيدة أولها :

كلا يومى طوالة وصل أروى ظنون آن مطرح الظنون
وما أروى وإن كرمت علينا بأدنى من موقفة حرون
وماء قد وردت لوصل أروى عليه الطير كالورق اللجين

وقبل البيت :

رأيت عرابة الأوسى يسمو إلى الخيرات منقطع القرين
أفاد سماحة وأفاد حمدا فليس كجامد لحز ضنين

وبعده : إذا بلغتنى وحملت رحلى عرابة فاشرقى بدم الوتين
ومثل سراة قومك لم يجاروا إلى ربع الرهان ولا الثمين

وهو قوله عز وجل (والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة) أن محصول المعنى على القدرة ثم لانستجيز أن نجعل القبضة اسماً للقدرة بل نصير إلى القدرة من طريق التأويل والمثل ، فنقول إن المعنى والله أعلم : إن مثل الأرض فى تصرفها تحت أمر الله وقدرته وأنه لايشذ شيء مما فيها عن سلطانه عز وجل ، مثل الشيء يكون فى قبضة الآخذ له منا والجامع يده عليه — كذلك حقنا أن نسلك بقوله « مطويات بيمينه » هذا المسلك فكان المعنى والله أعلم أنه عز وجل يخلق فيها صفة الطى حتى ترى كالكتاب المطوى بيمين الواحد منكم ، وخص اليمين لتكون أعلى وأفخم المثل . وإذا كنت تقول « الأمر كله لله » فتعلم أنه على سبيل أن لاسلطان لأحد دونه ولا استبداد وكذلك إذا قلت للمخلوق « الأمر بيدك » أردت المثل وأن الأمر كالشيء يحصل فى يده من حيث لايمتنع عليه — فما معنى التوقف فى أن اليمين مثل وليست باسم للقدرة ، وكاللغة المستأنفة ؟ ومن أين يتصور ذلك وأنت لاتراها تصلح حيث لاوجه للمثل والتشبيه ؟ فلا يقال : هو عظيم اليمين بمعنى عظيم القدرة ، وقد عرفت يمينك على هذا ، كما تقول عرفت قدرتك ، وهكذا شأن البيت ، إذا حسنت النظر وجدته إذا لم تأخذه من طريق المثل ولم تأخذ بمجموع المعنى من بجموع التلقى واليمين على حد قولهم « تقبله بكلتا اليدين » وكقوله [1] :

(١) هو أوس بن حجر الشاعر الجاهلى كان وصافاً للحمر والسلاح كثير الحكمة والأمثال دقيق الغوص على المعانى وكان شاعر مضر حتى أخمله النابغة وزهير ، والبيت من قصيدة يصف فيها حاله بعد أن صرعته ناقته ودقت فخذه بينا كان سائراً فى الظلام بأرض بنى أسد بين شرج وناظرة ومازال مكانه حتى أصبح فرأته بنات الحى فدعا بجارية منهن وقال لها من أنت فقالت حليمة بنت فضالة بن كلدة فأعطاها حجرا وقال لها اذهبي إلى أبيك وقولى إن ابن هذا يقرئك السلام فأتته وأخبرته فذهب إليه حيث صرع وقال لا أتحول من مكانى حتى تبرأ وكانت حليمة تقوم عليه حتى =

ولكن تلفت باليدين ضمانتى   وحل بفلج والقنافذ عودى [١]

وقبل هذا البيت :

لعمرك ماملت ثواء ثويها   حليمة إذ ألق مراسى مُقْعد [٢]

وهو يشكوك إلى طبع الشعر [٣] ورأيت المعنى يتألم ويتظلم . وإن أردت أن تختبر ذلك فقل :

إذا ما راية رفعت لمجد   تناولها عرابة باليمين

ثم انظر هل تجد ما كنت تجد إن كنت ممن يعرف طبع الشعر ، ويفرق بين التفِه الذى لا يكون له طعم ، وبين الحلو اللذيذ ؟ . ومما يبين ذلك من جهة العبارة أن الشعر كما تعلم لمدح الرجل بالجود والسخاء لأنه سأل الشماخ عما أقدمه فقال : جئت لأمتار . فأوقر رواحله تمراً وبراً وأتحفه بغير ذلك وإذا كان كذلك كان المجد الذى تطاول له ومد إليه يده من المجد الذى

استقل فقال :

خذلت على ليلة ساهره   بصحراء شرج إلى ناظره

تزاد ليالى من طولها   فليست بطلق ولا شاكره

أنوء برجل بها وهيها   وأعيت بها أختها العاثره

وقال فى حليمة قبله :

لعمرك ما ملت ثواء ثويها   حليمة إذ ألق مراسى ومقعد

وبعده : ولم تلههما تلك التكاليف إنها   كما شئت من أكرومة وتخرد

سأجزيك أو يجزيك عنى مثوب   وقصرك أن يثنى عليك وتحمدى

(١) الضمانة كالزمانة المرض وفلج والقنافذ موضعان .

(٢) الثواء الإقامة والثوى زنة فعيل الضيف والمراسى جمع مرساة وهو أنجر السفينة وألق مراسيه أقام والمقعد بالضم من يصاب بداء القعاد يقعد من يصاب به .

(٣) جملة حالية من ضمير وجدته .

أراده أبو تمام بقوله (١) :

توجع أن رأت جسمي نحيفا   كأن المجد يدرك بالصراع

ولو كان فى ذكر البأس والبطش وحيث تراد القوة والشدة لكان حمل اليمين على صريح القوة أشبه ، وبأن يقع منه فى القلب معنى بتماسك أجدر ، فإن قال أراد تلقاها بجد وقوة رغبة ، قيل فينبغى أن يضع اليمين فى مثل هذه المواضع (٢) ومن التزم ذلك فالسكوت عنه أحسن . وما زال الناس يقولون للرجل إذا أرادوا حثه على الأمر وأن يأخذ فيه بالجد «أخرج يدك اليمنى» وذاك أنها أشرف اليدين وأقواهما والتى لا غناء للأخرى دونها ؛ فلا عن إنسان بشىء إلا بدأ بيمينه فهيأها لنيله . ومتى ما قصدوا جعل الشىء فى جهة العناية جعلوه فى اليد اليمنى ، وعلى ذلك قول البحترى (٣) :

وإن يدى وقد أسندت أمرى   إليه اليوم فى يدك اليمين

---

(١) من قصيدة فى مدح القائد بن أصرم ومطلعها وهو قبله :

خذى عبرات عينك عن زماعى   وصونى ما أزلت من القناع
أقلى قد أضاق بكاك ذرعى   وما ضاقت بنازلة ذراعى
أآلفة النحيب كم افتراق   ألمّ فكان داعية اجتماع
وليست فرحة الأوبات الا   لموقوف على ترح الوداع

وبعده : فتى النكبات من يأوى إذا ما   أطفن به إلى خلق وساع

(٢) أى يستعملها فى هذا المعنى استعمالا حقيقيا .

(٣) يمدح المعتز بالله ومطلعها :

بعينك لوعة القلب الرهين   وفرط تتابع الدمع الهتون
وقد أصغيت للواشين حتى   ركنت إليهم بعض الركون

وبعده

وصلت بيونس بن بغا حبالى   فرحت أمت بالسبب المتين
فقد بوأنى أعلى محلّ   شريف فى المكان بك المكين
فما أخشى تعذر ما أعانى   من الحاجات إذ أمسى معينى

«إليه» يعنى إلى يونس بن بغا وكان حظيا عند الممدوح وهو المعتز بالله ولو أن قائلا قال :

إذا ما راية رفعت لمجد ومكرمة مددت لها اليمينا

لم تره عادلا باليمين عن الموضع الذى وضعها الشماخ فيه . ولو أن هذا التأويل منهم كان فى قول سليمان بن قَتَّة العدوى [1] :

بنى تيم بن مرة إن ربى كفانى أمركم وكفاكمونى
فخيسوا ما بدا لكم فإنى شديد الفرس للضّغن الحرُون [2]
يعانى فقدكم أسد مُدِلٌّ شديد الأسر يضبث باليمين [3]

لكانوا أعذر فيه ؛ لأن المدح مدح بالقوة والشدة . وعلى ذلك فإن اعتبار الأصل الذى قدمت وهو أنك لا ترى اليمين حيث لا معنى لليد يقف بنا على الظاهر كأنه قال : إذا ضبث ضبث باليمين .

ومما يبين موضع بيت الشماخ إذا اعتبرت به قول الخنساء [4]

(١) هو شاعر إسلامى من شعراء الشيعة عصر التابعين ومن بنى تيم بن كعب وقتة أمه والقتة فى الأصل مرة من القت الذى هو النميمة .

(٢) قوله فخيسوا الصواب فخبوا من خبت الدابة إذا أسرعت والفرس مصدر فرس الأسد فريسته كضرب إذا دق عنقها ثم استعمل فى القتل مطلقا .

(٣) المدل المجترئ والأسر شدة ربط أعضائه بالأعصاب

(٤) رثاء أخيها صخر من قصيدتها التى مطلعها :

أعينىّ جودا ولا تجمدا ألا تبكيان لصخر ندى
ألا تبكيان الجرئ الجميل ألا تبكيان الفتى السيدا
طويل النجاد رفيع العما د ساد عشيرته أمردا

وبعدهما يكلفه القوم ماعالهم وإن كان أصغرهم مولدا
وإن ذكر المجد ألفيته تأزر بالمجد ثم ارتدى

إذا القوم مدوا بأيديهم إلى المجد مد إليه يداً
فنال الذى فوق أيديهم من المجد ثم مضى مصعداً

إذا رجعت إلى نفسك لم تجد فرقاً بين أن يمد إلى المجد يداً وبين أن يتلق رايته باليمين ، وهذا إن أردت الحق أبين من أن تحتاج فيه إلى فضل قول إلا أن هذا الضرب من الغلط كالداء الدوى حقه أن يستقصى فى الكى عليه والعلاج منه ، لجنايته على معانى ما شرف من الكلام عظيمة ، وهو مادة للمتكلفين فى التأويلات البعيدة والأقوال الشنيعة

ومثل من توقف فى التفات هذه الأسامى إلى معانيها الأول وظن أنها مقطوعة عنها قطعاً يرفع الصلة بينها وبين ما جازت إليه مثل من إذا نظر فى قوله تعالى (إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب) فرأى المعنى على الفهم والعقل أخذه ساذجا وقبله غفلا ، وقال القلب ههنا : بمعنى العقل ، وترك أن يأخذه من جهته ، ويدخل إلى المعنى من طريق المثل ، فيقول إنه حين لم ينتفع بقلبه ، ولم يفهم بعد أن كان القلب للفهم جعل كأنه قد عدم القلب جملة وخلع من صدره خلعاً ، كما جعل الذى لا يعى الحكمة ولا يعمل الفكر فيما تدركه عينه وتسمعه أذنه كأنه عادم للسمع والبصر ، وداخل فى العمى والصمم ويذهب[1] عن أن الرجل إذا قال : قد غاب عنى قلبى ، وليس يحضرنى قلبى ، فإنه يريد أن يخيل إلى السامع أنه قد فقد قلبه دون أن يقول غاب عنى علمى وعزب عقلى ، وإن كان المرجع عند التحصيل إلى ذلك كما أنه إذا قال : لم أكن ههنا ، يريد شدة غفلته عن الشىء ، فهو يضع كلامه على تخييل أنه كان غاب هكذا بجملته وبذاته ؛ دون أن يريد الرجل الإخبار

(١) ويذهب عطف على قوله قال القلب ههنا بمعنى العقل الخ .

بأن علمه لم يكن هناك

وغرضى بهذا أن أعلمك أن من عدل عن الطريقة فى الخفى ، أفضى به الأمر إلى أن ينكر الجلى ؛ وصار من دقيق الخطأ إلى الجليل ، ومن بعض الانحراف إلى ترك السبيل ، والذى جلب التخليط والخبط الذى تراه فى هذا الفن ، أن الفرق بين أن يكون التشبيه مأخوذاً من الشىء وحده ، وبين أن يؤخذ ما بين شيئين ، وينتزع من مجموع كلام ، هو كما عرفتك فى الفرق بين الاستعارة والتمثيل . من أن من القول ما تدخل فيه الشبهة على الإنسان من حيث لا يعلم ، وهو [١] من السهل الممتنع ، يريك أن قد انقاد وبه إباء ، ويوهمك أن قد أثرت فيه رياضتك وبه بقية شماس .

ومن خاصيته أنك لا تفرق فيه بين الموافق والمخالف ، والمعترف به والمنكر له فإنك ترى الرجل يوافقك فى الشىء منه ويقر بأنه مثل حتى إذا صار إلى نظير له خلط إما فى أصل المعنى وإما فى العبارة ، فالتخليط فى المعنى كما مضى من تأول اليمين على القوة ، وكذكرهم أن القلب فى الآية بمعنى العقل ثم عدهم ذلك وجها ثانيا ، والتخليط فى العبارة كنحو ما ذكره بعضهم فى قوله : [٢]

هوّن عليك فإن الأمو ... ر بكف الإله مقاديرها

فإنه استشهد به فى تأويل خبر جاء فى عظم الثواب على الزكاة إذا كانت

---

(١) أى الفرق بين أن يكون التشبيه مأخوذا من الشىء الواحد وما بين شيئين

(٢) هو الأعور الشنى ، نسبة إلى شن ، وهى بطن من قبيلة عبد القيس بشر بن منقذ أدرك على بن أبى طالب وكان معه يوم الجمل وهو من الشعراء المحسنين وله مدائح فى صعصعة بن صوحان العبدى ، وفى العمدة لابن رشيق نسبه إلى عمر بن الخطاب وكان من أنقد أهل زمانه للشعر وأنفذهم معرفة له ، وبعده :

فليس بآتيك منهيها ... ولا قاصر عنك مأمورها

من الطيب ثم قال : الكف ههنا بمعنى السلطان والملك والقدرة . قال : وقيل الكف ههنا بمعنى النعمة . والخبر هو ما رواه أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم « إن أحدكم إذا تصدق بالتمرة من الطيب ولا يقبل الله إلا الطيب جعل الله ذلك فى كفه فيربيها كما يربى أحدكم فلوه [١] حتى يبلغ بالتمرة مثل أحد » ما يظن بمن نظر فى العربية يوماً أن يتوهم أن الكف تكون على هذا الإطلاق وعلى الانفراد بمعنى السلطان والقدرة والنعمة ، ولكنه أراد المثل فأساء العبارة ! إلا أن من سوء العبارة ما أثر التقصير فيه أظهر ، وضرره على الكلام أبين ، فاستقصاء هذا الباب لا يتم حتى يفرد بكلام والوجه الرجوع إلى الغرض . ويجب أن يعلم قبل ذلك أن خلاف من خالف فى اليد واليمين وسائر ما هو مجاز لا من طريق التشبيه الصريح أو التمثيل لا يقدح فيما قدمت من حد الحقيقة والمجاز ، لأنه لا يخرج فى خلافه عن واحد من الاعتبارين ، فمتى جعل اليمين على انفرادها تفيد القوة فقد جعلها حقيقة ، وأغناها عن أن تستند فى دلالتها إلى شىء ، وإن اعترف بضرب من الحاجة إلى الجارحة والنظر إليها فقد وافق فى أنها مجاز ؟ وكذا القياس فى الباب كله فاعرفه .

فصل

« فى المجاز العقلى والمجاز اللغوى والفرق بينهما »

والذى ينبغى أن يذكر الآن حد الكلمة [٢] فى الحقيفة والمجاز إلا أنك

---

(١) الفلو : بالفتح وتشديد الواو كعدو وبالكسر المهر إذا فصل عن أمه . وجمعه أفلاء كأعداء ومعنى بلوغ التمرة مثل أحد أن ثوابها يكون فى عظمه كذلك الجبل .

(٢) الصواب حدّ الحقيقة والمجاز فى الجملة.

تحتاج أن تعرف فى صدر القول عليها ومقدمته أصلا وهو المعنى الذى من أجله اختصت الفائدة بالجملة ولم تجز [1] حصولها بالكلمة الواحدة كالاسم الواحد والفعل من غير اسم يضم إليه . والعلة فى ذلك أن مدار الفائدة فى الحقيقة على الإثبات والنفى ، ألا ترى أن الخبر أول معانى الكلام وأقدمها والذى تستند سائر المعانى إليه وتترتب عليه وهو ينقسم إلى هذين الحكمين . وإذا ثبت ذلك فإن الإثبات يقتضى مثبتاً ومثبتاً له نحو إنك إذا قلت : ضرب زيد أو زيد ضارب فقد أثبت الضرب فعلا أو وصفاً وكذلك النفى يقتضى منفيا ومنفيا عنه فإذا قلت : ماضرب زيد ، ومازيد ضارب . فقد نفيت الضرب عن زيد وأخرجته عن أن يكون فعلا له . فلما كان الأمر كذلك احتيج إلى شيئين يتعلق الإثبات والنفى بهما فيكون أحدهما مثبتاً والآخر مثبتاً له ، وكذلك يكون أحدهما منفيا والآخر منفيا عنه ، فكان ذانك الشيئان المبتدأ والخبر والفعل والفاعل ، وقيل للمثبت والمنفى مسند وحديث وللمثبت له والمنفى عنه مسند إليه ومحدّث عنه . وإذا رمت الفائدة أن تحصل لك من الاسم الواحد أو الفعل وحده صرت كأنك تطلب أن يكون الشىء الواحد مثبتاً ومثبتاً له ومنفيا ومنفيا عنه وذلك محال .

فقد حصل من هذا أن لكل واحد من حكمى الإثبات والنفى حاجة إلى تقييده مرتين ، وتعلقه بشيئين ، تفسير ذلك أنك إذا قلت : ضرب زيد ، فقد قصدت إثبات الضرب لزيد فقولك « إثبات الضرب » تقييد للإثبات بإضافته إلى الضرب ثم لايكفيك هذا التقييد حتى تقيده مرة أخرى فتقول : إثبات الضرب لزيد . فقولك « لزيد » تقييد ثان وفى حكم إضافة ثانية .

---

(١) الصواب يجز .

وكما لا يتصور أن يكون ههنا إثبات مطلق غير مقيد بوجه أعنى أن يكون إثباتا ولا مثبت له ولا شىء يقصد بذلك الإثبات إليه لا صفة ولا حكم ولا موهوم بوجه من الوجوه ، كذلك لا يتصور أن يكون ههنا إثبات مقيد تقييداً واحداً نحو إثبات شىء فقط دون أن تقول : إثبات شىء لشىء : كما مضى من إثبات الضرب لزيد . والنفى بهذه المنزلة فلا يتصور نفى مطلق ولا نفى شىء فقط ، بل يحتاج إلى قيدين كقولك نفى شىء عن شىء .

فهذه هى القضية المبرمة الثابتة التى تزول الراسيات ولا تزول . (١)

ولا تنظر إلى قولهم : فلان يثبت كذا أى يدعى أنه موجود وينفى كذا أى يقضى بعدمه كقولنا : أبو الحسن (٢) يثبت مثال جحدب (٣) (بفتح الدال) وصاحب الكتاب ينفيه لأن الذى قصدته هو الإثبات والنفى فى الكلام .

ثم اعلم أن فى الإثبات والنفى بعد هذين التقييدين حكما آخر هو كتقييد ثالث وذلك أن للإثبات جهة وكذلك النفى ، ومعنى ذلك أنك تثبت الشىء للشىء مرة من جهة وأخرى من جهة غير تلك الأولى . وتفسيره أنك تقول ضرب زيد فتثبت الضرب فعلا لزيد . وتقول مرض زيد فتثبت المرض وصفا له ، وهكذا سائر ما كان من أفعال الغرائز والطباع وذلك فى الجملة على ما لا يوصف الإنسان بالقدرة عليه نحو كرُم وظرُف وحسن وقبح وطال وقصر . وقد يتصور فى الشىء الواحد أن تثبته من الجهتين جميعاً وذلك فى كل فعل دل على معنى يفعله الإنسان فى نفسه نحو قام وقعد .

---

(١) بيان هذا أن النسبة لها تعلق بكل من المنسوب والمنسوب إليه ولها تقييد بسبب كل منهما على حدته .

(٢) هو أبو الحسن الأخفش الصغير غلام المبرد وقد تقدم ذلك .

(٣) الصواب جخدب بضم الجيم وسكون الخاء وفتح الدال وضمها وهو الأسد

إذا قلت قام زيد ، فقد أثبت القيام فعلا له من حيث تقول فعل القيام وأمرته بأن يفعل القيام ، وأثبته أيضاً وصفاً له من حيث أن تلك الهيئة موجودة فيه وهو فى اكتسابه لها كالشخص المنتصب والشجرة القائمة على ساقها التى توصف بالقيام لا من حيث كانت فاعلة له بل من حيث كان وصفاً موجوداً فيها .

وإذ قد عرفت هذا الأصل فههنا أصل آخر يدخل فى غرضنا وهو أن الأفعال على ضربين : متعد وغير متعد ، فالمتعدى على ضربين ضرب يتعدى إلى شيء هو مفعول به كقولك : ضربت زيداً «زيداً» مفعول به لأنك فعلت به الضرب ولم يفعله بنفسه و «ضرب» يتعدى إلى شيء هو مفعول على الإطلاق وهو فى الحقيقة كفعل . وكل ما كان مثله فى كونه عاما غير مشتق من معنى خاص كصنع وعمل وأوجد وأنشأ ، ومعنى قولى «من معنى خاص» إنه ليس كضرب الذى هو مشتق من الضرب أو اعلم [1] الذى هو مأخوذ من العلم . وهكذا كل ما كان له مصدر ذلك المصدر فى حكم جنس من المعانى فهذا الضرب [2] إذا أسند إلى شيء كان المنصوب له مفعولا لذلك الشيء على الإطلاق كقولك فعل زيد القيام . فالقيام مفعول فى نفسه وليس بمفعول به . وأحق من ذلك أن تقول : خلق الله الأناسى ، وأنشأ العالم ، وخلق الموت والحياة . المنصوب فى هذا كله مفعول مطلق [3]

---

(١) الصواب علم .

(٢) أى من نحو فعل وصنع الخ .

(٣) يرى الشيخ عبد القاهر وابن الحاجب فى أماليه أن السموات فى خلق الله السموات وأنشأ العالم وأوجد الخلق من العدم إلى نحو من ذلك مفعول مطلق لا مفعول به ؛ وحجتهم على ذلك أن المفعول به ما كان موجوداً قبل الفعل الذى عمل =

لا تقييد فيه إذ من المحال أن يكون معنى «خلق العالم» فعل الخلق به كما تقول فى «ضربت زيداً» فعلت الضرب بزيد ، لأن الخلق من خلق كالفعل من فعل فلو جاز أن يكون المخلوق كالمضروب لجاز أن يكون المفعول نفسه كذلك حتى يكون معنى فعل القيام فعل شيئا بالقيام وذلك من شنيع المحال

وإذ قد عرفت هذا فاعلم أن الإثبات فى جميع هذا الضرب أعنى فيما منصوبه مفعول وليس مفعولا به يتعلق بنفس المفعول . فإذا قلت : فعل زيد الضرب ، كنت أثبت الضرب فعلا لزيد وكذلك تثبت العالم فى قولك «خلق الله العالم» خلقا لله تعالى ولا يصح فى شىء من هذا الباب أن تثبت المفعول وصفا البتة وتوهم ذلك خطأ عظيم وجهل نعوذ بالله منه

وأما الضرب الآخر وهو الذى منصوبه مفعول به فإنك تثبت فيه المعنى الذى اشتق منه فعل فعلا للشىء كإثباتك الضرب لنفسك فى قولك : ضربت

= فيه ثم أوقع الفاعل به فعلا والمفعول المطلق ما كان العامل فيه هو فعل إيجاده ، وأيضا فالمفعول المطلق ما يقع عليه اسم المفعول بلا قيد نحو قولك ضربت ضربا والمفعول به مالا يقع عليه ذلك إلا مقيدا بقولك به كضربت عليا . وأنت لو قلت السموات مفعول كما تقول الضرب مفعول كان صحيحا . ولو قلت السموات مفعول به كما تقول على مفعول به لم يصح .

وأجاب الجمهور بأن لنحو السموات فى المثال المذكور اسم مفعول تام فيقال فالسموات مخلوقة وذلك مختص بالمفعول به - وأيضا فإنا قد نعلم السموات وإن كنا لا نعلم أنها مخلوقة لله إلا بدليل منفصل والمعلوم مغاير للمجهول فإذن كون الله خالقا للعالم غير ذات العالم - وإيضافان المفعول به بالنسبة إلى فعل غير الإيجاد يقتضى أن يكون موجودا ثم أوجد الفاعل فيه شيئا آخر فإن اثبات صفة غير الوجود يقتضى ثبوت الموصوف أولا وأما المفعول به بالنسبة إلى الإيجاد فلا يقتضى أن يكون موجودا ثم أوجد فيه الفاعل الوجود بل يقتضى ألا يكون موجودا وإلا كان تحصيل حاصل - فليراجع المغنى والتصريح على التوضيح .

زيداً ، فلا يتصوّر أن يلحق الإثبات مفعوله لأنه إذا كان مفعولا به ولم يكن فعلا لك استحال أن تثبته فعلا وإثباته وصفاً أبعد فى الإحالة وأما قولنا فى نحو : ضربت زيداً أنك أثبت زيداً مضروباً فإن ذلك يرجع إلى أنك تثبت الضرب واقعاً به منك ، فإما أن تثبت ذات زيد لك فلا يتصور ، لأن الإثبات معنى لا بد له من جهة ولا جهة ههنا . وهكذا إذا قلت أحيا الله زيداً كنت فى هذا الكلام مثبتا الحياة فعلا لله تعالى فى زيد . فأما ذات زيد فلم تثبتها فعلا لله بهذا الكلام وإنما يتأتى لك ذلك بكلام آخر نحو أن تقول : خلق الله زيداً وأوجده وما شاكله مما لا يشتق من معنى خاص كالحياة والموت ونحوهما من المعانى

وإذ قد تقررت هذه المسائل فينبغى أن تعلم أن من حقك إذا أردت أن تقضى فى الجملة بمجاز أو حقيقة أن تنظر إليها من جهتين

(إحداهما) أن تنظر إلى ما وقع بها من الإثبات أهو فى[1] حقه وموضعه أم قد زال عن الموضع الذى ينبغى أن يكون فيه ؟ ثانيتهما أن تنظر إلى المعنى المثبت أعنى ما وقع عليه الإثبات كالحياة فى قولك أحيا الله زيداً ، والشيب فى قولك أشاب الله رأسى أثابت هو على الحقيقة أم قد عدل به عنها ، وإذا مثل لك دخول المجاز على الجملة من الطريقين عرفت إثباتها[2] على الحقيقة منها

فمثال ما دخله المجاز من جهة الإثبات دون المثبت قوله :[3]

---

(١) المناسب أن يكون الاستفهام هكذا أفى حقه وموضعه هو أم قد زال الخ

(٢) الصواب ثبوتهما .

(٣) هو جميل بن معمر العذرىّ من قصيدة مطلعها :

وقد لان أيام اللوى ثم لم يكد ... من العيش شىء بعدهن يلين
ظعائن ما فى قربهن لذى هوى ... من الناس ألا شقوة وفتون
وواكنته والهمّ ثم تركنه ... وفى القلب من وجد بهن رهين

وشيب أيام الفراق مفارقى   وأنشرن نفسى فوقَ حيث تكون [1]

وقوله :[2]

أشاب الصغير وأفنى الكبير   كر الغداة ومر العشى

المجاز واقع فى إثبات الشيب فعلا للأيام ولكر الليالى وهو الذى أزيل عن موضعه الذى ينبغى أن يكون فيه لأن من حق هذا الإثبات أعنى إثبات الشيب فعلا ألا يكون إلا مع أسماء الله تعالى فليس يصح وجود الشيب فعلا لغير القديم سبحانه ، وقد وجه فى البيتين كما ترى إلى الأيام والليالى ، وذلك ما لا يثبت له فعل بوجه لا الشيب ولا غير الشيب . وأما المثبت فلم يقع فيه مجاز لأنه الشيب وهو موجود كما ترى . وهكذا إذا قلت : سرنى الخبر وسرنى لقاؤك . فالمجاز فى الإثبات دون المثبت لأن المثبت هو السرور وهو حاصل على حقيقته

= فواحسرتا إن حيل بينى وبينها   ويا حين نفسى فيك كيف تحين

وبعده :

يقولون ما أبلاك والمال عامر   لديك وضاحى الجلد منك سمين

فقلت لهم لا تعذلونى وانظروا   إلى النازع المقصور كيف يكون

وإنى لأستغشى وما بى نعسة   لعلَّ لقاء فى المنام يكون

ولما علوت اللابتين تشوقت   قلوب إلى وادى القرى وعيون

(١) صواب رواية الشطر الثانى   [وأنشزن نفسى فوق حيث تكون]

(٢) هو الصلتان العبدى قثم بن حبية من بنى محارب بن عمرو شاعر أموىّ حكم بين جرير والفرزدق فحكم للفرزدق فهجاه جرير بقصيدة منها

أقول ولم أملك سوابق عبرة   متى كان حكم الله فى كرب النخل

وبعد بيت الكتاب

إذا ليلة أهرمت يومها   أتى بعد ذلك يوم فتى

تموت مع المرء حاجاته   وتبقى له حاجة ما بقى

ومثال مادخل المجاز فى مثبته دون إثباته قوله عز وجل : « أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشى به فى الناس) وذاك أن المعنى والله أعلم على أن جعل العلم والهدى والحكمة حياة للقلوب على حد قوله : (وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا) فالمجاز فى المثبت وهو الحياة فأما الإثبات فواقع على حقيقته لأنه ينصرف إلى أن الهدى والعلم والحكمة فضل من الله وكائن من عنده . ومن الواضح فى ذلك قوله عز وجل : (فأحيينا به الأرض بعد موتها) وقوله : (إن الذى أحياها لمحيي الموتى) جعل خضرة الأرض ونضرتها وبهجتها بما يظهره الله تعالى فيها من النبات والأنوار والأزهار وعجائب الصنع حياة لها فكان ذلك مجازاً فى المثبت من حيث جعل ماليس بحياة حياة على التشبيه فأما نفس الإثبات فمحض الحقيقة لأنه إثبات لما ضرب الحياة مثلا له ـ فعلا لله تعالى ولا حقيقة أحق من ذلك .

وقد يتصور أن يدخل المجاز للجملة من الطريقين جميعا وذلك أن يشبه معنى [1] بمعنى وصفة بصفة فيستعار لهذه اسم تلك ثم تثبت فعلا لما لايصح الفعل منه أو فعل تلك الصفة فيكون أيضا فى كل واحد من الإثبات والمثبت مجاز كقول الرجل لصاحبه : أحيتنى رؤيتك . يريد آنستنى وسرتنى ونحوه فقد جعل الأنس والمسرة الحاصلة بالرؤية حياة أولا ثم جعل الرؤية فاعلة لتلك الحياة . وشبيه به قول المتنبي [2] :

وتحيي له المالَ الصوارمُ والقنا ويقتل ما يحيي التبسمُ والجدا

(١) المراد بالمعنى الأفعال التى تصدر من الأشخاص وبالصفات المعانى القائمة بها فالأول كالبكاء والثانى كالشجاعة .

(٢) تقدم أنه من قصيدة يمدح بها سيف الدولة ويهنئه بعيد الأضحى ومطلعها
لكل امرئ من دهره ما تعودا وعادات سيف الدولة الطعن فى العدا

جعل الزيادة والوفور حياة فى المال وتفريقه فى العطاء قتلا ثم أثبت الحياة فعلا للصوارم والقتل فعلا للتبسم مع العلم بأن الفعل لايصح منهما . ونوع منه « أهلك الناس الدينار والدرهم » جعل الفتنة هلاكاً على المجاز ثم أثبت الهلاك فعلا للدينارُ والدرهم وليسا مما يفعلان فاعرفه .

وإذ قد تبين لك المنهاج فى الفرق بين دخول المجاز فى الإثبات وبين دخوله فى المثبت وبين أن ينتظمهما وعرفت الصورة فى الجميع فاعلم أنه إذا وقع فى الإثبات فهو متلق من العقل [1] فإذا عرض فى المثبت فهو متلق من اللغة فإن طلبت الحجة على صحة هذه الدعوى فإن فيما قدمت من القول مايبينها لك ويختصر لك الطريق إلى معرفتها وذلك أن الإثبات إذا كان من شرطه أن يقيد مرتين كقولك إثبات شىء لشىء ولزم من ذلك ألا يحصل إلا بالجملة التى هى تأليف بين حديث ومحدث عنه ومسند ومسند إليه علمت أن مأخذه العقل وأنه القاضى فيه دون اللغة لأن اللغة لم تأت لتحكم بحكم أو لتثبت وتنفى وتنقض وتبرم فالحكم بأن الضرب فعل لزيد أو ليس بفعل له وأن المرض صفة له أو ليس بصفة له شىء يضعه المتكلم ودعوى يدعيها ، وما يعترض على هذه الدعوى من تصديق أو تكذيب أو اعتراف أو إنكار وتصحيح أو إفساد فهو اعتراض على المتكلم ، وليس اللغة فى ذلك بسبيل ولا منه فى قليل ولا كثير :

وإذا كان كذلك كان كل وصف يستحقه هذا الحكم من صحة [2] وفساد وحقيقة [3] ومجاز واحتمال [4] واستحالة فالمرجع فيه والوجه إلى العقل المحض

---

(١) الصواب وإذا . (٢) صوابه أو فساد .

(٣) أو (٤) أو

وليس للغة فيه حظ فلا تُحلى[1] ولا تُمِر ، والعربى فيه كالعجمى والعجمى كالتركى لأن قضايا العقول هى القواعد والأسس التى يبنى غيرها عليها ، والأصول التى يرد ماسواها إليها .

فأما إذا كان المجاز فى المثبت كنحو قوله تعالى : (فأحيينا به الأرض) فإنما كان مأخذه اللغة لأجل أن طريقه المجاز بأن أجرى اسم الحياة على ما ليس بحياة تشبيهاً وتمثيلا ثم اشتق منها وهى فى هذا التقدير الفعل الذى هو «أحيا» واللغة هى التى اقتضت أن تكون الحياة اسماً للصفة التى هى ضد الموت فإذا تجوز فى الاسم فأجرى على غيرها فالحديث مع اللغة فاعرفه .

إن قال قائل فى أصل الكلام الذى وضعته على أن المجاز يقع تارة فى الإثبات وتارة فى المثبت وأنه إذا وقع فى الإثبات فهو طالع عليك من جهة العقل وبادلك من أفقه ، وإذا عرض فى المثبت فهو آتيك من ناحية اللغة : ما قولكم إن سويت بين المسئلتين وادعيت أن المجاز بينهما[2] جميعاً فى المثبت وأنزل هكذا فأقول : الفعل الذى هو مصدر فعل قد وضع فى اللغة للتأثير فى وجود الحادث كما أن الحياة موضوعة للصفة المعلومة فإذا قيل «فعل الربيع النور» جعل تعلق النور فى الوجود بالربيع من طريق السبب والعادة فعلا ، كما تجعل خضرة الأرض وبهجتها حياة والعلم فى قلب المؤمن نوراً وحياة . وإذا كان كذلك كان المجاز فى أن جعل ما ليس بفعل فعلا وأطلق اسم الفعل على غير ما وضع له فى اللغة كما جعل ما ليس بحياة حياة وأجرى اسمها عليه فإذا كان ذلك مجازاً لغويا فينبغى أن يكون هذا كذلك

---

(١) لاتحلى ولا تمر بضم التاء فيهما أى لاتفيد فى ذلك شيئاً .

(٢) الصواب فيهما .

فالجواب أن الذى يدفع هذه الشبهة أن تنظر إلى مدخل المجاز فى المسئلتين فإذا كان يدخلهما من جانب واحد فالأمر كما ظننت وإن لم يكن كذلك استبان لك الخطأ فى ظنك والذى يبين اختلاف دخوله فيهما أنك تحصل على المجاز فى مسئلة الفعل بالإضافة لا بنفس الاسم فلو قلت أثبت النَّوْر فعلا لم تقع فى مجاز لأنه فعل لله تعالى وإنما تصير إلى المجاز إذا قلت أثبت النور فعلا للربيع . وأما فى مسألة الحياة فإنك تحصل على المجاز بإطلاق الاسم فحسب من غير إضافة وذلك قولك : أثبت بهجة الأرض حياة أو جعلها حياة . أفلا ترى المجاز قد ظهر لك فى الحياة من غير أن أضفتها إلى شىء أى من غير أن قلت لكذا . وهكذا إذا عبرت بالنفى تقول فى مسئلة الفعل جعل ما ليس بفعل للربيع فعلا له . وتقول فى هذه : جعل ما ليس بحياة حياة وتسكت ولا تحتاج أن تقول : جعلت ما ليس بحياة للأرض حياة للأرض بل لا معنى لهذا الكلام لأنه يقتضى أنك أضفت حياة حقيقة [1] إلى الأرض وجعلتها مثلا تحيا بحياة غيرها وذلك بين الإحالة . ومن حق المسائل الدقيقة أن تُتأمل فيها العبارات التى تجرى بين السائل والمجيب وتحقق فإن ذلك يكشف عن الغرض ويبين جهة الغلط . وقولك «جعل ما ليس بفعل فعلا» احتذاء لقولنا : جعل ما ليس بحياة حياة — لا يصح لأن معنى هذه العبارة أن يراد بالاسم غير معناه لشبه يدعى أو شىء كالشبه ، لا أن يعطل الاسم من الفائدة فيراد بها [2] ما ليس بمعقول فنحن إذا تجوزنا فى الحياة فأردنا بها العلم فقد أودعنا الاسم معنى وأردنا به صفة

---

(١) الصواب حقيقية .

(٢) الصواب به .

معقولة كالحياة نفسها ولا يمكنك أن تشير فى قولك « فعل الربيع النور » إلى معنى تزعم أن لفظ الفعل ينقل عن معناه إليه فيراد به حتى يكون ذلك المعنى معقولا منه كما عقل التأثير فى الوجود وحتى تقول لم أرد به التأثير فى الوجود ولكن أردت المعنى الفلانى الذى هو شبيه به أو كالشبيه أو ليس بشبيه مثلا ، إلا أنه معنى خلف [1] معنى آخر على الاسم إذ ليس وجود النور يعقب [2] المطر أو فى زمان دون زمان . فما [3] يعطيك معنى فى المطر أو فى الزمان فتؤديه بلفظ الفعل فليس إلا أن تقول لما كان النور لايوجد إلا بوجود الربيع توهم للربيع تأثير فى وجوده فأثبت له ذلك وإثبات الحكم أو الوصف لما ليس له . قضية عقلية لاتعلق لها فى صحة [4] وفساد باللغة فاعرفه .

ومما يجب ضبطه فى هذا الباب أن كل حكم يجب فى العقل وجوباً حتى لايجوز خلافه فإضافته إلى دلالة اللغة وجعله مشروطا فيها محال لأن اللغة تجرى مجرى العلامات والسمات ولا معنى للعلامة والسمة حتى يحتمل الشىء ماجعلت العلامة دليلا عليه وخلافه ، فإنما كانت « ما » مثلا علما للنفى لأن ههنا نقيضاً له وهو الإثبات . وهكذا إنما كانت « من » لما [5] يعقل لأن ههنا ما لايعقل . فمن ذهب يدعى أن فى قولنا فعل وصنع ونحوه دلالة من جهة اللغة على القادر فقد أساء من حيث قصد الإحسان لأنه والعياذ بالله يقتضى جواز أن يكون ههنا تأثير فى وجود الحادث لغير القادر حتى

(١) كما فى المجاز المرسل .

(٢) المناسب عقب .

(٣) الصواب بما .

(٤) الصواب أو

(٥) المناسب لمن يعقل .

يحتاج إلى تضمين اللفظ الدلالة على اختصاصه بالقادر ، وذلك خطأ عظيم .

فالواجب أن يقال : الفعل موضوع للتأثير فى وجود الحادث فى اللغة . والعقل قد قضى وبت الحكم بأن لاحظ فى هذا التأثير لغير القادر ـ وما يقوله أهل النظر من أن من لم يعلم الحادث موجوداً من جهة القادر عليه فهو لم يعلمه فعلا ـ لايخالف هذه الجملة بل لا يصح حق صحته إلا مع اعتبارها وذلك أن الفعل إذا كان موضوعا للتأثير فى وجود الحادث وكان العقل قد بين بالحجج القاطعة والبراهين الساطعة استحالة أن يكون لغير القادر تأثير فى وجود الحادث وأن يقع شىء مما ليس له صفة القادر ، فمن ظن الشىء واقعا من غير القادر فهو لم يعلمه فعلا لأنه لايكون مستحقا هـذا الاسم حتى يكون واقعا من غيره ، ومن نسب وقوعه إلى ما لايصح وقوعه منه ولا يتصور أن يكون له تأثير فى وجوده وخروجه من العدم فلم يعلمه واقعا من شىء البتة ، وإذا لم يعلمه واقعا من شىء لم يعلمه فعلا كما أنه إذا لم يعلمه كائنا بعد أن لم يكن لم يعلمه واقعا ولا حادثا فاعرفه .

واعلم أنك إن أردت أن ترى المجاز وقد وقع فى نفس الفعل والخلق ولحقهما من حيث هما لا إثباتهما وإضافتهما فالمثال فى ذلك قولهم فى الرجل يشفى على هُلْكَة ثم يتلخص منها : هو إنما خلق الآن ، وإنما أنشئ اليوم ؛ وقد عدم ثم أنشئ نشأة ثانية ، وذلك أنك تثبت ههنا خلقا وإنشاء من غير أن يعقل ثابتا على الحقيقة بل على تأويل وتنزيل وهو أن جعلت حالة إشفائه على الهلكة عدما وفناء وخروجا من الوجود حتى أنتج هذا التقدير أن يكون خلاصه منها ابتداء وجود وخلقا وإنشاء ، أفيمكنك أن تقول فى نحو « فعل الربيع النور » بمثل هذا التأويل فتزعم أنك أثبت فعلا وقع على النور من غير أن كان ثم فعل ومن غير أن يكون النور مفعولا ؟ أو هو مما يتعوذ بالله منه وتقول الفعل واقع على النور حقيقة وهو

مفعول مجهول على الصحة إلا أن حق الفعل فيه أن يثبت لله تعالى وقد تجوز بإثباته للربيع ؟ أفليس قد بان أن التجوز ههنا فى إثبات الفعل للربيع لا فى الفعل نفسه فإن التجوز فى مسألة المتخلص من الهلكة حيث قلت « إنه خلق مرة ثانية » فى الفعل لا فى إثباته فلك كيف نظرت فرق بين المجاز فى الإثبات وبينه فى المثبت ، وينبغى أن تعلم أن قولى فى المثبت مجاز ليس مرادى أن فيه مجازاً من حيث هو مثبت ولكن المعنى أن المجاز فى نفس الشىء الذى تناوله الإثبات نحو إنك أثبت الحياة صفة للأرض فى قوله تعالى (يحيي الأرض بعد موتها) والمراد غيرها فكان المجاز فى نفس الحياة لا فى إثباتها هذا - وإذا كان لا يتصور إثبات شىء لا لشىء استحال أن يوصف المثبت من حيث هو مثبت بأنه مجاز أو حقيقة .

ومما ينتهى فى البيان إلى الغاية أن يقال للسائل : هبك تغالطنا بأن مصدر فعل نقل أولا عن موضوعه فى اللغة ثم اشتق منه ، فقل لنا ما نصنع بالأفعال المشتقة من معانى خاصة كنسج وصاغ ووشى ونقش ؟ أتقول إذا قيل نسج الربيع وصاغ الربيع ووشى أن المجاز فى مصادر هذه الأفعال التى هى النسج والوشى والصوغ أم تعرف أنه فى إثباتها فعلا للربيع ؟ وكيف تقول إن فى أنفسها مجازاً وهى موجودة بحقيقتها ؟ بل ماذا يغنى عنك دعوى المجاز فيها لو أمكنك ولا يمكنك أن تقتصر عليها فى كون الكلام مجازاً أعنى لا تملك أن تقول إن الكلام مجاز من حيث لم يكن ائتلاف تلك الأنوار نسجا ووشيا وتدع حديث نسبتها إلى الربيع جانبا ، هذا - وههنا ما لا وجه لك لدعوى المجاز فى صدور الفعل كقولك « سرنى الخبر » فإن السرور بحقيقته موجود والكلام مع ذلك مجاز . وإذا كان كذلك علمنا ضرورة أن ليس المجاز إلا فى إثبات السرور فعلا للخبر وإيهام أنه أثر فى حدوثه وحصوله

ويعلم كل عاقل أن المجاز لو كان من طريق اللغة لجعل ما ليس بالسرور سرورا . فأما الحكم بأنه فعل للخبر فلا يجرى فى وهم أنه يكون من اللغة بسبيل فاعرفه .

فإن قال : النسج فعل معنى وهو المضامة بين أشياء وكذلك الصوغ فعل الصورة فى الفضة ونحوها وإذا كان كذلك قدرت أن لفظ الصوغ مجاز من حيث دل على الفعل والتأثير فى الوجود وحقيقة من حيث دل على الصورة كما قدرت أنت فى «أحيا الله الأرض» أن أحيا من حيث دل على معنى فعل حقيقة ، ومن حيث دل على الحياة مجاز . قيل ليس لك أن تجىء إلى لفظ أمرين[1] فتفرق دلالته وتجعله منقولا عن أصله فى أحدهما دون الآخر . لو جاز هذا لجاز أن تقول فى اللطم الذى هو ضرب باليد أن يجعل مجازاً من حيث هو ضرب ، وحقيقة من حيث هو باليد ، وذلك محال لأن كون الضرب باليد لا ينفصل عن الضرب فكذلك كون الفعل فعلا للصورة لا ينفصل عن الصورة ، وليس الأمر كذلك فى قولنا : أحيا الله الأرض ، لأن معنا هناك لفظين أحدهما مشتق وهو «أحيا» ، والآخر مشتق منه وهو «الحياة» فنحن نقدر فى المشتق منه أنه نقل عن معناه الأصلى فى اللغة إلى معنى آخر ثم اشتق منه «أحيا» بعد هذا التقدير ومعه[2] وهو مثل لفظ اليد ينقل إلى النعمة ثم يشتق منه «يديت» فاعرفه[3]

ومما يجب أن يعلم فى هذا الباب أن الإضافة فى الاسم كالإسناد فى الفعل فكل حكم يجب[4] فى إضافة المصدر من حقيقة أو مجاز فهو واجب فى إسناد

(١) الصواب ذى أمرين .
(٢) الصواب حذفها .
(٣) يدى فلانا أصاب يده ويدى كرضى ويدى بالبناء للمفعول أصابه بزمن آخر
(٤) الأولى فكل حكم يجب فى إضافة الفعل يجب فى المصدر .

الفعل ، فانظر الآن إلى قولك : أعجبنى وشى الربيع الرياض وصوغه تبرها وحوكه ديباجها . هل تعلم لك سبيلا فى هذه الإضافات إلى التعلق باللغة وأخذ الحكم عليها منها ؟ أم تعلم امتناع ذلك عليك ؟ وكيف والإضافة لا تكون حتى تستقر اللغة ويستحيل أن يكون للغة حكم فى الإضافة ورسم حتى يعلم بها أن حق الاسم أن يضاف إلى هذا دون ذلك .

وإذا عرفت ذلك فى هذه المصادر التى هى الصوغ والوشى والحوك فضع مصدر فعل الذى هو عمدتك فى سؤالك وأصل شبهتك - موضعها وقل ماترى إلى فعل الربيع لهذه المحاسن ثم تأمل هل تجد فصلا بين إضافته وإضافة تلك ؟ فإذا لم تجد الفصل البتة فاعلم صحة قضيتنا وانفض يدك بمسئلتك ودع النزاع عنك وإلى الله تعالى الرغبة فى التوفيق .

فصـــل

قال أبو القاسم الآمدى فى قول البحترى (١)

فصاغ ماصاغ من تبر ومن ورِق وحاك ماحاك من وشى وديباج

صوغ الغيث وحوكه النبات ليس باستعارة بل هو حقيقة ولذلك لا يقال : هو صائغ ولا كأنه صائغ . وكذلك لا يقال : حائك وكأنه حائك . على أن لفظة حائك خاصة فى غاية الركاكة إذا أخرج على ما أخرجه عليه أبو تمام

(١) من قصيدة يمدح بها القائد إسحق بن كنداج مطلعها :

كنت إلى وصل سعدى جد محتاج لو أنه كثب للأمل الراجى
تدانج الوعد لانجح ولا خلف مجدولة بين إرهاف وإدماج

إلى أن قال قبله :

أسق ديارك والسقيا تقل لها أغزار كلّ ملث الودق ثجاج
يلقى على الأرض من حلى ومن حلل مايمنع العين من حسن وإبهاج

فى قوله [١] :

إذا الغيث غادى نسجه خلت أنه	خلت حِقَبٌ حَرْسٌ له وهو حائك [٢]

وهذا قبيح جدا والذى قاله البحترى « وحاك ماحاك » حسن مستعمل ، فانظر مابين الكلامين لتعلم مابين الرجلين .

قد كتبت هذا الفصل على وجهه والمقصود منه منعه أن تطلق الاستعارة على الصوغ والحوك ـ وقد جعلا فعلا للربيع ـ واستدلاله على ذلك بامتناع أن يقال : وكأنه صائغ وكأنه حائك .

اعلم أن هذا الاستدلال كأحسن ما يكون إلا أن الفائدة تتم بأن تبين جهته ومن أين كان كذلك . والقول فيه أن التشبيه كما لايخفى يقتضى شيئين مشبها ومشبهاً به ، ثم ينقسم إلى الصريح وغير الصريح . فالصريح أن تقول « كأن زيداً الأسد » فتذكر كل واحد من المشبه والمشبه به باسمه ، وغير الصريح أن تسقط المشبه به [٣] من الذكر وتجرى اسمه على المشبه كقولك :

---

(١) من قصيدة يمدح بها أبا سعيد محمد بن يوسف الثغرى و مطلعها وهو قبله :

قرى دارهم منى الدموع السوافك	وإن عاد صبحى بعدهم وهو حالك
وإن بكرت فى ظعنهم وحدوجهم	زيانب من أحبابنا وعواتك
سقت ربعهم لا بل سقت منتواهم	من الأرض أخلاف السحاب الحواشك
وألبسهم عصب الربيع ووشيه	ويمنته نبت الثرى المتلاحك
إذا غازل الروض الغزالة نشرت	زرابى فى أكنافهم ودرانك

والحرس جمع حرساء وهى القديمة التى أتى عليها الحرس وهو الدهر وله متعلق بحائك

(٢) ضمير فى نسجة يعود إلى الروض ، وغاداه باكره والحقب الدهر والجمع أحقاب والحقبة المدة والجمع حقب كسدرة وسدر وحرس أى طويله وتأنيث خلت باعتبار معنى الحقب وهو المدة .

(٣) الصواب فى العبارة أن يقال : أن تسقط المشبه من الذكر وتجرى اسم المشبه به عليه كما هو المعلوم فى التشبيب .

رأيت أسداً . تريد رجلا شبيها بالأسد إلا أنك تغير اسمه مبالغة وإيهاما أن لانصل بينه وبين الأسد وأنه قد استحال إلى الأسدية . فإذا كان الأمر كذلك وأنت تشبه شخصا بشخص فإنك إذا شبهت فعلا بفعل كان هذا حكمه فأنت تقول مرة ٠ كأن تزيينه لكلامه نظم در . فتصرح بالمشبه والمشبه به وتقول أخرى : إنما ينظم دراً ، تجعله كأنه ناظم درّا على الحقيقة . وتقول في وصف الفرس . كأن سيره سباحة وكأن جريه طيران طائر ، هذا إذا صرحت وإذا أخفيت واستعرت قلت : يسبح براكبه ، ويطير بفارسه . فتجعل حركته سباحة وطيرانا .

ومن لطيف ذلك ما كان كقول أبى [1] دلامة يصف بغلته :

أرى الشهباء تعجن إذ غدونا   برجليها وتخبز باليمين

شبه حركة رجليها حين لم تثبتا على موضع تعتمد بهما عليه وهوتا ذاهبتين نحو يديها بحركة يدى العاجن فإنه لايثبت اليد فى موضع بل يزلها إلى قدام وتزول [2] من عند نفسها لرخاوة العجين ، وشبه حركة يديها بحركة يد الخابز من حيث كان الخابز يثنى يده نحو بطنه ويحدث فيها ضربا من التقويس ، كما تجد فى يد الدابة إذا اضطربت فى سيرها ولم تقف على ضبط يديها ؛ وأن ترمى بها إلى قدام ، وأن تشد اعتمادها حتى تثبت فى الموضع الذى تقع عليه فلا تزول عنه ولا تنثنى ؛ وأعود إلى المقصود .

فإذا كان لا تشبيه حتى يكون معك شيئان ، وكان معنى الاستعارة أن تغير لفظ المشبه بلفظ المشبه به ولم يكن معنا فى « صاغ الربيع » أو « حاك الربيع » إلا شىء واحد وهو الصوغ أو الحوك كان تقدير الاستعارة فيه محالا جاريا

---

(١) هو زيد بن الجون الكوفى الأسود مولى بنى أسد توفى سنة ١٦١ وكان فى مدة السفاح والمنصور والمهدى وكان متهما فى دينه رقيق الفكاهة حسن المجلس

(٢) الصواب أو تزول

مجرى أن يشبه الشيء بنفسه وتجعل [1] اسمه عارية فيه وذلك بين الفساد

فإن قلت : أليس الكلام على الجملة معقوداً على تشبيه الربيع بالقادر فى تعلق وجود الصوغ والنسج به فكيف لم يجز دخول « كأن » فى الكلام من هذه الجهة ؟ فإن [2] هذا التشبيه ليس هو التشبيه الذى يعقد فى الكلام ويفاد بكأن والكاف ونحوهما ، وإنما هو عبارة عن الجهة التى راعاها المتكلم حين أعطى الربيع حكم القادر فى إسناد الفعل إليه . [3] ووزانه وزان قولنا إنهم يشبهون « ما » بليس فيرفعون بها المبتدأ وينصبون بها الخبر فيقولون : ما زيد منطلقاً ، فنخبر عن تقدير قدروه فى نفوسهم وجهة راعوها فى إعطاء « ما » حكم « ليس » فى العمل ، فكما لا يتصور أن يكون قولنا « ما زيد منطلقاً » تشبيها على حد « كأن زيداً الأسد » كذلك لا يكون « صاغ الربيع » من التشبيه فكلامنا إذن فى تشبيه منقول منطوق به وأنت فى تشبيه معقول غير داخل فى النطق — هذا — وإن يكن ههنا تشبيه فهو فى الربيع لا فى الفعل المسند إليه واختلافنا فى صاغ وحاك هل يكون تشبيها واستعارة أم لا فلا يلتق التشبيهان أو يلتق المشئم والمعرق .

وهذا هو القول على الجملة إذا كانت حقيقة أو مجازا وكيف وجه الحد فيها ، فكل جملة وضعتها على أن الحكم المفاد بها على ما هو عليه فى العقل وواقع موقعه فهى حقيقة ولن تكون كذلك حتى تعرى من التأول ، ولا فصل بين أن تكون مصيبا فيما أفدت بها من الحكم أو مخطئا ، وصادقا

---

(١) المناسب ويجعل .

(٢) جواب فإن قلت .

(٣) إذ المبالغة فى التشبيه مقصودة بالإفادة بخلاف ما هنا فإنه تشبيه وحمل معنوى يترتب عليه المقصود بالإفادة وهو الإسناد .

أو غير صادق. فمثال وقوع الحكم المفاد موقعه من العقل على الصحة واليقين والقطع قولنا: خلق الله تعالى الخلق وأنشأ العالم وأوجد كل موجود سواه فهذه من أحق الحقائق وأرسخها فى العقول، وأقعدها نسبا فى المعقول، والتى إن رمت أن تغيب عنها غبت عن عقلك، ومتى هممت بالتوقف فى ثبوتها استولى النفى على معقولك، ووجدتك كالمرمى به من حالق إلى حيث لا مقر لقدم، ولا مساغ لتأخر وتقدم، كما قال أصدق القائلين جلت أسماؤه، وعظمت كبرياؤه، (ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح فى مكان سحيق)

وأما مثال أن توضع الجملة على أن الحكم المفاد بها واقع موقعه من العقل وليس كذلك إلا أنه صادر عن اعتقاد فاسد وظن كاذب فمثل ما يجىء فى التنزيل من الحكاية عن الكفار نحو (وما يهلكنا إلا الدهر) فهذا ونحوه من حيث لم يتكلم به قائله على أنه متأول بل أطلقه بجهله وعماه إطلاق من يضع الصفة فى موضعها، لا يوصف بالمجاز ولكن يقال عند قائله إنه حقيقة، وهو كذب وباطل، وإثبات لما ليس بثابت، أو نفى لما ليس بمنتف، وحكم لا يصححه العقل فى الجملة بل يرده ويدفعه، إلا أن قائله جهل مكان الكذب والبطلان فيه أو جحد وباهت.

ولا يتخلص لك الفصل بين الباطل وبين المجاز حتى تعرف حد المجاز، وحده أن كل جملة أخرجت الحكم المفاد بها عن موضوعه فى العقل لضرب من التأول فهى مجاز ومثاله ما مضى من قولهم «فعل الربيع» وكما جاء فى الخبر «إن مما ينبت الربيع ما يقتل حبطا أو يلم»[1] قد أثبت الإنبات للربيع

---

(١) هو مثل الحريص والمفرط فى الجمع والمنع وذلك أن الربيع ينبت أحرار العشب التى تحلو لها الماشية فتكثر منها حتى تنتفخ بطونها وتهلك، كذلك الذى يجمع =

وذلك خارج عن موضعه من العقل لأن إثبات الفعل لغير القادر لايصح في قضايا العقول إلا أن ذلك على سبيل التأول وعلى العرف الجارى بين الناس أن يحملوا الشيء إذا كان سبباً أو كالسبب فى وجود الفعل من فاعله كأنه فاعل . فلما أجرى الله سبحانه العادة وأنفذ القضية أن تورق الأشجار وتظهر الأنوار وتلبس الأرض ثوب شبابها فى زمان الربيع صار يتوهم فى ظاهر الأمر ومجرى العادة كأن لوجود هذه الأشياء حاجة إلى الربيع فأسند الفعل إليه على هذا التأويل والتنزيل .

وهذا الضرب من المجاز كثير فى القرآن فمنه قوله تعالى : (تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها) وقوله عز اسمه : (وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا) وفى الأخرى (فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيمانا) وقوله (وأخرجت الأرض أثقالها) وقوله عز وجل (حتى إذا أقلت سحابا ثقالا سقناه لبلد ميت) أثبت الفعل فى جميع ذلك لما لا يثبت له فعل إذا رجعنا إلى المعقول على[1] معنى السبب وإلا فمعلوم أن النخلة ليست تحدث الأكل ولا الآيات توجد العلم فى قلب السامع لها ، ولا الأرض تخرج الكامن فى بطنها من الأثقال ولكن إذا حدثت فيها الحركة بقدرة الله ظهر ما كنز فيها وأودع جوفها . وإذا ثبت ذلك فالمبطل والكاذب لايتأول فى إخراج الحكم عن موضعه وإعطائه غير المستحق ، ولايشبه كون المقصود سببا بكون الفاعل فاعلا بل يثبت القضية من غير أن ينظر فيها من شيء إلى شيء ، ويرد فرعا إلى أصل ، وتراه أعمى أكمه يظن مالا يصح صحيحا ، ومالا يثبت ثابتا ،

= الدنيا ويحرص عليها ويشح على ما جمع حتى يمنع ذا الحق حقه منها يهلك فى الآخرة بدخول النار واستيجاب العذاب .

(١) الصواب إلا على معنى الخ

وماليس فى موضعه من الحكم موضوعا موضعه . وهكذا المتعمد للكذب يدعى أن الأمر على ماوضعه تلبيسا وتمويها وليس هو من التأول .

والنكتة أن المجاز لم يكن مجازاً لأنه إثبات الحكم لغير مستحقه بل لأنه أثبت لما لايستحق تشبيها ورداً له إلى مايستحق ، وأنه ينظر من هذا إلى ذاك ، وإثباته ما أثبت للفرع الذى ليس بمستحق يتضمن الإثبات للأصل الذى هو المستحق ، فلا يتصور الجمع بين شيئين فى وصف أو حكم من طريق التشبيه والتأويل حتى يبدأ بالأصل فى إثبات ذلك الوصف والحكم له . ألا تراك لاتقدر على أن تشبه الرجل بالأسد فى الشجاعة مالم تجعل كونها من أخص أوصاف الأسد وأغلبها عليه نصب عينيك ، وكذلك لايتصور أن يثبت المثبت الفعل للشىء على أنه سبب مالم ينظر إلى ماهو راسخ فى العقل من أن لافعل على الحقيقة إلا للقادر ، لأنه لو كان نسب الفعل إلى هذا السبب نسبة مطلقة لايرجع فيها إلى حكم القادر والجمع بينهما من حيث تعلق وجوده بهذا السبب من طريق العادة كما يتعلق بالقادر من طريق الوجوب لما اعترف بأنه سبب ولا داعى أنه أصل بنفسه مؤثر وجود الحادث كالقادر ، وإن تجاهل متجاهل فقال بذلك على ظهور الفضيحة وإسراعها إلى مدعيه كان الكلام عنده حقيقة ولم يكن من مسئلتنا فى شىء ، ولحق بنحو قول الكفار «وما يهلكنا إلا الدهر» وليس ذلك المقصود فى مسئلتنا لأن الغرض ههنا ما وضع فيه الحكم واضعه على طريق التأول فاعرفه

ومن أوضح مايدل على أن إثبات الفعل للشىء لأنه سبب يتضمن إثباته من حيث لايتصور دون تصوره أن تنظر إلى الأفعال المسندة إلى الأدوات والآلات كقولك : قطع السكين وقتل السيف . فإنك تعلم أنه لايقع فى النفس من هذا الإثبات صورة مالم تنظر إلى إثبات الفعل

لمُعْمِل الأداة والفاعل بها ، فلو فرضت أن لا يكون ههنا قاطع بالسكين ومصرّف لها أعناك[١] أن تعقل من قولك «قطع السكين» معنى بوجه من الوجوه . وهذا من الوضوح بحيث لا يشك عاقل فيه ، وهذه[٢] الأفعال المسندة إلى من تقع تلك الأفعال بأمره كقولك «ضرب الأمير الدراهم وبنى السور» لا تقوم فى نفسك صورة لإثبات الضرب والبناء فعلا للأمير بمعنى الأمر به حتى تنظر إلى ثبوتهما للمباشر لهما على الحقيقة ، والأمثلة فى هذا المعنى كثيرة تتلقاك من كل جهة وتجدها أنى شئت

واعلم أنه لا يجوز الحكم على الجملة بأنها مجاز إلا بأحد أمرين فإما أن يكون الشىء الذى أثبت له الفعل مما لا يدعى أحد من المحقين والمبطلين أنه مما يصح أن يكون له تأثير فى وجود المعنى الذى أثبت له وذلك نحو قول الرجل : محبتك جاءت بى إليك . وكقول عمرو بن العاص فى ذكر الكلمات التى استحسنها : هن مخرجاتى من الشام ، فهذا ما لا يشتبه على أحد أنه مجاز ، وإما أنه يكون قد علم من اعتقاد المتكلم أنه لا يثبت الفعل إلا للقادر ، وأنه ممن لا يعتقد الاعتقادات الفاسدة كنحو ما قاله المشركون وظنوه من ثبوت الهلاك فعلا للدهر فإذا سمعنا نحو قوله[٣]

أشاب الصغير وأفنى الكبيـ ... ـرَ كر الغداة ومرُّ العشى

وقول أبى الأصبع :

أهلكنا الليل والنهار معا ... والدهر يغدو مصمما جذعا[٤]

(١) أى أوقعك فى العناء . (٢) الصواب وهكذا

(٣) هو الصلتان العبدى من شعراء الحماسة ونسبه الجاحظ فى الحيوان إلى الصلتان السعدى وقال هو غير الصلتان العبدى .

(٤) مصمما ماضيا فى سده وجذعا أى شابا لا يهرم .

كان طريق الحكم عليه بالمجاز أن تعلم اعتقاد التوحيد إما بمعرفة أحوالهم السابقة أو بأن تجد فى كلامهم من بعد إطلاق هذا النحو ما يكشف عن قصد المجاز فيه كنحو ما صنع أبو النجم [١] فإنه قال أولا :

قد أصبحت أمُّ الخيار تدعى   على ذنبا كلُّه لم أصنع
من أن رأت رأسى كرأس الأصلع   ميّز عنه قُنْزُعا عن قُنْزُع [٢]
مرُّ الليالى أبطئى أو اسرعى

فهذا على المجاز وجعل الفعل لليالى ومرورها إلا أنه خفى غير بادى الصفحة ثم فسر وكشف عن وجه التأول ، وأفاد أنه بنى أول كلامه على التخيل ، فقال :

أفناه قيلُ الله للشمس اطلُعى   حتى إذا واراك أفق فارجعى [٣]

فبين أن الفعل لله وأنه المعيد والمبدئ والمنشئ والمفنى ، لأن المعنى فى « قيل الله » أمر الله ، وإذ جعل الفناء بأمره فقد صرح بالحقيقة ، وبين ما كان عليه من الطريقة .

واعلم أنه لا يصح أن يكون قول الكفار « وما يهلكنا إلا الدهر » من باب التأويل والمجاز وأن يكون الإنكار عليهم من جهة ظاهر اللفظ وأن فيه إيهاما للخطأ . كيف وقد قال تعالى بعقب الحكاية عنهم : (وما لهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون) والمتجوز أو المخطئ فى العبارة لا يوصف بالظن ، إنما الظانّ من يعتقد أن الأمر على ما قاله وكما يوجبه ظاهر كلامه ، وكيف

---

(١) هو الفضل بن قدامة بن عبيد الله العجلى من رجاز الإسلام والفحول المتقدمين فى الطبقة الأولى منهم وكانت وفاته أواخر دولة بنى أمية .

(٢) القنزع جمع قنزعة وهى الشعر حوالى الرأس .

(٣) ضمير أفناه يرجع إلى أبى النجم أو شعر رأسه .

يجوز أن يكون الإنكار من طريق إطلاق اللفظ دون إثبات الدهر فاعلا للهلاك وأنت ترى فى نص القرآن ما جرى فيه اللفظ على إضافة فعل الهلاك إلى الريح مع استحالة أن تكون فاعلة ؟ وذلك قوله عز وجل (مثل ما ينفقون فى هذه الحياة الدنيا كمثل ريح فيها صر أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم فأهلكته) وأمثال ذلك كثير .

ومن قدح فى المجاز وهَمّ أن يصفه بغير الصدق فقد خبط خبطا عظيما واستهدف لما لا يخفى . ولو لم يجب البحث عن حقيقة المجاز والعناية به حتى تحصّل ضروبه وتضبط أقسامه إلا للسلامة من مثل هذه المقالة ، والخلاص مما نحا نحو هذه الشبهة ، لكان من حق العاقل أن يتوفر عليه ، ويصرف العناية إليه ، فكيف وبطالب الدين حاجة ماسة إليه من جهات يطول عدها ، وللشيطان من جانب الجهل به مداخل خفية يأتيهم منها فيسرق دينهم من حيث لا يشعرون ، ويلقيهم فى الضلالة من حيث ظنوا أنهم يهتدون ؟ وقد اقتسمهم البلاء فيه من جانبي الإفراط والتفريط ، فمن مغرور مغرى بنفيه دفعة ؛ والبراءة منه جملة ، يشمئز من ذكره ، وينبو عن اسمه ، يرى أن لزوم الظواهر فرض لازم ، وضرب الخيام حولها حتم واجب ، وآخر يغلو فيه ويفرط ، ويتجاوز حده ويخبط ، فيعدل عن الظاهر والمعنى عليه ، ويسوم نفسه التعمق فى التأويل ولا سبب يدعو إليه .

أما التفريط فما تجد عليه قوما فى نحو قوله تعالى (هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله) وقوله (وجاء ربك) و (الرحمن على العرش استوى) وأشباه ذلك من النبو عن أقوال أهل التحقيق . فإذا قيل لهم إن الإتيان والمجىء انتقال من مكان إلى مكان ، وصفة من صفات الأجسام ، وإن الاستواء إن

حمل على ظاهره لم يصح إلا فى جسم يشغل حيزاً ويأخذ مكانا، والله عز وجل خالق الأماكن والأزمنة ، ومنشئ كل ما تصح عليه الحركة والنقلة والتمكن والسكون ، والانفصال والاتصال ، والمماسة والمحاذاة وإن المعنى على : إلا أن يأتيهم أمر الله ، وجاء أمر ربك ، وإن حقه أن يعبر بقوله تعالى (فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا) وقول الرجل آتيك من حيث لا تشعر - يريد أنزل بك المكروه ، وأفعل ما يكون جزاء لسوء صنيعك فى حال غفلة منك ، ومن حيث تأمن حلوله بك . وعلى ذلك قوله :

أتيناهم من أيمن الشق عندهم ويأتى الشقى الحين من حيث لا يدرى

نعم إذا قلت ذلك للواحد منهم رأيته إن أعطاك الوفاق بلسانه فبين جنبيه قلب يتردد فى الحيرة ويتقلب ، ونفس تفر من الصواب وتهرب ، وفكر واقف لا يجيء ولا يذهب ، يحضره الطبيب بما يبرئه من دائه ، ويريه المرشد وجه الخلاص من عنائه ، ويأبى إلا نفاراً عن العقل ، ورجوعا إلى الجهل ، لا يحضره التوفيق بقدر ما يعلم به أنه إذا كان لا يجرى فى قوله تعالى «واسئل القرية» على الظاهر لأجل علمه أن الجماد لا يُسأل ، مع أنه لو تجاهل متجاهل فادعى أن الله تعالى خلق الحياة فى تلك القرية حتى عقلت السؤال وأجابت عنه ونطقت لم يكن قال قولا يكفر به ، ولم يزد على شيء يعلم كذبه فيه ، فمن حقه أن لا يجثم ههنا على الظاهر ولا يضرب الحجاب دون سمعه وبصره حتى لا يعى ولا يراعى مع ما فيه إذا أخذ على ظاهره من التعرض للهلاك والوقوع فى الشرك .

فأما الإفراط فيما يتعاطاه قوم يحبون الإغراب فى التأويل ، ويحرصون على تكثير الوجوه ؛ وينسون أن احتمال اللفظ شرط فى كل ما يعدل به

عن الظاهر ، فهم يستكرهون الألفاظ على الأمثلة من المعانى يدعون السليم من المعنى إلى السقيم ، ويرون الفائدة حاضرة وقد أبدلت صفحتها وكشفت قناعها ، فيعرضون عنها حبا للتشوف [1] وقصداً إلى التمويه وذهابا فى الضلالة .

وليس القصد ههنا بيان ذلك فأذكر أمثلته ، على أن كثيراً من هذا الفن يرغب عن ذكره لسخفه ، وإنما غرضى بما ذكرت أن أريك عظم الآفة على الجهل [2] بحقيقة المجاز وتحصيله ، وأن الخطأ فيه مورط صاحبه ، وفاضح له ومسقط قدره ، وجاعله [3] ضُحْكَةً يُتَفَكَّهُ به وكاسيه عاراً يبقى على وجه الدهر . وفى مثل هذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ينفون عنه تحريف الغالين ، وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين [4] » وليس حمله روايته وسرد ألفاظه ، بل العلم بمعانيه ومخارجه وطرقه ومناهجه ، والفرق بين الجائز والممتنع ، والمنقاد المصحب [5] ، والنافى [6] النافر .

وأقل ما كان ينبغى أن تعرفه الطائفة الأولى وهم المنكرون للمجاز أن التنزيل كما لم يقلب اللغة فى أوضاعها المفردة عن أصولها ولم يخرج الألفاظ عن دلالتها ، وأن شيئا من ذلك إن زيد إليه ، ما لم يكن قبل الشرع يدل عليه ، أو ضمن ما لم يتضمنه ، أتبع ببيان من عند النبى صلى الله عليه وسلم ، وذلك كبيانه للصلاة والحج والزكاة والصوم — كذلك لم يقض بتبديل عادات أهلها

---

(١) التزين .

(٢) صوابه الجاهل .

(٣) بضم فسكون من يضحك عليه الناس .

(٤) المراد بالغالين المبتدعة وبالمبطلين الذين يتعمدون الباطل .

(٥) اسم فاعل من أصحب له الرجل والدابة انقادا له وذلا .

(٦) أى البعيد المتجافى .

ولم ينقلهم عن أساليبهم وطرقهم ، ولم يمنعهم ما يتعارفونه من التشبيه والتمثيل والحذف والاتساع . وكذلك كان من حق الطائفة الأخرى أن تعلم أنه عز وجل لم يرض لنظم كتابه الذى سماه هدى وشفاء ، ونوراً وضياء ، وحياة تحيا بها القلوب ، وروحا تنشرح عنه الصدور ، ماهو عند القوم الذين خوطبوا به خلاف البيان ، وفى حد الإغلاق والبعد من التبيان ، وأنه تعالى لم يكن ليعجز بكتابه من طريق الإلباس والتعمية ، كما يتعاطاه المُلْغِز من الشعراء ، والمحاجى من الناس ، كيف وقد وصفه بأنه «عربى مبين» .

هذا وليس التعسف الذى يرتكبه بعض من يجهل التأويل من جنس ما يقصده أصحاب الألغاز والأحاجى ، بل هو شىء يخرج عن كل طريق ويباين كل مذهب ، وإنما هو سوء نظر منهم ووضع الشىء فى غير موضعه وإخلال بالشريطة ، وخروج عن القانون وتوهم أن المعنى إذا دار فى نفوسهم وعقل من تفسيرهم فقد فهم من لفظ المفسر وحتى كأن الألفاظ تنقلب عن سجيتها ، وتزول عن موضوعها ، فتحمل ماليس من شأنها أن تحتمله ، وتؤدى مالا يوجب حكمها أن تؤديه .

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾

(هذا كلام فى المجاز وفى بيان معناه وحقيقته)

«وفيه بيان المنقول والمشترك والمجاز المرسل وعلاقاته»

المجاز مفعل من جاز الشىء يجوزه إذا تعداه . وإذا عدل باللفظ عما يوجبه أصل اللغة وصف بأنه مجاز على معنى أنهم جازوا به موضعه الأصلى أو جاز هو مكانه الذى وضع فيه أولا .

ثم اعلم بعـد أن فى إطلاق المجاز على اللفظ المنقول عن أصله شرطا وهو أن يقع نقله على وجه لا يعرى معه من ملاحظة الأصل . ومعنى الملاحظة أن الاسم يقع لما تقول إنه مجاز فيه بسبب بينه وبين الذى تجعله حقيقة فيه نحو إن اليد تقع للنعمة وأصلها الجارحة لأجل أن الاعتبارات اللغوية تتبع أحوال المخلوقين وعاداتهم ، وما يقتضيه ظاهر البنية وموضوع الجبلة ومن شأن النعمة أن تصدر عن اليد ومنها تصل إلى المقصود بها والموهوبة هى منه [١] . وكذلك الحكم إذا أريد باليد القوة والقدرة لأن القدرة أكثر مايظهر سلطانها فى اليد ، وبها يكون البطش والأخذ والدفع والمنع ، والجذب والضرب والقطع ، وغير ذلك من الأفاعيل [٢] التى تخبر فضل أخبار عن وجوه القدرة وتنبئ عن مكانها ولذلك تجدهم لا يريدون باليد شيئا لاملابسة بينه وبين هذه الجارحة بوجه .

ولوجوب اعتبار هذه النكتة فى وصف اللفظ بأنه مجاز لم يجز استعماله فى الألفاظ التى يقع فيها اشتراك من غير سبب يكون بين المشتركين كبعض الأسماء المجموعة فى الملاحن [٣] مثل أن الثور يكون اسما للقطعة الكبيرة من الأقط [٤] والنهار اسم لفرخ الحُبارى [٥] والليـل لولد الكروان [٦] كما قال :

أكلت النهار بنصف النهار وليـلا أكلت بليل بهيم

---

(١) الصواب (له) .

(٢) جمع أفعال وأفعال جمع فعل فهو جمع الجمع .

(٣) جمع ملحن من لحن يلحن إذا قال قولا لم يفهمه غيره ، واللحن الفطنة .

(٤) بالتثليث الجبن المتخذ من اللبن الحامض .

(٥) طائر يضرب به المثل فى البلاهة والحمق .

(٦) بالتحريك طائر طويل الرجلين أغبر نحو الحمامة له صوت حسن.

وذلك أن اسم الثور لم يقع على الأقط لأمر بينه وبين الحيوان المعلوم ولا النهار على الفرخ لأمر بينه وبين ضوء الشمس أداه إليه وساقهُ نحوه .

والغرض المقصود بهذه العبارة - أعنى قولنا المجاز - أن تبين أن للفظ أصلا مبدوءا به فى الوضع ومقصوداً ، وأن جريه على الثانى إنما هو على سبيل النقل إلى الشىء من غيره ، وكما يعبق الشىء برائحة مايجاوره ، وينصبغ بلون مايدانيه ، لذلك تراهم لايطلقون المجاز فى الأعلام إطلاقهم لفظ النقل فيها حيث قالوا : العلم على ضربين منقول ومرتجل ، وإن المنقول منها يكون منقولا عن اسم جنس كأسد وثور وزيد وعمرو ، أو صفة كعاصم وحارث أو فعل كزيد ويشكر ، أو صوت كببّه[1] فأثبتوا بهذا كله النقل من غير العلمية إلى العلمية ، ولم يروا أن يصفوه بالمجاز فيقولوا مثلا إن « يشكر » حقيقة فى مضارع شكر ومجاز فى كونه اسم رجل ، وإن حجراً حقيقة فى الجماد ومجاز فى اسم الرجل ، وذلك أن الحجر لم يقع اسماً للرجل لالتباس كان بينه وبين الصخر على حسب ما كان بين اليد والنعمة وبينها وبين القدرة ولا كما كان بين الظهر الحامل وبين المحمول فى نحو تسميتهم المزادة راوية[2] وهى اسم للبعير الذى يحملها فى الأصل وكتسميتهم البعير حَفَضًا وهو اسم لمتاع[3] البيت الذى يحمل عليه - ولا كنحو مابين الجزء من الشخص وبين جملة الشخص كتسميتهم الرجل عيناً إذا كان ربيئة ، والناقة ناباً - ولا كما بين النبت والغيث وبين السماء والمطر حيث قالوا : رعينا الغيث . يريدون النبت الذى الغيث سبب فى كونه ، وقالوا أصابنا السماء . يريدون المطر .

---

(١) سيأتى تفسيره .

(٢) أصله من روى البعير الماء حمله ونقله والتاء فيه للمبالغة .

(٣) أعنى الردىء الحقير منه ولا يكاد يستعمل إلا فى رذاله وأقله .

وقال[١] « تَلُفُّه الأرواح والسُّمِىُّ »[٢] ، وذلك أن فى هذا كله تأولا وهو الذى أفضى بالاسم إلى ماليس بأصل فيه ، فالعين لما كانت المقصودة فى كون الرجل ربيئة صارت كأنها الشخص كله ، إذ كان لولا هداها لايغنى شيئا مع فقدها ، والغيث لما كان النبت يكون عنه صار كأنه هو ، والمطر لما كان ينزل من السماء عبروا عنه باسمها .

واعلم أن هذه الأسباب الكائنة بين المنقول والمنقول عنه تختلف فى القوة والضعف والظهور وخلافه فهذه الأسماء التى ذكرتها إذا نظرت إلى المعانى التى وصلت بين ماهى له وبين ماردت إليه وجدتها أقوى من نحو ماتراه فى تسميتهم الشاة التى تذبح عن الصبى إذا حلقت عقيقته عقيقة[٣] وتجد حالها بعدُ أقوى من حال العقيرة فى وقوعها للصوت فى قولهم : رفع عقيرته وذلك أنه شىء جرى اتفاقا ولا معنى يصل بين الصوت وبين الرجل المعقورة . على أن القياس يقتضى أن لايسمى مجازاً ولكن يجرى مجرى الشىء يُحكم فيه بعد وقوعه كالمثل إذا حكى فيه كلام صدر عن قائله من غير قصد إلى قياس وتشبيه بل الإخبار عن أمر من قصده بالخطاب كقولهم « فى الصيف ضيعت اللبن »[٤] .

ولهذا الموضع تحقيق لا يتم إلا بأن يوضع له فصل مفرد . والمقصود

---

(١) قائله رؤبة وتمامه « فى دفء أرطاة لها حنى » والأرطاة جمع أرطى شجر نوره كنور الخلاف وثمره كالعناب والحنى جمع حنو وحنى وهو العود المعوج

(٢) السمى جمع سماء بمعنى المطر والأرواح الرياح

(٣) العقيقة : شعر كل مولود من الناس والبهائم حين الولادة .

(٤) المثل يضرب لمن ضيع الشىء فى وقته وعاد يطلبه بعد فواته وسببه أن امرأة كرهت زوجها الموسر فطلقها فتزوجت بمملق وأرسلت تستميح زوجها الأول فقاله فالتاء مكسورة .

الآن غير ذلك لأن قصدى فى هذا الفصل أن أبين أن المجاز أعم من الاستعارة وأن الصحيح من القضية فى ذلك أن كل استعارة مجاز وليس كل مجاز استعارة وذلك أنا نرى كلام العارفين بهذا الشأن أعنى علم الخطابة ونقد الشعر والذين وضعوا الكتب فى أقسام البديع يجرى على أن الاستعارة نقل الاسم عن أصله إلى غيره للتشبيه على حد المبالغة .

قال القاضى أبو الحسن فى أثناء فصل ذكرها فيه : وملاك الاستعارة تقريب الشبه ومناسبة المستعار للمستعار منه . وهكذا تراهم يعدونها فى أقسام البديع حيث يذكر التجنيس والتطبيق والتوشيح ورد العجز على الصدر [١] وغير ذلك من غير أن يشترطوا شرطا ويعقبوا ذكرها بتقييد فيقولوا ومن البديع الاستعارة التى من شأنها كذا . فلولا أنها عندهم لنقل الاسم بشرط التشبيه على المبالغة إما قطعاً وإما قريباً من المقطوع عليه لما استجازوا ذكرها مطلقة غير مقيدة . يبين ذلك أنها إن كانت تسارق [٢] المجاز وتجرى مجراه حتى يصلح لكل ما تصلح له [٣] فذكرها فى أقسام البديع يقتضى أن

(١) التطبيق المطابقة كقوله تعالى (وتعز من تشاء وتذل من تشاء) والتوشيح كون فاتحته دالة بمعناها على خاتمته كقوله أبى فراس :

إذا ماثار سيف الدين ثرنا كما هيجت آسادا غضابا
أسنته إذا لاقى طعانا صوارمه إذا لاقى ضرابا
دعانا والأسنة مشرعات فكنا عند دعوته الجوابا

ورد العجز على الصدر : تكرير كلمة فى الشطرين من الشعر أو الفقرتين من النثر كقول بعضهم :

سريع إلى ابن العم يلطم وجهه وليس إلى داعى الندى بسريع

(٢) محرفة عن تساوق أى تشارك فى السياق الواحد .

(٣) الصواب حتى تصلح الاستعارة لكل ما يصح له المجاز .

كل موصوف بأنه مجاز فهو بديع عندهم حتى يكون إجراء اليد على النعمة بديعاً وتسمية البعير حَفَضاً والناقة ناباً والربيئة عيناً والشاة عقيقة بديعاً كله، وذلك بين الفساد .

وأما ما تجده فى كتب اللغة من إدخال ما ليس طريق نقله التشبيه فى الاستعارة كما صنع أبو بكر بن دريد فى الجمهرة فإنه ابتدأ باباً فقال : (باب الاستعارات) ثم ذكر فيه أن الوغى اختلاط الأصوات فى الحرب ثم كثرت وصارت الحرب وغى وأنشد :

إضمامة من دونها الثلاثين   لها وغى مثل وغى الثمانين [1]

يعنى اختلاط أصواتها. وذكر قولهم « رعينا الغيث والسماء » يعنى المطر وذكر ما هو أبعد من ذلك فقال : الخُرْس [2] ما تطعَمه النفساء ثم صارت الدعوة للولادة خُرْساً والإعذار الختان وسمى الطعام للختان إعذاراً وإن الظعينة أصلها المرأة فى الهودج ثم صار البعير والهودج ظعينة ، والخطْر [3] ضرب البعير بذنبه جانبى وركيه ثم صار ما لصق من البول بالوركين خطراً . وذكر أيضا الراوية بمعنى المزادة والعقيقة وذكر فيما بين ذكره لهذه الكلم أشياء هى استعارة على الحقيقة على طريقة أهل الخطابة ونقد الشعر لأنه قال : الظمأ العطش وشهوة الماء ثم كثر ذلك حتى قالوا « ظمئت إلى لقائك » . وقال الوَجور [4] ما أوجره الإنسان من دواء أو غيره ثم قالوا أوجره الرمح إذا طعنه فى فيه .

(١) الإضمامة : الجماعة من الرجال .

(٢) طعام النفساء الخرسة بالتاء وأما الخرس فهو طعام الولادة .

(٣) الخطر بالفتح وبكسر مع سكون الطاء فيها .

(٤) الوجور بالفتح ويضم وهو ما يوجر أى يصب فى الحلق .

فالوجه فى هذا الذى رواه من إطلاق الاستعارة على ماهو تشبيه كما هو شرط أهل العلم بالشعر وعلى ماليس من التشبيه فى شىء ولكنه نقل اللفظ عن الشىء إلى الشىء بسبب اختصاص وضرب من الملابسة بينهما وخلط أحدهما بالآخر أنهم كانوا [1] نظروا إلى مايتعارفه الناس فى معنى العارية وأنها شىء حول عن مالكه ونقل عن مقره الذى هو أصل فى استحقاقه إلى ماليس بأصل ، ولم يراعوا عرف القوم . ووزانهم فى ذلك وزان من يترك عرف النحويين فى التمييز واختصاصهم له بما احتمل أجناسا مختلفة كالمقادير والأعداد وما شاركها فى أن الإبهام الذى يراد كشفه منه هو احتماله الأجناس فيسمى الحال مثلا تمييزاً من حيث إنك إذا قلت « راكباً » فقد ميزت المقصود وبينته كما فعلتَ ذلك فى قولك : عشرون درهما ومنوان سمنا وقفيزان برا ولى مثله رجلا ولله دره رجلا . وليس هذا المذهب بالمذهب المرضى بل الصواب أن تقصر الاستعارة على مانقله نقل التشبيه للمبالغة لأن هذا نقل يطرد على حدّ واحد وله فوائد عظيمة ونتائج شريفة فالتطفل به على غيره فى الذكر وتركه مغموراً فيما بين أشياء ليس لها فى نقلها مثل نظامه ولا أمثال فوائده ضعف من الرأى وتقصير فى النظر .

وربما وقع فى كلام العلماء بهذا الشأن الاستعارة على تلك الطريقة العامية إلا أنه لايكون عند ذكر القوانين وحيث تقرر الأصول . ومثاله أن أبا القاسم الآمدى [2] قال فى أثناء فصل يبحث عن شىء اعترض به على

---

(١) قوله انهم كانوا الخ خبر قوله فالوجه .

(٢) هو أبو القاسم الحسن بن بشر الآمدى الأديب صاحب كتاب المؤتلف والمختلف فى أسماء الشعراء والموازنة بين أبى تمام والبحترى توفى سنة ٣٧٠ قال فى =

البحترى فى قوله [١] :

فكأن مجلسه المحجّب محفِل وكأن خلوته الخفيّة مشهد

إن المكان لايسمى مجلسا إلا وفيه قوم . ثم قال : ألا ترى إلى قول المهلهل : « واستبّ بعدك ياكليب المجلس [٢] » على الاستعارة . فأطلق لفظ الاستعارة على وقوع المجلس هنا بمعنى القوم الذين يجتمعون

= الموازنة : « ومما نسبوا فيه البحترى إلى سوء القسمة قوله :

فكأن مجلسه المحجب محفل وكأن خلوته الخفية مشهد

وقالوا إنه ليس فى المصراع الثانى من الفائدة إلا مافى الأول لأن مجلسه المحجب هو خلوته الخفية وقوله محفل كقوله مشهد . والمعنى عندى صحيح لأن المجلس المحجب قد يكون فيه الجماعة الذين يخصهم وفى الأكثر الأعم لا يسمى مجلسا إلا وفيه قوم . ألا ترى إلى قول مهلهل « واستب بعدك يا كليب المجلس » أى أهل المجلس على الاستعارة فجعل البحترى مجلسه الذى احتجب فيه مع من يخصه كالمحفل والمحفل هو الجمع الكثير والخلوة الخفية قد يكون متفردا ويكون معه محبوبه فبينها وبين المجلس فرق أى فكأنه إذا خلا خلوة خفية ففيها معه من يشاهده ومن يشاهده يجوز أن يكون واحدا أو اثنين والمحفل لا يكون إلا عددا كثيرا ، فهذا أيضا فرق صحيح بين المحفل والمشهد . وإنما أراد البحترى أنه لايفعل فى مجلسه المحجب إلا ما يفعله إذا حضره من يشاهده : ينسبه إلى شدة التصون وكرم السريرة » اهـ .

(١) من قصيدة يمدح أبا أيوب بن أحمد بن أخت أبى الوزير ومطلعها :

يا يوم عرج بل وراءك يا غد قد أجمعوا بينا وأنت الموعد
ألفوا الفراق كأنه وطن لهم لايقربون إليـــه حتى يبعدوا

إلى أن قال قبله :

وأخ أتانى عتبه وكأنه سيف على مع العدو مجرد
يوهى صفاة الخطب وهو ململم ويهد ركن الخصم وهو يلندد
سر وإعلان تسوى منهما نفس تضىء ووجنة تتوقد

(٢) وشطره الأول « نبئت أن النار بعدك أوقدت » وبعده .

وتكلموا فى أمر كل عظيمة لو كنت شاهدهم بها لم ينبسوا

فى الأمور وليس المجلس إذا وقع على القوم من طريق التشبيه بل على وجه وقوع الشىء على مايتصل به وتكثر ملابسته إياه ، وأى شبه يكون بين القوم ومكانهم الذى يجتمعون فيه ؟ إلا أنه لايعتد بمثل هذا فإن ذلك قد يتفق حيث ترسل العبارة :

وقال الآمدى نفسه : ثم قد يأتى فى الشعر ثلاثة أنواع أخر يكتسى المعنى العام بها بهاء وحسنا حتى يخرج بعد عمومه إلى أن يصير مخصوصا . ثم قال : وهذه الأنواع هى التى وقع عليها اسم البديع وهى الاستعارة والطباق والتجنيس . فهذا نص فى موضع القوانين ، على أن الاستعارة من أقسام البديع ولن يكون النقل بديعا حتى يكون من أجل التشبيه على المبالغة كما بينت لك وإذا كان كذلك ثم جعل الاستعارة على الإطلاق بديعا فقد أعلمك أنها اسم للضرب المخصوص من النقل دون كل مانقل فاعرفه .

واعلم أنا إذا أمعنا النظر وجدنا المنقول من أصل التشبيه على المبالغة أحق بأن يوصف بالاستعارة من طريق المعنى ، بيان ذلك أن ملك المعير لايزول عن المستعار واستحقاقه إياه لايرتفع ، فالعارية إنما كانت عارية لأن يد المستعير يد عليها مادامت يد المعير باقية وملكه غير زائل ، فلا يتصور أن يكون للمستعير تصرف لم يستفده من المالك الذى أعاره ولا أن تستقر يده مع زوال اليد المنقول عنها . وهذه جملة لا تراها إلا فى المنقول نقل التشبيه لأنك لا تستطيع أن تتصور جرى الاسم على الفرع من غير أن تخرجه إلى الأصل : كيف ولا يعقل تشبيه حتى يكون ههنا مشبه ومشبه به ، هذا والتشبيه ساذج مرسل فكيف إذا كان على معنى المبالغة وعلى أن تجعل الثانى كأنه انقلب مثلا إلى جنس الأول فصار الرجل أسداً وبحراً وبدراً ، والعلم نوراً ، والجهل ظلمة ، لأنه إذا كان على هذا الوجه كانت حاجتك إلى

أن تنظر به إلى الأصل أمس لأنه إذا لم يتصور أن يكون ههنا سبع من شأنه الجراءة العظيمة والبطش الشديد كان تقديرك شيئاً آخر يتحول إلى صفته ويصير فى حكمه من أبعد المحال ،

وأما ما كان منقولا لا لأجل التشبيه كاليد فى نقلها إلى النعمة فلا يوجد ذلك فيه لأنك لا تثبت للنعمة بإجراء اسم اليد عليها شيئاً من صفات الجارحة المعلومة ولا تروم تشبيهاً بها البتة لا مبالغاً ولا غير مبالغ ، فلو فرضنا أن تكون اليد اسما وضع للنعمة ابتداء ثم نقلت إلى الجارحة لم يكن ذلك مستحيلا . وكذلك لو ادعى مدع أن جرى اليد على النعمة أصل ولغة على حدتها وليست مجازاً لم يكن مدعيا شيئا يحيله العقل . ولو حاول محاول أن يقول فى مسئلتنا قولا شبيها بهذا فرام تقدير شىء يجرى عليه اسم الأسد على المعنى الذى يريده بالاستعارة مع فقد السبع المعلوم ومن غير أن يثبت استحقاقه لهذا الإسم فى وضع اللغة رام شيئا فى غاية البعد .

(وعبارة أخرى) العارية من شأنها أن تكون عند المستعير على صفة شبيهة بصفتها - وهى عند المالك - ولسنا نجد هذه الصورة إلا فيما نقل نقل التشبيه المبالغة دون ما سواه ، ألا ترى أن الاسم المستعار يتناول المستعار له ليدل على مشاركته المستعار منه فى صفة هى أخص الصفات التى من أجلها وضع الاسم الأول ، أعنى أن الشجاعة أقوى المعانى التى من أجلها سمى الأسد أسداً وأنت تستعير الاسم للشىء على معنى إثباتها له على حدها فى الأسد فأما اليد ونقلها إلى النعمة فليست من هذا فى شىء لأنها لم تتناول النعمة لتدل على صفة من أوصاف اليد بحال . ويحرر ذلك نكتة وهى أنك تريد بقولك رأيت أسداً أن تثبت للرجل الأسدية ولست تريد بقولك : له عندي

يد ، أن تثبت للنعمة اليدية [١] وهذا واضح جدا .

واعلم أن الواجب كان أن لا أعد وضع الشفة موضع الجحفلة والجحفلة في مكان المشفر ونظائره التي قدمت ذكرها في الاستعارة وأضن باسمها أن يقع عليه ، ولكني رأيتهم قد خلطوه بالاستعارات وعدوه معدها فكرهت التشدد في الخلاف واعتددت به في الجملة ، ونبهت على ضعف أمره بأن سميته [٢] استعارة غير مفيدة ، وكان وزان ذلك أن يقال المفعول على ضربين مفعول صحيح ومشبه بالمفعول فيتجوز باعتداد المشبه بالمفعول في الجملة ثم يفصل بالوصف ، ووجه شبه هذا النحو الذي هو نقل الشفة إلى موضع الجحفلة بالاستعارة الحقيقية لأنك تنقل الاسم إلى مجانس له ، ألا ترى أن المراد بالشفة والجحفلة عضو واحد وإنما الفرق أن هذا من الفرس وذاك من الإنسان ، والمجانسة والمشابهة من واد [٣] واحد فأنت تقول : أعير الشيء اسم الموضوع له هنالك (أي في الإنسان) مهنا (أي في الفرس) لأن أحدهما مثل صاحبه وشريكه في جنسه كما أعرب الرجل اسم الأسد لأنه شاركه في صفته الخاصة به وهي الشجاعة البليغة وليس لليد مع النعمة هذا الشبه إذ لا مجانسة بين الجارحة وبين النعمة ، وكذا لا شبه ولا جنسية بين البعير ومتاع البيت وبين المزادة وبين البعير ، ولا بين العين وبين جملة الشخص فاطلاق اسم الاستعارة عليه بعيد ولو كان اللفظ يستحق الوصف بالاستعارة بمجرد النقل لجاز أن توصف الأسماء المنقولة من الأجناس إلى الأعلام بأنها مستعارة فيقال حجر مستعار في اسم الرجل ولزم لذلك في الفعل المنقول

---

(١) الصواب اليدوية . (٢) أي في أول الكتاب

(٣) لكونهما قد اشتركا في أمر جامع وفي المجاز اشتراك في الجنس وفي المشابهة اشتراك في الوصف .

نحو يزيد ويشكر وفى الصوت نحو « ببه » [1] فى قوله :

لأُنكحنّ بَبّه جارية خِدَبّه [2]
مكرَمة محبّه تجبُّ أهل الكعبه [3]

وذلك ارتكاب قبيح وفرط تعصب على الصواب ويلوح ههنا شىء وهو انا وإن جعلنا الاستعارة من صفة اللفظ فقلنا اسم مستعار وهذا اللفظ استعارة ههنا وحقيقة هناك ، فإنا على ذلك نشير بها إلى المعنى من حيث قصدنا باستعارة الاسم أن نثبت أخص معانيه للمستعار له ، يدلك على ذلك قولنا : جعله أسداً وجعله بدراً وجعل للشمال يداً ، فلولا أن استعارة الاسم للشىء تتضمن استعارة معناه له لما كان لهذا الكلام معنى لأن جعل لا يصلح إلا حيث يراد إثبات صفة للشىء كقولنا : جعلته أميراً وجعلته لصا تريد أنه أثبت له الإمارة واللصوصية ، وحكم جعل إذا تعدى إلى مفعولين حكم صير فكما لا تقول صيرته أميراً إلا على معنى أنك أثبت له صفة الإمارة كذلك لم يقل : جعلته أسداً ، إلا على أنه أثبت له معنى من معانى الأسود ولا يقال : جعلته زيداً ، بمعنى سميته زيداً ، ولا يقال للرجل : اجعل ابنك زيداً ، بمعنى سمه زيداً ، ولا يقال لفلان [4] ابن لجعله زيداً أى سماه زيدا وإنما يدخل الغلط فى ذلك على من لا يحصل هذا الشأن .

---

(١) الببة الشابّ الممتلىء البدن وبه لقب عبد الله بن الحرث بن نوفل بن عبد الله بن عبد المطلب ولقبته أمه بذلك وهو صغير لكثرة لحمه وكانت ترقصه وتنشد هذا الشعر وكان والى المدينة وفيه يقول الفرزدق :

وبايعت أقواماً وفيت بعهدهم وببة قد بايعته غير نادم

(٢) الخدبة السمينة .

(٣) تجب أى تغلب نساء قريش فى حسنها .

(٤) صوابه : ولد لفلان ابن اخ ليكون لجعله معطوفا على ولد وإلا فصل جعله

فأما قوله تعالى (وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا) فإنما جاء على الحقيقة التي وصفتها وذلك أنهم أثبتوا للملائكة صفة الإناث واعتقدوا وجودها فيهم ، وهذا الاعتقاد صدر عنهم لتمثلها فى أذهانهم بصور الإناث وما صدر من الاسم أعنى إطلاق اسم البنات . وليس المعنى أنهم وضعوا لها لفظ الإناث أو لفظ البنات اسما من غير اعتقاد معنى وإثبات صفة ، هذا محال لا يقوله عاقل ، أو ما يسمعون قول الله عز وجل (أشهدوا خلقهم؟ ستكتب شهادتهم ويسئلون) فإن كانوا لم يزيدوا على إجراء الاسم على الملائكة ولم يعتقدوا إثبات صفة ومعنى فأى معنى لأن يقال : (أشهدوا خلقهم) - هذا ولو كانوا لم يقصدوا إثبات صفة ولم يفعلوا أكثر من أن وضعوا اسما لما استحقوا إلا اليسير من الذم ، ولما كان هذا القول كفرا منهم ، والأمر فى ذلك أظهر من أن يخفى ، ولكن قد يكون للشيء المستحيل وجوه فى الاستحالة فتذكر كلها وإن كان فى الواحد منها ما يزيل الشبهة ويتم الحجة .

فصـــــل

« فى تقسيم المجاز إلى اللغوى والعقلى واللغوى إلى الاستعارة وغيرها »

اعلم أن المجاز على ضربين مجاز من طريق اللغة ومجاز من طريق المعنى والمعقول فإذا وصفنا بالمجاز الكلمة المفردة كقولنا : اليد مجاز فى النعمة ، والأسد مجاز فى الإنسان وكل ما ليس بالسبع المعروف كان حكما أجريناه على ما جرى عليه من طريق اللغة لأنا أردنا أن المتكلم قد جاز باللفظة أصلها الذى وقعت له ابتداء فى اللغة وأوقعها على غير ذلك إما تشبيها وإما لصلة وملابسة بين ما نقلها إليه وما نقلها عنه .

ومتى وصفنا بالمجاز الجملة من الكلام كان مجازاً من طرق المعقول دون

اللغة وذلك أن الأوصاف اللاحقة للجمل من حيث هى جمل لايصح ردها إلى اللغة ولا وجه لنسبتها إلى واضعها لأن التأليف هو إسناد فعل إلى اسم أو اسم إلى اسم ، وذلك شىء يحصل بقصد المتكلم فلا يصير ضرب خبراً عن زيد بوضع اللغة بل بمن قصد إثبات الضرب فعلا له .

وهكذا « ليضرب زيد » لايكون أمراً لزيد باللغة ولا (اضرب) أمراً للرجل الذى تخاطبه وتقبل عليه من بين كل من يصح خطابه باللغة بل بك أيها المتكلم ، فالذى يعود إلى واضع اللغة أن ضرب لإثبات الضرب وليس لإثبات الخروج ، وأنه لإثباته فى زمان ماض وليس لإثباته فى زمان مستقبل ، فأما تعين من يثبت له فيتعلق بمن أراد ذلك من المخبرين والمعبرين عن ودائع الصدور ، والكاشفين عن المقاصد والدعاوى . صادقة كانت تلك الدعاوى أو كاذبة ، ومجراة على صحتها ، أو مزالة عن مكانها من الحقيقة وجهتها ، ومطلقة بحسب ماتأذن فيه العقول وترسمه ، أو معدولا بها عن مراسمها نظما لها فى سلك التخييل ، وسلوكا بها فى مذهب التأويل .

فإذا قلنا مثلا : خطٌّ أحسن مما وشاه الربيع أو صنعه الربيع ، كنا قد ادعينا فى ظاهر اللفظ أن للربيع فعلا أو صنعاً وأنه شارك الحى القادر فى صحة الفعل منه وذلك تجوز به من حيث المعقول لامن حيث اللغة ، لأنه إن قلنا إنه مجاز من حيث اللغة صرنا كأنا نقول إن اللغة هى التى أوجبت أن يختص الفعل بالحى القادر دون الجماد ، وإنها لو حكمت بأن الجماد يصح منه الفعل والصنع والوشى والتزيين ، والصبغ والتحسين ، لكان ماهو مجاز الآن حقيقة ، ولعاد ما هو الآن يتأول ، معدوداً فيما هو حق محصل ، وذلك محال . وإنما يتصور مثل هذا القول فى الكلم المفردة نحو اليد للنعمة وذلك أنه يصح أن يقال لو كان واضع اللغة وضع اليد أولا للنعمة ثم عداها

إلى الجارحة لكان حقيقة فيما هو الآن مجاز ومجاز فيما هو حقيقة ، فلم يكن بواجب من حيث المعقول أن يكون لفظ اليد اسما للجارحة دون النعمة ولا فى العقل أن شيئاً بلفظ أن يكون دليلا عليه أولى منه بلفظ ، لاسيما فى الأسماء الأول التى ليس بمشتقة . وإنما وزان ذلك وزان أشكال الخط التى جعلت أمارات لأجراس الحروف المسموعة فى أنه لايتصور أن يكون العقل اقتضى اختصاص كل شكل منها بما اختص به دون أن يكون ذلك لاصطلاح وقع وتواضع اتفق . ولو كان كذلك لم تختلف المواضعات فى الألفاظ والخطوط ، ولكانت اللغات واحدة ، كما وجب فى عقل كل عاقل يحصل مايقول أن لايثبت الفعل على الحقيقة إلا للحى القادر .

فإن قلت فإن اللغة رسمت أن يكون « فعلَ » لإثبات الفعل للشىء كما زعمت ولكنا إذا قلنا : فعل الربيعُ الوشىَ أو وشى الربيع . فإننا نريد بذلك معنى معقولا وهو أن الربيع سبب فى كون (١) الأنوار التى تشبه الوشى فقد نقلنا الفعل عن حكم معقول وضع له إلى حكم آخر معقول شبيه بذلك الحكم ، فصار ذلك كنقل الأسد عن السبع إلى الرجل الشبيه به فى الشجاعة أفتقول : الأسد على الرجل مجاز من حيث المعقول لامن حيث اللغة كما قلت فى صيغة فعل إذا أسندت إلى ما لايصح أن يكون له فعل : إنها مجاز من جهة العقل لامن جهة اللغة ؟ فالجواب إن بينهما فرقا وإن ظننتهما متساويين . وذلك أن « فَعلَ » موضوع لإثبات الفعل للشىء على الإطلاق والحكم فى بيان من يستحق هذا الإثبات وتعيينه إلى العقل ، وأما الأسد فموضوع للسبع قطعا واللغة هى التى عينت المستحق بها ، وبرسمها

---

(١) أى فى وجودها .

وحكمها ثبت هـذا الاستحقاق والاختصاص ، ولولا نصها لم يتصور أن يكون هذا [1] السبع بهذا الاسم أولى من غيره . فأما استحقاق الحى القادر أن يثبت الفعل له واختصاصه بهذا الإثبات دون كل شىء سواه فبفرض العقل ونصه لا باللغة فقد نقلت الأسد عن شىء هو أصل فيه باللغة لا بالعقل . وأما فعل فلم تنقله عن الموضع الذى وضعته اللغة فيه لأنه كما مضى موضوع لإثبات الفعل للشىء فى زمان ماض وهو فى قولك « فعل الربيع » باق على هذه الحقيقة غير زائل عنها ولن يستحق اللفظ الوصف بأنه مجاز حتى يجرى على شىء لم يوضع له فى الأصل . وإثبات الفعل لغير مستحقه ولما ليس بفاعل على الحقيقة لا يخرج فَعلَ عن أصله ولا يجعله جاريا على شىء لم يوضع له لأن الذى وضع له فَعلَ هو إثبات الفعل للشىء فقط فأما وصف ذلك الشىء الذى يقع هـذا الإثبات له فخارج عن دلالته وغير داخل فى الموضع [2] اللغوى بل لا يجوز دخوله فيه لما قدمت من استحالة أن يقال إن اللغة هى التى أوجبت أن يختص الفعل بالحى القادر دون الجماد وما فى ذلك من الفساد العظيم فاعرفه فرقا واضحا وبرهانا قاطعا .

وههنا نكتة جامعة وهى أن المجاز فى مقابلة الحقيقة فما كان طريقا فى أحدهما من لغة أو عقل فهو طريق فى الآخر . ولست تشك فى أن طريق كون الأسد حقيقة فى السبع اللغة دون العقل وإذا كانت اللغة طريقا للحقيقة فيه وجب أن تكون هى أيضا الطريق فى كونه مجازا فى المشبه بالسبع إذا أنت أجريت اسم الأسد عليه فقلت : رأيت أسدا ، تريد رجلا لا تميزه عن الأسد فى بسالته وإقدامه وبطشه . وكذلك إذا علمت أن طريق

---

(١) الأولى حذف هذا (٢) الصواب الوضع .

الحقيقة فى إثبات الفعل للشىء هو العقل فينبغى أن تعلم أنه أيضا الطريق إلى المجاز فيه . فكما أن العقل هو الذى دلك حين قلت : « فعل الحى القادر » أنك لم تتجوز وأنك واضع قدمك على محض الحقيقة ، كذلك ينبغى أن يكون هو الدال والمقتضى إذا قلت « فعل الربيع » أنك قد تجوزت وزلت عن الحقيقة فاعرفه

فإن قال قائل : كان سياق هذا الكلام وتقريره يقتضى أن طريق المجاز كله العقل وأن لاحظ للغة فيه ، وذاك أنا لانجرى اسم الأسد على المشبه بالأسد حتى ندعى له الأسدية وحتى نوهم أنه حين أعطاك من البسالة والبأس والبطش ماتجده عند الأسد صار كأنه واحد من الأسود قد استبدل بصورته صورة الإنسان . وقد قدمت أنت فيما مضى مابين أنك لاتتجوز فى إجراء اسم المشبه به على المشبه حتى تخيل إلى نفسك أنه هو بعينه . فإذا كان الأمر كذلك فأنت فى قولك : رأيت أسدا . متجوز من طريق المعقول ، كما أنك كذلك فى فعل الربيع . وإذا كان كذلك عاد الحديث إلى أن المجاز فيهما جميعا عقلى فكيف قسمته قسمين لغوى وعقلى ؟

فالجواب إن هذا الذى زعمت — من أنك لا تجرى اسم المشبه به على المشبه حتى تدعى أنه قد صار من ذلك الجنس نحو أن تجعل الرجل كأنه فى حقيقة الأسد — صحيح كما زعمت لايدفعه أحد ، وكيف السبيل إلى دفعه وعليه المعول فى كون التشبيه على حد المبالغة وهو الفرق بين الاستعارة وبين التشبيه المرسل . إلا أن ههنا نكتة أخرى قد أغفلتها وهى أن تجوزك هذا الذى طريقه العقل يفضى بك إلى أن تجرى الاسم على شىء لم يوضع له فى اللغة على كل حال فتجوز بالإسم على الجملة الشىء الذى وضع له فمن ههنا جعلنا اللغة طريقاً فيه

فإن قلت : لا أسلم أنه جرى على شىء لم يوضع له فى اللغة لأنك إذا

قلت لا تجريه على الرجل حتى تدعى له أنه فى معنى الأسد لم تكن قد أجريته على مالم يوضع له . وإنما كان يكون جارياً على غير ما وضع له أن لو أجريته على شىء لتفيد به معنى غير الأسدية ، وذلك مالا يعقل ، لأنك لا تفيد بالأسد فى التشبيه أنه رجل مثلا أو عاقل أو على وصف لم يوضع هذا الإسم للدلالة عليه البتة - قيل لك ، قصارى حديثك هذا أنا أجرينا اسم الأسد على الرجل المشبه بالأسد على طريق التأويل والتخيل ، أفليس على كل حال قد أجريناه على ما ليس بأسد على الحقيقة ؟ أو لسنا قد جعلنا له مذهباً لم يكن له فى أصل الوضع ، وهنا قد ادعينا للرجل الأسدية حتى استحق بذلك أن تجرى عليه اسم الأسد . أترانا نتجاوز فى هذه الدعوى حديث الشجاعة حتى ندعى للرجل صورة الأسد وهيئته وعبالة عنقه ومخالبه وسائر أوصافه الظاهرة البادية للعيون ؟ ولئن كانت الشجاعة من أخص أوصاف الأسد وأمكنها فإن اللغة لم تضع الاسم لها وحدها ، بل لها فى مثل تلك الجثة ، وهاتيك الصورة والهيئة ، وتلك الأنياب والمخالب - إلى سائر ما يعلم من الصور الخاصة فى جوارحه كلها ، ولو كانت وضعته لتلك الشجاعة التى تعرفها وحدها لكان صفة لا اسما ، ولكان كل شىء يفضى فى شجاعته إلى ذلك الحد مستحقا للاسم استحقاقا حقيقيا لا على طريق التشبيه والتأويل

وإذا كان كذلك فإنا وإن كنا لم ندل به على معنى لم يتضمنه اسم الأسد فى أصل وضعه فقد سلبناه بعض ما وضع له وجعلناه للمعانى التى هى باطنة فى الأسد وغريزة وطبع به وخلق فيه مجردةً عن المعانى الظاهرة التى هى جثة وهيئة وخَلْق ، وفى ذلك كفاية فى إزالته عن أصل وقع له فى اللغة ونقله عن حد جريه فيه إلى حد آخر مخالف له . وليس فى فعل إذا تجوز فيه شىء من ذلك ، لأنا لم نسلبه لا بالتأويل ولا غير التأويل شيئا وضعته اللغة لأنه كما ذكرتُ

غير مرة لإثبات الفعل للشيء من غير أن يتعرض لذلك الشيء ماهو وأهو مستحق لأن يثبت له الفعل أو غير مستحق ، وإذا كان كذلك كان الذى أرادت اللغة به موجوداً فيه ثابتا له فى قولك « فعل الربيع » ثبوته إذا قلت « فعل الحى القادر » لم تتغير له صورة ولم ينقص منه شيء ولم يزل عن حد إلى حد فاعرفه .

فإن قلت . قد علمنا أن طريق المجاز ينقسم إلى ماذكرت من اللغة والمعقول وإن « فعل » فى نحو فعل الربيع مما طريقه المعقول ، وإن نحو الأسد إذا قصد به التشبيه واستعير لغير السبع طريق مجازه اللغة وبقى أن نعلم لم خصصت المجاز إذا كان طريقه العقل بأن توصف به الجملة من الكلام دون الكلمة الواحدة ؟ وهلا جوزت أن يكون فعلَ على الانفراد موصوفاً به ؟ فإن (١) سبب ذلك أن المعنى الذى له وضع فعلَ لا يتصور الحكم عليه بمجاز أو حقيقة حتى يسند إلى الاسم وهكذا كل مثال من أمثلة الفعل لأنه موضوع لإثبات الفعل للشيء فما لم يبين ذلك الشيء الذى نثبته له ونذكره لم يعقل أن الإثبات واقع موقعه الذى نجده مرسوماً به فى صحف المعقول أم قد زال عنه وجازه إلى غيره - هذا وقولك « هلا جوزت أن يكون فعل على الانفراد موصوفاً به » محال بعد أن نثبت أن لا مجاز فى دلالة اللفظ وإنما المجاز فى أمر خارج عنه .

فإن قلت : أردتُ هلا جوزت أن تنسب المجاز إلى معناه وحده وهو إثبات الفعل فيقال هو إثبات فعل على سبيل المجاز - فإن (٢) ذلك لا يتأتى أيضاً إلا بعد ذكر الفاعل لأن المجاز أو الحقيقة إنما يظهر ويتصور من المثبت له المثبت له والإثبات . وإثبات الفعل من غير أن يقيد بما وقع الإثبات له لا يصح الحكم عليه بمجاز أو حقيقة فلا يمكنك أن تقول : إثبات الفعل

(١) جواب فإن قلت (٢) هو جواب فإن قلت

مجاز أو حقيقة - هكذا مرسلا وإنما تقول : إثبات الفعل للربيع مجاز وإثباته للحى القادر حقيقة .

وإذا كان الأمر كذلك علمت أن لاسبيل إلى الحكم بأن ههنا مجازاً وحقيقة من طريق العقل إلا فى جملة من الكلام . وكيف يتصور خلاف ذلك ووزان الحقيقة والمجاز العقليين وزان الصدق والكذب ، فكما يستحيل وصف الكلم المفردة بالصدق والكذب وأن يجرى ذلك فى معانيها مفرقة غير مؤلفة فيقال « رجل - على الانفراد - كذب أو صدق » كذلك يستحيل أن يكون ههنا حكم بالمجاز أو الحقيقة وأنت تنحو نحو العقل إلا فى الجملة المفيدة فاعرفه أصلا كبيراً ، والله الموفق للصواب والمسئول أن يعصم من الزلل بمنه وفضله .

فصـــل

« فى الحذف والزيادة وهل هما من المجاز »

اعلم أن الكلمة كما توصف بالمجاز لنقلك لها عن معناها كما مضى فقد توصف به لنقلها عن حكم كان لها إلى حكم ليس هو بحقيقة فيها . ومثال ذلك أن المضاف إليه يكتسى [1] إعراب المضاف فى نحو (واسأل القرية) والأصل واسأل أهل القرية . فالحكم الذى يجب للقرية فى الأصل وعلى الحقيقة هو الجر ، والنصب فيها مجاز ، وهكذا قولهم « بنو فلان تطؤهم الطريق ، يريدون أهل الطريق ، الرفع فى الطريق مجاز لأنه منقول إليه عن [2] المضاف المحذوف الذى هو الأهل والذى يستحقه فى أصله هو الجر .

---

(١) الصواب يكتسب .

(٢) المناسب من .

ولا ينبغى أن يقال إن وجه المجاز فى هذا الحذف ، فإن الحذف إذا تجرد عن تغيير حكم من أحكام مابقى بعد الحذف لم يسم مجازاً . ألا ترى أنك تقول . زيد منطلق وعمرو . فتحذف الخبر ثم لاتوصف جملة الكلام من أجل ذلك بأنه[١] مجاز . وذلك أنه لم يؤد إلى تغيير حكم فيما بقى من الكلام ويزيده تقريراً أن المجاز إذا كان معناه أن تجوز بالشىء موضعه وأصله فالحذف بمجرده لا يستحق الوصف به لأن ترك الذكر وإسقاط الكلمة من الكلام لا يكون نقلا لها عن أصلها إنما يتصور النقل فيما دخل تحت النطق

وإذا امتنع أن يوصف المحذوف بالمجاز بقى القول فيما لم يحذف ، وما لم يحذف ودخل تحت الذكر لا يزول عن أصله ومكانه حتى يغير حكم من أحكامه أو يغير عن معانيه ، فأما وهو على حاله[٢] والمحذوف مذكور فتوهم ذلك فيه من أبعد المحال فاعرفه .

وإذا صح امتناع أن يكون مجرد الحذف مجازاً أو تحقّ صفة باقى الكلام بالمجاز من أجل حذف كان على الإطلاق دون أن يحدث هناك بسبب ذلك الحذف تغيير حكم على وجه من الوجوه ـ علمت منه أن الزيادة فى هذه القضية كالحذف فلا يجوز أن يقال إن زيادة (ما) فى نحو « فبما رحمة » مجاز أو أن جملة الكلام تصير مجازاً من أجل زيادته فيه . وذلك أن حقيقة الزيادة فى الكلمة أن تعرى من معناها وتذكر ولا فائدة لها سوى الصلة ويكون سقوطها وثبوتها سواء ، ومحال أن يكون ذلك مجازاً لأن المجاز أن يراد بالكلمة غير ما وضعت له فى الأصل أو يزاد فيها أو يوهم شىء ليس من

---

(١) الصواب بأنها .

(٢) أى قبل أن يحذف ما حذف .

شأنها ، كإيهامك بظاهر النصب فى القرية أن السؤال واقع عليها . والزائد الذى سقوطه كثبوته لا يتصور فيه ذلك .

فأما غير الزائد من أجزاء الكلام الذى زيد فيه فيجب أن ينظر فيه فإن حدث هناك بسبب ذلك الزائد حكم تزول به الكلمة عن أصلها جاز حينئذ أن يوصف ذلك الحكم أو ما وقع فيه بأنه مجاز ، كقولك فى نحو قوله تعالى (ليس كمثله شىء) إن الجر فى المثل مجاز لأن أصله النصب والجر حكم عرض من أجل زيادة الكاف . ولو كانوا إذ جعلوا الكاف مزيدة لم يعملوها لما كان لحديث المجاز سبيل على هذا الكلام . ويزيده وضوحاً أن الزيادة على الإطلاق لو كانت تستحق الوصف بأنها مجاز ينبغى أن يكون كل ما ليس بمزيد من الكلم مستحقاً الوصف بأنه حقيقة حتى يكون الأسد فى قولك رأيت أسداً - وأنت تريد رجلا - حقيقة .

فإن قلت : المجاز على أقسام والزيادة من أحدها . قيل : هذا لك إذا حددت المجاز بحد تدخل الزيادة فيه ، ولا سبيل لك إلى ذلك لأن قولنا «المجاز» يفيد أن تجوز بالكلمة موضعها فى أصل الوضع وتنقلها عن دلالة إلى دلالة أو ما قارب ذلك .

وعلى الجملة فإنه لا يعقل من المجاز أن تسلب الكلمة دلالتها ثم لا تعطيها دلالة أخرى وإن تخليها من أن يراد بها شىء على وجه من الوجوه ووصف اللفظ بالزيادة يفيد ألا يراد بها معنى وأن يجعل كأن لم يكن لها دلالة قط .

فإن قلت : أو ليس يقال إن الكلمة لا تعرى من فائدة ما ولا تصير لغواً على الإطلاق حتى قالوا إن نحو (ما) فى نحو «فبما رحمة من الله» تفيد التوكيد ؟ فأنا أقول : إن كون (ما) تأكيداً نقل لها عن أصلها ومجاز فيها . وكذلك أقول إن كون الباء المزيدة فى «ليس زيد بخارج» لتأكيد النفى

مجاز فى الكلمة لأن أصلها أن تكون للإلصاق — فإن ذلك على بعده لا يقدح فيما أردت تصحيحه لأنه لا يتصور أن تصف الكلمة من حيث جعلت زائدة بأنها مجاز ومتى ادعينا لها شيئاً من المعنى فإننا نجعلها من تلك الجهة غير مزيدة ، ولذلك يقول الشيخ أبو على فى الكلمة إذا كانت تزول من أصلها من وجه ولا تزول من آخر « معتد بها من وجه غير معتد بها من وجه » كما قال فى اللام من قولهم « لا أبا لزيد » جعلها من حيث منعت أن يتعرف الأب بزيد معتدا بها ومن حيث عارضها لام الفعل [١] من الأب التى لا تعود إلا فى الإضافة نحو أبو زيد وأبا زيد غير معتد بها وفى حكم المقحمة الزائدة ، وكذلك توصف (لا) فى قولنا « مررت برجل لا طويل ولا قصير » بأنها مزيدة ولكن على هذا الحد فيقال هى مزيدة غير معتد بها من حيث الإعراب [٢] ومعتد بها من حيث أوجبت نفى الطول والقصر عن الرجل ولولاها لكانا ثابتين له . وتطلق الزيادة على (لا) فى نحو قوله تعالى : (لئلا [٣] يعلم أهل الكتاب أن لا يقدرون) لأنها لا تفيد النفى فيما دخلت عليه ولا يستقيم المعنى إلا على إسقاطها . ثم إن قلنا إن (لا) هذه المزيدة تفيد تأكيد النفى الذى يجىء من بعد فى قوله (أن لا يقدرون) وتؤذن به ، فإنا نجعلها من حيث أفادت هذا التأكيد غير

---

(١) أى التى تظهر فى الفعل حين الإسناد إلى الضمير فى نحو أبوت وأبيت أى صرت أبا .

(٢) أى لأن الوصفين مجروران على النعت بدون دخل .

(٣) يرى بعض العلماء أن (لا) فى هذه الآية أصلية أى يمنحكم الله ما ذكر فى الآية قبلها بالتقوى والإيمان بالرسول لتكون العاقبة عدم علم أهل الكتاب لا يقدرون على شىء من فضل الله .

مزيدة وإنما نجعلها مزيدة من حيث لم تفد النفى الصريح فيما دخلت عليه كما أفادته فى المسألة .

وإذا ثبت أن وصف الكلمة بالزيادة نقيض وصفها بالإفادة علمت أن الزيادة من حيث هى زيادة لاتوجب الوصف بالمجاز .

فإن قلت : تكون سببا لنقل الكلمة عن معنى هو أصل فيها إلى معنى ليس بأصل — كدت تقول قولا يجوز الإصغاء إليه وذلك - إن صح - نظير ماقدمت من أن الحذف أو الزيادة قد يكون سببا لحدوث حكم فى الكلمة تدخل من أجله فى المجاز كنصب القرية فى الآية وجر المثل فى الأخرى فاعرفه .

واعلم أن من أصول هذا الباب أن من حق المحذوف أو المزيد أن ينسب إلى جملة الكلام لا إلى الكلمة المجاورة له فأنت تقول إذا سئلت عن القرية : فى الكلام حذف والأصل أهل القرية ثم حذف الأهل ، يعنى حذف من بين الكلام وكذلك تقول : الكاف زائدة فى الكلام والأصل ليس مثله شىء ، ولا تقل هى زائدة فى « مثل » إذ لوجاز ذلك لجاز أن يقال إن « ما » فى « فبما رحمة » مزيدة فى الرحمة أو فى الباء ، وإن (لا) مزيدة فى (يعلم) وذلك بين الفساد ، لأن هذه العبارة إنما تصلح حيث يراد أن حرفا زيد فى صيغة اسم أو فعل على ألا يكون لذلك الحرف على الانفراد معنى ولا تعده وحده كلمة ، كقولك : زيدت الياء للتصغير فى قولك رُجيل والتاء للتأنيث فى ضاربة . ولو جاز غير ذلك لجاز أن يكون خبر المبتدأ إذا حذف فى نحو « زيد منطلق وعمرو » محذوفا من المبتدأ نفسه على حد حذف اللام من يدٍ ودَمٍ ؛ وذلك ما لايقوله عاقل ، فنحن إذا قلنا إن الكاف مزيدة فى (مثل) فإنما نعنى أنها لما زيدت فى الجملة وضعت فى هذا الموضع منها . والأصح فى العبارة أن يقال : الكاف فى (مثل) مزيدة

يعنى الكاف الكائنة فى مثل مزيدة كما تقول : الكاف التى تراها فى مثل مزيدة ، ولذلك تقول : حُذف المضاف من الكلام ولا تقول : حذف المضاف من المضاف إليه ، وهذا أوضح من أن يخفى ولكنى استقصيته لأنى رأيت فى بعض العبارات المستعملة فى المجاز والحقيقة مايوهم ذلك فاعرفه .

ومما يجب ضبطه هنا أيضا أن الكلام إذا امتنع حمله على ظاهره حتى يدعو إلى تقدير حذف أو إسقاط مذكور كان على وجهين

(أحدهما) أن يكون امتناع تركه على ظاهره لأمر يرجع إلى غرض المتكلم ومثله الآيتان المتقدم تلاوتهما ، ألا ترى أنك لو رأيت « سل القرية » فى غير التنزيل لم تقطع بأن ههنا محذوفا ؟ لجواز أن يكون كلام رجل مر بقرية قد خربت وباد أهلها فأراد أن يقول لصاحبه واعظا ومذكراً أو لنفسه متعظا ومعتبراً: سل القرية عن أهلها وقل لها ما صنعوا . على حد قولهم: [1] سل الأرض من شق أنهارك ، وغرس أشجارك ، وجنى ثمارك ، فإنها إن لم تجبك حواراً ، أجابتك اعتباراً . وكذلك إن سمعت الرجل يقول ليس كمثل زيد أحد . لم تقطع بزيادة الكاف وجوزت أن يريد ليس كالرجل المعروف بمماثلة زيد أحد .

(وثانيهما) أن يكون امتناع ترك الكلام على ظاهره ولزوم الحكم بحذف أو بزيادة من أجل الكلام نفسه لا من حيث غرض المتكلم به ، وذلك مثل أن يكون المحذوف أحد جزئى الجملة كالمبتدإ فى نحو قوله تعالى « فصبر جميل » ، وقوله « متاع قليل » لا بد من تقدير محذوف ولا سبيل إلى أن يكون له معنى دونه سواء كان فى التنزيل أو فى غيره فإذا نظرت إلى « صبر جميل » فى قول الشاعر :

---

(١) من كلام الفضل بن عيسى الرقاشى وقد سلف التعريف به فالمناسب قوله

يشكو إلى جملى طول السُّرى   صبر جميلٌ فكلانا مبتلى

وجدته يقتضى تقدير محذوف كما اقتضاه فى التنزيل ، وذلك أن الداعى إلى تقدير المحذوف ههنا هو أن الاسم الواحد لا يفيد والصفة والموصوف حكمهما حكم الاسم الواحد ، وجميل صفة للصبر . وتقول للرجل : من هذا ؟ فيقول : زيد ، يريد هو زيد فتجد هذا الإضمار واجباً لأن الإسم الواحد لا يفيد ، وكيف يتصور أن يفيد الإسم الواحد ومدار الفائدة على إثبات أو نفى وكلاهما يقتضى شيئين : مثبت ومثبت له ومنفى ومنفى عنه .

وأما وجوب الحكم بالزيادة لهذه الجهة فكنحو قولهم : بحسبك أن تفعل وكفى بالله . إن لم تقض بزيادة الباء لم تجد للكلام وجهاً تصرفه إليه وتأويلا تتأوله عليه البتة ، فلابد لك من أن تقول : إن الأصل حسبك أن تفعل وكفى الله . وذلك أن الباء إذا كانت غير مزيدة كانت لتعدية الفعل إلى الاسم وليس فى « بحسبك أن تفعل » تعدية بالباء إلى حسبك . ومن أين يتصور أن يتعدى إلى المبتدأ فعل والمبتدأ هو المعرّى من العوامل اللفظية ؟ وهكذا الأمر فى « كفى » أو أقوى ، وذلك أن الاسم الداخل عليه الباء فى نحو « كفى بزيد » فاعل كفى ، ومحال أن تعدى الفعل إلى الفاعل بالباء أو غير الباء ، فنى الفعل من الإقتضاء للفاعل ما لا حاجة معه إلى متوسط وموصّل ومُعَدٍّ ، فاعرفه ، والله أعلم بالصواب .

(تم الكتاب والحمد لله)

تم وضع ما أردنا وضعه تعليقا على كتاب أسرار البلاغة لإمام البلغاء عبد القادر الجرجانى وفيه قد نحونا المنحى الأدبى فعزونا الشواهد إلى قائليها وذكرنا أبياتا من قصائدها ليفهم ماعناه الشاعر ، كما نبهنا إلى تصحيح أخطاء وقعت فى الكتاب كانت نتيجة النسخ ومن ثم وقع التحريف والمسخ ، وأشرنا إلى ما وقع من خلاف فى الرأى بين المؤلف ومن بعده من المؤلفين .

فنرجو أن نكون قد وفقنا لعمل فيه بعض النفع للناظرين فى هذا الكتاب وكان نجاز هذا فى اثنى عشرة ليلة خلت من جمادى الأولى سنة ١٣٥١ هـ الموافقة ١٢ من سبتمبر سنة ١٩٣٢ والحمد لله أولا وآخرا .

فهرس الموضوعات

فهرس الأعلام

حرف الهمزة